دكتور
عبد العزيز عبد الغنى ابراهيم
الاستاذ بجامعة افريقيا العالمية
الخرطوم



أهل بلال

جذور الاسلام التاريخية فى الحبشة



الدار السودانية للكتب

أهل بلال

الطبعة الأولى
١٤١٥هـ - ١٩٩٤م

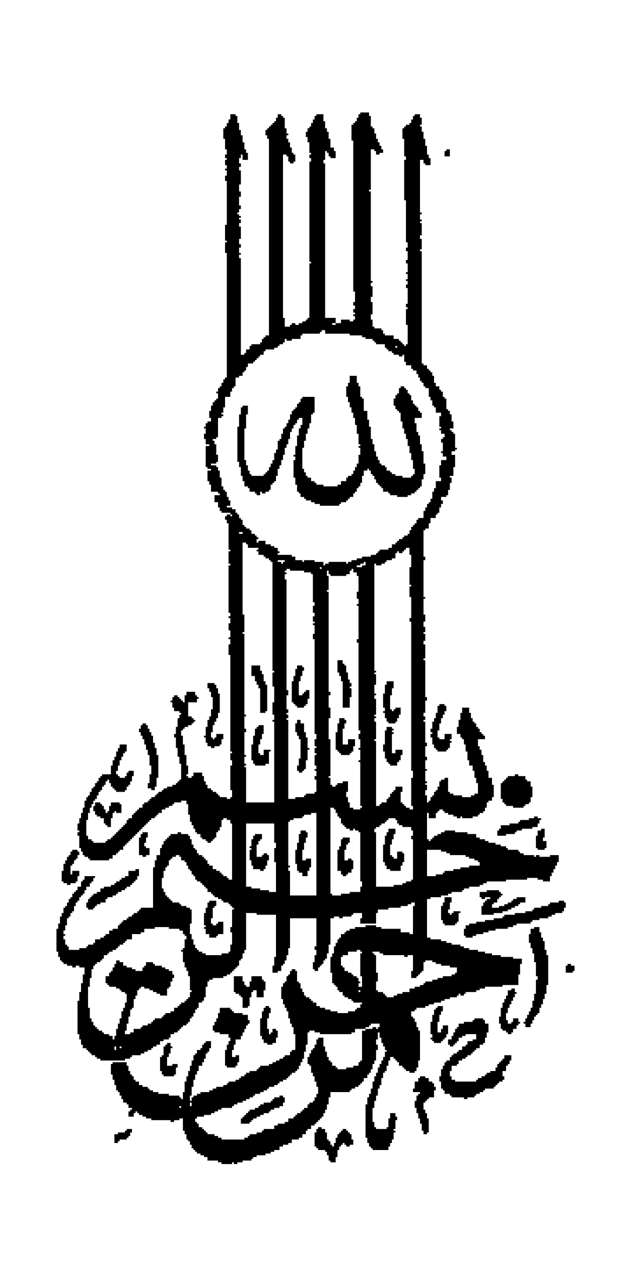
الــدار الســودانيــة للكــتب
Al Dar Al Soudania for Books
طباعة ونشر وتوزيع
Printing, Publishing & Distribution

السودان - الخرطوم - ش البلدية ، ص . ب : ٢٤٧٣ ، ت: ٨٠٠٣١ / ٧٠٣٥٨، برقياً: توزيعدار
Sudan - Khartoum - Baladeya St., P.O. Box : 2473,Tel : 80031 / 70358, Telg : "TOUZIDAR"

أهل بلال

جذور الاسلام التاريخية فى الحبشة

دكتور / عبد العزيز عبد الغنى ابراهيم
الاستاذ بجامعة افريقيا العالمية - الخرطوم



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

تظل الكتابات العربية التى تسعى إلى تحليل أحداث القرن الأفريقى – فى مجملها – رخّوة لأنها تنطلق من أساس غير عميق فى جسم التجربة التاريخية . تهتم أكثر هذه الدراسات بالفترة الاستعمارية تتخذها أساساً لتفسير الواقع وتتجاهل كافة الروابط السابقة والمؤثرات التاريخية التى تشحذ ذاكرة المجتمع : عمدت الدراسات الغربية الحديثة وسايرتها العربية والأفريقية إلى التقليل من قيمة التراث العربى والأرث الاسلامى فى أفريقيا . وإذا كان للغربيين أغراضهم من وراء هذا الطرح وأعذارهم فلا عذر للمستغربين من الأفارقة والعرب الذين يمكن لهم الغوص فى بطن التاريخ المشترك ينقبون فى لفائف التراث ويستثمرون كتبه الوفيرة العدد الغزيرة العطاء . وسيدرك العرب والأفارقة أن حمل عبء الدعوة الإسلامية الوليدة فى مكة وقع على أكتاف الأفارقة قبل أكتاف غيرهم من أمم الأرض ، وأن الدعوة الإسلامية آوت إلى الأرض الأفريقية ونأت بنفسها عن مشركى العرب ووجدت فى هذه الأرض الملجأ والمرتكز حتى أظهرها الله بجهود عبيده الأفارقة وغيرهم من المسلمين . وحين يلتزم الباحثون ، عرباً وأفارقة وغيرهم ، الحقائق العلمية المجّردة سيجدون أن أفريقية الدين الإسلامى – فى شقه البشرى – فاقت عروبته ، وسيدركون أن أفريقيا كانت – كما هى الآن – قارة الإسلام . فأعداد المسلمين فى أفريقيا حالياً تفوق أعداد غيرهم من معتنقى الديانات الأخرى فيها ، كل على حدة ، بل ربما فاقت أعدادهم أعداد كافة أتباع الديانات الأخرى مجتمعة ، وذلك رغم محاولات المنصّرين الجادة لتبديل هذه الحقيقة ومحوها من ذاكرة الزمن الغابر والحاضر . إتخذ العلماء الغربيون الفترة الاستعمارية أساساً لبداية حركة التاريخ الأفريقى ، وشايعهم فى ذلك المنصرون الذين يصرفون مليارات الريالات الأمريكية وضعف ذلك من الجهد الصادق لاستبعاد المسلمين من حركة التاريخ فى افريقيا ، ماضياً وحاضراً ، مستغلين فى ذلك تفرق المسلمين شيعاً وأحزاباً . أما علماء المسلمين فى أفريقيا فيصرفون جهودهم فى القضايا الخلافية بين الطوائف والجماعات الاسلامية ، وينفق المال الاسلامى الشحيح فى مصارف لا تؤدى فى الغالب إلى وحدة أو اتحاد بين الجماعات الاسلامية . وعبر تلك الشقوق فى الجسد الأفريقى المسلم يخرج ألف لسان هازئاً

من الوجود الاسلامى فى أفريقيا ، ويدلف الف منصّر للكيد للاسلام والمسلمين فى هذه القارة .

وتظل الكتابات الأوربية حول الاسلام فى أفريقيا – بشكل عام – متحاملة . يرجع هذا التحامل لعاملين أساسيين أقواهما أن بدايات تلك الكتابات تعود إلى عصر البرتغاليين وحركات الكشوف والاستعمار الأوربى . صارعت الكاثوليكية البرتغالية الوافدة الإسلام لتحتل هذه المنطقة ، وتلتها فى ذلك الدول النصرانية الأخرى بمذاهبها المختلفة وواجهت فى المنطقة العربية والأفريقية الإسلام بالمدفع كما واجهته بالقلم ، وكانت حرب القلم أبلغ . فالاستعمار – فى بحثه عن هدف أخلاقى – كان عليه أن يشجب كل ثقافة وطنية أو وافدة للمنطقة سابقة لوجوده أو أن يصورها أشنع تصوير . وقد نال الإسلام حظه من التشنيع . والتقت حول هذا الهدف جماعات السياسيين الغربيين مع أصحاب المال والمنصرين . وكان اتحاد الكلمة والهدف بين التنصير والاستعمار . أما العامل الثانى فهو – للأسف – يتصل بالكتابات الغربية الجادة التى تمتاز بالعمق ولكنها تجافى التفسير السليم حين يتصل الأمر بالإسلام ، وتلك حالة ذهنية مزمنة فى الغربيين من غير المسلمين لا سبيل لتجنبها . فالإسلام ، بحضارته الروحية ، حالة شاذة متناقضة مع حضارة الغرب المادية . وفى كل علم انسانى مكتوب شىء من التكوين النفسى لكاتبه يزيد وينقص بمقدار مقدرته على التزام الحيدة العلمية ومحاولته الثبات على الحقيقة المجّردة . وجاء العلماء المسلمون فى العصر الحديث فى محاولة لعلاج الثقافة الأفريقية والسياسة الأفريقية ووجدوا أنفسهم حبيسى دائرة مغلقة . كتب بعضهم وهو يجد فى نفسه نفوراً عن تحامل المتحاملين من الغربيين غير المسلمين فأصابته عدوى التحامل حين استجاب لردود الفعل وغدا قلمه – مثل أقلامهم – متعصباً متهوساً . وعمد بعض هؤلاء العلماء إلى النقل عن أولئك العلماء الغربيين الذين امتازوا بالعمق وجهدوا للوقوف على الحقيقة العلمية ولكنهم جانبوا – باللاوعى – التفسير الصحيح . وحين أخذ اللاحق عن السابق ، وتلك حالة علمية معتمدة ، جاءت الكتابات اللاحقة غير متميزة فى كثير عن السابقه ، مصابة بعدوى الذهنية الغربية المتحاملة ضد الاسلام . ونقل هؤلاء العلماء – دون قصد أو ربما بقصد أحياناً – هذه الذهنية المريضة إلى ثقافاتهم ، وكانوا أخطر وبالاً وأنكى أثراً على المجتمعات المسلمة فى بلادهم . ونحمد لعدد غير يسير من العلماء المسلمين ، أفارقة وعرب ، محاولة الخروج من قيد هذه الدائرة المفرغة وتبنى مناهج علمية سليمة عملوا على تطويرها . رجع هؤلاء العلماء إلى كتب

التراث ، وأخذوا عنها ، واستنبطوا منها وحاولوا جهدهم التزام الحيدة والنزاهة العلمية فأثبتوا السلبيات وتصدوا لمعالجتها ، كما تتبعوا الإيجابيات وعملوا على تأكيدها .

لم يأنف هؤلاء العلماء من الرجوع إلى كل الكتابات الحديثة والسابقة ، وتعاملوا معها بعقول مفتوحة تدرك الدوافع وتعلّل الأسباب بوعى أن الحكمة ضالة المؤمن يأخذها حيث يجدها . ونرجو أن نكون فى زمرة هؤلاء الآخيرين خاصة واننا قد دخلنا إلى هذا المجال صدفة ، ولرب صدفة خير من ميعاد .

وقع علينا عبء تدريس انتشار الإسلام فى أفريقيا لطلاب الدراسات العليا من أفارقة وغيرهم . ولاحظنا أن المادة المنشورة فى هذا الموضوع عن الحبشة ، تلك المنطقة التى كان أبناؤها سبّاقين إلى الدخول فى الاسلام قبل غيرهم من شعوب الأرض ، غير وفيرة . ولا يقنع المنشور منها بالعربية الباحث عن المعرفة ، كما لا يشبع المنّشور منها بالافرنجية نهما فضلاً عن عدم الاحاطة بالموضوع فى هذه وتلك . وقادتنا الصدفة إلى مكتبة الصديق عبد الرحيم مكاوى فراعنا ما وجدنا بحوزته من مصادر مصوّرة تمثلت فى العديد من المخطوطات ، وبعض كتب التراث النادرة ، ومتفرقات أخرى . وسرّنا ما وجدنا فى الرجل من حرص على خدمة تراث هذه المنطقة التى صاحب بعض أهلها لفترة من الزمن ثم وجد انفصاماً بين تلك الشخصية الحبشية التى خبرها عن قرب بين ما يكتب عن تلك الشخصية أو يشاع . وانطلقت من المعرفة "العملية" والاهتمام الشخصى للاستاذ مكاوي ، ومن المعرفة "المهنية" التى نسعى إلى تأصيلها ، فكرة هذا الكتاب الذى يتمنى كلانا له أن يكون كلمة صادقة فى سفر المعرفة الذى نأمل أن نراه رابياً بتضافر جهود السابقين لنا واللاحقين .

واجهتنا منذ الوهلة الأولى مشكلة تعيين إسم للدلالة على المنطقة الجغرافية التى نعمل لمعالجة أحداثها ، ثم اعتمدنا لفظ الحبشة . فمع توافد الحبشات من اليمن إلى افريقيا بدأت حضارة هذه المنطقة من شرقها . كما أن للفظ "حبش" مدلول قائم بذاته مفسر لكنهة . فالتحبيش هو الاختلاط ، والاختلاط يجسّد الصورة التى كانت عليها المنطقة التى نعالجها . والتحبيش بعد ، أقرب إلى تحقيق هدفنا من غيره لأنه يحدّث عن انسياب بدايات الهجرة الجماعية بين ساحلى البحر الأحمر وتوثيق عرى تبادل المؤثرات الحضارية والمفردات الثقافية بينهما .

تعاملنا مع "الحبشة" الجغرافية ضمن حدود واسعة ، واعتمدنا التعريف الذى أورده شهاب الدين بن حجر العسقلانى فى صحيح البخارى حيث قال : "أرض الحبشة بالجانب الغربى من اليمن ، ومسافتها طويلة جداً ، وهم أجناس ، وجميع فرق السودان يعطون الطاعة للملك الحبشى ، وكان قديماً يلقب بالنجاشى ، أما الآن فيلقب بالحطى" . وقد يبدو هذا التعريف للوهلة الأولى غير محدد بشكل دقيق ولكننا نراه محققاً لهدف هذه الدراسة . فالحبشة التى نسعى إلى دراستها فى هذا البحث هى الهضبة التى تقع فى القرن الأفريقى فى مواجهة اليمن والسهول التى تحيط بها من ناحية البحر والتى قامت فيها فى فترة من الفترات دول الطراز الاسلامى ، وعليه تمتد هذه الدراسة على منطقة جغرافية تضم أرتيريا التى قامت فيها دولة أكسوم كما تضم بعض المناطق الساحلية الشريطية الضيّقة من ساحل الصومال التى تشمل جيبوتى أيضاً بالإضافة إلى الهضبة الحبشية . هذه الرقعة الجغرافية هى المسافة الطويلة جداً التى عناها العسقلانى الذى لم تكن الحدود الغربية للحبشة واضحة فى ذهنه . وقد اعتمدنا – من جانبنا – سفوح الهضبة الحبشية وبداية سهول السودان الحالى حداً جغرافياً لامتداد هذه الرقعة التى نعالجها . وأشار العسقلانى إلى أن الحبش أجناس ، وتلك حقيقة أقرتها هذه الدراسة حين اعتمدت هذا اللفظ . ولربما تعاملت هذه الدراسة مع الأمحرة ، أكثر من غيرهم ، بحكم أنهم حكموا الأجناس الحبشية ، بالملوك السليمانيين ، لفترة طويلة . كما رجعنا الى التجرى أهل مملكة أكسوم ، وشوا التى ضمت أوائل الممالك الإسلامية فى الهضبة الحبشية . ولا نعرف عن تلك المملكة الا النذر اليسير وذلك من وثيقة واحدة يتيمة خضعت مفرداتها المبهمة لتحليل وتعليل ودراسات لا تقدم إجابة شافية ولا وافية . واستأثرت منطقة هرر ورصيفاتها دول الطراز الاسلامى بجلّ اهتمام هذه الدراسة لأنها تمثل الشق الحبشى الذى دخل فى احتكاك سلمى وحربى مع شقه الآخر ، وشكلّ قسمات الحقبة الزمنية التى نتناولها بالدراسة هنا . أما اختلاف لقب ملك الحبشة الذى كان نجاشياً ثم أصبح حطياً . فأمر تعنى به هذه الدراسة لأنه يحمل فى طياته تحول السلطة من التجرى إلى الأمحرة ، وتفوق ثقافة الأخيرة على الأولى ، وانزواء لغة الأجعزيان فى مواجهة لغة الأمحرة .

عرفت الحبشة ضمن حدودها السياسية فى الفترة الأخيرة بأثيوبيا ، ولكننا لم نحبذ استعمال هذا المصطلح هنا . فاللفظ بمعناه الحديث يحدث عن وحدة سياسية بعينها خرجت

دراستنا عن نطاقه جغرافياً ، واللفظ بمعناه التاريخي لا يدل على منطقة هذه الدراسة إنما يتعداه ، "فاثيوبيا" كمصطلح حديث ، لا تتناسب مع هذه الدراسة مكانياً ولا زمنياً . فاثيوبيا أو الوجوه السمر ، كمصطلح قديم ، تعريف واسع اتخذه اليونان ثم الرومان من بعدهم لبلاد السودان . ولن يخرج من يقرأ الادبيات الكلاسيكية للامبراطوريتين اليونانية والرومانية إلا بأن أثيوبيا هي المنطقة الممتدة الى الجنوب من مصر ، والتى عرفها العرب بعدئذ ببلاد السودان .

وحين نرجع الى العسقلاني وحديثه عن فرق السودان التى تعطى الطاعة لملوك الحبشة ندرك أن حدود الحبشة غرباً لم تكن معلومة لديه إنما تمتد للسودان بمعناه المعروف على عهده . ولعل ذلك الخلط فى أذهان العرب بين الحبشة والسودان هو الذى ساق بعض المفكرين فى العصر الحديث لاعتبار لقمان من أنبياء السودان ، وبلال من مواطنيه . وجنح البعض منهم إلى القول بأن النجاشي كان من ملوك السودان . ويتبادل لفظ كوش عند الأقدمين مع لفظ السودان . وعلينا أن نشير - دون أن نستقصى فى هذه العجالة - الى أن لفظ كوش كان فى أذهان الأقدمين يدل على سودان وادى النيل أكثر من دلالته على غيره . فقد خرجت مملكة نبتة (٧٢٥-٥٩١ق م) التى حكمت وادى النيل من عمق كوش ، وامتدت حتى فلسطين والشام ، وانزوت كوش بعد تراجعها الى مروى (البجراوية) ولفظت أنفاسها على يد الملك الحبشى عيزانا . وظلت كوش التى تعاملت مع فلسطين وسادتها حكماً وسياسة هاجساً يؤرق كل مؤرخى العهد القديم .

تقوم هذه الدراسة على خمسة فصول . يتتبع الفصل الأول نشأة العلاقات الحبشية العربية أو بالأحرى مولد التوأم الحبشى اليمنى ، وتبادل الهجرات والغزوات بين ساحلى البحر الأحمر ، والوجود البشرى لكلا الجنسين فى أرض الأخرى ، وما انتهى اليه من تزاوج وتمازج وانصهار . وقد ازداد الوجود البشرى للحبش فى اليمن كثافة بتجارة الرقيق ، "طاقة" ذلك الزمان . واستطاعت تلك الطاقة البشرية أن تدفع حركة المجتمع فى دروب التقدم والنماء . وازدادت قوة الدفع بظهور الإسلام الذى شجب العرق والعنصر ، ثم ما كان بعدئذ من وصول أولئك الرقيق المسلم إلى مراتب عليا فى مجالات الحكم والسياسة والجندية والثقافة والعلوم . هيأ العالم الاسلامى - قبل دعوة الانسانيين فى الغرب - للرقيق مجالات الرقى والترقى فى المناصب الروحية والدنيوية . وهذا أمر لم يبلغه - حتى وقتنا الراهن - أبناء رقيق الغرب ولن يستطيع أحفادهم أن يبلغوا فى مدارج الحكم ووظائف الكنيسة أى مبلغ . فالدين - كما الدنيا - فى

التراث الغربي للبيض ، ولون بشرة الانسان ، وليست بشريته ، هي من مؤهلات الترقي في السلم الاجتماعي في الغرب . ولهذا نجد أولئك المستضعفين الذين تأقلموا على الفكر الغربي ، وتلوثوا بموروثاته ، ينقّبون عن "الجذور" وتتعالى صرخاتهم تنادي بالعودة إلى أفريقيا ، تساند حركتهم وتؤيدها حكومات الغرب التي تريد بلادها بيضاء لاشية فيها تسر المتهوسين .

وتتواصل ارتباطات الهجرات والتجارة والغزو لتفضي بنا في الفصل الثاني إلى دراسة المؤثرات الثقافية المتبادلة . وجدنا أن المفردات الحبشية المتحضرة ولدت في شبه جزيرة العرب ، واستقامت معانيها ومبانيها في الحبشة ، وعادت بعض تلك المفردات لتأخذ مكانها الأصيل في اللغة العربية ، وتجذرت فيها وارتقت ، حتى وجدت لها مكاناً في القرآن العربي المبين . وتناولنا في هذا الفصل أيضاً طرفاً من سيّر بعض الصحابة الأحباش ، رض الله عنهم ، ولم نعمد للاستقصاء فالأمر ممتد يتطلب عدة مجلدات . وتناولنا الجهود العلمية لبعض العلماء والفقهاء والمؤرخين والجغرافيين الذين خدموا الثقافة المشتركة تناول من يذكر الأسماء التي ارتبطت بمجال من مجالات الثقافة في فترة زمنية بعينها . ولما كانت أسماء أولئك النفر الجليل كثيرة ومتعددة فقد كان أختيارنا منهم اختيار حاطب ليل يعود بما يحقق هدفه ، وقد يفوته – مع ذلك – خير عميم . ويبقى من حق أرواح أولئك الأجلاء – الذين لم نذكرهم – علينا أن نعتذر بأن مثل هذا الطموح فوق طاقة مؤرخ فرد ، وأبعد من هدف هذا الكتاب .

استزدنا في هذا الفصل من الشعر الذي تغنى في مجمله بالغزل الذي اختلفت موضوعاته عن الموضوعات المطروقة في أبواب الغزل المألوفة . وربما يشفع لنا في ذلك اننا وجدنا في هذا الشعر طرافة وطلاوة وعذوبة تخفف عن القارىء رتابة التراجم والسير . وقد يثير هذا الشعر شهية بعض الباحثين في اللغة والأدب ويعمل على تحليله وتتبع مداه واستجلاء مكانته الصحيحة في سلسلة الروابط العربية الأفريقية .

عني الفصل الثالث من هذه الدراسة بهجرة أوائل المسلمين الذين اضطهدهم مجتمع مكة القرشي . ورأينا أن نمهد لهذا الفصل بمدخل عن تاريخ الاضطهاد الديني قبل القرشي ، وابراز أن الاضطهاد العربي للمخالفين في الدين لم يبلغ – حتى في الجاهلية العمياء – مبلغ الاضطهاد الديني السابق له . كان الاضطهاد الديني الذي مارسه حكام الأرض على محكوميها العامل النشط الذي ساعد شعوب تلك الأرض على التعرف إلى الإسلام ، والايمان به ، ثم

الانتصار له . وتناولنا بعدئذ هجرة أوائل المسلمين إلى الحبشة ومقدماتها وأبرزنا أحداثها وتتبعنا نتائجها . ولعل أبلغ النتائج وأبرزها أثراً أن الحبشة ، دار الهجرة ، ظفرت بمكانها الطبيعي في تراث كل شعب مسلم ، مهما تناءت دياره واختلفت السنته ، لتكون جديرة بتقديرهم بحسبانها أول أرض في العالم المعمور عبد فيه المسلمون الله دون خشية أو وجل . وهي بحق ، الوطن الأول للمسلمين وجدوا فيها الأمن الذي افتقدوه على امتداد الأرض العربية المشركة .

تتبعنا في الفصل الرابع في شيء من الايجاز الهجرات العربية إلى مناطق الحبشة وتخومها وقيام مراكز تجارية نشطة تفاعل فيه الانسان العربي والأفريقي تفاعل رضى وقناعة فأورث المنطقة هجيناً حمل السمات المشتركة . كانت التجارة منفذاً لانسياب هادىء للدين الاسلامي إلى داخل القارة السمراء . ونظرنا في هذا الفصل في قيام دول الطراز الإسلامي على سفوح الهضبة الحبشية وامتداداتها ، ودولة شوا الإسلامية التي تربعت في قلب تلك الهضبة . وتطرقنا إلى التنافس وعدم الثقة والتحاسد الذي فرّق بين تلك الدويلات وحال دون اجتماع كلمتها حتى وقعت تحت سيطرة الحطي ، سلطان أمحرة . ظفر ذلك السلطان منهم بشكل من أشكال السيادة الكمفدرالية . ورغم أن الرقعة الجغرافية التي شغلتها دول الطراز الاسلامي كانت أكبر مساحة ، وأوفر سكاناً ، وأقوى اقتصاداً ، وأبلغ تحضراً مقارنة بالرقعة التي كان يسيطر عليها الحطي بداية إلا أن الحكام المسلمين لم يجمعهم سوى التهافت على الحطي ينتصرون به ضد بعضهم البعض من الأسرة الواحدة . ورغم أن نسبة غير قليلة من الأمحرة كانوا على دين الاسلام إلا أن الحطي تمكن ، بتحالفه مع الأسر الكنسية العريقة ، أن يقيم في الحبشة دولة اسلامية سيطرت على الحكام المسلمين وعملت على تنصير الأرض المسلمة . وعالج هذا الفصل طبيعة العلاقات النصرانية الاسلامية في الحبشة وانعكاساتها إقليمياً ودولياً . وتتبعنا الروح الصليبية للحطي وبطارقته التي قذفت بالمنطقة إلى أتون الصراعات الدولية . وحين بلغت تلك السياسة التعسفية مداها في أوساط المسلمين برزت فكرة الخلاص فاجتمعوا تحت راية لا إله إلا الله . وتصدى أحمد بن ابراهيم لدور القيادة وظفر بتأييد الحبشي المسلم المضطهد ، وكسب مساندة الحبشي النصراني الذي ألّبه ملكه وبطارقته ضد مواطنيه المسلمين ثم لم يظفر من تلك الحروب الا بمزيد من الفقر والحرمان . كانت الثروة والجاه للملك وبعض القساوسة الذين توارثوا المناصب الدينية والكهنوتية وضنوا على الإنسان الحبشي ، النصراني منه والمسلم ، بخير أرضه . أما القبائل

الحبشية الوثنية فقد عاشت يائسة معزولة فى مناطقها لم يقيض لها أن تشارك فى حركة التاريخ فى المنطقة الا بقدر غير ملموس .

عالجنا فى الفصل الخامس إنطلاقة أحمد بن ابراهيم مع القبائل الصومالية الثائرة على الاضطهاد الذى مارسه عليها ملوك الأمحرة . وتأيدت جهود أحمد بن ابراهيم بجهود مسلمى الأحباش ثم انضوت تحت رايته كافة القبائل الحبشية بعد أن استبانت الفرق بين نظام الإمامة المفتوح لكافة الشعب ونظام الحطى المنغلق على دائرة الملكية والقساوسة . أدى التأييد الذى لقيه الامام أحمد من كافة مناطق الحبشة إلى سقوط سريع للملكية ، واستطاع الامام أن يصل بجيوشه فى فترة وجيزة إلى تخوم السودان وتعاون مع الحكام المسلمين لبعض أطرافه . وأصبحت الحبشة ، تحت الإمامة ، كتلة سياسية واحدة تعمل فى تناسق وانسجام مع مجالها الاقليمى . ولما كان التجانس السياسى الاقليمى والتعاون المشترك بين الكتل السياسية المتجاورة يعرقل خطط الاستعمار العالمى فقد تحركت الصليبية العالمية وساندت سلطان الأمحرة الذى لم يبق له من الملك شروى نقير . وواجهت إمامة الحبشة جيوش البرتغاليين التى أعتدت عليها بدعوى مساندة الملك الحبشى الطريد . واستعان الامام أحمد بالعثمانيين وكانت استعانته – مثلها مثل استعانة حكام المسلمين قديماً بعضهم ببعض – استعانة تفتقر إلى الثقة وتجنح إلى السيطرة والتسلط . وأدى عدم الثقة إلى انهيار التعاون ثم انتهى الأمر إلى مقتل الإمام وانهيار الإمامة . وعاد للملك الأمحرى ملك يقوم على الكاثوليكية ومناهضة الأرثوذكسية التى كان يقوم عليها ملكه . وأخذت أديان الحبشة ومعتقداتها تتقاتل ، وتصدى البرتغاليون الكاثوليك لاضطهاد الأحباش المسلمين والأرثوذكس على حد سواء . وانتهى هذا الصراع بطرد البرتغاليين الكاثوليك من الحبشة التى أضعف الصراع فيها الملكية والأرثوذكسية والإسلام ، ولم يعد هناك منتصر . ودخلت الأرض الحبشية دوامة الانهيار ، وازدادت حدة الحروب بين الجماعات والمعتقدات ، وانتهت إلى جسم سياسى ممزق . وتمكن الاستعمار العالمى بذلك من تحقيق بعض أهدافه فى المنطقة التى عمل على تجريدها من مفاهيمها الثقافية وفصم روابطها الحضارية ...

استشرفت هذه الدراسة تاريخ الحبشة الحديث ووقفت على أعتابه فى انتظار أن تلجه حين تتوفر لصاحبها المصادر ويسعفه الوقت . وللقارىء أن يعد هذه الدراسة تنقيباً فى الجذور ، وهذا ما طمحنا اليه . أما إذا قصرت جهودنا دون ذلك فحسبنا أننا قد أوردنا طرفاً من الحقائق

العلمية التى يمكن أن تنتهى إلى إثارة التفكير أو تقليب الشجون .

اللهم هذا جهدنا وعليك التكلان ، اللهم أجعله فى حسناتنا يوم القيامة إذا وضع الميزان ، وأجعل دآبنا خالصاً لوجهك العزيز يا رحيم يا رحمن .

عبد العزيز عبد الغنى حمدون

الصافية شمال ، الخرطوم بحرى

١٢ ربيع أول ١٤١٥هـ

الفصل الأول

بداية العلاقات الحبشية العربية

(فصل ووصل)

- علاقة الجوار
- بداية المستوطنات والغزوات
- النصرانية عامل جديد فى العلاقة
- الغزو الحبشى للحجاز
- خروج الأحباش من اليمن
- فى البدء كان الرق
- الرق الحبشى فى العصر الإسلامى الأول
- التغنى بالجوارى السود
- من أدب الإسلام فى الرق
- الرقيق الحكام

بداية العلاقات الحبشية العربية

علاقة الجوار :

في البدء كانت الزلازل التي عمّت الكرة الأرضية ، وشكّلت قسمات العالم الطبيعية، وأبرزت سماته المتغيرة أبدأ بفعل العوامل الجغرافية التي ما فتئت تعمل منذ أن وجدت في الكون. ونتيجة لهذه الحركات الأرضية تكونت السهول والصحارى في المناطق التي استوت، والأخاديد والأودية في المناطق التي هبطت، أما التي ارتفعت فكّونت الهضاب والجبال، وفي العصر الميوسيني انفلقت الارض بين ما يعرف الان بقارتي آسيا وإفريقيا بعد ان كانتا رتقا واحدا، وانخفض جزء منها، وظل جانباً هذا الجزء على حالهما من الارتفاع وإن احتفظا بعد فراقهما بالتشابه في البنية والتركيب. واصبح المنخفض المغلق حوضاً ما لبث ان امتلأ بماء المحيط عن طريق باب المندب، وتكوّن نتيجة لذلك ما يعرف الان بالبحر الأحمر (١) . فالرابطة بين الساحلين الآسيوي والافريقي كانت، قبل العصر التاريخي ، رابطة وحدة، لم تقتصر على الصخر فقط ، إنما هي وحدة بشر ونبات وحيوان .

ارتبطت شخصية البحرالأحمر في المنطقة بين اليمن والحبشة وما جاورها منذ فجر التاريخ بالمحور العرضي الذي كان المحور الرئيسي للحركة عبر ذلك البحر. فالثابت أن الحركة الطولية في البحر الأحمر كانت محدودة نتيجة لقلة المعلومات البحرية وضعف وسائل ركوب البحر. وظلت كذلك حتى بعد أن اهتدى الانسان للملاحة الشراعية . كانت الرياح قبل أن يستكشفها الإنسان تعاكس الملاحة الطولية في هذا البحر ، هذا إلى جانب الاعتقاد القديم باتصال اليابس وانفصال البحر (٢).

ومع توسع مدارك الانسان وتطور قواه العقلية عرف أنه لا توجد بقعة في الأرض تزخر بكل الامكانات المادية التي تتطلبها احتياجاته فضلا عن رفاهيته ، فأرضه يمكن أن تكون سخية في جانب ولكنها تظل شحيحة في جوانب أخرى. وحين وصل الانسان إلى تشخيص النواقص في الموارد الأولية في محيطه بدأت التجارة بمفهومها البسيط وذلك منذ بدايات

العصر الحجرى . بدأ في تلك المرحلة الزمنية تدجين الحيوان واستغلاله في المواصلات، وتم بعدئذ استكشاف الطرق المؤدية الى مناطق الموارد الأولية التي تنقص الانسان في بقعته التي انطلق منها. وهكذا أدت التجارة - حتى في شكلها البدائي - الى التعارف والتعرف ، وإلى تبادل الأفكار والخبرات التجارية . بدأت التجارة في شكلها الأول فوق اليابس المتصل ، وأدى ذلك بالضرورة الى اجتياز الفواصل المائية الصغيرة التي تفصل بين كتلة اليابس المتصل. وكان من الطبيعي أن ينصرف اهتمام الإنسان الأول إلى المضايق البحرية حيث يقل اتساع الحاجز المائي فيقل معه الجهد والوقت الذي يتطلبه ويستغرقه هذا الاجتياز. وعلى هذا فقد لعب مضيق باب المندب - منذ فجر التاريخ - دورا رئيسا بين كتلي اليابس الآسيوي والأفريقي . وهنا نلاحظ اهتماما مبكرا بالطرق البرية التي تنتهي الى باب المندب أو تتقاطع معه، سواء على الجانب الاسيوي أو على الجانب الافريقي. وبدأت طرق اليابس العربي تأخذ معها الانسان الحبشي في اتجاهه شمالا حيث نشأت مراكز الإمبراطوريات القديمة في الشرق. فالتداخل بين اليمن والحبشة قديم شمل تبادل الهجرات والغزوات والثقافات واللغات واختلاط الأعراق والأنساب .

ويرجح الباحثون ان قبائل عربية نزحت إلى السواحل الأفريقية (الساحل الأرتيري) منذ زمن بعيد لممارسة المقايضة أو التجارة. ولربما كانت هجرتهم من شرقي حضرموت (مهره) . وليس من اليسير تحديد زمان هذه الهجرات ولكن الراجح انها حدثت قبل الميلاد بعدة قرون. فقبيلة سحرت (سهرت) كانت - فيما يبدو - تسكن على رأس المضيق ، في منطقة المخا الحالية. وقبيلة حبشت - وهي أشهرها - كانت تسكن على الساحل أيضا وقيل انها اتخذت في هجرتها الطريق البحري الذي يصل بين خليج مصوع وهضاب الحبشة ثم عرجوا منها الى الجنوب فمروا باكسوم وتكازة ، واستوطنوا الجانب الشمالي للحبشة ، أما قبيلة الأجاعز (الأجعازيان) فهي - فيما يقال - أقدم من هاجر إلي الحبشة من القبائل اليمنية. وكان موطنهم الأساسي على الساحل بين صنعاء وعدن ، ولهم نقوش تذكرهم في اليمن والحبشة (٣) .

يرى الفرنسي دروز Drews الذي قام بدراسة تحليلية للنقوش الحبشية التي عثر عليها أن

حبشت قبيلة عربية هاجرت قبل القرن الخامس ق.م بزمن طويل واستقرت على ساحل اريتريا ثم عبرت الى اقاليم المرتفعات في الداخل الى منطقة يحا yeha واكسوم حيث امتزجت بالسكان . وتأفرقت. ونشأ عن هذا الامتزاج الحضارة التي مهدت لحضارة اكسوم. ويؤيد ذلك الرأي المستشرق كونتي روزيني حيث يقول ان قبيلة حبشت هاجرت من منطقة سحرتان saharten ، وهي منطقة تجاور اللحية وتقع بين وادي بيش ووادي سردود ، حيث يوجد جبلان يحمل احدهما اسم حبش والآخر حبيش . (٤)

نجد أن الدماء العربية قد تسربت الى ساحل افريقيا فاختلطت بدماء مايعرف اليوم بالصوماليين والأثيوبيين والسودانيين فإذا إنسان هذه المنطقة الأفريقية لا يميزه عن الانسان في ساحل تهامة المواجه له الامايميز أبناء العمومة في الأسرة الكبيرة الممتده. كما ان ساحل تهامة يحمل حتى اليوم، في أصالة عريقة، الطابع الافريقي بوضوح . وأدى هذا الاختلاط البعيد الجذور إلى إضطراب في فهم المؤرخين القدامى لأصله وطبيعته. تحدثت التوراة في أصل ملوك اليمن السبئيين فقالت انهم من الحاميين أبناء كوش بن حام (٥)، وتروي في مكان اخر انهم من الساميين. كما تقدم التوراة شبأ أو سبأ في سفر التكوين مرة على انه من ولد يقظان (٧) ، ومرة أخرى على أنه من ولد يقشان (٨) . والمعروف أن يقظان من ولد عابر ولكن يقشان من اولاد الخليل (عم) من زوجته قطورة الكنعانية، وليس ادلّ من هذا الخلط ما يفيد بعمق التداخل وأصالته بين العناصر البشرية في منطقتي اليمن والحبشة. يضاف الى ذلك ان التوراة تنظر للسبئين الذين استقروا في ديدان (العلا) على انهم من الكوشيين في جنوب بلاد العرب ، ثم تعدهم في مرة أخرى علي انهم من السلالة السامية من ولد ابراهيم من زوجة قطورة. (٩) ويؤكد هذا الاضطراب ما ذهبنا اليه من ان التمييز بين أهل اليمن وأهل الحبشة كان في تلك الفترة الباكرة أمر لا يثير الانتباه لدى المؤرخين الأوائل المهتمين بدراسة أنساب الغابرين وذلك لأن التداخل بين ساحلي البحر في اليمن والحبشة قد بلغ درجة التمازج .

بداية المستوطنات والغزوات

كانت اليمن السعيد أسبق من الحبشة في الدخول الى المدنية وتبني الأساليب الحضارية

وما ذلك إلا بحكم موقعها المتفرد الذي جعل منها حلقة وصل بين الحضارات المختلفة. بزّت اليمن الحبشة في التجارة ، ولم تكن التجارة الحبشية إلا رافدا من روافد التجارة اليمنية . ترد المتاجر من افريقيا ومن اسيا إلى اليمن فتنقلها إلى أراضي المدنيات الأخرى في الشمال. وترجع القوافل بأهلها من اليمنيين والحجازيين حاملة سلع الشمال لتتخذ طريقها بعدئذ الى الشرق والغرب. ولم يكن الأحباش بمعزل عن هذه التجارة . فالثابت ان كثيرا من حرس هذه القوافل كانوا أفارقة. وشكّل الاحباش – بحكم جوارهم لليمن – الأغلبية العاملة في هذه المهنة. وأدت هذه الحركة التجارية الدائبة الى هجرة بعض اليمنيين إلى الحبشة حيث كونوا لهم هناك مستعمرات تجارية، كما أدت هجرة بعض الأحباش إلى اليمن للتكسب من التجارة وحراسة القوافل إلى نشوء مستعمرات حبشية في اليمن لم تلبث أن توسعت وتطلعت في كثير من الأحيان لفرض سيطرتها ونفوذها هناك ، وتمكنت من ذلك أحيانا.

كانت دولتا معين وسبأ أول دولتين معروفتين لدينا في اليمن، وكانتا متعاصرتين في فترة طويلة من تاريخهما. اما دولة حمير فتعد تطوراً طبيعيا للدولة السبئية . ولم تكن هذه الدول دولا عسكرية بقدر ماهي تجارية زراعية أورثت أهلها الرخاء . كتب هيرورووت (٤٨٤ – ٤٢٥ق م) بأن بلاد العرب تعبق طيبا، وتفوح عطوراً، فهي البلاد الوحيدة التي تنتج المر واللبان والأقاصيا والقرفة واللاذن، وأضاف بأن أشجار اللبان تحميها حيات مجنحة صغيرة متباينة الألوان تتعلق بأعداد كبيرة إلى كل شجرة من تلك الأشجار . وكان الاهلون يحتالون على تلك الحيات بدخان من بلسم الاسطرك يشعله الذي يريد اجتناء اللبان فيصعد من دخانه ما يفرق شملها . وجاء عن الجغرافي استرابو ان بلاد سبأ بلاد مزدحمة بالسكان . وهي اخصب الارض ، ثمارها المر واللبان والقرفة، وفيها حيات فاقع لونها تبلغ الشبرطولا، وبوسعها القفز الى علو خصر الادمي، ولا ينجح في لسعتها علاج، وأعاد تيودور الصقلبي ذلك الوصف فقال ان المنطقة تثمر الطيوب حتى أصبحت تربتها تعبق بالأريج. اما بليني Pliny فقد لخص في الجزء السادس من تاريخه الطبيعي ما بلغه الرومان حتى عام ٧٠م من معرفة عن أحوال تلك البلاد فقال : إن السبأي هم اشهر قبائل الجزيرة العربية لثروتهم العائدة اليهم من اللبان. والظاهر ان اليونان والرومان حسبوا ان جميع السلع التي

تعامل بها العرب في تجارتهم كانت من حاصلات بلادهم، فقد كان حرص العرب على الاحتفاظ بأسرار حرفتهم وموارد تجارتهم من الحبشة والهند عظيما. (١٠)

أفادتنا المؤلفات الإغريقية واللاتينية اللاحقة لها في التعرف إلى بعض ملامح العلاقات العربية الافريقية في تلك الفترة . يقول صاحب الطواف حول البحر الاحمر أن المنطقة شمال بمبا Pempa ومنطقة زنجبار عموما من الساحل الأفريقي للبحر الاحمر، كانت تعرف بالساحل الأوساني (١١). وقد أخذ المؤرخون من هذا الاسم شاهدا على ان المنطقة وقعت تحت حكم دولة أوسان (عزّان) في فترة ترجع الى ماقبل عام ٤٠٠ ق.م ، وأنها استولت على تلك المنطقة من الساحل الافريقي لتخدم النشاط التجاري الممتد لميناء عدن الذي كان يتبع أوسان. تلك الدولة التجارية التي سادت في جنوب قتبان (١٢). ويتحدث هذا المصدر عن ميناء ادوليس (عدول) فيصفه بانه قرية متوسطة الحجم ، يليه على بعد ثلاثة مراحل قولوي Cole (القلعة) التي تبعد بدورها خمس مراحل عن مدينة شعب اكسوم حيث يجلب العاج من وراء نهر النيل ثم يرسل في اتجاه الساحل. ويقع قرب قولوي سد يبلغ طوله ٢١٩ قدما ، وارتفاعه ٧٤ قدما على أرض صخرية صلدة، ويبلغ حجم فتحة الهويس التي يمر منها الماء اكثر من خمسة اقدام، وقد بنى هذا السد ، على غرار سد مأرب ، دون ملاط.

لم تكن دولة سبأ دولة غزو عسكري إنما دولة غزو رأسمالي ، تشعبت بأهلها السبل التجارية إلى الشمال فاقاموا المستوطنات على حدود الشام لتعمل في التجارة ، كما أقاموها عبر البحار شرقا وغربا. وظفرت الحبشة ، لقربها الاقليمي من اليمن، بأهم تلك المستوطنات فأقاموا مملكة الحبشة التي اخذت اسمها من حبشت (١٣). نشر النمساوي ملر Muller في عام ١٨٩٣م سبعة نقوش كتبت بخط المسند اليمني عثر عليها في بلدة يحا yeha باريتريا على بعد نحو ٥٠ كلم شرقي اكسوم على الطريق المؤدية الى ميناء عدول (أدوليس) وقام الألماني جليسر بتحقيق هذه النصوص عام ١٨٩٥م متتبعا النصوص السبئة التي ورد فيها لفظ (حبشت) ، وتوصل جليسر الى ان حبشت تسمية عامة للعاملين في زراعة وجمع اللبان ، ليس في الجزيرة العربية فحسب ، بل أيضا في شبه جزير الصومال والحبشة ، وعليه فقد اعتبر جليسر هذه المنطقة استمرار "ثقافيا" واحدا غير منفصم. وبرر جليسر رأيه جزئيا

بورود لفظه Hbsti في النصوص الهيروغلوفية وكذلك بالمعني الاصلي للفظ "حبش" في اللغة العربية وهو بمعنى "جمع" (١٤) وعليه فان جليسر لا يرى في "حبش" قبيلة بعينها إنما يراها ثقافة واحدة انتظمت كل هذه المنطقة التي كان لليمن فيها الريادة التجارية والسياسية.

يعود أقدم نص لدينا عن دولة سبأ إلى أخبار الملوك الذي جاء فيه أن الملك سرجون الثاني (٧٢١ - ٧٠٥ ق.م) قد ارغم يثعمر السبئ على دفع الجزية له. ولهذا نجد كثيرا من المؤرخين يضع هذا التاريخ بداية لدولة سبأ. ولكننا نعتقد ان هذا التاريخ لا يوافق بالضرورة تأسيس هذه الدولة بقدر ما يؤكد وجودها في تلك الفترة. وفي اعتقادنا أن تلك الدولة تضرب بجذورها في أعماق القرن العاشر ق.م كما تدل قصة بلقيس ملكة سبأ ، تلك الملكة التي التقت بسليمان عليه السلام. ولن نتاول قصة بلقيس مع سليمان كما جاء بها القرآن الكريم أو كما جاءت في سفر الملوك إذ يتفقان على أن بلقيس كانت ملكة سبأ. أما الرواية الحبشية فتأخذ اتجاها آخر حيث تجعلها ملكة للبلاد الحبشية. ولا يحمل هذا الخلط إلا الدلالة على التداخل السياسي والثقافي بين سبأ والحبشة منذ تلك الفترة الباكرة.

تقول الأسطورة الحبشية التي نجد نصها في كتاب تعظيم الملوك (١٥) kebra Negest ان سليمان ، حين هّم ببناء المعبد ، أرسل إلى التجار الأجانب يستحثهم كي يقدموا أجود المواد على ان يؤدي لهم ثمنها ذهبا وفضة ، وذهب تمرون ، أحد التجار العاملين في الحبشة . الي سليمان وباعه خشبًا من النوع الذي لا تأكله دودة الأرض، وحين عاد تمرون الى الحبشة حدّث الملكة باعجاب كبير عن سليمان وسعة حكمته بما أثار اهتمامها فقررت زيارته . خرجت الملكة في قافلة كبيرة من الابل والبغال المحملة بالهدايا حتى بلغت سليمان الذي أكرم وفادتها ، وطاب للملكة المقام في بلاط سليمان وظلت عنده لستة أشهر متصلة فأبطلت بعدئذ عبادة الشمس والقمر والنجوم والكواكب الأخرى وعبدت إله بني اسرائيل ، وتذهب الأسطورة إلى أن سليمان قد أفتتن بتلك الملكة الحسناء ورغب في أن يظفر بثمرة منها ، فقد كان الرجل - على روايتهم - شغوفا باكثار ذريته. واقترح سيمان على الملكة ان تقضى الليلة بقصره فوافقته بعد ان اشترطت عليه ان لا يقرب مخدعها. وقبل سليمان بشرطها مقابل أن تتعهد هي بدورها بأن لا تغشي موضعه ، فقبلت ذلك ، وأقسمت عليه. واستيقظت الملكة في ليلتها

تلك على ظمأ شديد فتحسست طريقها لترتوي من إبريق جميل كان موضوعا إلى جوار سليمان الذي كانت تظنه مستغرقا في نومه. فلما بلغت إلى مكان الابريق امسك سليمان بذراعيها مشيرا بأنها حنثت في قسمها، فاسلمت نفسها له فتزوجها . وحين رجعت الى بلادها أنجبت لسليمان ابنا هو منليك. واصبح منليك بعدئذ رأس الاسرة السليمانية التي حكمت الحبشة في أزمان مختلفة. وتذهب تلك الأسطورة إلى ان منليك عندما شبّ عن الطوق تاقت نفسه لرؤية أبيه فخرج لزيارته. واحتفل سليمان بإبنه الذي همّ بعدئذ بالرجوع فبعث معه الأب اربعين إبنا لاربعين رجلا من رجال مملكته حتى يستطيع الابن أن يستعين بأترابه اولئك في تنظيم ملكه بالحبشة. وتضامن منليك مع اولئك الشباب في سرقة تابوت العهد من بيت المقدس وعادوا به الى الحبشة حيث اودع في اكسوم العاصمة . واخذ منليك وأترابه ينظمون مملكة أكسوم وينشرون فيها العدل ويقيمون اليهودية، دين سليمان الأب ، والحبشية أم منليك التي تهودت حين أعجبت بسليمان (١٦). وترد الأساطير وجود اليهود في الحبشة الى ذلك الزمن البعيد، وهو أمر لا نجد له سندا في شواهد التاريخ.

مثلت هذه الأسطورة – على ماهي عليه من قصور – الشرعية التي اتاحت للاسرة السليمانية حكم بلاد الحبشة ، وانتشرت بين المهتمين من الطبقة الارستقراطية الحبشية الذين رأوا في ملوك تلك الأسرة عراقة في النسب . وفي الحقيقة فان لهذا الخلط بين بلقيس ملكة سبأ والملكة الحبشية ماكيدا الأسطورية ما يبرره خاصة في فترة الحكم السبئي باليمن.

تشير الدلائل التاريخية على أن ملوك سبأ بنوا السدود وعمروا الأرض الزراعية . وتثبت الوقائع ان تلك السدود قد تعرضت في فترات من تاريخها للانهيار . وحين يفيض ماء السدود ويتلف الأرض الزراعية يهرب سكانها ويتفرقوا أيدي سبأ ويهاجروا في الأرض . وصلت بعض تلك الهجرات الى الحبشة واستقر اليمنيون هناك. وتثبت الوقائع ان انهيار سد مأرب في القرن الخامس ق.م كان مدعاة لأهل اليمن للنزوح شمالا حيث استقروا في مستعمرات في شمال شبه الجزيرة العربية وكّونوا لهم دولا لعل أهمها دولتي المناذرة والغساسنة . كما استقر العديد من النازحين في تلك الفترة بأرض الحبشة ، وهذا أمر ترجّحه الكثير من المصادر. ويشير بعض المؤرخين إلى هجرة كبيرة قامت من اليمن في القرن الثاني ق.م عبر

باب المندب إلى أرض الحبشة فاستقر بعضهم هناك وواصل بعضهم هجرته مع النيل الأزرق ونهر عطبرة حتى انتهى إلى بلاد النوبة. (١٧)

ظهر بنو حمير – على الأرجح – في أوائل القرن الأول ق.م وبدأ عصر الدولة الحميرية الأولى، وهو العصر الثالث من عصور تاريخ سبأ. حمل الحيريون لقب ملوك سبأ وذي ريدان وأخذ أمرهم يعلو حتي القرن السادس الميلادي . كان ملوك سبأ يتخذون مأرب عاصمة لملكهم لكن الحميرين نقلوا عاصمتهم إلى ريدان بعد أن اصاب التدمير مدن الجنوب جراء حملة القائد الروماني اليوس جالوس في عام ٢٤ ق.م. وتشير بعض المراجع الى ان الروم تحالفوا في هذه الحملة مع الأحباش واشترطوا عليهم أن يقوموا من مستعمراتهم في الساحل الغربي بمساندة الجيوش الرومانية الغازية ، وأن يمدوها بالمؤون من الساحل الافريقي المجاور، على أن يضمن الروم للحبشة مصالحها الاقتصادية والسياسية في اليمن. ولم تكن دولة أكسوم التي نشأت في القرن الاول الميلادي ببلاد الحبشة بعيدة الصلة عن اليمن. فقد تشكلت تلك الدولة الحبشية بعناصر سبئية كانوا الأساس الذي انبنت عليه في الحبشة دولة ذات مدنية وعمران وحضارة ، ما كان لسكان البلاد الأصليين أن يبلغوها لولا اندماج العرب بهم .(١٨) ولهذا كان لملوك تلك الدولة مصالحهم الأصلية في اليمن التي أرادوا تحقيقها سلما أو حربا.

وفي الحقيقة فإن المؤرخين يختلفون في بداية عهد الاسرة الحميرية اختلافا كبيرا، فبينما يجعله البعض في أواخر القرن الثاني قبل الميلاد، يرده البعض الى القرن الأول قبل الميلاد ، وانعكس هذا الاختلاف على بداية تاريخ تولي ملوك اليمن واقيالها عروشهم انعكاسا ظاهرا فعلهان نهفان الذي انتحل لقب ملك سبأ يبدأ عهده عند بعض المؤرخين عام ١٣٥ق.م ، وعند آخرين في الفترة ٨٥ – ٦٥ ق.م، وعند البعض ١٦٠م. وجعل بعضهم بداية حكم ابنه شعراوتر في حوالي عام ٥٠ – ٦٠م ، (١٩) ولكل من هؤلاء المؤرخين أسانيده القياسية . ويبدو ان علهان قد حالف يدع أب غيلان، ملك حضرموت، في نزاعة ضد حمير الذين تم له بعدئذ الانتصار عليهم في ذات العرم . واتجه علهان بعد وفاة يدع اب غيلان لعقد معاهدة مع جدرة ملك الحبشة الذي يعتقد بعض المؤرخين انه كان يسيطر على الساحل الشرقي للبحر الأحمر في المنطقة الممتدة من ينبع حتى عسير .

وتشير النقوش الى ان الملك شعرأوتر بن علهان نهفان قد دخل في حروب متصلة مع حضرموت واستولي على عاصمتها شبوة. وفي نفس تلك الفترة أغار جيش من الأحباش على جيش شعرأوتر، ربما كان ذلك باتفاق مع بني ردمان، وسببوا له خسائر فادحة ثم عاثوا في الأرض فسادا. وأمر شعراوتر قائده قطبان اوكان ان ينتقم لهزيمة جيشه من الأحباش، فبدأ القائد بتأديب بني ردمان، ثم انطلق لمواجهة مستوطنات الاحباش، ونجح في حصارها وأعمل السيف في رقاب أهلها، فاضطرت فلولهم ان تغادر منطقة ظفار . ومما يسترعى الانتباه ان القوات الحبشية كانت بقيادة بيحت ابن ملك الحبشة واكسوم. وتحدثنا نقوش عائدة الى هذه الفترة أيضا عن معارك لشعرأوتر دارت الحرب فيها بين جيوشه وجيوش الأحباش في المنطقة الواقعة خلف مدينة نجران . وربما يدل ذلك على ان تلك المدينة كانت في فترة ما من عهد هذا الملك في أيدي الأحباش . وعلى الرغم من ذلك يمكن القول ان شعرأوتر استطاع أن يخضع غالبية الحكومات والأقيال في العربية الجنوبية . الا ان الأمر كان مختلفا في المناطق التي تقع على السواحل الشرقية للبحر الاحمر والتي كان الأحباش فيها أصحاب السلطة أو النفوذ . وفي عهد الشرح يحصب الذي يعده المؤرخون أول من حمل لقب ملك سبأ وذي ريدان عاشت جاليات حبشية كبيرة العدد وفيرة السلاح في مستعمرات لها في اليمن تساند بعض الملوك وتنحاز الى جانب ضد آخر فترجح كفته. ونجد في هذه الفترة خبر حرب نشبت بين الشرح يحصب وأخيه بازل من ناحية ، وبين شعرأوتر بن علهان نهفان ، من ناحية أخرى ، اشتركت فيها المستعمرات الحبشية في اليمن . وتفيد الأخبار أيضا بانتصار معسكر الشرح يخصب على الاحباش في وادى سهام ووادي سردود الذي يقع على بعد اربعين كيلومتر الى الشمال من الحديدة. وراح هذا الملك واخوه يلاحقان الاحباش في مناطق اخرى من اليمن . سجلت بعض النقوش انتصارالشرح على ملك كندة وحلفائه من امارة خصصتن، وعلى قوات حبشية وعشائر من حمير كانت بقيادة شمر ذي ريدان . ويفهم من بعض النصوص ان شمر ذي ريدان نازع الشرح يحصب عرشه واستعان عليهبالأحباش الا انه لم يحقق من إربه شيئا. (٢٠)

ليس من هدفنا أن نتتبع تاريخ اليمن القديم ، ويكفينا أن نلاحظ الوجود التاريخي البعيد

الجذور للحبشة في اليمن ، وأن نلاحظ أيضا إن سياسة الحبشة بعامة وحكومات مستعمراتها في الأرض اليمنية بخاصة كانت تتقلب طبقا للمصالح الذاتية للقادة الأحباش وجنودهم . فهم في فترة تأسيس الدولة الحميرية كانوا أحيانا مع الحميرين، واحيانا ضدهم، وتارة مع شعرأوتر، ومرة ضده، وهم على علاقة طيبة مع الشرح يحصب، ثم هم ألدّ أعدائه. وربما قادنا هذا التقلب إلى القول بأن الأحباش كانوا – مع كثرة عددهم في اليمن – مرتزقة يستجيبون لمن يدفع أكثر. واستمر بهم الحال على ذلك المنوال حتى نبغ فبيهم الحكماء وأهل الرأي والعصبية ، واستطاعوا – خاصة بعد ان وحد الاسلام بين العناصر – ان يقيموا لهم دولا في شبه جزيرة العرب وحكومات.

تشير النصوص إلى وجود أعداد غفيرة من الأحباش فى الفترة ١٩٠ – ٢٠٠م في ظفار ، عاصمة حمير . ويبدو انهم أصبحوا بعدئذ من معارضى شمر يهرعش او شهر مرعش (٢٧٠ -٣١٠م؟) الذي كان اول من حمل لقب ملك سبأ وحضرموت وذي ريدان ويمنات (٢٩٠م ؟) . وقد بالغ الإخباريون في مدى فتوحات هذا الملك فأوصلوها إلى الصين وفارس ومصر والحبشة ثم جعلوه ملكا على الارض كلها، وامتدت حياته – في كتبهم – الى الف وستين عاما. تشير بعض النقوش عن حرب شنّها شمريهرعش على قبائل تهامة في غربي اليمن ، والتي شملت عسير وصبيا – بين بيش ووداي سهام – ان جيوش الملك قد انتصرت على هذه القبائل برا ثم طردتهم الى البحر بعد ان اوقعت بهم هزائم فادحة.(٢١)

تحدثنا بعض النقوش الراجعة الى شمر يهرعش عن توجيهه لحملة الى بلاد السحرت وحلفائهم. وكانت سحرت التي تقع في المنطقة الغربية الجنوبية من بلاد العرب هي قاعدة الحبش في اليمن في هذا الوقت . واستعان هذا الملك على قتال أولئك الأحباش بقبيلة سردود . وارتدت السحرت الى البحر ربما لتستنصر أحباش افريقيا . ويرجح المؤرخون قيام غزوة من الحبشة الى اليمن في نهاية القرن الثالث الميلادي لنجدة اهل سحرت، ولربما يعود النقش المكتوب باللغة اليونانية الذي وجد على عرش من المرمر في ميناء عدول ، والذي يرجح انه للملك أفيلاس (أفيل) ٢٢٧ – ٢٩٠ م، الى هذه الفترة . يقول النقش ان الملك استطاع اخضاع المنطقة الواقعة بين الصومال وحدود مصر، ثم عبر البحر الاخمر بعد ذلك فأخضع

قبائل الأرابيين ، والكنايدوكوبيت، وواصل فتوحاته حتى بلغ ليوكي كومي (الحوراء) الواقعة في شمال بلاد العرب.(٢٢)

استمرت العناصر الحبشية في تدفقها تجاه اليمن واقامة معسكراتها هناك . وكانت تلك المعسكرات ، في أعمها ، ذات طبيعة عسكرية ترتزق من خفارة القوافل التجارية وتنحاز لبعض ملوك اليمن وأقيالهم ضد البعض الاخر. وتبذل خدماتها لمن يستطيع ان يقدم لهم المال الاكثر ، ولمستعمراتهم الأمن الاوفر. واستطاعت هذه المستعمرات الحبشية في اليمن في نهاية القرن الثالث الميلادي أن تمكن لنفسها ، واصبحت ذات ارتباطات بدولة اكسوم مكنتها من جر ملوك تلك الدولة للتدخل في الخلافات بين اليمنية وحماية المستعمرات الحبشية في اليمن. وساعدهم على ذلك الحالة الاقتصادية المتدنية التي ضربت اليمن الذي خرجت التجارة الدولية من يديه الى الأوربيين . وحين دخلت الحبشة إلى النصرانية حاول البيزنطيون استثمار الرابط الروحي الديني بينهم وبين الحبشة لتوثيق الروابط الاقتصادية والمادية وربط أكسوم بيزنطة عبر اليمن ودروبة ، وكان من نتيجة ذلك ان دخلت اليمن منذ النصف الأول من القرن الرابع الميلادي تحت حكم الملوك الأحباش أو نوابهم . وكان عيزانا بن العميدا ، أول ملك نصراني في أكسوم ، هو بداية تلك السلسلة من حكم الأحباش المباشر . وراحت تلك الحلقات تضعف وتتفكك، أو تشتد وتضيق في اليمن الذي لم يخرج من قيده إلا بظهور الإسلام .

النصرانية : عامل جديد في العلاقة :

نقرأ لعيزانا ، الملك الحبشي الأكسومي (٣٢٥ - ٣٧٥م) نقشا تحدث فيه عن غزوة لمروي (السودان) جاء فيه : بقوة " اله السماء ، المنتصر في السماء وفوق الأرض وعلى الجميع ، أنا عيزانا بن العميدا، من قبيلة هالن، ملك أكسوم وحمير وريدان (ظفار) و سابا (سبأ) وسالهن (سلحين) وسيامو والبجه وكاسيو (مروي) ، وملك ملوك الذي لن يهزمه عدو .(٢٣)..." وعلى الرغم من ان لوحة هذا العاهل كانت تتحدث عن تأديب بعض القبائل السودانية الا ان ما جاء فيها من انه ملك بلاد اليمن كانت حقيقة لامراء فيها. غزا هذا الملك اليمن في حوالي

عام ٣٤٠م واستمر يحكمها حتى وفاته في عام ٣٧٥م . ويبدو لنا مع ذلك ان حكمه في اليمن لم يكن ناجزا إذ شغلته تحركات القبائل المعادية في منطقة مروي ففوّض للادارة الحبشية في اليمن حكم تلك البلاد.(٢٤)

أخذت بلاد اليمن تفقد ازدهارها التجاري بعد أن دخلت الى هذه التجارة منذ العهد الروماني العديد من الأجناس الأخرى وبذلك تراخت قبضتها على أسواق العالم. وانعكس الكساد التجاري علي المجال الزراعي فاخذت السدود تتصدع وتجري الترميمات هنا وهناك ، ولا يبني الجديد منها في قوة القديم ، ولا على شاكلته. وأمام كوارث تصدع السدود تفرق الناس، مهاجرين ضاربين في الارض ، فحدثت خلخلة سكانية أفاد منها الأحباش حين أرسلوا حملتهم على اليمن في حوالي عام ٥٢٥م.

وفي الحقيقة فإن انتشار النصرانية في الحبشة نفسها تمّ عن طريق التجار وبدوافع اقتصادية بحتة، ففي الربع الاخير من القرن الثالث الميلادي وبداية القرن الرابع أخذت مملكة مروي في السودان تتدهور بعد أن اعتراها من عوامل الضعف ما اعتراها وتقسمت أرضها القبائل التي اخذت تجوب أرضها دون أن تجد من يوقف تجاوزاتها في فترة الملوك الضعاف. (٢٥) وتوقفت تجارة مصر الرومانية التي كانت تأتيها عن طريق النيل من قلب افريقيا ، وتوقفت تماما الطرق التي كانت تربط بين النيل في السودان وساحل البحر الأحمرحين هدد البلميون منطقة النوبة السفلى وجنوب مصر، ووصلت غزواتهم حتى منطقة البجراوية عاصمة مروي نفسها . لم يعد النيل أمنا للملاحة التجارية . وفقد الرومان وارداتهم من الرقيق والعاج والأبنوس وريش النعام (٢٦). ولهذا فكر الرومان في استخدام دولة أكسوم لضرب البجا (البلميين) والقبائل الأخرى وفتح طريق التجارة إلى قارة افريقيا من جديد. وتم أول اتصال لتحقيق هذا الامر في عام ٢٧٥ م في عهد الامبراطور اورليان Aurlian . واستخدام التجار الرومان موانئ دولة اكسوم خاصة ميناء عدول الذي كان من أنشط الموانئ الافريقية العاملة في منتجات شرق ووسط افريقيا. كان فرمنتيوس، التاجر السوري اليعقوبي العقيدة ، أحد موفدي قسطنطين الأكبر لعقد معاهدة تجارية مع عيزانا، ملك أكسوم . وتمكن فرمنتيوس من تحويل عيزانا من الوثنية إلى النصرانية في الفترة بين عامي ٣٢٥ – ٣٥٠م.

وحين علم إثناسيوس، بطريق الاسكندرية، بالأمر أصدر رسما بتعيين فرمنتيوس أسقفا لأكسوم ، وكان ذلك بداية ارتباط كنيسة الحبشة الوليدة بكنيسة الاسكندرية . ويبدو أن فرمنتيوس كان يسعى لتحقيق السياسات التجارية للقسطنطينية وتأمينها وتوسيع رقعتها، فحرض الملك الأكسومي على غزو الدولة الحميرية شرقا لتأمين الطرق إلى الشمال، والدولة المروية غربا لتأمين طرق تجاره أفريقيا الداخلية.

إزدادت مع غزو عيزانا لليمن النصرانية انتشارا، وقويت شوكتهم . وحين اجلي اليمنيون الأحباش عن اليمن في عام ٣٧٨م كانت النصرانية قد ثبتت في اليمن الذي ترك بعض اهله عبادة الأوثان، أو فارقوا يهوديتهم . هذا بالاضافة إلى وجود نصراني مؤثر تمثل في فلول الجنود الأحباش الذين ارتضوا العيش في اليمن بعد نهاية الاستعمار الحبشي ودخلوا في خدمة ملوك اليمن.

كان دور الجنود الأحباش في السياسة اليمنية بارزا ومؤثرا ، تقول الروايات أن عبد كلال الذي حكم اليمن (٤٤٥ - ٤٦٠م) كان بدء أمره كاهنا اغتصب العرش بمساعدة الأحباش من ملوك حمير ، وانه قد دان سرا بالنصرانية ، يروي الهمداني أن حسان بن عبد كلال أقبل من اليمن في حمير وقبائل من اليمن عظيمة يريد أن ينقل أحجار الكعبة من مكة الى اليمن ليجعل حج البيت عنده وإلى بلاده. فأقبل حتى نزل نخله ، وخرج اليه القرشيون بقيادة فهرين مالك وأسروه ، وتفرق جيشه . وإذا اعتمدنا رواية الهمداني فان حملة أبرهه الحبشي إلى مكة كانت لها سابقة يمنية (٢٧). وإذا صح ان وصول عبد كلال الى الحكم كان بمساعدة حبشية من أكسوم، وبأحباش اليمن ، فلا نستبعد أن كانت الحبشة النصرانية وراء تلك الحملة. وفي الحقيقة فإن النصرانية أصبحت في خدمة أهداف الدولة الرومانية الشرقية في اليمن ، بينما أصبحت اليهودية في خدمة الفرس، المعسكر المناوئ للدولة الرومانية.

ذكر بعض المؤرخين مثل يوحنا الأفسوسي ومالالا أن ديمانوس أو دمانوس، ملك حمير اليهودي ، أمر بقتل رجال بعض قوافل التجار الرومان الذين كانوا يجتازون مملكته إلى بلاد الحبشة، فأوغر ذلك الأمر صدر إيدوج ، ملك الحبشة ، وإمبراطور الروم فاتفقا على قتاله وجردا حملة على ذلك الملك اليهودي انتهت بهزيمته، وتعيين أمير نصراني في حوالي عام

٤٨٠م ويرجّح عبد المجيد عابدين ان ذلك الملك لم يعمّرطويلا فقد تكتل اليهود واقاموا ملكا يهوديا هو ذو نواس (٥١٥ – ٥٢٥م) واسمه زرعه ذو نواس بن تبان أسعد أب كرب) ، والذي سمي يوسف بعد تهوده . وقد ذهب البعض الى انه لاينتمي الى الأسرة المالكة، وان السبب في تسميته "ذي نواس" ان كانت له ذؤابتان تنوسان على عاتقه . وذو نواس هو الملك الذي احتل الاحباش اليمن في عهده فاستعمروها قرابة نصف قرن من الزمان . ويروي ان ذا نواس كان ابن أمة يهودية من نصبيين وقعت في الأسر (٢٨) .

وفي الحقيقة فان ظروف الفتن الداخلية في اليمن، والقلاقل الدينية ، وتربص دولتي الروم والفرس باليمن، هي العوامل التي اوقعتها في حكم الاحباش. نقرأ في نقوش اليمن عن حرب داخلية استعر أوارها قبيل الغزو الحبشي حوالي عام ٥١٦م بين قبائل سبأ وحمير ورحبة وكندة ومضر وثعلبه. وقد مهدت تلك الحروب القبلية الطاحنة الى انجاح الغزو الحبشي لليمن.

ويفيدنا نصان اخران يرجعان الى عام ٥١٨م عن وقوع حرب بين الاحباش ويسف أسار "يوسف أسار" ، وربما يعني عدم الاشارة الى اللقب الملكي ان سلطان ذي نواس لم يكن يمتد الى كل بلاد العرب الجنوبية، إنما كان مقصورا على أجزاء منها، وأن الأحباش – فضلا عن الأقيال اليمنيين – كانوا يشاركونه هذا السلطان. فظفار ومجاوراتها – كانت فيما يبدو – في أيدي الأحباش ، كما كوّن الاقيال في إماراتهم حكومات اقطاعية تقاتل بعضها بعضا. وتشير النقوش الى ان يوسف هاجم ظفار وثعلبة واستولى على كنائسها، وان أشد القتال إنما كان بينه وبين قبيلة الأشاعرة، وانه اتجه بعد ذلك الى نجران حيث أنزل بالأحباش ومن تحالف معهم خسائر فادحة ، ثم اضطهد اهل نجران وعذبهم (٢٩) . وخرجت جيوش الحبشة بدعم من القسطنطينية ، تؤدي واجبا دينيا للانتصار لرفاق الملة وآخر دنيوياً للسيطرة على طرق التجارة بين الحبشة والقسطنطينية . ولعل السبب الأخير كان السبب الأساسي الذي حمل الأحباش بعدئذ أن يحاربوا قريشا حتى يستولوا على واسطة العقد في التجارة ويدمجوها في سلطان النصرانية الذي خططوا له إن يمتد من المحيط الهندي ، فالبحر الأحمر ، إلى البحر الأبيض ، فبحر مرمرة تحت قدمي البحر الأسود .

لعل العامل الاقتصادي كان الأساس الذي جعل الرومان يستغلون الدين النصراني لضم

بلاد العرب ، فقد عملوا جاهدين قبل قيام الحملة الحبشية على التمكين للنصرانية في اليمن فعمدوا على إرسال البعوث التنصيرية والدعوة لقبول النفوذ الروماني . ومن ثمّة فلم يكن تعذيب ذي نواس للنصارى في بلاده هو السبب الحقيقي للغزو الحبشي لليمن، ودليلنا على ذلك إن المصادر الإغريقية - بل والحبشية نفسها - إنما تذهب إلى أن الأحباش قد أغاروا على اليمن قبل قصة التعذيب هذه بسنتين، وانهم انتصروا على ذي نواس واضّطروه للالتجاء إلى الجبال، ثم مالبث ان لمّ ذو نواس شعث جنده فانتصر على الاحباش واغار على نجران واستولى عليها. ويبدو جليا ان ذا نواس ادرك الرابطة بين انتشار النصرانية في اليمن وازدياد النفوذ السياسي للاحباش والدولة الرومانية الشرقية فى بلاده . وهناك من يذهب إلى أن الروم اشتركوا بطريقة فعلية مع الأحباش في هذه الغزوة على اليمن وذلك عن طريق إرسال أسطولهم من مصر محملا بالاسلحة والمؤون الى الثغور اليمنية . وفي الحقيقة فان الامبراطور جستين الأول (٥١٨ - ٥٢٧م) كان يدرك زيادة أطماع الفرس في جزيرة العرب خاصة بعد ان تمكنوا من السيطرة على البحرين ، وغدوا على مسافة قريبة من السواحل العربية، فعمل الامبراطور بدوره للسيطرة على اليمن لتظفر بها امبراطوريته قبل أن تقع فى قبضة الامبراطورية الفارسية . (٣٠) .

وهناك رواية أخرى تشير الى ان دميون (دميانوس) أمر بقتل كل تجار الروم الذين كانوا في بلاده بسبب اضطهاد اليهود، وإساءة معاملتهم في بلاد الروم. ومن هنا يرى البعض ان بعثة تيوفيلوس التنصيرية إنما كانت لضمان حسن نية أمراء اليمن إزاء التجار الروم. وقد فشلت تلك البعثة بسبب نفوذ الفرس في اليمن. وتزعم هذه الرواية أن النجاشي كان على الوثنية ، وانه اعتنق النصرانية بعد ان انتهت الحملة لصالحه فأرسل إلى قيصر يطلب إليه إرسال بعض القسس لتعليمه النصرانية . (٣١)

ويشير نص آخر يرجع تاريخه الى عام ٥٢٥م أن الأحباش قد استولوا على اليمن بعد هزيمة الملك وأقياله وان السميفع أشوع وأولاده الذين كانوا من أنصار الملك الحميري على غير رغبة منهم، اعتزلوا القتال وانعزلوا في حصن ماوية. حتى إذا انتهت الحرب عقدوا صلحا مع الأحباش واخذوا يحكمون اليمن نيابة عنهم . (٣٢)

اهتمت المصادر النصرانية المعاصرة بغزو الحبشة لليمن ومنها "قزما" الذي كان في الحبشة ابّان الاستعدادات لغزو اليمن . وقد سجل لنا تلك الأخبار ربما بعد وقوعها بخمس وعشرين سنة . يقول قزما أن الحملة قامت في عهد جستين الأول (٥١٨ – ٥٢٧م) وانها كانت بسبب تعذيب ذي نواس لنصارى نجران . كما تشير المصادر النصرانية الى غزو ثان قام به أداد، ملك الحبشة، ضد دميانوس، ملك حمير ، في السنة الخامسة عشر من عهد القيصر جستنيان (٥٢٧ – ٥٦٥م) اي في عام ٥٤٢م . (٣٣) ولعل أهم الوثائق النصرانية التي تتعلق بتعذيب نصارى نجران هي رسالة مارشمعون ، أسقف بيت رشام، إلى رئيس أساقفة دير جبله. يقول مارشمعون انه عرف عن تعذيب نصارى نجران من رسالة لملك حمير إلى ملك الحيرة يخطره بما حدث ويطلب اليه ان يفعل بنصارى مملكته مافعل بنصارى نجران، وعلى ذلك احتاط مارشمعون للامر فوجه نداء لكل أساقفة الرومان ، وإلى بطريق الأسكندرية ، وأحبار طبرية ، يثير فيهم الحمية الدينية ويطلب معاضدة النصارى في اليمن . (٣٤)

وتذهب رواية يونانية إلى أن ذانواس ، ملك حمير، عذب نصارى بلاده ، فارسل نجاشي الحبشة حملة ضده في السنة الخامسة من حكم جستين الأول أي عام ٥٢٣م ، وأن الغزوة قد انتهت بهروب ذي نواس إلى الجبال ، ثم عاد ذلك الملك الحميري بعد تنظيم صفوفه على الأحباش فأعمل فيهم القتل ، واحتل نجران، فارسلت له الحبشة حملة ثانية انتصرت عليه وعينت مكانه أبراميس Abrsmes .

انتهى القتال بين الحبشة واليمن بانتصار حبش أرياط الحبشي وهزيمة الملك الحميري ذي نواس الذي يروي انه دخل بفرسه البحر حتى غاب فيه ولم يعرف له اثر بعدئذ . ولعل في هذه الرواية ما يفيد بأن المعركة جرت قرب ساحل البحر ، ربما في موضع نزول الحملة الحبشية . (٣٦) وأغلب الظن ان الملك قتل في حمأة المعركة دون ان يعرف احد أمره ، ذلك رغم ان بعض الروايات الحبشية والاغريقية تذهب إلى أنه وقع أسيرا بيد أعدائه فقتلوه . وتذهب رواية اخرى الى انه قتل بيد الحميريين انفسهم، وان جثته لم تقبر إنما القيت الى الحيوانات المفترسة فأكلتها . وربما نجد في هذا الخبر رائحة التحامل اذ لا تنحو النفس

العربية – حتى في جاهليتها – هذا المنحنى .

اختار الأحباش السيمفع أشوع لحكم اليمن نيابة عنهم يعاونه سبعون الف جندي حبشي كانوا عماد الحملة التى انتصرت على ذي نواس. وكانت تلك إضافة جديدة للاحباش القدامى الذين استقروا في اليمن سابقا وتيمن بعضهم. ويفهم من بعض النصوص أن السيمفع أشوع كان نصرانيا بدليل النص الوارد عنه والذي جاء فيه : "باسم / رحمنن ونبهو كرشتش غلبن" وترجمته باسم الرحمن وابنه المسيح الغالب . (٣٧) وفي عام ٥٣١م ثار الجنود الأحباش على السيمفع أشوع، وحاصروه في إحدى قلاعه ، وأقاموا مكانه أبرهه (ابراهام) وهو عبد نصراني كان مملوكا لتاجر يوناني يعمل في مدينه عدولي . وقد حاول النجاشي أن يقضي على هذه الثوره فأرسل جنده لتلك المهمة ولكنهم هزموا . ولما هلك هذا النجاشي سارع أبرهة لعقد صلح مع خليفته تعهد بموجبه أن يدفع مالا سنويا في مقابل أن يعترف به النجاشي نائبا له في حكم اليمن. ويدلنا نقش لأبرهه يعود الى عام ٥٤٢ – ٥٤٣م انه تابع للملك الحبشي رحميس، ولربما كان رحميس لقبا لملك بيت إسرائيل من آل أصبحة. وعلى أيه حال لم تكن تلك التبعية إلا إسمية. واخذ أبرهه بعدئذ يحكم اليمن بعد أن أصبح (عزلي ملكن أجعزين) أي نائب ملك الأجاعزة، ولكن حكمه في الحقيقة كان حكما ناجزا حيث نجد ان لقبه قد أصبح : ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت واعرابها في النجاد وفي التهائم . وعلى ذلك فلم يبق للنجاشي في الملك غير الاسم .

وتذهب المصادر العربية في اتجاهات اخرى في خبر أبرهة . يقول بعضها ان ابرهه كان جنديا تحت قيادة ارياط في الجيش الذي هاجم ذي نواس وانتصر عليه. ثم نازع القائد ارياط وغدر به وأخذ مكانه في الرئاسة (٣٨). ويقول البعض الاخر ان النجاشي ارسل جيشين أحدهما برئاسة ابرهه استولى على صنعاء ومخاليفها واصبح ملكا عليها ، فارسل النجاشي له جيشاً آخراً بقيادة أرياط. وعرض ابرهه على أرياط أن يبارزه فأيهما ظفر بصاحبه كان الملك له . وظفر أبرهه بأرياط عن طريق عبد له يدعى عتودة بعد أن وعده بأن لاتدخل عروس على زوجها في اليمن دون ان يصيبها قبلة ، مما كان سببا في ان يدفع ذلك العبد حياته ثمنا لهذه الرغبة الدنيئة. (٣٩) وفي الحقيقة فإن الرواية الاخيرة غير جديرة بالقبول، فهي عندنا "صنعة" عربية ليس إلا، ولربما صدرت عن كراهية للغزو، وتحريض على

مقاومته حتى لا تدنس أعراضهم .

أخذ أبرهه يعمل على نشر النصرانية في بلاد اليمن ، وقام بحملات عديدة على العديد من القبائل العربية انتهت بانتصاره عليها جميعا . وتوافد على الملك الحبشي في اليمن اعداد كبيرة من بني جلدته لينتظموا في الجيش العامل، كما توافدت اعداد اخرى منهم للعمل في المشروعات العمرانية التي قام بها هناك ، فقد جاء انه رمّم سد مأرب في عامي ٥٤٢ — ٥٤٣م. ويلفت النظر في النقش الذي خلّد إصلاح السد وصول وفود عديدة من خارج اليمن لتحية الملك الحبشي . فقد وصل وفد من نجاشي الحبشة ، وأخر من قيصر الروم ، وثالث من كسرى ملك الفرس. ووصل وفد كذلك من المنذر، ملك الحيرة ، والحارث بن جبلة، ملك الغساسنة.

الغزو الحبشي للحجاز :

قام أبرهه في اليمن بأعمال عمرانية ضخمة لعل أهمها بناء الكنائس لترغيب أهل اليمن للدخول في النصرانية . بنى أبرهه كنائس فى مأرب ونجران وصنعاء . وتعرف الاخيرة بالقُليس وهي التي رغب في تحويل حج العرب من مكة اليها . جاء في ذلك انه بناها بالسخرة ، وقطع يد العامل إذا تهاون أو تكاسل . وتذهب الروايات انه اخذ حجارتها من قصر بلقيس الذي كان بمأرب. وكانت تلك الحجاره عبارة عن رخام أبيض وأحمر وأصفر وأسود، وانه جدّ في بنائها واحكمها، "ولم ير مثلها في زمانها بشئ من الأرض ، وجعلها مربعة مستوية التربيع وجعل طولها في السماء ستين ذراعا. وكبسها من داخلها عشرة أذرع من داخلها عشرة اذرع في السماء ، فكان يصعد اليها بدرج من رخام ، وحلاها بالفضة والذهب، وحفها بالجواهر ، وجعل فيها ياقوته حمراء عظيمة ، واوقد فيها المندل ولطخ جوانبها بالمسك ، وسماها القُليس ، وامر اهل مملكته بالحج اليها ، يضاهي بذلك البيت الحرام" . وقد شهد هذا العصر بناء الكنائس الضخمة في العالم النصراني كان اهمها كنيسة أيا صوفيا في القسطنطينية، وكنيسة المهد في بيت لحم . وهما يعودان الى عصر الامبراطور جستنيان (٥٢٧ – ٥٦٥م) وقد بنيتا على الطاز البيزنطي . وقد جمعت القليس بين الفن العربي القديم والطراز البيزنطي النصراني في بناء الكنائس.(٤٠)

كتب ابرهه الى النجاشي ، (٤١) ملك الحبشة ، "اني قد بنيت لك ـ أيها الملك – بصنعاء بيتا لم ين العرب ولا العجم مثله لملك كان قبلك ، ولست بمنته حتى اصرف اليه حاج العرب. ويتركوا الحج الى بيتهم. فلما تحدثت العرب بكتاب ابرهه بذلك الى النجاشي غضب رجل من النسأة، احد بني فقيم من بني مالك بن كنانة ، فخرج حتى أتى القليس فأحدث فيه، أي سلح ثم خرج فلحق بأرضه . فدخل ابرهه فرأي اثر فيه .... فغضب عند ذلك وقال : افعليّ اتجرأ بهذا ؟ ونصرانيتي لاهدمّن ذلك البيت، ولأخربنه حتى لا يحجه حاج أبدا" .

ولربما كانت هذه الحادثة هي السبب المباشر الذي استدعى خروج ابرهه لحرب الحجاز . اما الأسباب الكامنة فقد تركزت أساسا في الربط بين الحبشة وبيزنطة تجاريا وسياسيا عبر اليمن ، مرورا بالحجاز الذي كانت تجارته مع الحبشة نشطة . تروي المصادر انه كان لقريش إيلاف "عهد" مع ملوك الحبشة احدثه عبد شمس بن عبد مناف الذي كان قد وفد الحبشة للحصول من ملكها على الأمان لقريش وتجاراتها. وتذهب تلك المصادر الى ان تجارة قريش قد ازدادت في الحبشة ازدهاراً ، وان تجار الحجاز اصبحوا يروحون ويغدون بالمتاجر بين المنطقتين (٤٢).

استعان أبرهه في غزوه مكه بأحباشه من الجنود، وبالعديد من القبائل العربية، كما استعان بجند آخرين أرسلهم له النجاشي من الحبشة، وبفيله المدعو محمود. وكان جمع الأحباش عظيما حتى انه حين وصل إلى أطراف مكة تهيبت قريش قتاله. وقال عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف لحناطه ، رسول أبرهه، الذي حمل رسالته من انه لا يريد دماء قريش إنما يريد هدم البيت. "ولله لانريد حربه، ومالنا بذلك من طاقة و لايدان، وسنخلى بينه وبين مايريد . هذا بيت الله الحرام وبيت خليله ابراهيم عليه السلام – أو كما قال – فان يمنعه فهو بيته وحرمه، وان يخل بينه وبينه فو الله ما عندنا من يدفع عنده . "وذهب عبد المطلب مع حناطة الى ابرهه يطالب بابله التي حشرها بأمر رجل من الحبشة يقال له الأسود بن مقصود. وانكر ابرهه من سيد قريش ان يطالب بابله ولا يحدثه في شأن البيت، فقال عبد المطلب : "أنا رب الإبل ، وأن للبيت الذي تريد به ماتريد ربا سيمنعه." (٤٣)

رجع عبد المطلب الى قريش وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز في شعف الجبال والشعاب

خوفا عليهم من معّرة الجيش. ونظّم ابرهه جيشه للهجوم، وكان معه وجوه اصحابه قد حفوا به ، من وجوه الحبشة والعرب ممن قد سار به، "وقد اخذت صفوفه أقطار الأرض بعضها خلف بعض يريدون ان يصبحوا بمكة." ومع الصباح فاجأتهم الطير الأبابيل باحجار من سجيل "فما وقع حجر على بطن إلاخرقة ولا عظم ألا اوهاه وفتتة، ولا على رأس رجل الا خرج من دبره." وقال بعض المفسّرين – وهو الارجح عندنا – ان الطير قد حمل اليهم المرض "ان الحجارة لا تقع على احد الا نفط جسده ، وقيل انه ما اصاب احد منهم الحجر الا اخذته الحكّة، فكان لا يحك احد منهم جسده الا تساقط لحمه" . فخرجوا يتساقطون بكل طريق ، ويهلكون بكل مهلك على كل طريق. واصيب ابرهه في جسده، وخرجوا به معهم تسقط أناملة أنملة انمله كلما سقطت منه انمله اتبعتها منه مدة وقيحاً ودماً، حتى قدموا به صنعاء ، وهو مثل فرخ الطير ، فانصدع صدره عن قلبه ، وانشق بطنه فهلك (٤٤)، "ولما اودت قدرة الله بما أرسله عليهم من جنوده ارسل سيلا فذهب باصحاب الفيل فالقاهم في البحر!!" وأقام بمكة فلال من الجيش وعسفاء وبعض من ضمه المعسكر فكانوا بمكة يعتملون ويرعون لأهل مكة. وكان قائد الفيل وسائسه مقعدين يستطعمان الناس حيث يذبح المشركون ذبائحهم على اساف ونائله." (٤٥) وقد روي عن أم المؤمنين عائشة انها قالت : رأيت قائد الفيل وسائسه بمكة أعميين مقعدين يستطعمان .

وفي اعتقادنا ان هذا الجيش الذي بلغت عدته حوالي الستين ألفا ترك في تراجعه المريع من مكة بعد هزيمته المفاجئة عددا كبيرا من الأتباع والجنود من فلال الجيش وعسفائه الذين لم يشملهم غضب الله وشملهم عطف مشتركي مكة فاستخدموهم في أعمالهم مؤجرين أو رقيقا . وكانت أم أيمن – حاضنة الرسول صلي الله عليه وسلم – كما ورد في الأخبار – إحدى سبايا قريش من جيش ابرهه. أما الذين أصابهم مرض أقعدهم فكانوا يستجدون أهل مكة ويجدون قوتهم، وهكذا امتلأت مكة التي كانت تستعد لاستقبال الدعوة الإسلامية بالعديد من الأحباش. وقد منّ الله على العديد منهم بالاسلام فأصبحوا مادته ودعاته .

نهاية حكم الأحباش في اليمن

لعلنا نلاحظ ان هجرات الحبشة التي انتظمت ساحل اليمن والحجاز كانت في أعمها

غزوات تطمع في حيازة تلك المنطقة المجاورة لهم من الساحل والسيطرة على طرق التجارة العابرة لها، والافادة من ريع التقدم الاقتصادي ، التجاري منه والزراعي . قامت خطة ابرهه على غزو مكة لصرف العرب الى كعبة نجران وكنيسة صنعاء ليتحقق له بذلك التجانس السياسي والعسكري الذي يسعى اليه لربط اليمن والحبشة بالإمبراطورية الرومانية الشرقية . وقد كان جبراماسكال الأول ، نجاشي الحبشة (٥٥٠ - ٥٧٠م) أكثر من أبرهه، نائبه على اليمن، تلهفا لانجاز هذا المشروع . غير ان تلك الحملة العسكرية الفاشلة على مكة كان لها انعكاساتها البعيدة في تاريخ اليمن والحبشة على حد سواء . وتجاوزت تلك الانعكاسات هذه الدائرة الى الدائرة الاقليمية بأسرها، وقد كانت الغزوات الحبشية لليمن مدعومة عسكريا وأسطوليا من الدولة الرومانية الشرقية بعد انتشار المذهب اليعقوبي في الحبشة . أما فارس ، الطرف الآخر في التوازن الدولي وقتها، فقد كانت تساند ثورات اليمن على الأحباش وتدعمها في صراعها ضد الحبشة . وراحت فارس تساند اليهودية اليمنية ضد النصرانية الحبشية، وعلى ذلك قامت إستراتيجية الدولة الفارسية في صراعها ضد الدولة الرومانية الشرقيةفي اليمن. واضحى الحكام العرب والأحباش دمى تحركها السياسة العالمية، وظلوا يقومون بهذا الدور حتى دخلت اليمن في رحاب الإسلام فخرجت بذلك عن التبعية الدولية. أما حكام الحبشة النصرانية فقد ظلوا يلعبون دورهم في إستراتيجية تلك الدولة الرومانية الشرقية . وحين انهارت تلك الدولة واستسلمت للمسلمين في ١٤٥٣م أخذ ملوك الحبشة النصرانية يلعبون في الظل دور التابع الدولي للصليبية العالمية التي قادتها روما. غير أن اختلاف المذاهب النصرانية بين الحبشة والكاثوليكية الأوربية كان كثيرا ما يقف دون ذلك التعاون .

لم تصحب الهجرات المقابلة الخارجة من الساحل العربي إلى الحبشة أية مجهودات حربية إنما أخذت شكل الاستقرار للتعامل في التجارة. ولا نعرف عن أية غزوات خرجت من الساحل العربي الى الحبشة أو قيام قتال بين الجانبين في أرض الحبشة، تلك الأرض التي احتضنت فيما بعد هجرة المسلمين فآوت ونصرت. ولعلنا نلاحظ كذلك ان الامتزاج بين الاحباش الذين وفدوا الى الساحل العربي والعرب الذين سكنوا الإقليم الحبشي كان تاما .

فلا نجد بين سكان الحواضر العربية حبشا ظلوا محتفظين بدمائهم خالصة دون اختلاط، ولافي الحواضر الحبشية عربا صرحاء. وأدي هذا التصاهر والتزاوج في هذه المرحلة الباكرة من التاريخ العربي الافريقي إلى وحدة مشاعر ثم وحدة مصير لعلاقات القربى، وأواصر الدم ، وروابط التاريخ المشترك بين الساحلين العربي والافريقي .

خلف يكسوم بن ابرهه والده على اليمن في ٥٧١م وكان اكثر شرا من أبيه، كما كان أخوه وخليفته مسروق أبلغ شرا من الاثنين . (٤٦) وتوالت الثورات من اهل اليمن ضد الأحباش الذين كان الله قد كسرهم عند بيته الحرام حتى انتهت الى سيف بن ذي يزن وكنيته "ابو مرة " وهو معد يكرب بن أبي مرة الذي فر والده أبو مرة بن ذي يزن الى الحيرة لاجئا إلى ملكها عمرو بن هند بعد ان انتزع منه ابرهه زوجته ريحانه بنت علقمة ، ام ولده سيف، فأولدها أبرهه ابنه مسروق، وابنته بسباسة (٤٧) ونشأ معد يكرب مع أمه ، ريحانه في حجر أبرهه . هذا وتحفظ لنا الروايات أن عدداً غير قليل من الجند الحبش كان قد تزوج بيمنيات (٤٨).

ويبدو أن سيفا هذا ما كان يدرك التوافق بين المذاهب الكنسية والتعصب على أساس الدين ، ولهذا نجده يذهب الى بيزنطة ليستعين بقيصرها على الأحباش . ولكنه بالطبع لم يفلح في مسعاه إذ أجابه الإمبراطور: " إنتم يهود والحبشة نصارى، وليس في الديانة ان ننصر المخالف على الموافق." ويمم سيف بعدئذ النعمان بن المنذر، ملك الحيرة، واتصل عن طريقه بكسرى أنو شروان (٥٣١ - ٥٨٩م). وأعان كسرى سيف بعدد من المساجين جعل قيادتهم للضابط وهريز . واشترط كسرى على سيف خراجا سنويا يحمله الى فارس ، كما خظر على اليمنيين ان يتزوجوا الفارسيات بينما اباح للفرس الزواج من اليمنيات . (٤٩) وافق سيف على تلك الشروط فتحركت تلك الحملة الصغيرة الى أرض اليمن في ست سفن تصدى لها مسروق في مائة الف جندي فيما يقال من الحبشة وحمير والاعراب . وجاء مسروق راكبا فيله ، "عاقدا تاجه على رأسه بين عينيه ياقوتة حمراء، ثم ظل ينتقل على فرسه ثم على بغلته . فأوتر وهرز قوسه. ثم امر بحاجبيه فعصبيا له . ثم وضع في قوسه نشابا فمغط فيها حتى اذا ملأها ارسلها فصك بها الياقوته التي بين عينيه . فتغلغلت النشابة في

رأسه حتى خرجت من قفاه وتنكس عن دابته ....و انهزمت الحبشة". وكتب كسرى الى وهريز إن ينصرف إليه ويترك اليمن لسيف بن ذي يزن .

ودخل وهريز صنعاء ثم اصبح سيف بن ذي يزن ملكا على اليمن كأمر كسرى ، وجاءته الوفود مهنئة. وكان وفد مكة برئاسة سيدها وكبيرها عبد المطلب بن هاشم من أهنأ الوفود بهذا الحدث. ولم تتحرك القسطنطينية لمناصرة الأحباش رغم التنافس الحاد بين الامبراطوريتين في الحيازه والاستعمار. وعلى الرغم من اننا لا نعتقد ان قوة جيش مسروق بلغت هذا العدد من الاتباع بعد هزيمة والده على ابواب مكة وتفرق جيشه الذي لفحته سجيل بلهيبها فهلك منه من هلك وأسر منه من كتبت له النجاة ليكون عظة لغيره وعبرة، إلا أن النتيجة القائمة سطرت نهاية الحكم الحبشي في اليمن في حوالي عام ٥٧٥م. وأخذ سيف في التنكيل بالجيش فجعل يقتل فيهم ، ويبقر بطون نساءهم حتى كاد ان يفنيهم إلا جماعة قليلة اتخذهم خولا ، واتخذ منهم جمازين يسعون بين يديه بحرابهم . ثم انه خرج يوما والحبشة تسعى بين يديه بحرابهم حتى اذا كان في وسط منهم وجئوه بالحراب حتى قتلوه، ووثب فيهم رجل من الحبشة فقتل باليمن وأوعث وأفسد . ويعود وهريز في جيش آخر بأمر من كسرى أن لا يترك باليمن أسودا ولا ولد عربيه من أسود إلا قتله، صغيرا كان ام كبيرا، ولايدع رجلا جعدا قططا قد شرك فيه السواد إلا قتله (٥٠) . وانتهى امر الوجود الحبشي في اليمن وقد فرّ منهم من تمكن من النجاة ليبدأ عهد التسلط الفارسي. حكم وهريز اليمن واليا من قبل كسرى وخلفه في الأمر ابنه المرزبان ، ثم حفيده البيتجان ، ثم خرخره إبن الأخير . وانتهى الامر الى باذان الذي اعتنق الاسلام في السنة السادسه للهجرة منهيا بذلك الوجود السياسي لفارس في اليمن.

كان الوجود الفارسي في اليمن حربا على كل ماهو حبشي ، أو بالأحرى ما هو حبشي تدثر بالبيزنطي ، فقد كانت فارس التي تقع فيما وراء بلاد العرب تخشى كل أثر للحبشة التي تقع اليمن في متناول يدها . وكان من حسن السياسة ان تعمل فارس على تشريد أي حبشي في منطقة اليمن وقطع كل علاقة بين القطرين مهما كانت طفيفة. وقد تأتي الحبشة مرة اخرى للانتصار للوجود النصراني هناك او للوجود الحبشي المكثف. وأدت الملاحقة الفارسية

المستمرة للاحباش الذين كانوا في اليمن الى هروبهم وتفرّقهم بين القبائل العربية في مدن الحجاز وباديته. واكتسب أولئك المستضعفون من الأجراء والرقيق وسط القبائل سمعة حسنة لما كان لهم من جرأة وانضباط وأمانة ، ولما كان في نسائهم من ملاحة ، ومقدرة على اكتساب مهارات جديدة بسرعة فائقة . وقد شهدت هذه الفترة ازديادا واضحا في أعداد الأحباش في بيوت أشراف قريش وسادتها . تزوج البعض من أولئك السادة بالحبشيات فانجبن أبناء حازوا قصب السبق في الجاهلية ثم في فجر الاسلام . ويروي أن الحارث بن ربيعة المخزومي كان ابنا لحبشية تدعى سيحاء . وكان من أبناء الحبشيات ايضا نضاله بن هشام بن عبد مناف، وعمر بن ربيعة ، والخطاب والد عمر بن الخطاب (٥١) . وبهذا ازداد في هذه الفترة الطلب على رقيق الحبشة خاصة بعد ان أظهر المهجنون من أبناء للرقيق وبناتهم مهارة فائقة في ضروب الحياة المختلفة .وقد اشتهر منهم الفرسان والشعراء والصعاليك والجند. ويُعدّ عنترة بن شداد من أبرز هؤلاء المهجنين. ومنهم ايضا السليك بن السلكة الذي ماكان يرضيه ان تتعامل القبائل العربية في بيع وشراء "خالاته" الحبشيات وتمنى ، لو ان له المقدرة التي تمكنه من شراء جميع الحبشيات وتحريرهن : (٥٢)

أشاب الرأس إني كل يـــوم	أرى لـى خالة بين الرجـــال
يشــق عليّ أن يلقين ضـيما	ويعجـز عـن تخليصهـن مالـى

وكان من هؤلاء المهجنين أيضا الشاعر عبد بن الحسحاس ، وهو عبد حبشي اشتراه أبو سعيد فشبب بابنته ، وفحش وشهرها ومن ذلك قوله فيها : (٥٣)

الكنى اليها عمركَ اللـه يا فتـى	بآيـــة ما جاءت إلينا تهـاديا
وبتنـا وسـادانا الى علجـانـــة	وحقف تهـاداه الريـــاح تهـاديا
وهبت شـمال آخر الليل قـــرة	ولا ثـوب إلا بـردها وردائـيـــا
توســـدنــى كفا وتثنى بمعصـم	على وتحـوى رجلها من ورائـيـــا
فما زال بـردى طيبـا من ثيابهـــا	إلى الحـول حتى انهج البرد باليـا

تفرّق الأحباش بعد انهيار سلطتهم السياسية في اليمن فأثروا القبائل العربية المختلفة

حيث ازداد ، بأولئك الذين أصبحوا مستضعفين أرقاء بعد ان كانوا سادة اعزاء، عدد الجنود والحرس والرعاة ، وعدد أمهات الأولاد، وعدد النابهين من الشعراء المهجنين. وقد احدث انهيار الدولة الحبشية في اليمن أثره في الحياة الاقتصادية والسياسية والأدبية والدينية في شبه جزيرة العرب . وكان الأحباش أسرع من غيرهم - بحكم نصرانيتهم اليعقوبية الموحّدة - لاعتناق الإسلام . كما أصبح الأشاعرة وغيرهم من قبائل اليمن المختلفة التي كان لها ارتباطات ثقافية أو دينية أو عسكرية مع الأحباش أسرع من غيرهم في تقبل الدعوة الاسلامية .

في البدء كان الرق

شكّل الرقيق جزءا من التجارة العربية التي ازدهرت بين الساحلين العربي والافريقي التي شملت صنوفا من المزروعات وثمارها ، والحيوانات وجلودها وعظامها ، والمواد الأولية ، والصناعات البدائية. وقد أسهمت التجارة العربية الافريقية بنصيب وافر في ترقية المعارف المشتركة واكتساب المهارات . وكان لتجارة الرقيق ، بصفة خاصة ، حظ كبير في الربط الاثنوجرافي بين الجانبين العربي والافريقي .

لم تكن بداية تجارة الرقيق تاريخيا شراً كلها كما تصورها المراجع الاجنبية التي لا تني تذكر هذه التجارة كلما ذكرت العلاقات العربية الافريقية. وتقصر هذه المراجع التجاره العربية فى أفريقيا على الرق فتضخم أمره وتجسّده وتضعه اسفينا ساخنا يفصل بين الكتلتين العربية والافريقية ، فإذا العلاقات الأزلية بين الجانبين العربي والافريقي لا تخرج على دائرة النخاسة التي مارسها الغرب في هذا الجزء من العالم بشكل أكبر مما قام به العرب ، وبأسلوب همجي لم يعرفه العرب .

وفي الحقيقة فإنّ الاتجار في البشر أمر قديم لم يبتدعه العرب ولم يقتصر عليهم دون سواهم من أمم العالم. مثّل الرق فترة زمنية معينة بدأت مع بداية التجارة ، وكان الرق الطاقة المحرّكة لكثير من النشاطات الإنسانية. وفي اعتقادنا ان تلك الفترة قد امتدت وغطت فترة طويلة من عمر الزمان حتى فترة العصور الوسطى حيث انتهى الرق في العالم الغربي

ليفسح المجال لعصر العبيد الذي بدأ يزداد حدة وضراوة مع تقدم وسائل الملاحة والاستكشاف . عمل العالم الغربي في هذه الفترة بصفة خاصة في نقل العبيد الأفارقة إلى أوربا ثم إلى أمريكا لدفع عجلة الانتاج. وفي اعتقادنا أن العرب لم يشاركوا البتة في مرحلة "العبيد" التي كانت تطورا لمرحلة الرق ، فقد ظلوا يتعاملون في الرقيق الذين تطور وضعهم في المجتمعات العربية تطورا ايجابيا لم يؤد بهم الى العبودية. وانتهت مرحلة العبيد في الغرب بعدئذ بالتطور السريع المتلاحق حين بدأ عهد الاستعمار ، ورأى الانسانيون في أوربا صوابا أن نقل العبيد من بلادهم لا يفيد إلا بدفع عجلة الانتاج في بلاد الغرب ، أما إذا ترك العبيد في أراضيهم فإن الغرب سيفيد باستعمار الأرض جراء الجهد البشري واستثمار المصادر الأولية في البلاد التي يؤخذ منها العبيد. قال أولئك الفلاسفة بكراهة اختطاف الانسان من أرضه واستعباده بأرض أخرى ، وبشروا بوجوب استعماره فى أرضه وتعليمه . وعلى ذلك فإن الآدمى سيكون صنو أرضه فى خدمة استثمارات الغرب حتى إذا تعلم وفهم مبادىء الحضارة الغربية هام بها وانبرى يخدم أهدافها ويعلى مراميها طوعاً واختياراً . ومع الإنسانيين بدأ التدافع الأوربي لاستعمار أفريقيا ، أرض العبيد المحررين بفكر الإنسانيين . ودخلت البلاد العربية ، شركاء المصير الافريقي بشكل أو بآخر تحت دائرة العبيد المحررين حين استعمرت أوربا البلاد العربيه. وانتهت مرحلة العبيد المحررين بانتهاء الوجود الاستعماري الأوربي ليعود مع بداية النظام العالم الجديد منهج الرق بأسلوب متطور ليشمل رقعة ما يسمى بدول العالم الثالث كلها. والتاريخ دائرة تتكرر فيها الاحداث ولكنها لا تدور على نفس النسق إنما بشكل تصاعدي يكشف عن تقدم ورقي. فاختلاف الأحداث في التاريخ اختلاف درجة وليس اختلاف نوع، وهو اختلاف ظواهر وليس باختلاف أصول. فعلي رقيق ارض العالم الثالث، بموجب النظام العالمي الجديد، ان يقدموا جهودهم وخبراتهم ونتاج باطن ارضهم وظاهرها لترقية التجارة والثقافة "العالمية" التي هي في محصلتها النهائية تجارة وثقافة غربية .

لم يصل الفكر الانساني للرق في صيغته الأولى بين يوم وليلة انما كان ذلك نتاج تجارب انسانية استغرقت سنين عددا. طوّع الانسان الاول الخشب والعظم والحجر ثم المعدن والمواد

الأولية الأخرى لاحتياجاته . وخرج الانسان بهذا النشاط الوظيفي الى التجارة التي خلقت طبقه من الوسطاء يحملون الحجر الاصلح للصناعات الحجرية الى جماعات الصيادين والزراع يقايطونهم به . وحين ظهرت طائفة الكهان اخذت تقايض الوعظ والارشاد باللحم والثمار وبالخزف والخرز ، والعطور ثم بالارض. وازدادت تبعا لذلك حركة التجارة بالمقايضة . ثم ظهرت طبقة رجال الادارة الذين نظموا الاسواق، وشجعوا حركة المقايضة، واستعملوا الخفر لضبط النشاطات الانسانية في مناطقهم، وقايضوا من ثمّة الأمن بالثمار وباللحم وبالأرض والحيوان. نشأ عن مقايضة الأمن بمعناه الروحي والمادي بالأرض وثمارها نشاطات إنسانية اخرى أدت الى تعقيدات جديدة في العلاقات الانسانية بأسرها فبازدياد دائرة نشاط الحاكم أو الكاهن المكانية تتسع دائرة مقايضة المعنوي بالمادي ، والحسي بالملوس. اضّطر الحاكم أن يستعين بغير أهله لضبط الامن في منطقته فاضّطر ان يضم اليه جماعات اخرى لازمته وأعانته على تدبير امره وكان عليه ان يقايض خدماتهم بما يضمن اعالتهم . وهكذا ظهرت حول الحاكم في صورته البدائية طبقة من رقيقي الحال تعتمد عليه لتقايض الاخرين بجهدها .

وحين تطورت فكرة المعبد وزادت رقعة الارض الخالصة للإله البدائي نشأت طبقة من رقيقي الحال زرعوا للكاهن أرضه ، وكان عليه أن يقايض نشاطهم العملي بسد حاجاتهم الحياتية . وبهذا يمكن القول ان الرق ظاهرة نشأت في عصور ما قبل التاريخ ، وكان في مراحله الباكرة ظاهرة صغيرة نسبيا ، معتدله المدى ومنطقية . وأضيف إلى رقيقي الحال الذين ارتبطوا بالاقتصاد البدائي آخرون من المجرمين والساخطين وأسرى الحرب ، فقد استحدمهم ذلك المجتمع الذي يفتقر الى الحكومة الموضوعية التي تفتقر الى السجون ووسائل تنفيذ القانون استخداما إنتاجيا. ولأسباب عدة لم يكن الإنكار الكلي للانسانية والشخصية – وهو الانكار المرتبط عادة "بالعبودية" وليس بالرق – موجودا. لم تكن لدى تلك المجتمعات البدائية فكرة دقيقة عن الحقوق الخاصة للانسان ، ولهذا كانت الحقوق الشخصية للرقيق وأحوالهم العامة تحميها قوة العرف ومسؤولية الجماعة . وكذلك كان الرق عادة لايستمر إلا لفترة زمنية معنية تتناسب مع خروج رقيق الحال المستغل اقتصاديا من دائرة الفقر أو مع

ظروف الجريمة وطبيعتها ومبررات الأسر ، وبهذا لا يكون الرق حاله طابعها الدوام . كما كان في الامكان أن يكسب الرقيق حريته بفضل حسن سلوكه أو بالشراء . وكان المالك مسؤولا عن المحافظة عليه وحمايته ، ومقابل هذا يؤدي الرقيق قدرا محددا من العمل بغير أجر . ويستطيع الرقيق في وقته الحر ان يعمل بأجر فيقتني الرقيق بدوره ، أو يشتري حريته ويعود فيندرج في المجتمع عضوا كاملا له مسوولياته وعليه واجباته (٥٤) .

وهكذا نشأ الرق . وفي اعتقادنا انه كان "مهنة" وليس عبودية. واستمرت هذه "المهنة" في اوربا حتى العصور الوسطى حين الغيت مهنة "القن" مع ذهاب النظام الاقطاعي . ولاتختلف مهنة القن الاوربي عن مهنة "الرقيق" العربي الا في درجة المعاملة حيث كان القن الغربي "آلة بشرية" عليها ان تنتج في غير كل لقاء سد الرمق ، بينما كان الرقيق العربي "ثروة بشرية" يجب القيام باحتياجاتها والاحسان اليها لتتمكن من اداء مهامها. ولم ينشأ اختلاف المعاملة الا من اختلاف مهنة القن الاوربي عن الرقيق العربي . فالاول مرتبط بالارض يسهل ضبطه ، أما الثاني فهو قائم بالتجارة والملاحة والرعي والجندية ، وكلها نشاطات يمارسها الرقيق بعيدا عن سيده لا يجبره عليها إلا الإحسان وحسن المعاملة . فاذا اضيف الى هذا كله موروثات الشرقي والغربي والثقافة التي شكلت جزءا مهما من شخصية كل منهما لتبين لنا العمق الفارق بين القن والرقيق . ولم يكن الرقيق عند العرب يعني اكثر من مقايضة "الطاقة" البشرية للفرد بسد الاحتياجات المادية له .

مارسبت الحبشة الرق منذ عهد قديم جدا، وكان فيها أسواق لبيع الرقيق . وكان الفراعنة يرسلون إلى بلاد كوش لاستجلاب الرقيق، وكوش هي منطقة الى الجنوب من مصر وتشمل الحبشة. وكان لهؤلاء العبيد مناطق على البحر الأحمر ، لاسيما ميناء عدول ، حيث كانوا يخصّون ويحملون إلى كافة بلاد الشرق والغرب (٥٥) .

كان معظم جنود مكة في الجاهلية من رقيق الحبشة . وقد استعانت بهم قريش دائما في حراسة قوافلها ، وفي حروبها القبلية، وكان يطلق عليهم العسكر تمييزا لهم عن السادة العرب. ولم يأنف العرب حتى إبّان عنجهية الجاهلية من ان يتزوجوا فيهم. ونشأ من رقيق الحبشة بصفة خاصة نسل ضم خصائص العربي الى الافريقي أطلق عليه اسم غربان

العرب . اشتهر من هؤلاء الغربان عنترة بن شداد العبسي الذي اكتسى بالشجاعة وتكلل بالفصاحة . وبقيت ذكراه مكتوبة يتغنى بها المحبون في كل عصر ، ومروية خاصة في عيون الجواء من أعمال القصيم (في السعودية حاليا) حيث نشأ عنترة ، وشغل المنطقة بشجاعته وفصاحته. وتقوم عند تلك العيون صخرة كمثرية الشكل شكّلتها العوامل الطبيعية تقف على رأسها حاملة عليه ذلك الثقل المتكور . وجاء في أساطير تلك المنطقة ان عنترة حين كان يغشى ديار عبلة يربط فرسه الى تلك الصخرة ويتفيأ مع محبوبتة العربية الخالصة ظلال شجرة قريبة . وتظل الفرس تدور وهي في مربطها وتدور حتى نحتت سلاسلها الجزء الأسفل من تلك الصخرة الصماء فاتخذت تلك الصورة الفريدة. فهنيئا لعنترة بما قضاه من وقت في رحاب محبوبته حتى فتت سلاسل فرسه الصخر ، وهنيئا لتراثنا العربي بروايات خيالية تنفي عنه كل تعصب للون أو المنشأ أو العرق .

الرق الحبشي في العصر الاسلامي الاول

وجاء الاسلام دينا لكل البشر في كل زمان وفي كل مكان تظله السماء . وآية عالمية هذا الدين التطبيقية أن قيض الله للدعوة ، وهي بكر ، بلالا الأفريقي ، وصهيبا الأوربي ، وسليمان الآسيوى . رضي الله عنهم جميعا. فقوي باذن الله بجهودهم وجهود الصحابة الآخرين من العرب وغيرهم. كان الموالي الاحباش – أكثر من كافة العرب والعجم – مادة هذا الدين . فأرض الحبشة التى جاء منها الموالي آوت الاسلام الذي انكره العرب القرشيون من أهل مكة وطردوه وليدا. وفتح النجاشي ، الزعيم الحبشي ، صدره وبلده للمسلمين كما لم يفعل أي زعيم عربي في جزيرة العرب أو على أطرافها، وغدت أرضه أرض هجرة قبل أرض يثرب العربية. ولو كان للنجاشي موجدة على العرب من تجارة رقيق أو نحوها ما رحب بأوائل الموحدين في أرضه ، ولا انتصر لهم. كانت عروبتهم معروفة لديه، ولم يكن يعرف من امر الدين الجديد الذي يشجب القوميات شيئا . فالنجاشي حين استقبل المهاجرين الأوائل عاملهم بداية على انهم عرب من عرب مكة .

كان بلال ، المولى الحبشي ، أول من رفع صوته متغنيا أن لا إله إلا الله، داعيا أن حي على الفلاح ، حي على الصلاة التي هي عماد هذا الدين وجماع أمره. لازم سيدنا بلال ،

المولى الحبشي ، النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يعرف اكثر منه صحبة له في حله وترحاله . لم يفرقهما موقف الا جمعتهما الصلوات الخمس ، فهو مؤذن المسجد الذي إمامه الرسول صلى الله عليه وسلم . وكان دم مهجع الحبشي ، مولى عمر بن الخطاب ، أول دم يراق في المعارك لنصرة الاسلام ، بذله صاحبه حين أكرمه الله كأول شهيد في بدر . ومن إماء الحبش كانت ام أيمن ، حاضنة الرسول ، التي قال عنها صلى الله عليه وسلم أنها امه بعد امه . فأي شرف تتمناه حرائر العالم فوق هذا الشرف؟ . أما يسار، أحد الموالي الأحباش كان يتعهد مسجد رسول الله بالنظافة والكنس ، فقد جاء من خبره عن إبي هريرة رضي الله عنه انه قال : دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم فقال لي : يا أبا هريرة يدخل عليّ من هذا الباب الساعة رجل من احد السبعة الذين يدفع الله عن اهل الارض بهم. فاذا حبشي قد طلع من ذلك الباب أقرع أجدع على رأسه جرة من ماء . فقال يا ابا هريرة هو هذا. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات : مرحباً بيسار (٥٦) .

لن نخوض هنا في فقه الرق في الاسلام ، فليس هذا مجاله . ويكفي ان نشير إلى أن الاسلام حرّم استرقاق المسلم لأخيه المسلم . قصر الاسلام دائرة الرق على الذين يحاربون الاسلام ويعتدون على حرمات المسلمين، ثم وأوصى بالرقيق خيرا ونفى التمييز العرقي : فكلكم لادم وآدم من تراب .

لم يقصر الاسلام الرق على الاسود كما هو الحال في معظم الحضارات الشرقية البائدة والغربية السائدة . فالعبد الرقيق عند العرب ، حتى في جاهليتهم ، لم يقصد به الحبشي أو الزنجي ، فهم لا يخصون سواد اللون بالمهانة ، لكنهم يقصدون بالرقيق كل اسير لم يفك أساره، ويشري في الاسواق، ومنهم بيض الوجوه وصفر الوجوه (٥٧) . فسّر التراث العربي اختلاف الالوآن بين البشر بما يفسره به المحدثون من اختلاف العوامل البيئية والطبيعية. وقد ورد أن أولاد نوح اقتسموا الأرض بعد موت فالع بن عامر. فنزل بنو سام سّرة الارض فكان فيهم أدمة وبياض ، ونزل بنو يافث مجرى الشمال والصبا فكان فيهم الحمرة والشقرة، ونزل بنو حام مجرى الجنوب والدبور فتغيرت الوانهم (٥٨) . أما في الاسلام فقد ورد في القرآن الكريم : (ومن آياته ان خلق السموات والارض واختلاف السنتكم والوانكم ان فى

ذلك لآيات للعالمين) فاختلاف الالسنة والالوان هو من آيات الله الدالة على اكتمال قدرته حيث خلق الانسان من أصل واحد ثم تمايز الانسان بعد الخلق بالألوان ، وهو عند الله مثله مثل اختلاف الالسنة . وجاء في سورة فاطر : (الم تر ان الله انزل من السماء ماء فاخرجنابه ثمرات مختلف الوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف الوانها وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف الوانه) . فالله قد خلق الجبل والسهل والانسان والحيوان والحشرات والقواقع والاصداف والفطريات ، وأعطى كل شي لونه وخلقه وطبعه . وكانت حكمته في ذلك الدلالة على اكتمال قدرته ، وتبارك الله أحسن الخالقين (٥٩) .

وفسّر الرسول صلى الله عليه وسلم اختلاف الالوان بان الله قبض من قبضة خلقها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض منهم الأحمر والأبيض والأسود، وكذلك السهل والحزن، والخبيث والطيب. وينفي الفقهاء ما ورد عند أهل التوراة من ان نوحا قد نُأم فانكشفت عورته فرآها حام فلم يغطها ، وراها سام ويافت فألقينا عليه ثوبا فواريا عورته . فلما هبّ من نومه اطلع على ما صنع حام وسام ويافث فقال : ملعون كنعان بن حام عبيد يكونون لاخوته. وقال يبارك في سام ويكون حام عبد أخيه .

فقد جاء عند ابن مسعود ان نوحا اغتسل فرأى ابنه ينظر اليه فقال : انتظر اليّ وأنا أغتسل ؟ حار الله لونك ، فاسّود ، فهو أبو السودان. وقد نقده الامام الذهبي وضعّفه وانكره الائمة المتأخرون تماما . وعلى عكس ما يظن البعض ، فقد كان اللون الأسود من الالوان المحببة لدى العرب خاصة في النساء . ويروي عن يعض أهل المجون والفاسقين من العرب الذين وافقوا سلامة الزرقاء ان ثمن القبلة منها بلغ أربعين ألف درهم ، وكانت من سلالة السود. وكانت سلامة القس وحبّابه صاحبتها من جواري المدينة المولدات ، وتروي قصة من أشجى القصص العربية عن غرام يزيد بحبابه ، وموته حزنا عليها (٦٠) .

التغني بالجواري السود

قال بعضهم :

أحب النساء السود من أجل تلكم	ومن أجلها أحببت من كان أسودا
فجئني بمثل المسك أطيب نكهة	وجئني بمثل الليل أطيب مرقدا (٦١)

وقال آخر

سوداء حالكة الإهاب إذا بدت ... تسبي النواظر والقلوب جمالا
ودت حسان البيض ان لو صيّرت ... من لونها في كل خد خالا (٦٢)

وجاء أيضا :

أعشق البيض ولكن ... خاطري بالسمر أعلق
إن في البيض لمعنى ... غير أن السمر أرشق
وظلال الأيك عندي ... من هجير الشمس أرفق
وشذى العنبر والمسك ... من الكافور أعبق
وكذا التبر من الفضة ... بين الناس أنفق
فإذا أنصفت والإنصاف ... بين الناس أليق
فبديع الحسن يهوى ... حيثما كان ويعشق (٦٣)

وقال بعضهم

قالوا تعشقها سمراء قلت لهم ... لون الغوالي ولون المسك والعود
إني امرؤ ليس شأن البيض مرتفعا ... عندي ولو خلت الدنيا من السود

وقال آخر :

وعايب للسمر من جهله ... مفضلا للابيض التركي
قولوا له أما تستحي ... أن تجعل الكافور كالمسك

وجاء أيضا :

في الوجنة السمراء معني يشتهي ... بخلاف ما في الوجنة البيضاء
إن الشفاه إذا تنازعت المدى ... في الحسن كان السبق للسمراء

وقال بعضهم :

وفي السمر معنى لو عرفت بيانه ... لما نظرت عيناك بيضا ولاحمرا

ليانـه أعطـاف وغنـج لواحـظ يعلمن هاروت المهانة والسحرا (٦٤)

ومن ذلك أيضا :

وجارية من بنات الحبوش ذات جفون صحاح مراض

كنت أعيّـرها بالسـواد فصارت تعيرنـي بالبياض

وقال بعضهم :

ألم تر أن المسك منه حصيه بمال وأن الملح وقر بدرهم

وأن سواد العين للعين نورها ومالبياض العين نور فافهم

وقال آخر :

قالوا بمن أنت شـغوف فقلت لهـم بمن فـؤدي لديـها الدهـر مـرتهن

علقتها من بنات الحبش في عـدن يا حبـذا الحبش بل حبـذا عـدن

قد عمها الخال من كل الجهات فما يختص جارحـة إذ كلها حسـن

تميس في وشيها والحلي من طرب كمـا ترنـح في أوراقـه الغصـن

فصيحة لفظها من دون أسـرتها ما شـابه قط لاعـيّ ولا لكـن

تقـوم بالبيـت في أوقات حاجتـه ولايمس يديـها دهـرها درن

ملكتـها القلب لما ابتعتـها ففـدا لديـها مباحـا مالـه ثمـن

بنـون حاجبـها مع صاد مقلتـها حازته والحسن فيما نص مؤتمن (٦٥)

فالجارية هنا قد ملكت قلب هذا الشاعر كما لم تفعل زوجته ، فصاغ فيها شعرا لا مزيد فوقه. ولن تجد في أي أدب لأي شعب من شعوب الدنيا ما يرفع الجواري الى هذه المكانه أو إلى ما يدانيها . فالجارية هنا ترفل في ملابس موشاة ، وتميس بالزينة والحلى ، ولم تحرم من متاع الدنيا شيئا . وربما استنتجنا من هذا الشعر وغيره ان النخاسين كانوا يهتمون اهتماما خاصا بتربية الجواري وتعليمهن شتاتا من علوم اللغة العربية وأدابها ، والتاريخ وعلومه ، وفنون الفنج وغير ذلك مما تحسن به الجوارى في أعين الرجال فيربو ثمنهن . وقد جاء في هذا المعني عند بعض الشعراء في جواري الحبشة :

ياذا الذي ينفـق أمـوالـه في حب هذا الأصفر الفائق

ما الذهب الصامت مستكثر	انفاقه في الذهب الناطق

جاء هند بعض أهل المقامات إنه اشترى جارية من سوق رقيق بالحبشة التي بلغها بعد رحلة حافلة بالمشاق. كان ذلك السوق يغصّ بكل هيفاء اذا ما بدت يرجع عنها كل ذي طرف كليل . يقول الرجل :

فلم أزل حتى تخيرت منهن	بنقدى ذات طرف كحيل
ذابلة الالحاظ هاروت يقري	السحر في أجفانها للسبيل
وثيرة الأرداف لكنها	رَشيقة القد بخصر نحيل
سمراء دعجاء لها منطق	يحل ولكن كف البخيل
تحفظ التاريخ مع صغرها	وقصة القاتل بعد القتيل
وتورد الأنساب عن دغفل	نقلا وتحتج بقول الخليل
وكم روت في النظم ما يحتوي	على بسيط كامل أو طويل
وفاقت الخنساء في شعرها	وتوبت قبل كثير جميل
وعلمت دعبل ما قاله	في الطالبيين وآل الرسول
فبت أرعى في رياض المنى	وموردي من ثغرها سلسبيل
فهذه قصة ما مربّي	فحسبنا الله ونعم الوكيل (٦٦)

لا نعتقد من جانبنا أن حسن معاملة الرقيق ، والمبالغة في تدليل الجواري تبيح للانسان ان يسترق أخاه الإنسان فذلك امر لا تقره الاخلاق ، ويرفضه الدين الاسلامي الذي قصر الرق على المعتدين على المسلمين وديارهم . ولم يكن السود في ماضيهم ولا حاضرهم من المعتدين على الاسلام وارضه ، فالاسلام دين السود الذين آزروه ونصروه وامنوا برسالته ، وهو ، بعد ، دين جميع الخلق على اختلاف الوانهم بما فيها الابيض الذي يكيد بعض قادته للاسلام تماما مثلما يكيدون للسود حتى من غير المسلمين . واذا قدر للمسلمين ان يسترقوا في أيامهم هذه الرق الذى أباحه الإسلام فسيجدون رقيقهم ابيضا اخضر العيون كان الرق عند العرب "مهنة" يبذل الرقيق قوة عمل ويلقي ما يحفظ عليه حياته . وقد شهد بعض مفكري الغرب في عصر النهضة الأوربية أن فقراء المجتمع الأوربي يرحبون بوضع الرقيق العربي

اذا قيض لهم اكتساب ذلك الوضع . وشهد كثير من الرحالة الاوربيين في العصر الحديث من الذين جابوا الجزيرة العربية بأن الرق عند العرب يختلف مظهرا وجوهرا عن العبودية عند الغربيين (٦٧) . ولعل هذا الأمريرجع في أساسه للحضارة العربيه والتراث العربي وأثر الإسلام فيهما . قابل دواتي Doughty ، وهو احد الرحالة الذين جابوا الجزيرة العربية، ، أحد الرقيق من الجالا وكان قد اختطف من بلاده فى شرق أفريقيا طفلا فأراد ان يستثير نقمته فسأله عن شعوره تجاه الذين نزلوا به الى درك الاسترقاق. فاجاب الرجل بأن عناية الله اكبر من كيد الكائدين ، وعدله فوق ظلم الظالمين . فقد نقلته العناية من تلك المنطقة في الشرق الافريقي حيث قومه لا يزالون على وثنيتهم غارقين في جهلهم يعمهون ، الى هذه المنطقة في جوار الرسول الكريم حيث اصبح مسلما . وانبرى ذلك الحبشي المسلم ليقوم بواجب الدعوة الى الاسلام فدعا ذلك الرحالة الفخور بثقافته المستعبد بحريته المادية فقال له انه ، رغم الرق ، يجد حلاوة الايمان التي لاتستطيع كلمات البشر ان تعبر عنها . وطلب الى ذلك الرحالة ان يسلم لله رب العالمين ويشاركه لذه الايمان قبل ان يدركه الموت وحينها لن تجدي عنه ثقافته فتيلا . واختتم ذلك الحبشي حديثه مع الاوربي قائلا : " اتمنى ان تصبح فردا منا . هذا مع علمي ان مجريات الامور بيد الله يديرها كيف يشاء."

من أدب الاسلام في الرق

جعل الاسلام الاعتاق حسنة تكفر عن كثير من السيئات، وفرضها على الذين يخالفون بعض أحكام الدين، وجعل وصية الرفق بهم مقرونة بالاباء والأقربين . واعتنى بهم حتى من النواحي النفسية فكان صلى الله عليه وسلم يقول : لايقل احدكم عبدي وامتي وليقل فتاى وفتاتي وغلامي (٦٨) ، واخرج الطبراني في الأوسط عن انس قال : كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم موليان حبشي وقبطي فاستبقا يوما . فقال احدهم : ياحبشي ، وقال الاخر يا قبطي ، فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم : لاتقول هكذا، إنما أنتما رجلان من آل محمد (٦٩) . وكانت معاملة النبي صلى الله عليه وسلم للارقاء كمعاملته لال محمد، فكان يؤاكلهم ويلبي دعوتهم الى الطعام، ويقول للمسلمين : هم اخوانكم وخولكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فيطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما

يغلبهم ، فان كلفتتوهم فأعينوهم . وأكرم ما قال في هذا الباب : "انما انا عبد آكل كما يأكل العبد، واجلس كما يجلس العبد ." (٧٠)

شجّع الرسول زواج موالي المسلمين من الحرائر ، " كما حثّ على التزوج من الاماء . عن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم : " من انكح عبدا وضع الله على رأسه تاج الملك يوم القيامة . كما ورد عنه صلى الله عليه وسلم : عليكم بالسراري فإنهن مباركات الأرحام " . (٧١)

تكريم الرقيق

وتزوج الصحابة في الاماء وكذلك التابعين وتابعيهم حتى ان خلفاء بني العباس كلهم على امتداد تاريخهم لم يكن فيهم الا ثلاثة فقط من غير ابناء الجواري وهم : السفاح ، والمهدي ، والأمين ، أما الباقون فكلهم أبناء سراري (٧٢) .

أما ابناء الحبشيات من الصحابة رضي الله عنهم فمنهم صفوان بن امية بن خلف الجمحي، وعمرو بن العاص، ومن غيرهم عبدالله بن قيس بن عبدالله بن الزبير، وعبد الله بن عامر بن كريزة، ومحمد بن علي بن موسى بن جعفر بن الحسين، وجعفر بن اسماعيل بن موسى بن جعفر، وابراهيم بن حسن بن الحسن، وولداه محمد وجعفر، وسليمان بن حسن بن عقيل بن ابي طالب، ويعلي بن الوليد بن عقبة بن أبي معيط، والعباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس . وعيسى وجعفر ابنا ابي جعفر المنصور، وهبة الله بن ابراهيم بن ابراهيم بن المهدي، والعباس بن المعتصم، . ومنهم كذلك الخليفة المقتفي بأمر الله (٧٣) .

اما رقيق الحبشة فقد ظل متمتعا بالعطف والرفق لما كان للحبشة ، دار الهجرة ، من مكانه في قلوب المسلمين. ويؤكد الشعر العربي ان العرب المسلمين كانوا ينظرون الى تلك الأمة بكثير من التجلة والاحترام بل انهم عمدوا الى المبالغة حين فضلوا في النسب مواليها على أحرار العرب وذلك تكريما لسيدنا بلال. قال الشيخ عبد النافع بن عراق يرد على الشيخ عبدالله الفيومي الذي كان قد كتب قصيدة هجا فيها الحبشان ورقيقهم (٧٤ .

أفيومـــي مـــالك والملامــــــة   دع الأحباش وأمض مع السلامة

أتهجـو أمــة منــها بــلال	مــؤذن من تظــلل بالغمامــة
ولقمان الحكيم كذا النجاشي	وأقــوام علت بهــم العلامــة
اتهجو الحبش يا ريفي أصل	وتفخر بالفهـامــة والبـلامــة
فلا ســمعا ولا طـوعا لهـذا	ولاحــبا لذلك ولا كــرامــة
وانا قد سـمعنا عنـك شـيئا	وذلك الشـيئ يقضــي بالملامـة
فخّل الحبش ياذا عنك وارجع	كثـور قد تمــرغ فـي رغامــة
فهم أحبابنــا رغمــا لأنف	تشـامم بالفلاحـة والعــزامة
فكم من جوهـر منهم مصـون	وياقــوت نفيس ذي فخـامــة
وكم من عنبـر منهم ذكــي	عزيـز لم ينـل أحـد لثـامــة
وكم فيهم محاسـن وهي شتى	وأوصــاف ألذّ مـن المـدامــة
أدام الله نصــرتهم وأبقــي	محاســنهم إلى يــوم القيامــة

الرقيق الحكام

لم يقر الاسلام الرق إلا في حالة أسر المعتدين المحاربين للمسلمين ، ثم أمر بالإحسان الى هذه الفئة من البشر ، وجعل تحريرهم من دروب التقرب الى الله وكفارة الذنوب. ولربما ولى عصر الرقيق ببزوغ فجر الاسلام إذا كفّ الاخرون عن العدوان على ارض المسلمين وحرماتهم. ولم يكف المشركون عن أذى المسلمين واستمرت لذلك فكرة الرق فى الإسلام مع فكرة الاحسان إلى الرقيق. يضاف إلى هذا نوعية أخرى من الرق مشتراه تعامل فيها بعض الحكام الطغاة في البلاد الاسلامية اذ اعتمدت قواتهم العسكرية على مجموعة من الرقيق . فالرقيق المرتبطون بهم كانوا أشد اخلاصا لهم من مواطنيهم الذين كانوا تاريخيا أكثر ارتباطا بقبائلهم وشيوخها من الحاكم الذي يمثل في نظرهم شيخ للشيوخ وصل الى سدة الحكم برضاء شيوخ قبائلهم أو بدون ذلك. وأصبح على اولئك الحكام ان يحسنوا لرقيقهم وتجنيدهم لاخضاع الثائرين عليهم . وبهذا اصبح الرقيق جزءاً من "قبيلة" الحكام ، وشريحة تأمر وتنهي في الاحرار القائمين عليهم. ولعل دولة بني نجاح التي قامت في اليمن خير مثال

لدول الرقيق الحبشي ففي الوقت الذي نجح فيه المسلمون في اقامة دول الطراز في المنطقة الفاصلة بين هضاب الحبشة وساحل البحر الاحمر نجح رقيق الحبشة في اقامة دولة ، عربية اللسان ، إسلامية الهوية، قضت على الصيلحيين من اتباع المذهب الاسماعيلي هناك . اسس تلك الدولة نجاح ، وهو من أرقاء الحبشة، وآخر نظّار السراى في الدولة الريادية ، وقد حكم في زبيد الى ان توفي في عام ٤٥٢هـ/١٠٦٠م. واسترد الصيلحيون الحكم لفترة قام بعدها بنو نجاح باسترجاع ملكهم مرّة أخرى ، ونكلوا بالصيلحيين ، ولم يبقوا منهم باقية (٧٥) . يقول عمارة اليمنى : فرأيت شيخا منهم (الصيلحيين) اتقى الحربه بولده فنفذت منها جميعا . نعوذ بالله من جهد البلاء. وتفاني الشعراء العرب في مدح هؤلاء الملوك الرقيق ، واشادوا بمقتل آخر ملوك الصليجين :

ما كان أقبح وجهه في ظلها　　　　ماكان أحسن رأسه في عودها

فقبّحوا وجه الرجل في حياته مع تجميله في وفاته. وكان من اثر هزيمة الصيلحيين على أيدي بني نجاح أن هاجر أولئك الى الهند خشية البطش. وعاد الامر الى بني نجاح وامتلأت صدور الناس هيبة من أول ملوكهم وهو سعيد بن نجاح بعد مقتل على الصليحي . واستقر الامر في تهامة لسعيد الأحول بن نجاح في عام ٤٧٣هـ/١٠٨٠هـ (٧٦) . واستمر حكمهم لحوالي قرن من الزمان حتى افسح الطريق للمهديين في عام ٥٤٤هـ/١١٧٣م . ولعله من الطريف ان نلاحظ ان ارقاء الحبش من ملوك بني نجاح اعتمدوا بدورهم على الوزراء الأحباش حتى حتى اصبحت السلطة في ايديهم تماما يأمرون وينهون ، ولم يعد للملوك الا الرسم . ففي عهد المنصور بن قاتل بن جياش (٥٠٣ - ٥١٧هـ / ١١٠٩ — ١١٢٣م) كانت السلطة في يد انيس الفاتكي ، وهو من الأحباش أيضا، امتاز بالشجاعة واتصف بالشدة . وقد أثرى هذا الوزير ثراء فاحشا من الاموال التى استولى عليها من بني نجاح حتى انه ابتنى قصرا عظيما اتخذه لاقامته، كما سك النقود باسمه. وقد فتك به المنصور . والت السلطة بعد هذا الوزير الى وزير حبشي آخر هو ابو منصور مفلح الفاتكي الذي امتاز بالأدب والشجاعة والكرم .

وفي عصر فاتك الثالث بن منصور (٥٣١ - ٥٥٣هـ/١١٣٦ - ١١٥٨م)ظهرت في بلاد اليمن طبقة من عبيد الأحباش منهم ريحان الأكبر وإقبال ومسرور الذين علا نفوذهم على نفوذ الوزير . وحدث أن تآمر هؤلاء الرقيق على الوزير مفلح الذي توفي فى ٥٢٩ هـ/١١٣٤م

. وتقلد الوزارة بعده طائفة من رقيق الحبشة حتى زالت دولة بني نجاح حين قضى عليها علي بن مهدي في ٥٥٤هـ / ١١٧٣م (٧٧) .

وفي القرنين الرابع عشر والخامس عشر من الميلاد قام الأباطرة العثمانيون بالاستعانة بعدد كبير من الرقيق لادارة إمبراطوريتهم المتسعة فاعتمدوا على الرقيق الذين ارتقوا الى وظائف عليا في الجندية والادارة. ومارس العثمانيون على هؤلاء الرقيق عمليات الخصاء للحيلولة دون قيام مصالح وراثية قد تؤدي الى منازعة الحكام ملكهم. هذا بالرغم من أن الخصاء أساسا لم يكن بدعة عثمانية إنما كانت تمارسه بعض الجماعات الافريقية فاخذه الآخرون عنها . ففي منطقة مثل داهومي التي لم يثبت ان تعامل أي من العرب عامة أو المسلمين خاصة في رقيقها ، كانت الملكية تخصي عبيدها . ويحارب اولئك المخصيان مع فرق النساء المحاربات اللائي كن من العذراوات. (٧٨) ومن نافلة القول ان نثبت في هذه العجالة انه رغم ممارسة خصي الرقيق في المناطق الاسلامية الا ان عدد الخصيان والرقيق عموما الذين بلغوا مواضع الرئاسة وتولوا سده العرش وأصابوا الملك في المنطقة العربية ، كانوا اكثر من ان نستقصيهم عددا . واذا اضفنا لهذه الشريحة الاخرى من ابناء الموالي الذين تولوا الحكم في هذه المنطقة لا ستطعنا أن نقول أن مهنة الحكم في البلاد العربية كانت في العصور الوسطى مهنة الرقيق وابنائهم، واستمرت مهنة "الحكم" في كثير من نواحيها مهنة رقيق حتى بداية العصر الحديث وتجاوزته . حكم بعض الرقيق العرب من الأمريكان الذين كانوا مسترقين لبعض شيوخ قبائل اليمن في تلك القبائل بعد موت سادتهم من الشيوخ . كما وصل بعض الأمريكان الذين استرقهم أهل الشمال الأفريقي في حروب الجهاد إلى مناصب الوزارة . وأصبح للرقيق الأمريكان في البلاد العربية التي استرقتهم في العصر الحديث سفنهم الخاصة ووسائلهم المختلفة التي تمكنهم من النزوح الى مواطنهم الاصلية التي وفدوا منها ، ولكنهم لم يفعلوا ولم يسعوا لاكتساب حريتهم رغم أنهم كانوا من البيض ، ومن الجنود والضباط العاملين في الأسطول الأمريكي في البحر المتوسط . أما في الغرب فلم نسمع عن "عبد" واحد اصاب في مدارج الحكم او الرئاسة او الدين شيئاً ذا بال، ولم نعرف شاعرا ايضا امتدح عبداً أسوداً او رفع من شأن خلق الله في هذه الشريحة من البشر .

تجارة الغرب في رقيق افريقيا في العصر الحديث :

سيطرت البرتغال على تجارة الرقيق الافريقي في القرنين الخامس عشر والسادس عشر .

كما سيطرت هولنده على تلك التجارة خلال الثلاثة أرباع الأخيرة من القرن السابع عشر، وبريطانيا في السنوات ١٦٧٢ - ١٨٨٠م، وبعد ذلك اصبحت الغلبة لسفن الولايات المتحدة الأمريكية والبرازيل وأسبانيا وفرنسا. ومن الثابت ان عدد الرقيق كان يتفاوت من قرن لآخر ، ولكن إذا نظرنا إلى المجموع الكلي نجد أن بريطانيا والبرتغال نقلتا حوالي ٣٢٪ ، وهولندا حوالي ١٨٪ ، وفرنسا حوالي ١٢٪ ، والولايات المتحدة الأمريكية (بعد ١٧٨٣م) حوالي ٥٪ (٧٩) . ولم يكن من التقاليد الافريقية أو العربية استرقاق الأشخاص بصفة دائمة ، أو اعتبار الرقيق ملكية خاصة غير مقيدة ، أو جعلهم عنصرا أوليا في تجارة الجملة. وعندما دخلت تجارة الرقيق الى الغرب مارسها بتقاليده على ضوء حقوق الملكية المطلقة. وقد ولّد هذا التمازج بين النظامين التقليديين الافريقي والاوربي ما ولّد من الأعراف الهمجية والممارسات غير الانسانية .

قام الامبراطور منياس بن جلاديوس في الحبشة بطرد القساوسة البرتغاليين الكاثوليك وجنود البرتغال من الأرض الحبشية، وكذلك فعل من خلفوه على هذا العرش وحاولوا تجديد علاقاتهم بكنيسة الإسكندرية وبحكام اليمن. ونجد بعض المؤرخين من الغربيين والناقلين عنهم من العرب ، يوجهون اللوم لمثل هؤلاء الملوك لأنهم أغلقوا الحبشة في وجه المدنيه الأوربية . يقول زاهر رياض: إنّ هذا الكلام وان بدا وجيها و صحيحا في ظاهره الا انه لم يحمل من الحقيقة ظلها . ففي هذا العصر بالذات نزل البرتغاليون أماكن أخرى في قارة إفريقيا وتوغلوا إلى الداخل في بلاد وممالك مثل الكنغو مثلا التي لم يكن أهلها من المتوحشين المتعطشين للدماء كما تصفهم المصادر الأوربية . كان ملك الكنغو حاكما كاهنا رحّب بقدوم الأوربيين لأنهم حملوا إلى بلاده نوعا من المعرفه الجديدة . ولكن أولئك "المتمدنين" شجعوا روح العداء في المتنافسين من أبناء الأسرة الحاكمة. وأفاد البرتغاليون من الحروب الأسرية في تلك المناطق التي اعتقدوا أن شعوبها خلقت للاسترقاق. سجل الملك الفونسو الأول (١٥٠٧ - ١٥٤١م) الذي عمد تحت اسم أوربي خيبه امله في البرتغاليين ورجال كنيستهم . وبالرغم من أنه أرسل للبابا في ١٥٣٩م يلتمس عونه في وقف إتجار البرتغاليين في الرقيق واسترقاق أهله إلا أن الأخير أصمّ أذنيه عن النداء. وبعد وفاة الفونسو استشرت تلك التجارة وأصبحت بضاعة تحمل أختامها وتباع طبقا لأوزانها وأحجامها وطباعها" (٨٠) .

يستطرد زاهر رياض فيقول : كانت الكنيسة راضية عن هذه الفظائع ما دامت تأخذ

نصيبها من الأسلاب وقنعت بأن تطالب بتعميد العبيد المرسلين الى أمريكا حتى يتيسر أمر "انقاذ ارواحهم" . أما فيما عدا ذلك فلم تر الكنيسة في هذا الشأن اية مخالفة تذكر. وراح القسيس يجلس على مقعده الرخامي مستقبلا الساحل يعمد العبيد ويأخذ نصيبه من رسوم التصدير. وكانت الرسوم تصرف على الأبرشية !. ومما يذكر بالخير لبعض الأساقفة انه رفض ان يأخذ رسوم تعميد الأطفال الرضع من العبيد، ولم يكن عددهم يزيد عن الخمسين طفلا في كل سنة يصل مجموع الرقيق المعمدين فيها إلى خمسة عشر أو عشرين الفا من العبيد. ومما لا ريب فيه ان هذه المدنية التي حملها البرتغاليون الى الكنغو هي نفسها التي كانوا سيحملونها الى الحبشة لو قدر لهم ان يستولوا على مقاليد الأمور فيها.

نخلص إلى أننا - حين نكتب عن الرقيق وغيره من مخلفات التاريخ - يجب ان نتمثّل الفترة التاريخية التي نكتب عنها ونعايشها ونتدبرأحداثها . كان الرق تاريخيا ضرورة اجتماعية اقتصادية . وجاء الاسلام بمثل جديده خالف بعض المسلمين أصولها لضرورات اجتماعية اقتصادية طارئة ولكنهم - على أية حال - لم يخرجوا بالرق الى العبودية . وعموما فان الشرق لم يمارس تجارة الرقيق بروح الغرب الهمجية، فالشرق في كل زمان عبر تاريخ متصل يغوص في تلافيف الزمن أقرب إلى دعوة الروح من الغرب، وفوق أرضه قامت أصول كل الديانات السماوية والمعتقدات الروحية التي لم يكن للغرب من وطأة نشأتها نصيب . أما دعوة الانسانيين في اوربا التي يرد الكثير من المؤرخين اليها حركة تحرير الرقيق فقد كانت ايضا نتيجة لضرورات اقتصادية اجتماعية غربية . ويقيننا انه لو تساوت معاملة العرب والافارقة لرقيقهم مع معاملة الغربيين لعبيدهم في السوء لانبجست دعوة الانسانيين في الشرق دون الغرب ، ولبذل أهل الشرق والافارقة أنفسهم في سبيل تحرير الروح . فأمر "الروحانيات" والقيّم والمبادئ والمثل ونشر فضائلها في العالم أوكله الخالق إلى أهل هذه المناطق من العالم ، في آسيا وأفريقيا ، دون سواهم من أمم الأرض التي لاتدافع سائر مؤسساتها عن قيمة أخلاقية مالم تكن في خدمة الاستعمار والاستثمار .

هوامش الفصل الأول

١ – ابراهيم أحمد زرقانه ، "تاريخ تكوين البحر الأحمر ونهر النيل" رحلة كلية الآداب ، مصر ، ١٩٣٩ ، ص ٣٢ .

٢ – محمود توفيق محمود ، المدخل الجنوبي للبحر الأحمر ، دراسة في الجغرافيا السياسية والجيوبولتكس ، الرياض ، ١٩٨٣ ، ص ٥٢ .

٣ – عبد المجيد عابدين ، بين العرب والحبشة ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٤٧ ، ص ١٢-١٣ .

٤ – أمين توفيق الطيبي ، الحبشة عربية الأصول والثقافة ، منشورات مركز جهاد الليبيين للمنشورات التاريخية (٢٠) ليبيا ١٩٩٣ ، ص ٣١-٣٢ .

٥ – تكوين ، ١٠:٧ "وبنوكوش سبا وحويلة ورعمه وسبتكا وبنو رعمه شبا وددان ".

٦ – نفسه ، ١٠:٢٣ – ٣٠ .

٧ – نفسه ، ١٠:٢٨ .

٨ نفسه ، ٢٥:١–٣٠ : "وعاد ابراهيم وأخذ زوجة اسمها قطورة فولدت له زمران ويقشان ومدان ومديان ويشباق وشوحا ، وولد يقشان شبا وددان."

٩ – محمد بيومي مهران ، دراسات في تاريخ العرب القديم ، الإسكندرية ، ١٩٩٣ ، ص ٢٦٨ .

١٠ – فيلب حتى وجبرائيل غبور ، تاريخ العرب ، ط ٤ ، بيروت ، ١٩٦٥ ، ص ٥٩ – ٦٠ .

١١ – *Schoff, W., The Periplus of the Erytherean Sea, London, 1912, p. 22 - 23*

١٢ – جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب ، عشرة أجزاء ، بيروت ١٩٦٨–١٩٧١ ، ج٥ ، ص ٥٠٢ .

١٣ – بيرنارد لويس ، العرب في التاريخ ، (مترجم) بيروت ، ١٩٥٤ ، ص ٣٠ .

١٤ – أمين توفيق الطيبي ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٠ .

* النمل : ٢٢ – ٤٤ .

* سفر الملوك ، ١٠: ١ – ١٣ .

١٥ – *Budge, History of Ethiopia and Nubia, London, 1928*

* في إعتقادنا أن سليمان (عم) لم يكن يعرف هذا النوع من الخشب الذي لم تكن تأكله دودة الأرض ، وإلا فقد كان من الأوفق له أن يجعل عصاه من هذا الخشب . يقول الله تعالى : "فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خرّ تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين ". (سبأ : ١٤) .

١٦ – *Budge, op.cit, p.16*

١٧ – عبد المجيد عابدين ، سبق ذكره ، ص ٤٢ .

١٨ – فيليب حتى وجبرائيل غبور ، سبق ذكره ، ص ٣٠٤ .

١٩ – محمد بيومي مهران ، سبق ذكره ، ص ٣٠٤ .

٢٠ – نفسه ، ص ٣١٢ – ٣١٥ .

٢١ – عبد المجيد عابدين ، سبق ذكره ، ص ٢٨ – ٣٣ .

٢٢ - عبد العزيز عبد الغنى ابراهيم ، تاريخ الحضارات السودانية القديمة ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ١٥٦ - ١٥٨ .

٢٣ - عبد المجيد عابدين ، سبق ذكره ، ص ٣٥ .

٢٤ - عبد العزيز عبد الغنى ابراهيم ، سبق ذكره ، ص ١٥٥ - ١٥٩ .

٢٥ - محمد عبد الغنى سعودى ، "الاتصالات العربية الأفريقية فى العصور القديمة" فى العلاقات العربية الأفريقية - دراسة تحليلية لأبعادها المختلفة ، القاهرة ، معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٧٩ ، ص

٢٦ - محمد بيومى مهران ، سبق ذكره ، ص ٣٦٧ .

٢٧ - نفسه ، ص ٣٦٨ .

٢٨ - نفسه ، ص ٣٦٩ .

٢٩ - عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى للدولة العربية ، ج١ ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ١٠٤ .

٣٠ - جواد على ، سبق ذكره ، ج٢ ، ص ٤٦٥ .

٣١ - نفسه ، ص ٤٦٠ .

٣٢ - محمد بيومى مهران ، سبق ذكره ، ص ٣٧٣ .

٣٣ - جواد على ، سبق ذكره ، ج٢ ، ص ٤٦٤ .

٣٤ - محمد بيومى مهران ، سبق ذكره ، ص ٣٧٤ .

٣٥ - جواد على ، سبق ذكره ، ج٢ ، ص ٤٧٥ .

٣٦ - محمد بيومى مهران ، سبق ذكره ، ص ٣٧٥ .

٣٧ - عبد المجيد عابدين ، سبق ذكره ، ص ٥٨ - ٥٩ .

٣٨ - الطبرى ، (أبو جعفر أحمد بن جرير) تاريخ الرسل والملوك ، أجزاء ١ - ٤ ، ج٢ ، القاهرة ١٩٦٧ - ١٩٦٧ ، ص ١٢٨ - ١٣٠ .

٣٩ - محمد بيومى مهران ، سبق ذكره ، ص ٣٨١ .

٤٠ - تاريخ الرسل والملوك ، ج٢ ، ص ١٣٠ .

٤١ - عمر بن فهد بن محمد بن محمد بن محمد بن فهد (٨١٢ - ٨٨٥هـ) إتحاف الورى بأخبار أم القرى ، تحقيق وتقديم محمد شلتوت ، ج١ ، القاهرة ، الخانجى ، د.ت ، ص ٢٠ - ٢١ .

٤٢ - نفسه ، ص ٢٧ - ٢٨ .

٤٣ - نفسه ، ص ٣٧ .

٤٤ - نفسه ، ص ٤١ .

٤٥ - محمد بيومى مهران ، سبق ذكره ، ص ٣٨٢ - ٣٨٣ .

٤٦ - تاريخ الرسل والملوك ، ج٢ ، ص ١٣٠ .

٤٧ - نفسه ، ص ١٤٢ .

٤٨ - نفسه ، ص ١٤٤ .

٤٩ - نفسه ، ص ١٤٨ .

٥٠ – حسن مكي محمد أحمد ، "حوار الرسول صلى الله عليه وسلم مع أفريقيا" دراسات أفريقية ، العدد ١٠ ، الخرطوم ديسمبر ١٩٩٣ ، ص ٤٦ .

٥١ – عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطيء) تراجم سيدات بيت النبوة ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، ١٣٩٨ ، ص ٢٥ .

٥٢ – عبد المجيد عابدين ، سبق ذكره ، ص ١٢٥ .

٥٣ – رونالد ويدنر ، تاريخ افريقيا جنوب الصحراء (مترجم) القاهرة ، د.ت ، ص ٦٣ .

٥٤ – عبد المجيد عابدين ، سبق ذكره ، ص ١٠٦ .

٥٥ – السيوطي (جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن) ، أزهار العروش في أخبار الجيوش ، مخطوط ، مصور ، الاسكوريال ١٧٦٤ ، ورقة ٥٦ .

٥٦ – عباس محمود العقاد ، داعي السماء ، بلال مؤذن الرسول ، ط٢ ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، دت ، ص ١٧٢ .

٥٧ – القاضي خان (علاء الدين بن عبد الباقي) الطراز المنقوش في محاسن الحبوش ، مخطوط ، مصوّر الجامعة الأمريكية بيروت ، MS963J13 ، ورقه ١٩ .

٥٨ – القنائي (أحمد الحفني القنائي الأزهري) الجواهر الحسان في تاريخ الحبشان ، ط١ ، بولاق ، ١٣٢١هـ ، ص ٥٦ – ٥٨ .

٥٩ – عباس محمود العقاد ، سبق ذكره ، ص ١٧١ .

٦٠ – أزهار ، ورقه ٧٤ .

٦١ – السيوطي (جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن) ، رفع شأن الحبشان ، مخطوط ، مصور ، التيمورية تاريخ ٧٢٦ ، ورقة ٩٨ – ٩٩ .

٦٢ – الطراز ، ورقة ٧٦ .

٦٣ – أزهار ، ورقة ٩٣ .

٦٤ – الطراز ، ورقة ١٦٧ – ١٦٨ .

٦٥ – أزهار ، ورقة ٦٩ – ٧٢ .

٦٦ – عبد العزيز عبد الغني ابراهيم ، علاقة ساحل عمان ببريطانيا ، الرياض ، دارة الملك عبد العزيز (٢٥) ، ١٤٠٢هـ ، ص ٢٢٣ – ٢٢٧ .

٦٨ – عباس محمود العقاد ، سبق ذكره ، ص ٧٧ .

٦٩ – أزهار ، ورقه ٧٠ .

٧٠ – الطراز ، ورقه ١٠٤ .

٧١ – نفسه ، ورقة ٤٤ – ٤٥ .

٧٢ – أزهار ، ورقه ٦٢ .

* يعد كافور الأخشيدي من أشهر رقيق الحبشة الحكام . جاء بأن الأخشيد اشترى كافور بثمانية عشر ديناراً . وما زال لعقله ، الراجح ورأيه الثاقب ، يتقلب في المناصب الادارية ويرتقي حتى أصبح من كبار القادة . وحين توفى الأخشيد أصبح كافور "أتابك" لولده أبي القاسم وأخذ يقلب الأمور حتى صار الاسم لأبي القاسم والدست لكافور ،

ثم ورث الملك في عام ٣٥٥هـ/٩٦٩م . ولعل شعر أبي الطيب المتنبي في كافور مدحاً وهجاء قد أضاف الى التراث الشعري للعنصر الأسود زخماً فنياً زاخراً ، والى الشعر العربي رصيداً إنسانياً سخياً . ومن ذلك قول المتنبي في كافور حين وفده بعد مفارقته سيف الدولة فمدحه بسواده وعرض بسيف الدولة وبياضه :

فجاءت بنا إنسان عين زمانه — وخلت بياضها خلفها ومآقيا

أما حين فارق المتنبي كافور قالياً له فقد كان من جملة ما قال فيه :

من علّم الأسود المخصي مكرّمة — أقومه البيض أم آباؤه الصيد

أم أذنه في يد النخاس دامية — أم قدره وهو بالفلسين مردود

للمزيد راجع : عبد الرحمن البرقوقي ، شرح ديوان المتنبي ، ج٢ ، ص ١٤٧ .

٧٣ – الطراز ، ورقه ٤٤ – ٤٥ .

٧٤ – حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ج٤ ، ط١ ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ٢١١ .

٧٥ – عمارة اليمني ، تاريخ اليمن ، لندن ، هنري كاسيل ، ١٨٩٢ ، ص ٦٠ –٦٤ .

٧٦ – حسن ابراهيم حسن ، سبق ذكره ، ص ٢١٢ .

٧٧ – رونالد ويدنر ، سبق ذكره ، ص ٨٩ .

٧٨ – نفسه ، ص ٩٥ – ٩٦ .

٧٩ – زاهر رياض ، تاريخ أثيوبيا ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ١٠٢ .

٨٠ – نفسه ، ص ١٠٣ .

الفصل الثانى

الروابط الثقافية

(الأثر الحبشى فى الثقافة العربية)

- فى مجال الثقافة القتالية
- فى المهن والحرف
- فى الحكمة
- فى مجال اللغة
- فى الأدب
- فى الشعر
- فى السير والأخبار
- فى المعارف الجغرافية والتاريخية وأدب الرحلات
- من المؤلفات المتأخرة
- من المعارف الحبشية باللغة العربية
  * فى القات
  * فى الدخان والتنباك
  * فى حكم السبحة
  * فى فقهاء الحبش وأئمتهم
  * فى المذاهب الضالة بالحبشة

الأثر الحبشى فى الثقافة العربية

من الصعب تقدير الأثر الثقافى للحبشة فى الحياة العربية . كان التمازج بين العنصرين العربى والحبشى - فى الحواضر العربية خاصة - على قدر كبير من التجانس بحيث يصعب التمييز بين ما هو عربى خالص أو حبشى خالص . ذابت المؤثرات الثقافية الحبشية فى حياة الحواضر العربية بصفة خاصة ذوباناً لا ندعى أنه أنتج بالتطور هجيناً ثقافياً بّدل من صيغة الثقافة العربية إنما نجنح إلى القول أنه توافق معها توافقاً أدى إلى إثراء تلك الثقافة الحية الفاعلة المتفاعلة .

ففى المجال الثقافة القتالية :

نجد أن الحبش قد أحدثوا أثرهم في هذا المجال لأنهم عملوا عسكراً للحواضر فى مكة بصفة خاصة حيث سموا بالأحابيش ، كما عملوا حرساً للقوافل ، وعلمتهم المهنة أن يقاتلوا صفوفاً متراصة مشاة حاملين حرابهم القصيرة (العنزات) . أما العرب فهم في الأصل أهل بادية فرساناً اعتادوا الإغارة لا يحاربون مشاة راجلين ، ألفوا الكر والفر ، لا يعرفون الصفوف المتراصة وتوزيع الأدوار بين الجند . كان الفارس العربي يصول بحسامه ويجول في ميدان المعركة لا يلتزم فيه مكاناً بعينه ، يحمل على الأعداء هنا وهناك . لم تكن الحرب المنظمة من ثقافة العرب ، ولكنهم اكتسبوها بعدئذ من الثقافات السائدة حولهم ، وكانت ثقافة الأحباش القتالية هي الأسبق تأثيراً عليهم في هذا المجال . وينكر جماعة من المؤرخين والمستشرقين أن أحابيش مكة هم الأحباش المعروفين . ولهم فى ذلك أسانيد واهية جاء منها :

ترد أحابيش بمعنى أحباش ، أو جماعة من الرجال من عدة قبائل . والتحبش لغة - كما أوردنا - تعنى التجمع ، والأحبوش هم الجماعة - أيا كانوا - لأنهم إذا تجمعوا إسودّوا . وللفضل بن عباس فى مصرع الخليفة عثمان بن عفان :

كفى ذاك عيباً أن يشيروا بقتله وأن يسلموه للأحابيش من مصر

كما تستعمل كلمة أحابيش فى وصف قبائل إقامت فيما بينها حلفاً إما على جبل يسمى الحُبْشى ، وإما فى واد يسمى أحبش . يقول ياقوت الحموى : أن حبشى جبل بأسفل مكة به سميت أحابيش قريش ، وذلك أن بنى المصطلق من خزاعة ، وبنى الهون من خزيمة وبنى الحرث بن عبد مناف من كنانة ، اجتمعوا عنده وحالفوا قريشاً وتحالفوا بالله : إنا ليد واحدة على غيرنا ، ما سجا ليل ووضح نهار ، وما رسا حبشى مكانه . فسموا أحابيش قريش باسم الجبل . (١)

وفى الحقيقة لا يمكن لنا الاعتداد بهذا الرأى ، فالأحابيش عندنا هم الأحباش* ، واقامتهم

على تخوم مكة عند بعض جبالها أو وديانها التى اكتسبت أسماءها من الأحباش تعنى أنهم غرباء وافدين اليها . ولا ضيّر أن نقبل رأى ياقوت من أن بعض بطون القبائل العربية تحالفت مع قريش ، وتمت مراسم التحالف عند معسكرات قريش التى كان يشغلها الأحابيش . وتثبت المصادر أنه كان يقوم على أمرهم "سيِّد" وليس بقائد أو شيخ أو زعيم . ولا نعرف عن قبيلة عربية واحدة - مهما بلغ بها الضعف - تسير خلف "سيِّد" . والأرجح أن ياقوت أطلق على تلك الجماعات العربية لفظ أحابيش تجوزاً وذلك لأنهم حالفوا قريشاً فى معسكرات الأحابيش للقيام بنصرة قريش كما كان دأب الأحابيش . وفى اعتقادنا أن لفظ "الأحابيش" الذى ورد عن الفضل بن عباس فى هجاء قتلة عثمان لا يقصد به الجماعة ، إنما هو إشارة واضحة إلى القبط من أهل مصر الذين هم على نصرانية الأحباش . وقد قصد الشاعر أن يرمى قتلة عثمان (رض) بالمروق .

وقد وفق المستشرق لامانس فى مقاله المنشور فى المجلة الآسيوية بعنوان "الأحابيش والتنظيم العسكرى فى مكة" فى القول بأن قوام الأحابيش عبيد أحباش وزنوج الحقوا ببعض القبائل العربية ، وأن قوة مكة تشكلت فى أوائل القرن السابع الميلادى من أولئك الجنود المرتزقة ، وعارضه المستشرق مونتجومرى وات الذى ألفّ فى تاريخ مكة والمدينة فى صدر الاسلام . تبنى وات التفسير اللغوى للكلمة ، ومعناها التجمع (٢) . ولكننا على أية حال، حكماً على ما أورده وات فى هذه المسألة وغيرها ، لا نعتدّ بهذا الرأى لأن ما حدث فى تاريخ هاتين المدينتين فى هذه الفترة لا تستوعبه منهجية تدرس العربية بمعزل عن الفكر الجديد الذى بثته معانى القرآن فيها . ولعل اختلاف الأساليب القتالية لدى قريش عن غيرها من أساليب القبائل العربية الأخرى تشير إلى ثقافة حبشية وافدة تدجنت بالمفاهيم العربية .

فى المجال الحرف والمهن :

من الثابت أن كثيراً من الموالي بمن فيهم الأحباش كانوا أهل مهن . أنف العربى أن يقوم بالحدادة فقام بها الموالي الذين اشتهر بعضهم في مكة بصناعة السيوف . كما عاف العرب ، حتى أهل الحواضر ، القيام بالصناعات الأخرى مثل النجارة وغيرها حتى أننا نجد أن أبرز صناعة قامت في بلاد العرب وهي صناعة الرماح الخطية ، كان للموالي والأحباش منهم بصفة خاصة فيها دور كبير .

قال الطبراني في الأوسط عن أسماء بنت عميس أن ابنة لرسول الله (ص) قد توفيت ، وكانوا يحملون الرجال والنساء على الأسرّة . وقلت : يا رسول الله انى كنت بالحبشة وهم يجعلون للمرأة نعشاً فوقه أضلاع يكرهون أن يوصف شيء من خلقها . أفلا أجعل لابنتك

نعشاً مثله ؟ قال : أجعليه . فكانت بنت عميس أول من جعل نعشاً في الاسلام وذلك لرقية بنت رسول الله (ص) . وقال ابن سعد أيضاً عن أيوب عن نافع وغيره أن الرجال والنساء كانوا يخرجون بهم سواء . فلما توفيت زينب بنت جحش أمر عمر منادياً فنادى أن لا يخرج على زينب إلا ذو محرم من أهلها . فقالت ابنه عميس : ألا أريك شيئاً رأيت الحبشة تصنعه لنسائهم ؟ فجعلت نعشاً وغشّته ثوباً فلما نظر إليه قال : ما أستر هذا ! فأمر منادياً فنادى أن اخرجوا على أمكم .(٣) ولسنا هنا في مجال تحقيق بداية صناعة النعوش الحبشية وردها إلى عهد الرسول (ص) أم في عهد عمر (رض) إنما نريد أن نقول أنها صناعة وفدت من الحبشة كان لها الأثر في فكر شبه الجزيرة العربية ، لا بل في الفكر الاسلامي على إطلاقه .

في مجال الفنون :

أما في مجال الفنون من رقص وغناء فقد خلّف الأحباش أثراً باقياً في الثقافة العربية والاسلامية بل والفقهية . ولا يزال غناء الحبشة ورقصهم عند مسجد رسول الله (ص) يشغل بعض أهل المذاهب الفقهية .

وردت العديد من الروايات في رقص الحبشة وهي في جملتها تشير إلى أن الرسول (ص) لم ينكر عليهم فعلهم . عن أنس (رض) أنه قال : لما قدم رسول الله (ص) إلى المدينة لعب الحبشة بحرابهم فرحاً بذلك . وأخرج الامام أحمد عن أنس أيضاً قال : كانت الحبشة يزنفون . وفي رواية يرقصون بين يدي رسول الله (ص) فيقولون : محمد عبد صالح . وأخرج البخاري عن عائشة (رض) قالت : رأيت رسول الله (ص) يسترني بثوبه وأنا أنظر إلى الحبشة وهم يلعبون في المسجد ، فزجرهم عمر (رض) فقال النبي (ص) دعهم ، أمّنا بني أرفده . وقال الزركشي : أرفده جد الحبشة . أما في الصحاح فقد ورد : بني أرفده حبش من الحبوش يرقصون . وروى ابن الجوزي في كتابه تنوير الغبش عن عائشة (رض) قالت : كان عندي رسول الله (ص) يوم لعب السودان بالدرق والحراب . فلما سألت رسول الله (ص) قال : أتشتهين أن تنظري ؟ فقلت : نعم . فأقامني من ورائه ، خدي على خده وهو يقول : دونكم يا بني أرفده ، حتى إذا مللت قال : حسبك ؟ قلت : نعم . قال : فاذهبي . وروى صاحب المشكاة عن عائشة (رض) قالت : ولقد رأيت النبي (ص) يقوم على باب حجرتي ، والحبشة يلعبون بالحراب في المسجد ، ورسول الله (ص) يسترني بردائه لأنظر إلى لعبهم بين أذنه وعاتقه ، ولم يقم من أجلي حتى أكون التي انصرف . وعللت عائشة (رض) طول فترة وقوفها على تلك الهيئة بأنها كانت جارية حديثة السن حريصة على اللهو المباح . وفي تحفه العروس ورد الخبر بأن عائشة (رض) قالت : سمعت أصوات الناس من الحبشة وغيرهم وهم يلعبون في يوم عاشوراء . فقال لي رسول الله (ص) : أتحبين أن ترى لعبهم ؟ قلت : نعم يا رسول الله .

فأرسل إليهم فجاءوا . وقام رسول الله (ص) بين البابين ووضع كفه على الباب ووضعت ذقني ، وجعلوا يلعبون وأنا أنظر . فقال لي رسول الله (ص) : حسبك ، فقلت : أسكت مرتين أو ثلاث ثم قال : يا عائشة حسبك الآن . فقلت : نعم . فأشار إليهم فانصرفوا . وفي كتاب تنوير الغبش أن النبي (ص) وأبابكر مرا بالحبشة وهم يلعبون ويقولون شعراً :

يأيها الضيف المعرج طارقاً	هلا مررت بآل عبد الدار
هلا مررت بهم تريد قراهم	منعوك من جهد ومن إقتار (٤)

استمد الفقه الصوفي بعضاً من أدلته من لعب الحبشة أمام الرسول وهم يتغنون (محمد رجل صالح) حين أباح مديح رسول الله (ص) والتغني بمآثره وهم يرقصون . ويؤكد الصوفية ذلك بقصة أخرى جاء منها أن جعفر بن أبي طالب حين قدم على رسول من الحبشة سنة سبع للهجرة ، وكان ذلك في مدينة خيبر عندما فتحها النبي ، قام إليه صلى الله عليه وسلم وعانقه وقبّل جبهته وقال له : أشبهت خَلقي وخُلقي ، وما أدري بأيهما أفرح بقدوم جعفر أم بفتح خيبر . فهام عند ذلك جعفر من لذّة الخطاب وصار يحجل حول النبي (ص) . والحجل هو المشي على رجل واحدة بما يشبه الرقص ، وفي رواية فصار يرقص فقيل له : ما هذا يا جعفر ؟ فقال : هذا شيء رأيت الحبش يفعلونه بملوكهم ، فأقرّه صلى الله عليه وسلم ولم ينكره عليه . ومن هنا أخذت الصوفية لذة الرقص لما يجدون من لذة المواجيد في مجالس الذكر والسماع ، كما أخذ منه كذلك جواز القيام بنية تعظيم المقام له ، والتقبيل ولو في الفم عند المالكية متى ما كان لوداع أو رحمة ، والمعانقة ، ولكن مع الكراهة التنزيهية ، عند المالكية لرؤيتهم اختصاصها بالنبي (ص) .(٥)

وفي مجال الرقص أيضاً أخذ العرب عن الأحباش فكرة الزار التي تعني في الأمحرية الروح الشريرة . فقام على ممارسته في مكة وغيرها نساء من الحبش فأدخلوا بذلك الرقص الأفريقي العنيف واللحن العالي السريع الايقاع . وكلا الأمرين لا يعرفهما العرب الذين قام غناؤهم على الحداء بلحنه الرتيب الذي لا يحرك إلا سواكن الدواخل بما ينطوي عليه من معاني .

في الحكمة :

اعتنق الصفوة من الأحباش النصرانية ، فكانوا في سائرهم أكثر رقياً روحياً من العرب في جاهليتهم . فقد كانوا في سائرهم وثنيين فيما عدا قلة من الحنفاء وبعضاً من اليهود المهاجرين إلى شبه جزيرة العرب ، وعدداً يسيراً من النصارى . وكان نصارى العرب من نصارى الحبش

وعلى ملتهم . أسبغت النصرانية على الأحباش المتصلين بشبه الجزيرة العربية معرفة وحكمة ، وكانوا أسبق من العرب في التعرف إلى نبوة رسول الله (ص) . لما بلغ النبى (ص) سنتين من عمره قدمت به مرضعته حليمة إلى أمه وهى حريصة على مكثه فيهم لما رأوا من عظيم بركته (ص) . فلما كانوا بوادى السّرر قالت حليمة : لقيت نفراً من الحبشة - وهم خارجون منها - فرافقتهم فسألوها ، فنظروا إلى رسول الله (ص) نظراً شديداً ثم نظروا إلى خاتم النبوة بين كتفيه ، وإلى حمرة فى عينيه ، فقالوا : أيشتكى إيذاء عينيه للحمرة التى فيهما ؟ قالت : لا ، ولكن هذه الحمرة لا تفارقه . فقالوا : هذا والله نبى ، فغالبوها عليه فخافتهم أن يغلبوها عليه فمنعه الله . فدخلت به على أمه فأخبرتها بخبره ، وما رأوا من بركته ، وخبر الحبشة . فلما رأته أمه قالت : أرجعى بابنى فانى أخاف عليه وباء مكة ، فوالله ليكونن له شأن . (٦) وهكذا نجد أن الحبش كانوا ، بحكم نصرانيتهم التى تبشر بظهور الرسول (ص) ، أسبق الخلق فى معرفته صلى الله عليه وسلم وهو لا يزال بالمهد ، وهو أمر لم تبلغه حكمة الحجاز الوثنية ، وإن أدركه ، بعد الحبش ، عرب كانوا على الحنيفية .

كان الأحباش ، خاصة المستنيرين منهم من الذين خرجوا من بلادهم وعملوا في التجارة والخفارة عبر بلاد العرب إلى الشام ، من العارفين بنصوص العهدين القديم والجديد ، وكانوا يؤمنون بنصّ التوراة بالبشارة بأن الله سيبعث في العرب نبى "وأقيم" لهم نبياً من وسط إخوتهم* ..."

بلغ الحبش في الحكمة ما لم يبلغه العرب في جاهليتهم . وتعلّم العرب ، حتى في صدر الاسلام ، منهم حكماً أشاد بها الرسول (ص) . عاد مهاجرة الحبشة المسلمين وقد اكتسب أكثرهم معرفة بلغة الحبشة التى رجعوا منها . أخرج ابن ماجة وابن حيان عن جابر قال : لما رجعت إلى رسول الله (ص) مهاجرة الحبشة قال : ألا تحدثونى بأعجب ما رأيتم في أرض الحبشة ؟ قال فتية منهم : بلى يا رسول الله . بينما نحن جلوس مرت بنا عجوز تحمل على رأسها قلّة من ماء فمرت بفتى فجعل أحد يديه بين كتفيها ثم دفعها فخرت على ركبتيها فانكسرت قلتها . فلما قامت التفتت إليه وقالت : سوف تعلم يا عدو الله إذا وضع الله الكرسى وجمع الأولين والآخرين وتكلمت الأيدي والأرجل بما كانوا يكسبون فسوف تعلم كيف أمرى وأمرك عند الله غداً . فقال رسول الله (ص) صدقت صدقت . كيف يقدس الله الأمة لا يؤخذ لضعيفهم من شديدهم .(٧)

حين نتدبر الحكمة منذ فجر التاريخ لا نستطيع إلا أن نقول أنها نشأت في الأرض الاسيوية الأفريقية . تمازجت الثقافات الأفروآسيوية حتى هديت إلى توحيد ، أصل الحكمة ولحمتها وعصبها . ففي إطار الجغرافية الأفرواسيوية ظهر ابراهيم ، أبو الأنبياء ، الذى عبر من العراق

إلى فلسطين ثم انحاز إلى مصر ، مركز أفريقيا النابض بالحكمة الأصيلة والمكتسبة . ومع هاجر المصرية عاد أبو الأنبياء إلى واد غير ذي زرع ليترك زوجته المصرية مع ابنها اسماعيل في مكة . وتجددت ثقافة مكة وتعاظم دورها بهذا التمازج الأفرواسيوي الذي كان محوره ابراهيم ببعده الآسيوى ، وهاجر ببعدها الأفريقى ، وابنهما اسماعيل الخليط المزيج المبارك .(٨) ويبدو أن بركات أبى الأنبياء قد صعدت النيل إلى منابعه في الحبشة . يحدثنا المقريزي نقلاً عن ابن زولان أن رجلاً من ولد العيص بن اسحاق اسمه حايد ، من نسل سيدنا ابراهيم ، ارتقى النيل حتى بلغ منابعه . وأورد عن حايد أنه كان تاجراً ونبياً وحكيماً ، وأنه سأل الله أن يريه منتهى النيل فأمدّه بقوة تحقق مبتغاه ، ويقال أنه قام يمشى عليه ثلاثين سنة من عمران ، وعشرين سنة من خراب حتى بلغه .

ويتصل خط إبراهيم وبنيه بيوسف الذي أُخرج من فلسطين يافعاً ، فاستقام فى مصر حكيماً نبياً أميناً على خزائن الأرض . وإلى مصر وفد من فلسطين يعقوب (عم) وبنوه ، وفيها قام موسى (عم) الذى أُخرج منها مع زوجته الكوشية السودانية وبقية قومه إلى فلسطين ، ومن كوش السودان تشعبت حكمة الأنبياء وامتدت بها الدروب حتى بلغت الحبشة . وحين نتدبر قصة لقمان الحبشى عليه السلام التى وردت في القرآن الكريم لا نستطيع أن نقول إلا أن الحكمة أصلاً حبشية ، وأن مواعظ لقمان لابنه التى طلب القرآن الكريم إلى المسلمين تدبرها والتأدب بها تجعل لقمان الحبشى أبلغ من نطق بالحكمة قبل الاسلام . وانتقلت حكمة ذلك الحبشى عليه السلام إلى ثقافات العالم أجمع إذ ورد فى الأثر أنه وعظ لداؤد عليه السلام . وروى الصحابة والتابعون ومن جاء بعدهم الكثير من المأثر عن ذلك الحكيم .(٩) وتحفظ لنا أخبار العهد الجديد زيارة الحطى ، وزير الكنداكة الحبشية ، ولعلها السودانية ، إلى أورشليم .

انتقلت الحكمة النصرانية إلى بلاد العرب وازدهرت هناك بالجهد الحبشى . اندثرت عبادة المقة ، الإله الوثنى في سبأ ، منذ أخريات القرن الرابع الميلادي ، وأخذت كل أوثان سبأ تتلاشى ووطّدت الديانة النصرانية أركانها في عهد الملك عيزانا بن العميدا ملك أكسوم (٣٢٥ – ٣٧٥م) . وتقرب الملك اليمنى ، مليكرب يهأمن ، إلى الاله "ذي سموي" أي رب السماء مما يدل على أن عقيدة التوحيد قد أخذت لها مكاناً في الفكر الدينى في اليمن .(١٠)

كان للحبش دور رائد في نشر النصرانية في اليمن ومحاولة تعهدها بالرعاية ضماناً لاستمرارها والدفاع عنها حتى الموت . ولا يوجد لدينا دليل ملموس على أن الكتاب المقدس ترجم إلى العربية في عصر ما قبل الاسلام . ولربما كانت السريانية أو العبرية هى اللغة التى استخدمها نصارى العرب في عباداتهم . ومع ذلك فإن الآثار الحبشية النصرانية ظهرت فى اليمن بوضوح خاصة في منطقة نجران . نجد نسخة خطية بالحبشية تتحدث عن أعمال

القديس أزقير . وتعد هذه النسخة – حتى الآن – أقدم الآثار المدوّنة عن دخول النصرانية إلى نجران . تقول المدوّنة أن أزقير كان كاهناً نصرانياً عمل على تنصير أهل نجران وروّج لهذا الدين هناك . فتصدى له الملك شرحبيل يقف وأمر بحبسه . غير أن الكاهن نجا من الحبس وعمّد كثيراً من أهل المنطقة . وتبعه رجل يدعى قرياقوس ، كان يناقش اليهود ويفنّد أقوالهم جهاراً . وانتهت جهود هذا الكاهن في التثبيت للنصرانية إلى أن تقطع رقبته مع ثمانية وثلاثين رجلاً آخر من أتباعه . وقد كرمت الكنيسة الحبشية ذكراه وأصبح له عيد في التقويم الحبشى . أما فى ظفار فقد بنى الأحباش كنيسة تولى بطرقتها الأسقف جرجنيوس وقد اتخذ الملك الحبشى ذلك القسيس مستشاراً له ومساعداً لتنصير حمير . وترك لنا جرجنيوس ، من آثاره كتاباً في شرائع الحميريين نجد ترجمة له في مجموع الأباء لمؤلفه مينى ، وكان الرجل يجادل اليهود ويرد مزاعمهم .(١١)

فى مجال اللغة :

أدى الاختلاط الثقافي بين الحبشة والعرب إلى نتائج بعيدة في اللغة . فلغة الجعيز* GEEZ ، أو لسان الجعيز ، كان الأسم الذي عرفت به اللغة الحبشية القديمة . وتنسب هذه اللغة إلى قبيلة الأجاعز (الأجعزيان) وهي أحدى القبائل العربية التى يروى أنها هاجرت إلى بلاد الأحباش ، واستقرت في الجانب الشمالي الشرقي من الحبشة ، ثم ما لبثت أن تعاظم نفوذها .(١٢)

كانت هذه اللغة هي لغة الحديث والكتابة في الحبشة حتى القرن الثالث عشر الميلادي حيث غلبت عليها اللغة الأمحرية ، لغة الدولة الأمحرية ، التى حكمت منذ ذلك الحين . وتعتبر الأمحرية أصلاً للغتين ساميتين من لغات الحبشة هما الجوراجواي ولغة هرر . ومن اللغات التى يتكلمها كثير من الأحباش لغة التجرى ولغة التجرينيا التى أشتقت من لغة الجعيز ، وتعتبر لغة الجعيز هى اللغة الأم للغات المتحدثة فى الحبشة وارتيريا وهى الأمحرية والتجرينية والتجرى . والثابت من النقوش القديمة التى عثر عليها في بعض مناطق الحبشة ، في الدور الأول من تاريخهم ، اللغة والكتابة السبئية . وعثر على أسماء أماكن في الحبشة لها نظائر فى بلاد اليمن مثل أوم التى وردت في النقوش السبئية للدلالة على حرم بلقيس ، أو أحد هياكل القمر .(١٣)

تأثرت اللغة العربية ، خاصة لغة قريش التى نزل بها القرآن ، بلغات الشعوب الأخرى واقتبست منها . كانت قبيلة جرهم اليمنية تقيم في مكة قبل أن يردها إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام . فلما جاء إسماعيل صاهرهم وأقام معهم وكثرت بنوه بمكة . وكان اسماعيل

عبرانياً ، أما أمه هاجر فقد كانت مصرية . أخذ اسماعيل عن جرهم لغة العرب ولكنه بالضرورة أدخل إلى العربية بعض الكلمات العبرانية ، كما أدخلت أمه شيئاً من اللغة المصرية بعد أن هذّبت بحسب ما يسهل على اللسان العربي . كان كلاهما إذا احتاج لتعبير عن معنى لم توضع له كلمة في لسان جرهم فزع إلى ما معه . والمؤرخون يسمون اسماعيل وبنيه بالعرب المستعربة لما كان من دخولهم في العربية ، وليس أصلهم منها .(١٤) وبذلك كانت اللغة العربية فرعين : الفرع الحميرى وهو لغة العرب الأصلية ، والفرع العدناني أو الحجازى وهو لغة بني إسماعيل . ولهجة اللغتين وطرق التعبير بها لا يختلفان ، وإنما الخلاف في ألفاظ يستعملها الحميريون ولا يستعملها الحجازيون وبالعكس . كان العرب يستعيرون اللفظ من لغة أخرى ويعربونه ، لأن العرب – خاصة في حواضرهم – يشتغلون بالتجارات والأسفار ، وساكنوا كثيراً من أمم الأرض من حبش وغيرهم . وكانت ترد على حواسهم أشياء كثيرة لم يكونوا قد رأوها فيأخذوا عن تلك الأمم أسمها ثم يعربونه على نمط نطقهم . وقد دخلت كثير من هذه الكلمات في اللغة العربية قبل الاسلام بزمن وأصبحت من اللغة . وقد استعارت اللغة العربية الكثير من الكلمات الحبشية . ومما أدخلته الحضارة الحبشية من الألفاظ في لغة العرب طائفة تدل على الأبنية وتأسيس الطرق مثل الخوخة (أصلها الحبشى خوخت) ، والسكة (أصلها سكوت) ، والمشكاة (الكوة) ، والصرح (القصر) . وفي الملابس والزينة كالجلباب ، والدملج ، والزرابي والحنبل . وفي التوقيت كالتاريخ والساعة والزمن . وفي الحيوان كالحريش والزرافة والبغل . كما ورد من لغة الحبشة الكثير من الكلمات في القرآن الكريم .(١٥)

يستنتج عبد المجيد عابدين (١٦) من تحقيق ألفاظ الكلمات ومعانيها وكيفية استعمالها في اللغتين العربية والحبشية والعلاقة بينها وبين سائر اشتقاقاتها أن هناك ألفاظاً حبشية وردت في القرآن الكريم ، وأنه يتحقق منها إذا تحققت فيها صفة من الصفات الآتية :

(أ) وجود اشتقاق للكلمة في الحبشية أظهر وأبيّن منه في العربية مثل : حواريون ، ومنافق ، وفطر ، ومنبر . فكلمة حوارى مع كون بنائها غير مألوف في العربية ، لا يمكن اشتقاقها من حار ، لأن ما هو أقرب إلى معنى الحواريين من معاني هذه المادة وهو "الرجوع" أبعد بكثير من معناها في الحبشية وهو " السير والسفر" . والحواريون في لغة الكنيسة رسل المسيح . أما منافق فمأخوذة من نافق الحبشية أى شك وداهن وخالف . ولا علاقة في العربية بين النفاق وسائر معاني مادة نفق فيها ، وهي في الحبشية تدل على المخالفة والانفصال في الشيء الواحد . فالمنافق هو الذى يخالف ظاهره باطنه . ونجد أن "فطر" لم تكن تؤدي معنى الخلق في العربية قبل ورودها في القرآن الكريم . وأصل معناها العربى الشق ، أما في الحبشية فهي في معنى "الخلق" . وكذلك "منبر" التى فعلها فى الحبشية "نبر" أى جلس ، ولا اشتقاق للمنبر في العربية .

(ب) نقل الكلمة من الحبشية محّرفة أو مغايرة للأصل مثل محراب ، فربما كان أصلها محرام الحبشية أى المعبد ، فأبدلت الميم باء . أو ربما كان أصلها في الحبشية مكراب ، أى مكان مقدس ، فأبدلت الكاف حاء . ومن ذلك كلمة بغل ، وهى لفظة حبشية أصلها بقل بالقاف . وقد تبين أن تغيير الكلمة فى حرف من حروفها قد يكون دليلاً على عدم أصالتها في تلك اللغة .

(جـ) انفراد الكلمة فى العربية بحيث لا يكون لها قرابة إلا ما اشتق منها مثل برهان ومائدة . فبرهان مشتق من مادة (بره) في الحبشية ، وهى تقابل (بهر) في العربية ، أى شدة الانارة والاضاءة . فأصل كلمة "برهان" النور والتنوير . فهو لفظ منفرد في العربية ولا قرابة له في العربية إلا ما أشتق منها كبرهن . وكذلك لفظ "مائدة" وهي في الحبشية "مائد" ، وليس لها فى العربية اشتقاق من مادتها . ومن هذا النوع الفاظ دخلت العربية من الحبشية ، وإن لم تكن حبشية أصيلة . ومن ذلك إنجيل ، وجهنم ، وتابوت ، فهذه ألفاظ أجنبية بعضها يونانى ، وبعضها عبرانى ، دخلت العربية عن طريق الحبشية .

(د) ورد نص موثوق به أن اللفظة حبشية أصلاً . من ذلك ما ذكره القدماء فى مشكاة . فكلمة MASKOT في الحبشية تعنى الكوة . وفى القرآن الكريم يرسم المقطع الثانى بالواو مما يدل على أن حركة لم تكن فتحة بل كانت (O) كما في الحبشية تماماً .

(هـ) ندرة معنى من معانى الأوزان في العربية مع شيوعه في الحبشية ومن ذلك كلمة أخدود . ومن المعلوم أن وزن أفعول بالفتح يأتى في الحبشية ، فيقال أهجور جمع هجر أو بلاد ، ولا نعرف أن أفعول ورد بالعربية مفتوح الأول ، إنما ورد مضموم الأول للدلالة على معانى شتى من بينها الجمع . وما ورد على هذا الوزن للدلالة على الجمع قليل نادر فى العربية . وقد وجدنا أن الأمام السيوطى لم يذكر مما جاء على هذا الوزن للدلالة على هذا المعنى إلا ثلاثة ألفاظ : أمعور : القطيع من الظباء ، وأحبوش : جمع حبش ، وأركوب : جماعة من الركاب . وإذا رجعنا إلى أخدود نجد أن أكثر المفسرين واللغويين يذكرون أن أخدود مفرد لا جمع ، ويجمعونه على أخاديد . وحين نرجع للفظة نجدها تعامل معاملة المؤنث . ففى الحديث الذى رواه الطبرى أن الملك "خد أخدوداً وملأها ناراً " ونجد مثل هذا فى نصوص أخرى . أما أصحاب المعاجم فيذكرون أنها مفرد مذكر . فلماذا عوملت معاملة المؤنث ؟ لا لشىء إلا لأن القدماء كانوا يدركون أن هذا اللفظ جمع لا مفرد . والمادة موجودة فى الحبشية في (حّدد) أى أحدث قطعاً . والحاء والخاء وسائر الحروف الحلقية عرضة كثيراً للتبادل فى الكلمات الحبشية . ثم يؤيد هذا الرأي ما ذكره النسفى ، دون سائر المفسرين واللغويين ، من أن أخدود جمع خد ، أى شق عظيم فى الأرض ، وإذا كنا نجد في العربية أخاديد فانما هو جمع الجمع ، كما

نجد أفاعيل ترد لجمع الجمع في الفاظ كثيرة .

يذكر السيوطي عدة ألفاظ حبشية وردت في القرآن الكريم نستطيع أن نتحقق من صحتها حين نخضعها للمقاييس السابقة .(١٧)

عن رفيع في قوله تعالى : « فول وجهك شطر المسجد الحرام » قال : تلقاء بلسان الحبش .

عن إبن عباس في قوله تعالى (١٨) : « يؤمنون بالجبت والطاغوت » قال الجبت اسم الشيطان بالحبشية ، والطاغوت الكاهن .

عن عكرمة قال : الجبت اسم الشيطان بالحبشية ، والطاغوت الكاهن . وعن سعيد بن جبير قال : الجبت الشيطان بلسان الحبشة ، والطاغوت الكاهن .

وأخرج الطستي في مسائله عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال لابن عباس : أخبرني عن قول الله تعالى (١٩) : « انه كان حوباً كبيراً » قال : إثماً كبيراً بلسان الحبشة .

وعن ابن عباس في لفظ المؤمن الأواه قال : الموقن ، وذلك في قوله تعالى(٢٠) : « إن ابراهيم لأواه » . قال الموقن بلسان الحبشة .

وعن عمرو بن شرحبيل قال : الأواه ، الرحيم بلحن الحبشة . وعن عمرو بن شرحبيل أيضاً بإسناد آخر قال : الأواه ، الدّعاء بلحن الحبشة .

وعن وهب بن منبه في قوله تعالى (٢١) : « وقيل يا أرض أبلعى ماءك » . قال بالحبشية ، إزدرديه . وعن جعفر بن محمد عن أبيه في قوله : « يا أرض أبلعي ماءك » . قال : أشربى بلغة الهند .

وعن سلمة بن تمام الشقرى في قوله تعالى (٢٢) : « واعتدت لهن متكا » . قال : هو بكلام الحبش يسمون الترنج متكاً .

عن ابن عباس في قوله تعالى : « طوبي لهم » (٢٣) . قال : طوبى اسم الجنة بالحبشية . وعارضه ابن مسحوح حيث قال : طوبى اسم الجنة بالهندية .

عن ابن عباس في قوله تعالى (٢٤) : « تتخذون منه سكراً » قال : السكر بلسان الحبشة الخل .

وعن عكرمة قال : « طه » (٢٥) بالحبشية تعنى يا رجل .

وعن ابن عباس في قوله تعالى : « كطى السجل » (٢٦) قال : السجل بلغة الحبشة صفحات الكتاب .

وعن ابن عباس في قوله تعالى (٢٧) : « كمشكاة » قال : المشكاة بلسان الحبشة الكوة .
وعن مجاهد في قوله تعالى : « كمشكاة » قال : المشكاة الكوة بلسان الحبشة .

وأخرج ابن جرير عن أبى ميسرة فى قوله تعالى (٢٨) : « أوّبى معه » قال : سبحى بلسان أهل الحبشة .

وعن مجاهد في قوله تعالى (٢٩) : « سيل العرم » قال : هي المثناة التى يجتمع فيها الماء ثم ينبثق .

وكذلك أخرج ابن جرير في قوله تعالى (٣٠) : « تاكل منساته » قال : المنسأة العصا بلسان الحبشة .

وأخرج ابن جرير في قوله تعالى (٣١) : « يسن » قال : يا إنسان بالحبشية . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال : « يسن » يا رجل بلغة الحبشة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عمرو بن شرحبيل في قوله تعالى (٣٢) : « إنه أواب » قال : الأواب المسبّح بلسان الحبشة .

وعن أبى موسى الأشعري في قوله تعالى (٣٣) : « يؤتكم كفلين » . قال : ضعفين بالحبشية .

وعن ابن عباس في قوله تعالى (٣٤) : « إن ناشئة الليل » هي بالحبشية قيام الليل . وعن سعيد بن جبير في قوله تعالى : « إن ناشئة الليل » قال : إذا قام من الليل ، وهي بلسان الحبشة .

أخرج جرير عن ابن عباس فى قوله تعالى (٣٥) : « السماء منفطر به » قال : ممتلىء به ، بلسان الحبشة .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله تعالى (٣٦) : « فرت من قسورة » . قال : الأسد يقال له بالحبشية قسورة .

وأخرج الطستى عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله تعالى (٣٧) : « انه ظن ان لن يحور » . قال : أن لن يرجع بلغة الحبشة . وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة فى قوله تعالى : « انه ظن أن لن يحور » . قال : لن يرجع . ألا تسمع الحبشى إذا قيل له حر إلى أهلك ، أى أرجع إلى أهلك .

وأخرج ابن جرير وأبي حاتم عن عكرمة فى قوله تعالى (٣٨) : « وطورسنين » قال :سنين الحسن بلسان الحبشة .

وفي فنون الأفنان لابن الجوزى قال : « الأرائك » (٣٩) السرر بالحبشية قال : ويصدون ، قال معناه « يضحكون » بالحبشية .

وفي البرهان لشيدله ، والإرشاد للواسطى ، ولغات القرآن لأبي القاسم في قوله تعالى : « كوكب دري » (٤٠) قال : الدرى المضىء بالحبشية . وذكر الأخيران فى قوله تعالى (٤١) : « وغيض الماء » معناه نقص بلغة الحبشة .

وقد سمى المصحف نفسه بإسم حبشى . كان سالم ، مولى أبي حذيفة ، أول من جمع القرآن في مصحف . واختلف وصحبه بما يسمونه ، فقال : بعضهم سموه السفر . قال : ذلك اسم تسميه اليهود فكرهوه ، قال : رأيت مثله بالحبشة يسمى المصحف فاجتمع رأيهم على أن يسموه بذلك الاسم . وإذا رجعنا إلى الحبشية وجدنا أن كلمة MASHAF مشتقة من صحف أي كتب . ومصحف في العربية تروى ميمها محركة بالحركات الثلاث . وهناك دليل آخر على أن مصحف حبشية الأصل : وهو أن العرب لما أخذوا الكتابة من جيرانهم الذين سبقوهم إلى التمدن أخذوا منهم الأسماء الدالة على هذا التمدن .(٤٢)

أخرج البخارى وأبو داؤد عن أم خالد بنت خالد بن سعيد بن العاص قالت : قدمت من أرض الحبشة وأنا جويرة ، فكسانى صلى الله عليه وسلم خميصة لها أعلام . فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح الأعلام بيده ويقول سناه سناه يعنى الحسن بالحبشية . وأخرج الحاكم وصححه عن أم خالد بنت خالد قالت : أتى النبى صلى الله عليه وسلم بثياب فيها خميصة سوداء صغيرة فقال : من ترون أكسو هذه ، فسكت القوم فقال : إئتونى بأم خالد . فأتى بى فالبسينها بيده وقال : أبلى واخلقى ، يقولها مرتين . وجعل ينظر إلى علم فى الخميصة ويقول : « يا أم خالد هذا سنا » والسنا بلغة الحبشة الحسن . (٤٣)

أخرج أحمد عن حنيفة قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الساعة فقال : علمها عند ربى ، لا يجليها لوقت إلا هو ، ولكن أخبركم بمشاريطها وما يكون بين يديها . إن بين يديها فتنة وهرجاً . قالوا: يا رسول الله الفتنة قد عرفناها ، فالهرج ما هو ؟ قال : بلسان الحبشة القتل .

فى الأدب :

نلاحظ أن كثيراً من الأدباء كانوا على اتصال بالبيئات الحبشية سواء عن طريق مباشر أو عن طريق اليمن . وقد كانت نجران بصفة خاصة معقلاً من معاقل النصرانية الحبشية فى بلاد اليمن . وتدلنا الأخبار انه كان لهذه المدينة أثر في تخريج فريق من الشعراء والخطباء العرب . ونعرف أن قس بن ساعدة الأيادي كان أسقفاً لنجران ، كما كان خطيباً مشهوراً سمعه أبوبكر

الصديق وأعجب بخطبته العصماء : « أيها الناس اسمعوا وعوا ، وإذا وعيتم فانتفعوا ، انه ما مات فات ، وكل ما هو آت آت ..... » ولعنا نلاحظ حين نراجع هذه الخطبة روح الحكمة التى امتاز بها القساوسة ، كما نعرف فيها السجع الذي يذكرنا بسجع الكهان . وإذا رجعنا إلى آخر الخطبة نجده ذيّل خطبته بأبيات من الشعر :

في الذاهبين الأولين	من القرون لنا بصائر
لما رأيت موارداً	للموت ليس لها مصادر
أيقنت أني لا محالة	حيث صار القوم صائر

وإن ما اتبعه قس في خطبته بختام شعرى إنما هو طريقة مألوفة في الأدب الحبشي . فحين يسرد رجال الكنيسة قصة قديس من القديسين يذيّلون القصة بمقطوعة شعرية ينشدونها عقب الفراغ من سردها ويسمونها سلام ، لأنها تبدأ بلفظ سلام . هذا التناسق الموسيقي موجود ، غير شك ، في أبيات قس ، وموجود أيضاً في سجعة وتقصير عباراته . والمظنون أن السجع في النثر ، كالقاقية في الشعر ، قد انبعثتا من منبع واحد ، من معابد الآله ومن أقوال الكهان والسحرة وكاتبى الرقى والتعاويذ ، وذلك لما للسجع والقافية من موسيقى تساعد الكاهن والساحر والراقى على التأثير فى نفوس السامعين . (٤٤)

أما في مجال النثر فالأمر أكبر من أن نستقصيه هنا ، فكثيراً ما يتناول هذا الجانب الحديث عن قبائل الحبوش والفروق بينها . تناول الأدباء قبائل الحبشة من أمحرة وسحرت وداموت وجبرت وغير ذلك من القبائل وعالجوا الموضوعات المتصلة بها بالاعجاب والتقدير . ولم يثنوا على قبيلة حبشية إلا زادوا فوق ذلك للأخرى . وفي هذا الصدد قيل : (٤٥) "أنواع الحبوش كثيرة ظاهرة والغالب عليهم جمعياً الكرم وكثرة الضحك وطيب الأفواه وسهولة العبارة وعذوبة الكلام . وبالجملة والتفصيل فجيوش الحبش منصورة ، وخطاياهم مغفورة ، وسعيهم مشكور ، وتجارتهم لا تبور ." ويسترسل الكاتب في الثناء على أجناس الحبشة فيقول : "الأمحرة يفوق غيره بالملاحة والصباحة والفصاحة والسماحة والرشاقة في القد ، ذو عقل ورزانة ، وعفة وديانة ، وأمانة وصيانة ، وصدق وصفاء ، وود ووفاء ، وود وظرف ، ومسكنة وضعف ، وأدب وحشمة ، ورعاية وخدمة ، وكرم في النفس ، وسلامة في الصدر ، وأخلاق عظيمة ، وشمائل لطيفة كريمة ، مع فهم عظيم ، وطبع سليم ورأى مستقيم ، وقابلية للتعلم والتعليم . وبالجملة والتفصيل فطائفة الأمحرة حركاتهم سعيدة ، وأراؤهم سديدة ، وأفعالهم حميدة ، لا عيب فيهم إلا التيه والشهامة ." وقد وصف الشيخ قاضى القضاة الشيخ الشحبة الحنفي أمحرية فقال :

حبشية سألتها عن جنسها … فتبسمت عن در ثغر جوهر
فطفقت أسأل عن نعومة ما خفي … قالت فما تعنيه حبشي أمحرى

قال محمد الحنبلي الحلبي :

عزلوني عن حب بيض الثنايا … بفتاة مليحة أمحرية
ليت شعرى أتلك غير حرية … بالتفانى لوصلها أم حرية

ومن الأجناس التى ننقل بعض ما كتب الأدباء العرب فيها :

السحرتى : المعتزم المقدام ، والأسد الضرغام ، المعروف عند الحرب ، المشهور بالطعن والضرب . يبدى الشجاعة ويظهر الفظاعة ، وحاشاه من الشناعة ، ما يقصد في حاجة إلا بذل فيها الروح والنفوس ، وجعل يومه خيراً من أمس . حلّال المشكلات ، كشاف المعضلات . حسنة فايق ، ولونه رايق ، خده أسيل وطرفه كحيل ، حافظ للمال حاسب للمال لا يراعي فيه الأصحاب والأهل ، ممتنع عن التبذير والبذل . حاوٍ لكمال المحاسن الباطنة والظاهرة ، بادية فيه الآيات القاهرة ، صاحبة لا يضام ، ونزيلة لا يرام . غير أنه في كل وقت يظهر الغيظ والغضب ، ويكثر التجنى والعتب ، وينادي بلا موجب وسبب : أنا النجاشي يا عرب . ويقال أنهم بنو أرفده السحرت الذين لعبوا بين يدي رسول الله (ص) . ويقال أن النجاشى كان منهم .

قيل فيهم :

بلحظك الفتان هذا قد سحرت … فأذن به وارفق بنا يا بن السحرت
أنت الذى حملتنا من الهوى … ما لم نطق وعن سواك قد حررت

وقال آخر :

أيا من حسنها قالوا سحرتى … بعينيك الملا قالوا سحرتى

ويذكر الكاتب أنواعاً أخرى منها الداموت "فكم في الداموت من محاسن عظمة ..." الخ ....

دخلت الحبشة في أدب العرب واستثارت خيالهم . ومما هو جدير بالذكر في هذا المجال أن قصص ألف ليلة وليلة وقصص السندباد البحرى قد استمدت مادتها من البحارة الذين جابوا شرق أفريقيا ، ولا بد أن يكون للحبشة نصيب وافر من هذه المادة .(٤٦)

في الشعر :

يقول القدماء أن الأعشى ، صناجة العرب ، كان يغنى شعره وكان يعود في كل سنة إلى نجران إلى بنى عبد المدان (وقيل أن عبد المدان الذى بنى كعبة نجران كان رأس هذه الأسرة) فيمدحهم ، ويقيم يحتسى الخمر معهم ، ويناد مهم ، ويسمع من أساقفة نجران قولهم : "فكل شيء من شعره هذا أخذه عنهم" . كما نجد أمرأ القيس الكندى ، أحد شعراء اليمن في الجاهلية ، وكنده كانت من المناطق التى غزاها الأحباش منذ القدم . نعرف أن أفيلاس (أفنيل) قد غزاها في القرن الثالث الميلادي ثم أخضعها أبرهة وولى عليها يزيد بن كبشه . ومن أولئك الشعراء أيضاً أمية بن الصلت الذي كان تاجراً متصلاً باليمن ، وله شعر في مدح سيف بن ذي يزن ، وفي شعره الكثير من الآثار اليمنية المتأثرة بالحبشة ونصرانيتها .(٤٧)

وإذا رجعنا إلى شعراء أبناء الحبشيات في الجاهلية وجدناه يميل إلى الغزل الجامح الذي يصل إلى درجة الفحش والمجون . فهم لا يتورعون عن التعبير عن انفعالاتهم وغرائزهم . وربما يرجع ذلك إلى أن العديد منهم كان من أبناء الجواري اللائى يتبادلهن الرجال بالشراء ونحوه . وربما رجع شيء من هذا إلى تأثرهم بالأدب الحبشى غير البعيد عنهم وعن مجتمعاتهم . نجد في الأدب الحبشى بعض الأناشيد الدينية النصرانية يسمونها ملكى ، وهى عبارة عن شعر يصف فيه الشاعر القديس أو الشهيد ، بعد أن يجرده من ثيابه ، وصفاً دقيقاً من رأسه حتى أظافر قدميه ، ولا يتحرج من ذكر القبيح . ويذكرنا هذا الشعر – في بعض جوانبه – بنشيد الإنشاد في التوارة (٤٨) ولعل سحيم بن الحسحاس المذكور آنفاً خير مثال على هذا الجانب الفاحش من شعر الغزل المكشوف ، مع أنه كان دميم الخلقة قبيح المنظر وهو القائل في نفسه :

أتيت نساء الحارثين غدوة ... بوجه براه الله غير جميل
فشبهنني كلباً ولست بفوقه ... ولا دونه ، إن كان غير قليل

وكانت في سحيم لكنة ، وربما أنشد فيقول : "أحسنك" يريد أحسنت . واللغة الحبشية تستعمل الكاف للمتكلم والمخاطب بدلاً من التاء المستعملة في العربية . والشاعر من المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والاسلام ، ولا تعرف له صحبة . وقيل أنه لما أنشد عمر بن الخطاب هذا المطلع :

عميرة ودع إن تجهزت غازيا ... كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا

قال عمر : لو كنت قدّمت الاسلام على الشيب لأجزتك ، فأجاب سحيم : ما سعرت ، يريد

ما شعرت . وقد مات سحيم مقتولاً ، وقيل أن سبب قتله امرأة شبب* بها . وقد أظهر الشاعر الشجاعة المعهودة في هذا الفصيل من المهجنين في تلك اللحظات حين أنشد :

شـــدوا وثاق العـــبـــد لا يغـلـبنّكم	إن الحـــيـــاة مـن المـمـــات قـــريب
فلقـد تحـدر من جـبـين فـتـيـاتكم	عـــرق على ظهـــر الفـــراش وطيب

وكان نصيب بن رباح ، مولى لعبد العزيز بن مروان ، وقد باعه سيده لعبد العزيز حين علم أنه شاعر فخشى أن يشبب بنسائه . ونصيب من زمرة الشعراء من أبناء الحبشيات ، وهو صاحب البيت السائر :

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت	فيا ويح دعد من يهيم بها بعدى

ويروى أن شاعر الغزل عمر بن أبي ربيعة كانت أمه أم ولد من حضرموت ، أو من حمير ، أو من الحبشة ، وقيل بل الحبشية أم أخيه . ويرى بعض الرواة أن من حمير أتاه الغزل ، ويقال غزل يمان ، ودل حجازي (٤٩) ومنهم أبو دلامة الذي كان عبداً حبشياً لرجل من أهل الكوفة فأعتقه ، وصحب السفاح فالمنصور ثم المهدى . وكان من الظرفاء وله طرائف ، ولم يعرف بالشجاعة التى عرف بها أبناء جلدته ، وقد توفى عام ١٦١هـ .

وحين ظهرت الشعوبية في الشعر والأدب نرى بعض شعراء العرب المنحدرين من أصول حبشية وزنجية ونوبية يفاخرون بآبائهم وذلك لأن الاسلام قد كساهم فخراً وأشاد بهم الرسول الكريم . وحين تجرأ العرب عليهم بعد ذلك جاء شعرهم يعبّر عن تفاخر بالآباء وتعصب للعرق ينه عنه الاسلام . قال الحيقطان يهجو جريراً الذي كان قد سخر منه في بعض قصائده وافتخر عليه .

إن كنت تبـغي الفـخـر في غـيـر كنـهـه	فـرهط النجاشي منك في الناس أفـخـر
....	....
فلـقـــمـــان منـهم وابنه وابـن أمـه	وأبـــرهـــه الملك الـذي لـيس يـنـكـر
غـزاكم أبو يكسـوم في عـقـر داركم	وأنتم كـفـــيض الرمل أوهـو أكـثـر

ومن شعراء الحبشة في ذلك الوقت عكيم الحبشي ، وكان علماء الشام يأخذون عنه . سمع عكيم حكيم بن عباس الكلبي ، أحد شعراء بنى كلب ، يقول :

لا تفخرن بخال من بني أسد	فإن أكرم منها الزنج والنوب

فأحسّ الشاعر في هذا البيت إهانه لكرامة قومه السود ، فرد بقصيدة جاء منها :

وليلة الفيل إذ طارت قلوبكم	وكلكم هارب موف على قتب

وفي الحقيقة فإن الشعر العربي قد ورث عن الحبشة كثيراً من موضوعاته خاصة في الشجاعة التى اشتهر بها الجند الحبشى .

ويحتل التغنى بحسناوات الحبشة مكانة كبيرة في شعر العرب ونثرهم . "لأنهن نشأن بأرض معتدلة الهوى ، عذبة المياه ، كثيرة الأشجار ، عظيمة الأنهار ، ذكية الأزهار . لا هواها حار يابس حتى يفضي إلى اليبوسة والسواد ، ولا بارد رطب يؤدي إلى البرودة والبياض . فإعتدال الألوان ، وصحة الأمزجة والأركان مسببات للحسن والحدة والقبول عند الملأ . ولذلك حصلت زيادة الرغبة فيهن والانهماك في حبهن ".(٥٠)

ويمثل باب الغزل في الحبشيات عند الشعراء العرب في العصور المختلفة رافداً ثراً من روافد الأدب العربي أشتمل على معاني قلّ أن تجدها إلا فيه ، وصور أخاذة أقتصرت عليه دون غيره إلا فيما ندر . نظم العرب في هوى الحبشيات في العديد من البحور اللاهثة سريعة الايقاع تعبيراً عما يجد المحبون من وجد ولهفة متعطشة . أما المعاني فقد تراوحت بين الحب العذري ، وهو – فيما عرفنا من الشعر الذي قيل في الحبشيات قليل – والمعانى التقليدية الواردة عند أكثر شعراء الغزل ، والمعانى الجامحة ، ثم المعاني الفاجرة الفاسقة . ونثبت في هذه العجالة بعض شعر العرب في الحبشيات لإبراز صورة حقيقية لهذا الشعر . قال بعضهم :(٥١)

لا تلمني في ولوعي بالحبش ... إن فكرى حار فيهم واندهش

....

وفم عذب حلا من شفّةٍ ... لو سقي المنعوش منه لانتعش

وقال آخر :

الله أكبر كل الحسن في الحبش ... كأنهم أنجم تبدو مع الغبش

لى منهم طيبة للبدر مخجلة ... إذا بدت فجميع الناس في دهش

ريّانة الجسم لكن قلبها حجر ... فما ترقّ لصبٍّ مات بالعطش

وقال ثالث :

سلب العقول هوى الحبوش ... وسبى القلوب وفتّ حب الأكبد

فرقن بين جفوننا ومنامنا ... فجفا نواظرنا لذيذ المرقد

يهجن ألباب الملوك فأصبحت ... ساداتنا لبناتهم كالأعبد

بينا ترى الملك المعظم مـــالكاً ... في الخلق أضحى ملك ظبي أغـيـد
فـالأمــحــرية مــا يـصبن حــبـائلاً ... إلا وصـــادت كل ليث أصــيــد
يصـبــو الحليم إلى لذيذ كـلامــهــا ... وتذيب أن نطقت صــلاب الجلمــد

وقال آخر :

ومــخــضــرة اللون زيتــيــة ... تحــيــر في الحــسن كل الأنام
قــد كــتب الحــسن على خــدهـا ... كـلامــاً غـدا فـائقـاً في انسجـام
أيـا نـاظـراً لمحــيــاي قـل ... لهـــذا هـو الملك ثم الســلام

وقال مالك بن المرّجل في هذا الصدد : (٥٢)

مــذهبي تقــبــيل خــد مُذهب ... سـيـدي مــاذا ترى في مــذهبي ؟
لا تـفـنـد مـــالـكـاً فـي رأيـه ... فــبــرأيه يأخــذ أهل المغــرب

وللشيخ عبد النافع بن عراق شعر متكلف ورجز جاء منه :

للحـبش قـد مـالت جـمـيع الحـواس ... فـبـعـضـهـم يزرى بظبى الكناس
هـو الـذى أذهـلـنى حــبــه ... مـا حـيلتى مـا عـملى يا أناس ؟

ومن رجزه :

لا تعزلاني أبداً عن عشـق الغـزلان ... فالحب من شانى خصوصاً لبنى الحبشان

ولشهاب الدين أحمد بن عبد القادر المخالبي اليمني السبئي الصدري قصيدة منها :(٥٣)

حــذار حــذار من غــزلان حــاجــر ... ومن رشق السـهـام من المحـاجــر
فــثم مــحــبــه يحــمـي لماه ... بأطراف الرمـــاح وبالبـــواتر
غـــزال من بنـى حـــام ربيب ... له خـــصــر أرق من الخنـاجـــر
يقـــاسى حـــمل أرداف ثـقـــال ... كـفلك شـاحن فى بحـر زاخــر
إذا ســقـــاك من فــمــه رضـــاباً ... تظل مــعــربداً للكأس كـاســر
بعـينيـه المراض الدعج ســحــر ... تصـيــد به لألبـاب القــســاور
سـمـعنا بالعـجـيب ومـا سـمـعنا ... بـأن الليث يقنصـــه الجـــآزر
مليح كله حــسن المعـــانى ... وجلبـاب العـفــاف عليــه ســاتر
كـــأن شـــروطه طرق ثـلاثـة ... قلوب العــاشــقين بهــا تســافــر

شبب الشعراء ببنات الحبش ، ومايزوا بين الفتيات اللائي ينتمين إلى القبائل المختلفة وجعلوا لفتيات كل قبيلة من تلك القبائل فضائل في الغنج والتيه والدلال والصفات التى تحسن بها النساء في أعين الرجال ما لم يجعلوه لفتيات القبيلة الأخرى . وكان أكثر ما تغنوا به من الفتيات اللائى يرجعن في أصولهن إلى الأمحرة والسحرت وقبائل الداموت وبلين وقموا وقتر والأنجشة وبنات زيلع وأزارة . قيل في فتيات زيلع :

يا سـائلي عن زيلع	وعن طريق الحبشة
صحبتها وصيفه	بحسنها مشريشة
تذكر أن أصلها	من فتيات الأنجشة
وعمها الخال فيا	طوبي لمن قد خمشة

ومن قصيدة طويلة للشيخ محمد فخر الدين أبوبكر ننقل مايلى في التغزل بالحبشيات كُلهن دون تمييز لقبيلة بعينها .(٥٤)

يا حبوش أنتم حلاوة	يا قناديل الذهب
كم ملكتم من سلاطين	كم قتلتم من عرب
لى من الحبش غزال	لفؤادى قد سلب
وانثنى عنى دلالاً	ولقتلى قد طلب
ورمى نحوي بسهم	من لحاظ ونشب
قالت له يا حب صلني	فاصطبارى قد ذهب
يا حبوش أنتم حلاوة	يا قناديل الذهب
***	***
قال لى بالله دعنى	ما وصالك لي مباح
من يرم غالى وصالى	من يرم ذات الوشاح
لا يعر سمعه لواشٍ	لا ولا عازل ولاح
قلت له يا نور عينى	في سواك مالى أرب
يا حبوش أنتم حلاوة	يا قناديل الذهب
***	***
قال صف إن كنت تهوى	مبسمى راعى الوشام
قلت له عقد جواهر	نضّ من غالى وسام
ما سلب عقلى وروحى	غيركم يا أولاد حام
ما لكم تأبوا وصالى	يا ترى ماذا السبب

يا حبوش أنتم حلاوة
يا قناديل الذهب

***

ما ترى في الفيد مثله
إن تبدأ أو حضر
في الأزيرق حين يخطر
قد تركني في خطر
شرطه جرح فؤادى
والحشا مني أسر
قلت له حسبي حبيبي
لا ترد قلبى ذهب
ياحبوش أنتم حلاوة
يا قناديل الذهب

***

بعد ذا أنعم حبيبى
وسمع لى بالوصال
بعد ما أكثر صدودي
وجرح قلبي وصال
يا ليالى الوصل عودي
ما هنا تلك الليال
أنتم غاية مرادى
ولها كان الطلب
يا حبوش أنتم حلاوة
يا قناديل الذهب
كم ملكتم من سلاطين
كم قتلتم من عرب

ويسترعي الانتباه في القصيدة الماضية أنها تتغزل بالشروط أو اللعوط المعروفة أيضاً بالشلوخ* حين أشار الشاعر إلى أن ذلك "الشرط" قد جرح فؤاده وملك عليه حشاه . والحقيقة فإن "شعر الشلوخ" في التغني بالحبشيات يشغل حيزاً كبيراً من هذا الباب ، ويعد من أرقّه وألذّه . قال الشاعر :(٥٥)

الله أكبر كل الحسن في الحبش
واللطف والظرف في تلك الشروط حشى
مهفهف القدعبل الردف ذا حوّر
والسحر والغنج في عينيه منذ نشي
لما تبدى يحاكي البدر طلعته
سألته قبلة أروي بها عطشي
أبى وأعرض فيها عن متيمه
وخلّف الصبّ من بلواه في دهش

وقال أخر :

ولي حبشية سلبت فؤادى
فليس يروق لي شيء سواها
كأن لعوطها طرق ثلاثة
تسير بها القلوب إلى هواها

وقال آخر يتغزل فى جاريته ذات الشروط :

رب فـــتـــانه بحــسـن قـــوام ... وعــيـــون مــفـــتـــرات مـــراض
أســــرتني وأطلقت دمع عـــينى ... بشـــروط أثبـــتـــهـــا عند قـــاض
بعـــد دعـــوى على أنى عـــبـــد ... ورقـــيق بحكم عـــهـــد التـــراضى
فـــتـــوقـــفت كى يطول التـــداعى ... بيننا والكلام عند التـــقـــاضى
ثم بعـــد الثـــبـــوت والحكم بالموجب ... قـــالت يا قـــاضى حكمى مـــاضى
وشــروطى فى أصل عــقــد مــبــيــعي ... فـــأســـألوه هل كـــان إذاك راض
قلت هات الشـــروط أنظر فـــيـــهـــا ... فـــأرتنى بســـرعـــة وانتـــهـــاض
فلثـــمـــت الشـــروط ألفـــا وقلت ... ســجل الحكم واقض مـــا أنت قـــاض

ومن ذلك أيضاً :

ومـشـروطة شرط الأحـبة سـمـتـهـا ... نوالاً فـلا تسـمـح وضنت ولم تعط
قـالت ألـم تعلم بشــرطى فـى الهـوى ... فـقلت لهـا انى أمـوت على الشــرط

وقال أحدهم :

على صـفـحة الخدين قـد لاح لى خط ... ومـضـمـونة أن الممـات به شـرط
أمـوت بلا شـرط عليـهـا صـبـابة ... فكيف إذا مـا لاح فى وجهها شرط

وفى الحقيقة فـإننا أسهبنا فى نقل شعر "الشروط" لأن هذا الفن اتخذ مـادته من فتيات الحبشة بصفة خاصة ، وفاتنات النطاق السودان بصفة عامة . زادت تلك الوجوه الوضيئة "بالشروط" جمالاً تغنى به شعراء العربية ، وكانت "الشروط" من الموضـوعات التى دخلت مادة الشعر العربى من الحبشة . ولم يكن هذا الضرب من الفن مـألوفاً فى الشعر العربى ولكنه نما وازهر وازدان بالحبشيات وشروطهن .

فى السير والأخبار :

دخل الأحباش ، خاصة الصحابة والتابعين منهم ، كتب السير والتراجم والأدب والفقه والتصوف ، وأهتم المؤرخون بأخبار العلماء والفقهاء من الأحباش . ويمتاز سيدنا بلال (رض) بسبقه المسلمين في كثير من المجالات . أخرج الحاكم في المستدرك والبزاز والطبراني بسند صحيح عن أنس بن مالك (رض) قال : قال رسول الله (ص) : السباقون أربعة ، أنا سابق العرب ، وصهيب سابق الروم ، وسلمان سابق الفرس ، وبلال سابق الحبشة . وأخرج ابن حيان في الضعفاء والطبراني فى الكبير بسند ضعيف عن ابن عباس قال : قال رسول الله (ص) : إتخذوا السودان فإن ثلاثة منهم من سادات أهل الجنة : لقمان الحكيم والنجاشي

وبلال المؤذن . قال الطبراني : ويعني بالسودان الحبش . وأخرج الامام أحمد وأبو يعلي في مسنديهما بإسناد صحيح عن ابن عباس (رض) قال : قال رسول الله (ص) : دخلت الجنة ليلة أسرى بي فسمعت في جانبها وجساً ، فقلت : يا جبريل ما هذا ؟ قال : هذا بلال المؤذن . وعن أبي هريرة (رض) قال : قال رسول الله (ص) لبلال : أخبرني بأي عمل عملته أرجى منفعة في الاسلام فإني سمعت الليلة خشفة نعليك بين يدي في الجنة ، فقال : ما عملت يا رسول الله في الاسلام عملاً أرجى عندى منفعة من أني لا أتطهر طهوراً تاماً قط في ساعة من ليل أو نهار إلا صليت بذلك الطهور لربى ما كتب لى أن أصلى . وأخرج بسنده أيضاً عن بريده عن أبيه (رض) قال : دعا رسول الله (ص) بلالاً فقال : يا بلال بم سبقتني إلى الجنة ؟ فإني دخلت الجنة البارحة فسمعت حشفتك أمامي . فقال له : ما أذنت قط إلا صليت ركعتين ، وما أصابنى حدث قط إلا توضأت عنده . فقال رسول الله (ص) : بهذا سبقتنى .(٥٦)

أما سيدنا مهجع الحبشى (رض) فهو ممن نزل فيهم قوله تعالى :(ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين . وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا اليس الله اعلم بالشاكرين .) إلى قوله تعالى : (فقل سلام عليكم كتب ربكم علي نفسه الرحمة .) وسبب نزول هذه الآية أن بعض أشراف العرب جاءوا إلى الرسول فوجدوه جالساً مع بلال ومهجع وأناس ضعفاء . فقالوا انا نستحي أن ترانا العرب قعوداً مع هؤلاء الأعبد ، فإذا نحن جئناك فاقمهم عنك ، وإذا نحن قمنا فلتقعد معهم إن شئت . وجاء أيضاً في مهجع (رض) وأصحابه من الضعفاء (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا وكان امره فرطا .) وقال أبو القاسم بن عبد الرحمن (رض) أن أول من عدا به فرسه من المسلمين المقداد بن الأسود ، وأول من رمى بسهم في سبيل الله سعد بن مالك ، وأول من أذّن بلال ، وأول من استشهد يوم بدر مهجع ، مولى عمر بن الخطاب .

ويجيء ذكر أبو بكرة الحبشي علماً في الصحابة ، وكان قد أسلم في الطائف وحوصر ، ونزل على النبي (ص) من على سور في بكره ، فكنى أبو بكرة من أجل ذلك ، أما اسمه فهو نفيع بن مسروح الحبشي . وكان رضي الله عن من رواة الأحاديث ، فقد روي مائة وأثنين وثلاثين حديثاً اتفق البخاري ومسلم على ثمانية منها . وكان أبناؤه من بعده بالبصرة شرفاء لما لهم من وفرة في العلم ، وكثرة في المال والولايات . قال الحسن البصري : لم ينزل البصرة من الصحابة أفضل من عمران بن حصين وأبي بكره .(٥٧)

أما شقران الحبشي فهو – فيما يبدو – مولى رسول الله (ص) أعتقه بعد بدر ، وكان فيمن

شهد غسل رسول الله (ص) . قيل أنه وأسامة بن زيد كانا يصبان الماء على جسده الطاهر وقت غسله ، وعليٌ وابن العباس يغسلانه .

وكان ذو مخمر من أجّل الصحابة وأكثرهم ملازمة لرسول الله (ص) حتى عدّه البعض من مواليه إذ كان يقوم بخدمته تجلة واحتراماً . ولعلنا لا نعجب حين نعرف أنه كان ابن أخي النجاشي ملك الحبشة قدم إلى رسول الله (ص) صحبة جعفر بن أبي طالب . روى هذا الصحابي الجليل عدداً من الأحاديث . جاء في أحد هذه الأحاديث : "تصالحون الروم صلحاً أمنا وتغزون أنتم وهم عدوا من ورائهم فتسلمون وتغنمون . ثم تنزلون بمرج ذي تلول فيقوم رجل من الروم فيرفع الصليب فيقول الأغلب الصليب . فيقوم إليه رجل من المسلمين فيقتله . فعند ذلك تغدر الروم وتكون الملاحم فيجتمعون اليكم فيأتونكم في ثمانين غاية مع كل غاية عشرة الاف ."(٥٨)

كان ذومهدم أيضاً من الصحابة القادمين مع جعفر من الحبشة . ويروي أن الرسول (ص) قال لهم : انتسبوا . فقام ذومهدم وأنشأ يقول :

على عهد ذي القرنين كانت سيوفنا	صوارم يفلقن الحديد المذكرا
هود أبونا سيد الناس كلهم	وفي زمن الأحقاف عزاً ومفخرا
فمن كان يعمى عن أبيه فاننا	وجدنا آبانا العدملى المذكرا

وفي الحقيقة لا يخفى أن هود ليس بأب للحبشة . فلعل ذومهدم كان من أهل حمير الذين استوطنوا الحبشة ثم كان ضمن العائدين مع جعفر من هناك ، فكان الرجل حبشي الهوية ، عربي الأصل واللسان . وكان ذو دجن ، وذو مناحب ، وذو مخمر ، وكذلك ذو روجي خالد بن الحوارى من أصحاب ذي مهدم وعلى شاكلته .

ومن الصحابة الأحباش أيضاً خالد بن رباح ، أخو بلال . ومنهم أيضاً أسلم ويسار ، وقد استشهدا دفاعاً عن الاسلام . ومنهم هلال الحبشي . عن أبي هريرة عن الرسول (ص) قال : ليدخلّن من هذا الباب رجل ينظر الله إليه . فدخل غلام للمغيرة بن شعبة حبشي يقال له هلال ، غائر العينين ذابل الشفتين ، بادى الثنايا ، خميص البطن ، أحمش الساقين ، أحنف القدمين ، مهزول تعلوه صفره ، وهو يحرك شفتيه بالذكر والتسبيح فقال له النبي (ص) : مرحباً بهلال ، هل لك في الفداء ؟ بل صم على ما أنت عليه ، وصلى عليّ يا هلال .

وكان يسار الحبشي (رض) ، مثله مثل هلال ، مولى . عن أبي هريرة قال : كنت مع رسول الله (ص) في المسجد فقال لي : يا أبا هريرة يدخل عليّ من هذا الباب الساعة رجل من السبعة الذين يدفع الله عن الأرض بهم ، فإذا حبشي قد طلع من ذلك الباب أجدع على رأسه

جرّه . فقال رسول الله (ص) : هذا هو ، ثم قال : مرحباً بيسار ، ثلاث مرات . وكان الرجل يرش المسجد النبوي ويكنسه .(٥٩)

كان أبرهه الحبشي ، حفيداً لأبرهه الأشرم صاحب الفيل ، وقد أسلم (رض) بمكة حين أدركه الإسلام ، وقيل أنه كان على عهد الأشرم ملكاً على تهامة . وهناك أبرهه آخر قيل أنه من الذين عناهم الله تعالى في قوله : (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون) . وكان من أصحاب النجاشي الذين آمنوا ثم استأذنوه ليلحقوا بالنبي الذى كانوا يجدونه فى كتابهم ، فأذن لهم .

أما وحشي فقد اهتم أهل السير والأخباريون به ، فقد قتل هذا الحبشي حمزة ، عم الرسول ، في موقعة أحد . يقول وحشى أنه غافل حمزه وأتاه وهو يقاتل سباع بن عبد العزى ، "فهزرت حربتي حتى رضيت منها ، ودفعتها عليه ، فوقعت فى تنته حتى خرجت من بين رجليه ، فخليت بينه وبينها حتى مات . فأتيته وأخذت حربتى ثم رجعت إلى المعسكر . ثم أنه لما رجعت إلى مكة أعتقني سيدي" هرب وحشي بعد فتح مكة إلى الطائف ، وحين هداه الله إلى الاسلام ذهب إلى الرسول (ص) في المدينة . "فلم يدر رسول الله (ص) إلا وأنا واقف عند رأسه الشريف أشهد شهادة الحق . فقال عليه السلام : أوحشي أنت ؟ قلت : نعم يا رسول الله . فقبل منى ذلك ، وأسلمت وحسن اسلامي على يديه . ثم قال له رسول الله (ص) : أجلس فحدثنى كيف قتلت عمي حمزة فحدثته ." وحين خرج المسلمون في خلافة أبى بكر لقتال مسيلمة الكذاب ، يقول وحشي أنه رأى مسيلمة "فتهيأت له وتهيأ له رجل من الأنصار كلانا يريده ، فهزرت حربتي ودفعتها عليه فوقعت في عانته . وشد عليه الأنصاري فضربه بالسيف ، وربك أعلم أينا قتله ." وكان وحشي (رض) يقول قتلت خير الناس في الجاهلية ، يعني حمزة بن عبد المطلب ، وشر الناس في الاسلام ، يعنى مسيلمة الكذّاب . وروى عن ابن عباس أن الآيات (إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات) ، و (ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) ، و (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً انه هو الغفور الرحيم) ، قد نزلت في مناسبات مختلفة ارتبطت كلها بذلك الحبشى قاتل حمزة .(٦٠)

اهتم أهل السير بالصحابيات الجليلات من السيدات الحبشيات . وتأتي في مقدمة رتلهن السيدة أم أيمن ، حاضنة الرسول (ص) التى أعتقها وزوّجها مولاه زيد بن حارثة فولدت له ابنه إسامة . وكان رسول الله يقول فيها : أم أيمن أمي بعد أمي . وكان يكثر زيارتها في بيتها . ذكر اليافعي في تاريخه أنه لما توفى رسول الله (ص) قال أبو بكر لعمر : انطلق بنا إلى أم أيمن نزورها كما كان الرسول (ص) يزورها . وروى مسلم في صحيحه أنها توفيت بعد الرسول بخمسة أشهر .

وكانت سعيرة من الصحابيات الحبشيات . روي عطاء الخرساني عن عطاء بن رباح قال : قال لى ابن عباس ألا أريك انساناً من أهل الجنة ؟ فقلت : بلى . فأراني حبشية صفراء وقال : هذه سعيرة الحبشية الأسدية ، أتت النبي (ص) وقالت : ان بى هذه الموتة فادعو الله أن يشفينى . فقال لها الرسول (ص) : إن شئت دعوت الله أن يشفيك مما بك ويثبت لك حسناتك وسيئاتك ، وإن شئت فأصبرى ولك الجنة ." فاختارت الصبر والجنة . (٦١)

واهتم أهل الأخبار والسير أيضاً بالنجاشى أصحمه الذي أختلف في اسمه . فهو أصحمة أو صحمة أوصمحة أو صحممة ومصحمه وأصحمه ، وهو أيضاً مكحول بن صعصعة ، وتعرّفه المصادر الحبشية بأرماه ARMAII . قال ابن الملقن : هو تابعي لأنه أمن ورأى الصحابة ولم ير النبي (ص) وإن ذكره ابن سند وغيره في الصحابة . وقيل أنه أصحمة ، وهو الأشهر ، ومعناه بالعربية عطية .(٦٢)

ويعتقد الباحثون المحدثون أن الملك الحبشي المعاصر للنبي (ص) هو أرماح الثانى (أرمحة) وترجع إلى عهده قطع من النقود النحاسية نقش على بعضها (نجوش أرماح فشحا ليكون لا حزاب) ومعناه الملك أرماح ليسعد شعبه . وعلى بعضها (نجوش أرماح شهل وسلام) ومعناه الملك أرماح رحمة وسلاما . وقد أدى هذا التحريف أو التصحيف في الاسم إلى أن يعتقد بعض علماء الأحباش في العصر الحديث أن أصحمة كان حاكماً لأحد أقاليم الحبشة في منطقة فى مجاورة تيحكي دنسا الحديثة .(٦٣)

والنجاشى لفظة حبشية .. كما جاء عند البعض قيل أنها بكسر النون وتشديد الياء وقيل بفتح النون وتخفيف الجيم ، وقال البعض تخفيف الياء أفصح ، وقال بعضهم تشديد الجيم خطأ . وقيل هو لقب لكل من ملك الحبشة ، كقيصر لمن ملك الروم ، وكسرى لمن ملك الفرس ، وخاقان لمن ملك الترك . (٦٤) وقيل أنها لفظة عربية محضة مأخوذة من النجش بمعنى الاثارة للشيء والزيادة في السلعة . وقال صاحب الحاوى : ومنها قيل للصياد نجاش وناجش لإثارته الصيد ، ولطالب السلعة نجاش لزيادته في ثمنها . وقال ابن خلدون في كتابه العبر ، هي باللسان الحبشى أنكاش فعربّتها العرب جيماً محضة والحقتها ياء النسب كما هو شأنها في الأسماء الأعجمية إذا تصرفت فيها .

يحكي بعض أهل السير حكاية طريفة عن النجاشي أصحمة فقد قيل أن والده أبجر كان ملكاً للحبشة فقتلوه وولوا أخاه الذي هو عم النجاشى مكانه ، وذلك لأن الحبش نظروا فوجدوا أن أبا أصحمة ليس له من الولد إلا ابن واحد ، بخلاف أخيه الذي كان له اثنا عشر ولداً . فقالوا : لو قتلنا هذا ولينا أخاه لبقي الملك ممتداً في بنى أخيه زمناً طويلاً . أصبح العم ملكاً ، ونشأ أصحمة في حجر عمه نجيباً حتى غلب أمره على أمر عمه . فلما رأوا ذلك خافوا أن

يظفر بهم في يوم من الأيام فيقتلهم بقتلهم لأبيه فمشوا لعمه في قتله أو نفيه ، فأجابهم إلى اخراجه من البلاد على كره منه ، فباعوه لرجل عربي من بنى ضمرة ، فذهب به إلى بلاده الواقعة بين مكة والمدينة ، فمكث لديه يرعى الابل والغنم حتى توفي عمه . ولم يجد الأحباش في أبناء الملك من يصلح لهذا الأمر : وقال بعضهم لبعض : والله لا يصلح لهذا الأمر إلا الذي طردتموه ، فبحثوا عنه حتى وجدوه وأتوا به وأجلسوه مجلس أبائه وأجداده . وقيل أن فترة رقّه وما وقع له فيها وبعدها جعلته عادلاً . فحين ردّ على مشركي مكة الذين أتوا في أثر المهاجرين هداياهم قال : لم يأخذ الله منى رشوة حين ردّ إليّ ملكي . (٦٥)

واهتم أهل السير والأخبار أيضاً بأريحا أو أرمي ، وهو ابن النجاشي الذي أرسله إلى الرسول (ص) ليبلغه بإسلامه ، وينصره بأصحابه من الأحباش ، فغرق مع أصحابه . وقال البعض في تفسير ذلك : أنه لو جاء الرسول (ص) ومعه جنده لقال الكفار والمنافقون أن الدين أشتد بملك الحبشة ، وربما ارتاب بعض ضعفاء العقول والإيمان . (٦٦) فأراد الله أن يظهر بحكمته أن المستضعفين يمكن لهم إقامة دولة الله في الأرض دون قوة ملك أو سلطة سلطان .

أما سيرة أسامة بن زيد فهي من أعطر السير . روى ابن عمر أن النبي (ص) قال : ان أسامة بن زيد لأحب الناس إليّ ، أو "من أحب الناس إليّ ، واني أرجو أن يكون من صالحيكم ، فاستوصوا به خيراً ." واستعمله صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثماني عشرة سنة على جيش كان فيه عمر بن الخطاب ، وأمره أن يسير به الى الشام . فلما اشتد المرض بالرسول (ص) أوصى أن يسير جيش أسامة فسار بعد وفاته ، وكان فاتحة عهد الخليفة أبي بكر .

كان أسامة أسوداً أفطساً شجاعاً كريماً لا يخشى فى الحق شيئاً . وقد روي عن الرسول (ص) بعض الأحاديث .

وترجم أهل السير لأيمن بن عبيد (رض) ، وهو ابن أم أيمن ، قال العباس بن عبد المطلب :

نصرنا رسول الله في الدين سبعة ... وقد فرّ من قد فرّ عنه فأقشعوا
وسابعنا لاقي الحمام بنفسه ... بما مسّه في الدين لا يتوجع

والسبعة هم العباس بن عبد المطلب ، وابنه الفضل ، وأبو سفيان بن الحرث بن عبد المطلب ، وأبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعلى بن أبي طالب ، أما سابعهم فهو أيمن بن عبيد الذي استشهد يوم حنين . (٦٧)

وقد اهتم أهل السير والأخباريون من الأحباش والعرب فى العصر الوسيط بأخبار الآباء النصاري وأعمال الرسل ، أهتم البعض بأخبار الصحابة من الأحباش وتدارسوا سيرهم وكذلك بأخبار التابعين . ونبغ في الأحباش مؤرخون كتبوا بالعربية وبرز فيهم مترجمون كتبوا بالعربية والحبشية . وظهر في الحبش المتصوفة والشعراء وعلماء النحو واللغة والفقه .

ففي مجال الترجمة : نقل الأحباش عن العربية عدة قصص تروي أعمال الرسل ، وآدم وحواء ، ومعجزات المسيح ، وعجائب السيدة العذراء ، وحياة القديسين والشهداء . وقد أخذ الأحباش هذه الأعمال من المصنفات التي وضعها القبط الذين كتبوا بالعربية . وقد نقلت هذه المجموعة إلى لغة الجعيز في القرن الخامس عشر الميلادي ، وجعلوها في كتاب سموه "مصحف سنكار ." وفي مستهل القرن السابع عشر ترجمت كتب أخري عن العربية دفاعاً عن المذهب اليعقوبي . ولعل كتاب الدر الثمين في ايضاح الدين ، لساويرس بن المقفع ، كان أهم تلك الكتب . جادل المؤلف في هذا الكتاب بأن الله ذو ثلاثة أقانيم وذو طبيعة واحدة . وقد ترجم هذا الكتاب إلى الحبشية باسم "فكارى ملكوت" أى تفسير الألوهية . كما تمت ترجمة كتاب اعتراف الآباء لبولس بن رجاء ، تحت اسم "هيمانوت أبو" أي إيمان الآباء وفيه نوقشت عدة مسائل في مذهب الطبيعة الواحدة ، وكذلك عدة مقالات في الرد على الهراطقة . كما نقل أحد رؤساء الأديرة في الحبشة إلى لغة الجعيز في عام ١٥٨٢م كتاب مختصر البيان في تحقيق الايمان . والكتاب هو الجزء الأول من كتاب الحاوى المستفاد في تحقيق الإيمان . ويتحدث هذا الكتاب في الفضائل النصرانية وفي الصلوات ، وعن حياة الكنائس والأديرة ، وترجم الأحباش أيضاً كتاب مجموع الصفوى لمؤلفه أبو الفضائل أسعد بن العسال ، وقد جمع فيه مؤلفه فضائل الرسل ومسائل أخرى متصلة بهذا المجال . (٦٨)

لم تقتصر ترجمة الأحباش لكتب العقيدة وأعمال الرسل والمسائل الدينية فقط إنما تعدته لنقل الأساطير والروايات وأخبار الرواة . فكتاب "كبرا نجست" عظمة الملوك ، الذي يدعّي أن ملوك الحبشة من سلالة سليمان (عم) والذي ترجمه الأحباش منذ القرن الثاني عشر ، ويظن أنه من وضع أحد النصارى العرب . وترجم الأحباش كذلك في القرن الثالث عشر أو الرابع عشر إلى لغة الجعيز كتاب يوسف بن جوريون الذي يتحدث في تاريخ اليهود . ومن أهمّ كتب التاريخ العربية المترجمة إلى الجعيز كان كتاب يوحنا أسقف نيقية الذي عمل فيه على تلخيص التاريخ العام منذ بدء الخليقة حتى عام ٢٠هـ/ ٦٤٠م . وقيل أنه ترجم بواسطة غبريال المصرى بأمر من والدة الملك سرحادلل (٩٧١ – ١٠٠٦هـ/١٥٦٣ – ١٥٩٧م) . وقد ورد في هذا الكتاب أخطاء في الترجمة ، وتصحيف في المعاني كانت في جملتها طريفة . فإذا أراد أن يترجم "فوق طاقة البشر" ترجمها "ليس في النافذة بشر" . أما عبارة "على الرأس" أو عن "طيب خاطر" فقد ترجمت " فوق الرأس" . (٦٩)

وفى مجال الفقه والفكر الدينى : صنّف البعض في تراجم أئمة الحبش وفقهائهم الذين أثروا الفكر الديني والصوفي والتاريخى وكان لهم في بلاد الحبشة أثرهم الثقافي وتأثيراتهم الفكرية والسياسية .

يعد عطاء بن رباح من أشهر العلماء المنحدرين من عرق حبشي . يقال أنه كان عبداً أسوداً من عبيد الحبش ، مولى لأمرأة من أهل مكة . ولد عطاء في خلافة عثمان ، وروي عن عبد الله بن الزبير ، وابن عمر ، وأبي الدرداء ، وأبي سعيد . وروي عنه الأعمش وسلمه بن كهيل وابن جريج ، والليث ، ومالك بن دينار ، وغيرهم . وانتهت الى عطاء فتوى أهل مكة . يروي أن ابن عمر قدم مكة فسأله أهلها بعض المسائل فقال : تجمعون لي يا أهل مكة المسائل وفيكم ابن رباح ؟! أما فى العهد الأموى فكان بنو أمية يرسلون منادياً ينادى فى موسم الحج : لا يفتي إلا عطاء بن رباح ثم ، يعيِّن بعده الباقين . هذا وقد حجّ ابن رباح سبعين حجة . (٧٠)

تعد أسرة الجبرتي ، المؤرخ الشهير ، من الأسر الحبشية التى كان لها تأثيرها في الفكر العربي . روي الجبرتى عن نفسه أن أول من ارتحل من بلاده من هذه الأسرة في أوائل القرن العاشر ، الشيخ عبد الرحمن ، وهو الجدّ السابع للجبرتي المؤرخ . قيل أنه رحل إلى جدّة ثم إلى مكة فجاور بالرواق . وتولي شيخاً على الرواق ، ونشأ ابنه شمس الدين على نهج أبيه . وفي القرن الثاني عشر عاش الشيخ حسن الجبرتي وكانت شيخاً على الرواق . وولد له عبد الرحمن في عام ١١٦٨هـ/١٧٥٤ الذي اشتهر بكتابه في التاريخ . (٧١)

ومن المتصوفة : عثمان بن سودكيت الجبرتي : تلميذ ابن عربي المتصوف المعروف . وكان الملك الظاهر برقوق يعتقد في صلاحه ، وأوصى عند موته أن يدفن تحت قدميه بالصحراء . (٧٢)

ومنهم كذلك : الشيخ علي الجبرتي : كان السلطان الأشرف قايتباي يعتقد في صلاحه . قام هذا الشيخ ببناء مسجد عظيم عند بحيرة أدكو بين رشيد والاسكندرية . ووقف عليه عدة أماكن وقيعان وأنوال حياكة وبساتين ونخيل كثيرة بمصر . كما بنى مسجداً شرقى عمارة السلطان قايتباي ودفن به . (٧٣)

وفى الحقيقة فقد اشتهر الأحباش بالصوفية منذ عهد بعيد ، وتأثرت بأخبارهم وأرائهم بعض المدن الاسلامية العربية . كان أبو الخير الدعوى الحبشي من أبرز المتصوفين الذين عرفتهم المدينة المنورة وقد توفى بعد الأربعين والثلثمائة . ومن هؤلاء أيضاً ثقف الحبشى المتوفى بمكة المكرمة عام ٣٨٣هـ . وكان ريحان الحبشي أبو محمد الزاهد الشيعى من أشهر متصوفة البلاد المصرية . ومن المتصوفة الأحباش الذين عاشوا بالاسكندرية ياقوت الحبشي أبو عبد الله الاسكندراني الذي توصفه المصادر بأنه "عظيم الشأن صاحب كرامات ." وقد صحب هذا المتصوف الشيخ أبا العباس المرسى ، نزيل الاسكندرية ، واسلك على يديه . وانتفع الناس بعلمه وبزهده . وقد توفي فى عام ٧٣٢هـ . (٧٤)

ومن الفقهاء : فخر الدين أبو عمر عثمان بن علي بن محجن البارعي الزيلعي : الفقيه الأصولي

الجدلي . قدم القاهرة في القرن الرابع عشر ، ودرس وأفتى ونشر الفقه ومات بها . وقد شرح كنز الدقائق في كتاب أسماه "تبيين الحقائق في شرح كنز الدقائق" . (٧٥)

ومنهم كذلك : جوهر بن حيدر بن على الشنكي : أحد مفاخر الحبشة وأحد أكابر العلماء ، إماماً كبيراً ، وشيخاً جليلاً ، حامل لواء العلم والعمل والزهد والورع والخوف والانابة . رحل إليه إئمة البلاد للأخذ والافادة منه . انتهت إليه الرئاسة في المذهب الشافعي . ومن تصانيفه الصلوات النورانية على خير البرية ، وكذلك الجواهر الحيدرية في العقائد الدينية الذي فرغ من تأليفه في عام ١٣٢١هـ ، وله قصائد كثيرة . توفي عام ١٣٥٥هـ/ ١٩١٢م . (٧٦)

ومنهم كذلك : الحاج حسن بن لبن الكومبولشي : "المقري" المجوِّد ، كان عالماً بعلم القراءة عارفاً بالتجويد . أخذ القراءة والتجويد عن العالم الكبير الحاج هاشم ، وهو عن الشيخ عبد المنان ، وهو من علماء هرر . وقد اجتمع للحاج حسن طلاب كثيرون من بلاد شتى . (٧٧)

ومن علماء اللغة والنحو : حسن بن حبيب الحنفي الجبرتي الوللوي الوَّرهمني : كان حبراً فاخراً ، وبحراً زاخراً ، فقيهاً نحوياً ، منطقياً عروضياً ، مفسراً . تلقى العلوم النقلية والعقلية عن مشايخ هرر . ومن تآليفه وتصنيفاته تفسير القرآن الكريم ، شرح وقاية الرواية ، شرح كنز الدقائق ، شرح مختصر القدوري ، شرح تحفة الملوك الذي سماه بمنهج السلوك ، شرح على مقدمة أبي الليث السمرقندي ، شرح على المختصرة المشهورة بشروط الصلاة ، وشرح على نور الإيضاح ، وشرح على نظم جوهر العقائد ودر القلائد في جزئين ، وشرح على تنبيه الأنام للعلامة عبد الجليل القيرواني المغزلى ، سماه توضيح الأنام ومسرح الأفهام . وشرح على بردة المديح مع تخميسها للفيومي . وشروحات أخرى كثيرة للعديد من القصائد النبوية . وقد استشهد هذا الشيخ فى عام ١٣٣٥هـ/١٩١٦م حين قتله بعض نصارى شوا في النزاع الذي قام بينهم وبين أهل وللو . (٧٨)

ومن غلاة المتصوفة في الحبشة : زين العابدين بن الشيخ طاهر الوربابي : نزيل قطى المتوفي ١٣٣٠هـ/١٩١١م كان من المتصوفة غواصاً في بحر الكلمة ، أقيانوس المعارف مستخرجها . مترجماً عن السنة أحوال الكائنات . يري أن طهارة الظاهر لا عبرة لها دون طهارة الباطن . وقد تمثل المؤلف بقول القائل :

لا يغـــرك ثيـــاباً نُقّـــيت	فـــهي بالصـــابون والماء نظيـــفة
تشـــبه البـــيضـــة لما فـــسدت	قـــشرها أبيض والبـــاطن جـــيفـــة

وكذلك ما قال عبد الله بن المبارك :

مـــا بال دينك ترضى أن تدنســـه	وثوبك الدهر مـــغـــســـول من الدنس
ترجـــو النجـــاة ولم تسلك مـــسالكها	إن الســـفـــينة لا تجـــرى على اليـــبس

ومن الذين ألّفوا في المتصوفة وأقروهم : سيد بن فقيه زبير الكاكوريّ : من أئمة المتصوفة في بلاد يجو من قرية مدار ، له تصانيف بلغت أربعين . منها : ترتيب السلوك ، والمنوال ، واتحاف المريد ، وسفينة النجاة ، والمختصر في تنبيه الغافلين ، وشرح على الفية إبن مالك ، وشرح على الأجرومية ، ورسالة في القراءة . توفي عام ١٣٤٣هـ/١٩٢٤م . (٧٩)

ومن أئمة الدعاة في الحبشة : صالح بن سالم بن الفقيه : عاش بين القرنين السادس والسابع الهجريين ، ودفن في بلدة دبارة ، قرب أسمرة . (٨٠)

ومن الدعاة كذلك : الحاج عبد الجميل بن فرج النبري : من قبيلة نبرا من قبائل أرتيريا ، وكان داعية عالماً فقيهاً في المذهب المالكي ، توفي عام ١٣٣٠هـ/١٨١٥م ، ودفن شرقي أسمرة في الطريق الخارج إلى مصوع .

ومن المتصوفة الذين لا يزال تأثيرهم في الحياة السياسية الحبشية باقياً : السيد محمد هاشم بن السيد محمد عثمان الميرغني المصوعي : ولد بمكة المكرمة ، وأخذ الطريقة عن والده السيد محمد عثمان الحنفي الميرغني المكي ، ثم انتقل إلى أرض الحبشة ، وجال في أقطار السودان ، ونشر الطريقة الختمية وأرشد الناس ، وأسلم على يديه كثير من نصارى الحبشة . وكان الاسلام قد بلغ ذروة انتشاره فى أوساط القبائل المتحدثة بالتيجرية فى عهد والده السيد محمد عثمان الميرغنى الذى أوفده إلى المنطقة السيد أحمد بن ادريس الفاسي ، فأشاع الاسلام فى هذه المنطقة وفي منطقة البنى عامر . وينتهي نسبه إلى الحسين بن على بن أبي طالب . أما لفظ الميرغنى التي اشتهر بها آباء السيد محمد عثمان وأولادهم هي نسبه إلى جدهم على ميرغني بن السيد حسن . "وسببه أن وفداً من بخاري جاءوا بهدايا زاعمين أنه فقير . فأراد الله أن يكشف له عمّا في قلوبهم ، فأمر لهم بالطعام ، فوضع الخدم السماط بين أيديهم وعليه أوان مغطاه . فلما رفعوا الغطاء وجدوها مملؤة بالفضة والذهب* والجواهر ، فتعجبوا وقالوا : ميرغنى . مير بالفارسية تعنى الشريف ." وقد توفي السيد محمد هاشم في ٢ جمادي الثانية عام ١٣١٩هـ/١٨٩٥م ودفن بقرية حُطُملو على أطراف مصوع ، وترك أربعة من الأولاد والبنات هم : السيد محمد عثمان ، والسيد جعفر ، والسيدة مريم ، والسيدة علوية . (٨١)

ومن غلاة المتصوفة : محمد فقيه : المشهور بالحاج مجاهد ، ابن المفتي أحمد ، ابن المفتي عبد الرحمن ، ابن المفتي فقيه أحمد المرطوي الكوزي الحسيني : نزيل كثاري من أرض وللو ، المدفون في قرية ظطلثا ، من قري كثاري . كان رحالة ، رحل من الحبشة إلى أرض المغرب ، وشهد جهاد الأفرنج أيام حرب الصليب ، واشترك فيها ، ثم رحل إلى جزيرة العرب وأدي حجة

الاسلام ، وزار مسجد المصطفى ، ثم عاد إلى الحبشة ، وسكن في بلده كثاري من بلاد وللو في قرية ظلظلا . أوغل في التصوف واشتط . كان يقول : "أنا كنت مع ابراهيم حين ألقي في النار ، وأطفأتها بتفلتي ." وكان يقول منشداً :

شـــــهـــــدت بـأن الله ولـيّ ولايتي	وقُدمت بالتـصــريف في كل حـــالتي
ســقـــاني ربي من كـــؤوس شـــرابه	وأسكرني حـــقـــاً وهمت بسكرتي
وملّكني جـمـــيع الجنان ومـــا حـــوت	وســائر ملوك العـــالمين رعـيــتي (٨٢)

ومن أبطال الكفاح الوطني : محمد أو محمود بن داؤد سلطان جما ، المعروف بأبي جُفار : وهو من الألقاب التي يلقب بها الأبطال عند قبائل الغالا . وكان سلطاناً مشهوراً على جما الاسلامية ، حكمها نحو خمسين سنة . ويرجع نسبه إلى قبيلة بذقّو . حاول منليك الثاني ، ملك الحبشة إجباره على الردة والتحول إلى النصرانية ولكنه رفض ، فحبسه سنتين في انكوبر ثم أطلق سراحه . له من أفعال البر رباط الحبشة في إجياد بمكة المكرمة ، وابتدأ رباطاً في المدينة المنورة لم يكتمل لقيام الحرب العالمية الثانية . توفي أبو جفار في ١٣٥٣هـ/١٩٣٤م عن عمر يناهز الثلاث وسبعين عاماً ، وخلفه ابنه الأمير عبد الله . غير أن الأمبراطور هيلاسيلاسي اعتقله وسجنه خارقاً بذلك الاتفاق الذي كان الملك منليك الثاني قد أبرمه مع أبي جفار حين ضمّ الأول هذه المملكة الاسلامية إلى امبراطوريته في عام ١٢٩٨هـ/١٨٨١م . وقد نصّ ذلك الإتفاق أن تظل المملكة وراثية في سلالة أبي جفار ، وأن تتمتع باستقلالها الداخلي ، وتؤدي رسماً سنوياً لخزينة أديس أبابا . (٨٣)

ومن المتصوفات اللائى كان لهن أثر سياسي : السيدة علوية بنت السيد محمد هاشم بن السيد محمد عثمان الميرغني الحسينية المصوعية : "ريحانة الديار الأرترية الزاهدة العابدة . كانت متزوجة بابن عمتها محمد صالح باعلوي المكي ثم وقع بينهما خلاف ، وطلقها لطلبها ." وقد أخبر أرباب البصائر النافذة من أولياء الحبشة أن الايطاليين لما أزمعوا على حرب أثيوبيا وتوجهوا لها بعتادهم وجنودهم المسلحة . قام أولياء الحبشة بالدعاء والابتهال إلى الله تعالى ليصرف الايطاليين الفاشيتين عن بلادهم . ويقال أن بعضهم قام باطنا على حدود أثيوبيا وأرتيريا للدفاع . فرأوا كلهم السيدة علوية أمام الجيش الايطالي تقوده وهي تقول بيدها أماماً ويميناً وشمالاً ، وتخاطب الأوليا ء وتناشدهم على أن يرجعوا إلى مقرهم . وقالت لهم : "لا طاقة لكم اليوم على الدفاع ، فاني مأمورة من الله ، جلّ سلطانه ، أن أدخل الايطاليين في بلاد أثيوبيا لحكمة يعلمها الله ، ولتنفيس المسلمين من وطأة هيلاسيلاسي ومظالمه الشديدة الثقيلة* . فرجعوا وسلّموا الأمر لها ." توفيت هذه السيدة في ٢٢ رمضان ١٣٥٩هـ/١٩٤٠م . و"خطب

حاكم مصوع الايطالي خطبة طويلة يوم وفاتها وقال : أنتم تقولون ماتت اليوم السيدة علوية وأنا أقول مات اليوم علَم ايطاليا ، أما السيدة فلم تمت . إن لها حياة سماوية تتمتع بأفضل وأعلى مما كانت تتمتع به في هذه الحياة ." (٨٤)

في المعارف الجغرافية والتاريخية وأدب الرحلات :

كان العرب أسبق أمة تكتب عن أفريقيا . ويتفق الكثير من الباحثين أن الرحلة العربية للتجارة في بحار العالم المختلفة هي التي أدت إلى إشعال الاهتمام بالمعرفة الجغرافية والتاريخية والإثنولوجية للشعوب التى تعاملوا معها . وفي القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى نضجت المعرفة الجغرافية عند المسلمين وذلك بسبب ما قاموا به من ترجمة للكتب اليونانية والرومانية أضيفت لتراثهم القديم من المعارف الجغرافية العربية .

يبرز حول منتصف القرن التاسع الميلادى سليمان التاجر وكتاباته من ذلك النوع الذي يمكن أن تسميه أدب المغامرات أو القصص البحري . ترك لنا سليمان التاجر وصفاً حياً للسواحل الشرقية من أفريقيا والجزر والموانيء المختلفة والمدن وسكانها والمحاصيل وسلع التجارة . وفي أوائل القرن العاشر الميلادي يسترعي انتباهنا كتابات أبو زيد السيرافي (٨٧٧ – ٩١٥م) الذي عاصر المسعودي إلا أنه توفي قبل أن يبدأ المسعودى رحلاته . ولم يكن أبو زيد رحالة أو تاجراً من التجار الذين جابوا الأفاق ، إنما كان مؤلفاً عمل على جمع وتدوين قصص التاجر سليمان ، وأضاف إليها ما عرفه من روايات نقلها عن التجار الذين عملوا في تلك البحار بعد أن غيَّر وبدَّل في صيغها ومضامينها ، ولذلك تبدو كتاباته على أنها نوع من أساطير البحار . (٨٥)

وتطّرد المعلومات العربية الخاصة بأفريقيا في القرن العاشر الميلادي بظهور أبي الحسن المسعودي الذي بدأ رحلاته في شرق أفريقيا بعد وفاة السيرافي . والمعروف أن المسعودي تردد على شرق أفريقيا في الفترة ما بين عامي ٩١٦ – ٩٢٦م حيث قام بأكثر من رحلة إلى تلك المنطقة . ويصفه بعض المستشرقين بهيرودوت العرب . ويعّد كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر الذي انتهي من تصنيفه في ٩٤٧م أشهر كتبه ، ويعده المستشرقون خير عمل كتبه رحالة العصور الوسطى على الإطلاق . (٨٦)

بدأ المسعودي حديثه عن شرق أفريقيا بالأسطورة القديمة عن الهجرات الأولى التي قام بها أبناء كوش ، وكيف اتجهوا إلى منطقة بين الشرق والغرب حتى سكنوا الجزء الشرقي من أفريقيا والجنوب الشرقي ، وكّونوا شعوب البجة والنوبة . وكتب المسعودي عن البحر الحبشي (٨٧) : "إن بحر الهند وهو الحبشي قد زاد حتى امتد طوله من المغرب إلى المشرق ، من

أقصى الحبش إلى أقصى الهند والصين وصار ثمانية آلاف ميل ، وعرضه ألفان وتسعمائة ميل . وقد يتقارب في قلة العرض في موضع دون موضع . وليس فى المعمور أعظم من هذا البحر . وله خليج متصل بأرض الحبشة يمتد إلى ناحية بربرة من بلاد الزنج والحبشة ويسمى الخليج البربري .... وليست هذه بربرة التي ينتسب إليها البرابرة الذين ببلاد المغرب من أرض أفريقيا لأن هذا موضع آخر يدعى بهذا الاسم ، وأهل المراكب من العمانيين يقطعون هذا الخليج إلى جزيرة قنبلو من بحر الزنج ." أما عن البحر الأحمر فقد كتب المسعودي "ان خليجاً يمتد من هذا البحر الحبشي فينتهي إلى مدينة القلزم من أعمال مصر ، وبينها وبين فسطاط مصر ثلاثة أيام ، وعليه مدينة آيلة وجدّة واليمن . طوله ألف وأربعمائة ميل وعرض طرفيه مائتا ميل ، وهو أكثر العرض فيه . ويلاقي ما ذكر من الخلجان وبلاد آيله من الساحل الآخر من هذا الخليج بلاد العبدان من أرض مصر ، وأرض البجة ثم أرض الحبشة والأحابش والسودان إلى أن يتصل بأقاصي أرض الزنج وأسافلها ، فيتصل إلى بلاد سفالة من أرض الزنج ." (٨٨)

أما الحبشة نفسها فيقول المسعودي عنها : "إن اسم دار مملكتهم (كعمى) وهي مدينة عظيمة ، وهي دار مملكة النجاشي ، وللحبشة مدن كثيرة وعمائر واسعة ، يتصل ملك النجاشي بالبحر الحبشي ، ولهم ساحل فيه مدن كثيرة ، وهو مقابل لبلاد اليمن . فمن مدن الحبشة على الساحل الزيلع والدهلك وباضع . وهذه المدن فيها خلق من المسلمين إلا أنهم في ذمة الحبشة . وبين ساحل الحبشة ومدينة غلافقه – وهي ساحل زبيد من أرض اليمن – ثلاثة أيام عرض البحر بين الساحلين . ومن هذا الموضع عبرت الحبشة البحر حين ملكت اليمن في أيام ذي نواس – وهو صاحب الأخدود المذكور في القرآن – وصاحب زبيد في ذلك الوقت ابراهيم بن زياد الحرملى ومراكبه تختلف إلى ساحل الحبشة ، ويركب فيها التجار بالأمتعة ، وبينهم مهادنة . وهذا الموضع من البحر بين هذين الشطين – أعنى ساحل اليمن وساحل الحبشة – أقل المواضع فيه عرضاً . وهناك جزائر بين هذين الساحلين منها جزيرة العقل لما فيها من ماء له تأثير على ذكاء العقل ." (٨٩)

ومن الجغرافيين المسلمين أبو القاسم محمد بن حوقل (ت ٣٦٧هـ/٩٧٨م) الذي اشتهر بكتاب صورة الأرض أورد فيه معلومات ثرة عن الحبشة وبلاد النوبة . والملاحظ أن ابن حوقل لم يصنف كتابه في شكل كتب الرحلات إنما جاء أشبه بمصنف جغرافى لم يكتف فيه بوصف البلاد فقط بل زاد أن حدد طرقها ومسالكها . (٩٠)

يصف ابن حوقل الجانب الغربي للبحر الأحمر وصفاً مقبولاً على ضوء المعرفة الجغرافية الحديثة فيقول : " ان في الساحل الغربي لبحر القلزم جزائر تعرف ببني حدان ، وكان بها مراكب لمن آثر الحج ، تسير بالحجاج إلى الجار وجدة ثم تمتد مفاوز للبجة إلى مدينة على شط

البحر يقال لها عيذاب ، وعلى امتداد الساحل توجد سواكن ، وهي ثلاث جزائر يسكنها آنذاك تجار الفرس وقوم من ربيعة ، ويدعى فيها لصاحب المغرب ، وهي محاذية لجدة . وبين سواكن وعيذاب (سنجلة) وهي جزيرة بين رأس جبل داوي وجبل ابرن جرشم ، وهي لطيفة وبها مغاص للؤلؤ ، وتقصد في كل حين بالزاد والرجال ، وبينها وبين جدة يوم واحد وليلة . والمستحل منها يصل إلى جزيرة باضع وبينهما مجراوان ، ثم يسير المستحل إلى دهلك ، أربعة مجار ، ومن دهلك إلى زيلع ، ستة مجار ، وباضع جزيرة ذات خير وماشية ، وهي محاذية لحلي . وجزيرة دهلك محاذية لعثر وجزيرة زيلع ، فكأنها بين غلافقة وعدن . وبربرة محاذية لأعمال عدن . ومن هذه الجزائر أكثر جلود الدباغ بعدن واليمن من البقري والملمع والأدم الثقيل ، ثم يمتد البحر على بحر الحبشة ويتصل بظهر بلد النوبة حتى ينتهى إلى بلدان الزنج ."

ويرى ابن حوقل أن بلاد البجة تفصل بين الحبشة وأرض مصر ، حيث يقول بأن البجة "أصحاب أخبية وألوانهم أشد سواداً من الحبشة .. في زي العرب لا قري لهم ولا مدن ولا زرع إلا ما ينقل إليهم من مدن الحبشة ومصر والنوبة . وينتهى حدهم ما بين الحبشة وأرض مصر وأرض النوبة ." (٩١)

يقول ابن حوقل أن أهل الحبشة "نصارى وتقرب ألوانهم من العرب بين السواد والبياض . وهم مفترقون مجتمعون إلى أن يحاذوا عدن .... والجميع أهل سلم ، وليست دارهم بدار حرب . وعلى شط البحر بنواحيهم منهل يقال له زيلع فرضة للعبور إلى الحجاز واليمن ، ثم يتصل ذلك مفاوز النوبة ، والنوبة نصاري أيضاً ، وبلدهم أوسع من بلاد الحبشة في نواحيهم وعمارتهم أكثر مما بالحبشة ويخترق نيل مصر فيما بينهم .... ويجرى وادي بركة من بلد الحبشة مجتازاً على بازين وآخذاً إلى ناحية البجة ، وينصب بين سواكن وباضع في البحر المالح . وفي أعلى بلد علوه نهر يجرى من المشرق يعرف بأور فينصب في النيل . ومن أعلاه عن يومين نهر أتمنى وعليه من النوبة أمة كثيرة ، ويتصلون ببلاد الحبشة على هذا النهر...(٩٢)

وهناك الكثير من المؤرخين والجغرافيين المسلمين الذين كتبوا عن شرق أفريقيا عموماً ولم يخصوا الحبشة بشيء منفصل إنما شكلت عندهم جزء من كل . فهناك المقدسي* (٣٣٥هـ/٩٤٦ – ٩٤٧م) في كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، وكذلك البيروني وكتابه الآثار الباقية من القرون الخالية الذي كتبه في القرن الحادي عشر الميلادي . ويطالعنا بعدئذ الإدريسي (٤٩٤–٥٦٠هـ/١١٠٠–١١٦٦م) وهو من أبرز الجغرافيين المسلمين وقد وردت في كتابه نزهة المشتاق في اختراق الآفاق اشارات هامة لمدن شرق أفريقيا عموماً وتظهر في

الخارطة التى وضعها الإدريسي لمنابع النيل والبحيرات الاستوائية مما يؤكد أن معرفة الجغرافيين العرب للمناطق الدخلية من أفريقيا قد بلغت مرحلة متقدمة من النضج ، وأن ما يكتبه المؤرخين حالياً عن أولئك الرجال ما يزال قاصراً .

وفي القرن الذي يليه نجد ياقوت الحموي ومصنفه الفريد معجم البلدان الذي فرغ منه في عام ٦١٨هـ/١٢٢٣م ووصف فيه البربر في شرق أفريقيا "وهم غير البربر الذين بالمغرب . هؤلاء سود يشبهون الزنوج – جنس متوسط بين الحبش والزنوج . ويتحدث ياقوت عن تجارة الحبشة فيقول أن المعزى كانت من أهم صادراتهم "تجلب من بلاد الحبشة إلى سوق زيلع فتشترى جلودها ." كما حمل الأحباش إلى سوق باضع (مصوع) أنياب الفيلة وبيض النعام ، ويشترون فى أهل باضع "القسط والأظفار والأمشاط ."

ويعد سفر ابن بطوطة المسمى تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار من الموسوعات المهمة بالنسبة لشرق أفريقيا ، وإن اتهم البعض مؤلفه بالاغراق في الخيال . وقد قام ابن بطوطة برحلة لشرق افريقيا في عام٧٣٢هـ/١٣٣١م وتحدث بافاضة عن الإمارات الإسلامية المهمة فى تلك المنطقة . بدأ ابن بطوطة رحلته إلى الساحل الشرقي لأفريقيا من عيذاب فوصفها ، وتحدث عن أهلها البجة ، كما كتب عن سواكن وشريفها زيد بن أبي نمي وأبيه أمير مكة . يتحدث ابن بطوطة بعدئذ عن مدينة زيلع ، مدينة البرابرة ، "وهم طائفة من السودان شافعية المذهب وبلادهم صحراء مسيرة شهرين ، أولها زيلع وآخرها مقدشو ." وعن مقدشو يقول ابن بطوطة أنها مدينة متناهية في الكبر ... ومن عادة أهل المدينة أنه متى وصل مركب إلى الميناء تأتيه الصنابيق (القوارب) وعلى كل صنبوق مجموعة من الشبان يأتى كل منهم بطبق طعام يقدمه لتاجر من تجار المركب قائلاً هذا نزيلى . ولا ينزل التاجر من المركب إلا إلى دار نزيله من هؤلاء الشبان ، إلا من كان كثير التردد على البلد وعرف أهله فإنه ينزل حيث شاء . فإذا نزل عند نزيله باع له ما عنده واشترى ." (٩٣) ونعتقد بدورنا أن تلك العادة كانت منتشرة في موانىء شرق أفريقيا بما فيها الموانىء المؤدية إلى هضاب الحبشة . جاء في مقامة طويلة للبزاغى عن الحبشة أن القوم قد وصلوا إلى ميناء جبلي عند ساحل الحبشة (٩٤) :

وفي ذراه بلد شـــامخ البنا	ظل الخـصب فـيـه ظليل
مـــؤتزر بالوشي من روضــه	مـقلد الجـيـد بزهو النخـيل
أشـــجـــاره الصندل والعـــود	والكافـور والفـولفل والنارجـيل
يهـــدهد الهـــدهد في دوحـــه	وللحـمـام الورق فـيـه هديل
وابتـــدرت القـــوم إلينا علي	العـــادة كل يتـــحـــري نزيل

وصــرت في الحين إلى بيت من قــد	شــمت منه برق وجــه جـمــيل
ونلـت مـن كـل طعـــــام لذيـذ	وشــــراب فـــيـــه ري الغليل

كان شهاب الدين أحمد القلقشندى المولود فى قلقشندة من أعمال قليوب فى دلتا مصر عام٧٥٦هـ/١٣٥٥م من أبرز الجغرافيين العرب الذين كتبوا عن الحبشة وشرق أفريقيا بعامة . تعلم هذا الرجل فى الاسكندرية ثم نزل القاهرة فعمل بديوان الانشاء بالأبواب السلطانية . كتب القلقشندى عدة كتب منها : ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر ، ومنها أيضاً الغيوث الهوامع ، وكتب أيضاً نهاية الأرب فى معرفة قبائل العرب . ويهمنا من كتبه موسوعته الضخمة التى صدرت فى بداية القرن الخامس عشر الميلادى تحت عنوان صبح الأعشى في صناعة الإنشا . كتب القلقشندي فى الجزء الخامس من هذه الموسوعة عن الممالك الاسلامية فى أفريقيا . وقد استقى مادته عمن سبقه من المصنفين ونقل عنهم كثيراً . وعلى أية حال فإن قيمة ما ذكره القلقشندي تقبع فى أنه جمع لنا الكثير من نصوص مؤلفات لم تصل الينا . كما أنه قابل بعض السفراء والتجار . وقد أمدنا بصورة جلية واضحة للمجتمعات فى شرق أفريقيا خاصة منطقة الطراز الاسلامى .

كتب القلقشندي عن ممالك الطراز الإسلامى التى تسمى فى مصر والشام بلاد الزيلع ، "والزيلع إنما هى قرية من قراها وجزيرة من جزائرها ." ويضيف بأن لهذه المملكة سبع قواعد . تشكل كل قاعدة منها مملكة مستقلة . ويتبع القلقشندي القوة العسكرية لهذه الممالك فيقول أن لأوفات (إيفات/وفات) ١٥٠٠٠ر١٥ فارس و٢٠٠٠٠ر٢٠ راجل ، وأن لدوارو عدداً مماثلاً من الجند . وأن لمملكة أرابينى ١٠٠٠٠ر١٠ فارس وراجلها كثير . أما صاحب هدية فله ٤٠٠٠٠ر٤٠ فارس عدا الراجلة ، وأنه أقوي أمراء الطراز طّرا رغم أن أمارته أصغر مساحة من أوفات . ويضيف بأن لشرخا ٣٠٠٠ر٣ فارس . أما الأمارة الأضعف حالاً والأقل رجالاً فهي داره . وتعد بالى أكثر المناطق السبع خصباً ، وأبردها هواء ، وأطيبها مسكناً . أما عن الإدارة ونظام الحكم فى تلك الممالك الإسلامية فيقول القلقشندي بأن الملك متوارث فى بيوت معلومة فى تلك الإمارات فيما عدا بالى . ويضيف بأنه إذا مات أحد ملوك دول الطراز يسير جماعة من أهله الى سلطان أمحرة فيختار واحد منهم يصيغ له الاخرون . هذا ويورد القلقشندي معلومات كثيرة عن تعديات الحطى على هذه الممالك . (٩٥)

كتب المقريزي (١٤٣٤-١٤٤٥م) الذى اعتمد كثيراً على القلقشندى فقال : "إعلم أن بلاد الحبشة أولها من جهة المشرق المائل إلى جهة الشمال بحر الهند المار من باب المندب إلى بلاد اليمن وفيها يمر نهر حلو يقال له سيحون يرفد نيل مصر . وجهة الحبشة الغربية ينتهى إلى بلاد التكرور ."

ويلاحظ المقريزى أن "بلاد الحبشة تزرع في السنة مرتين فيحصل لهم في السنة الواحدة مغلان . وإن كثر عندهم نزول المطر وقعت الصواعق . وعندهم أشجار كثيرة منها ما تظل الواحدة منهن مائتي فارس . فمن أشجارهم شجر الأبنوس . وعندهم القنا وهو نوعان ، صامت ومجوف .... وعندهم معدن الحديد ومعدن الذهب ، ويوجد في بعض بلادهم معدن فضة . "

ويذكر المقريزي أن "لابد للحبشة من مطران يوليه بطريق النصاري اليعاقبة بمصر بعد سؤال الحطى سلطان مصر في ذلك بكتاب يبعثه مع مرسلة صحبة هدية . فيتقدم البطريق بتعيين مطران لهم . والحبشة قوم يدينون بالنصرانية من قديم ، ويعتقدون مذهب اليعقوبية ، وهم يتشددون في ديانتهم تشدداً زائداً ، ويعادون من خالفهم من سائر الملل أشد عداوة . ويعادون الطائفة الملكية من النصارى بحيث أخبرني من دخل منهم إلى الحبشة أنه أظهر بها أنه يعقوبي خوفاً من القتل لو علموا أنه ملكي .." (٩٦)

ويتحدث المقريزي عن علاقة الحطى إسحاق بن داؤد بن سيف أرعد بالمماليك الجراكسة في مصر والأقباط الذين فروا إلى الحبشة فيقول أن بعض المماليك الجراكسة فروا إلى الحبشة حيث استضافهم الملك فأحدثوا هناك ثورة في صناعة الأسلحة ." وقدم إليه من أمراء الدولة بمصر شخص يقال له الطبغا مفرق ترقى حتى ولي بعض بلاد الصعيد ثم فرّ اليه ، وكان يعرف من أبواب اللعب بالات الحرب ومن أنواع الفروسية أشياء فحظي عند الحطى وعلّم عساكره رمى النشاب ، واللعب بالرمح ، والضرب بالسيف ، وعمل لهم النفط فعرفوا ساعات الحرب ... وقدم إليه من قبط مصر نصراني يعقوبي يعرف بفخر الدولة ، فرتب له المملكة ، وجبى له الأموال ، فصار ملكاً له سلطان وديوان بعد ما كانت مملكته ومملكة ابائه همجاً لا ديوان لها ولا ترتيب ولا قانون . فانضبطت عنده الأمور ... فلما تحضرت دولته وقويت شوكته وسوست إليه شياطينه أن يأخذ ممالك الاسلام فأوقع بمن تحت يده في ممالك الحبشة من المسلمين وقائع شنيعة طويلة ، قتل فيها وسبى واسترق عالماً لا يحصيه إلا خالقه سبحانه ، وزالت دولة المسلمين من هناك ... ثم كتب إلى ملوك الأفرنج يحثهم على ملاقاته لازالة دولة الإسلام وأوعدهم على ذلك ." (٩٧)

كتاب عرب فقيه : يعد هذا الكتاب من أبرز ما كتب عن تاريخ الحبشة فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى ، ومؤلفه هو أحمد بن عبد القادر شهاب الدين الملقب عرب فقيه . وفى اعتقادنا أنه لا يزال أهم مصدر عن فترة حكم الإمام أحمد بن ابراهيم فى الحبشة . فقد طاف بنا هذا الكتاب فى أرجاء الحبشة مع عسكر الامام أحمد ، وعرفنا منه عدة مناطق فى الهضبة الحبشية والدور الذى قامت به فى تلك الفترة . وقد نشر المستشرق الفرنسى رينيه باسيه

RENE PASSET الجزء الأول من هذا الكتاب بنصه العربي مع مقدمة بالفرنسية له في عام ١٩٠١م ، ولا نزال نجهل الجزء الثاني من هذا السفر الهام . وقد اتبع عرب فقيه منهجاً واضحاً لا لبس فيه ولا غموض في تناوله لتاريخ الحبشة حيث قال في مقدمة ".فأعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خير الرسل ، وأن أمته خير الأنام ، قضى بذلك رب الأرباب في محكم الكتاب في قوله تعالى كنتم خير أمة أخرجت للناس . وقال تعالى : "وكذلك جعلناكم أمة وسطاً وما ذلك إلا لاتباعهم أفضل الرسل وأولهم في القدم فضلاً ، وآخرهم بعثاً ، محمد صلى الله عليه وسلم . وبذلك صاروا أفضل الأنام ، وجعل أفضل عبادتهم ثبوتهم على الحق ، وجهادهم الكفار المخالفين لهذا الدين من سائر الأجناس وسائر الجهات ، الصبا والدبور والشمال والجنوب ، فاظهروا بالسيف هذا الدين شرقاً وغرباً ووعراً وسهلاً فمهدوا الأرض تمهيداً ودوخوا الكفرة بسيوفهم تدويخاً .... ."

يتحدث عرب فقيه عن الطراز الاسلامي ودولة سعد الدين ويقول "السلطان سعد الدين له من الأولاد أبو بكر وبدلاي ، فبدلاي له ولدان أحدهما محمد بن بدلاي جد السلطان عثمان بن سليمان ، ولأبي بكر ولدان أحدهما علي وهو جد السلطان بركات ، وحبيب . وعلي له أولاد عمر دين بن محمد بن أظهر الدين بن علي بن أبي بكر بن سعد الدين . والولد الثاني اسمه ازر بن أبي بكر بن محمد بن ازر بن أبي بكر بن سعد الدين . والولد الثاني الذي لبدلاي بن سعد الدين اسمه شمس الدين وقد انقرضت ذريته . تولى البلاد محمد بن ازر بن أبي بكر بن سعد الدين ثلاثين سنة من القرن التاسع . وبعد أن السلطان محمدا خرج الى الجهاد في بلاد الحبشة . والتقى المسلمون والكفرة فكانت الدائرة للكفرة على المسلمين وقتلوا من المسلمين ناساً كثيراً ورجع الى بلاده . وقتل السلطان محمد ، قتله صهره محمد بن أبي بكر محفوظ وملك البلاد بعده سنة . وقُتل محمد بن أبي بكر بن محفوظ قتله ابراهيم بن أحمد صاحب بلاد هوبت ..." (٩٨)

تبقى أهمية هذا الكتاب في تاريخ الحبشة في النصف الأول من القرن السادس عشر كبيرة وذلك لأن المادة التاريخية المتوفرة في غيره عن تلك الفترة الزمنية شحيحة ومتناثرة وغير متكاملة .

رحلة الحيمي : تعتبر رحلة الحسن بن أحمد الحيمي أبرز ما كتب في هذا المجال في القرن السابع عشر . أرسل الإمبراطور الحبشي فاسيلادس (١٦٣٢ - ١٦٦٥م) إلى امام اليمن المؤيد بالله محمد بن القاسم يسأله أن يبعث من قبله رسولاً موثوقاً فيه ليتداول في بعض المسائل الهامة مع بلاط الحبشة . وأهمل المؤيد بالله هذا الطلب الذي سارع للإستجابة له خلفه المتوكل على الله ظناً منه أن الملك الحبشي يسعى إلى إشهار إسلامه عن طريق إمامة اليمن .

عيّن الامام لهذه المهمة القاضي الحسن بن أحمد الحيمي الذي خرج علي رأس وفد من بندر المخا في منتصف شعبان عام ١٠٥٧هـ/ أواخر سبتمبر ١٦٤٧م وعبروا البحر الأحمر في يومين حتى وصلوا إلى بيلول حيث استقبلهم سلطانها شحيم بن كامل الدنكلي . وهيأ هذا السلطان للوفد السبل المؤدية إلى المناطق الداخلية تأخذهم كل منطقة إلى الأخرى تحت حماية حاكمها حتى وصل الوفد إلى غندر ، مدينة الملك ، في صفر ١٠٥٨هـ/ أوائل مارس ١٦٤٨م . وبقي الوفد هناك لتسعة أشهر متصلة ، وعاد إلى اليمن بطريق مغايرة ، فوصل إلى مصوع ثم سار منها إلى اللّحية . (٩٩)

تكشف هذه الرحلة عن معلومات في السياسة الاقليمية بالغة الأهمية . تشير أخبار الرحلة إلى أن الحطى كان يسعى إلى أن يقيم مع إمام اليمن علاقة طيبة يستثمرها ضد الأتراك العثمانيين الذين كانوا يسيطرون على البحر الأحمر ويتحكمون في سياساته بشكل يتعارض مع تطلعات الامامة اليمنية والملكية الأثيوبية . وقد رمى الملك من بعثته إلى فتح الطريق بين بيلول وغندر للتجارة والمواصلات بين اليمن والحبشة بدلاً من الطريق الذي يسيطر عليه الأتراك في مصوع .. "وربما كان هذا هو ضميره المستكن من هذه المواصلة بينه وبين الامام ... فانه يعلم أنه لا يتم له فتح هذه الطريق إلا بقوة وعناية من وجوه عدة من جملتها معاودة الرسل من قبل الامام .... وفي هذه الطريق فانهم مع قوتهم واستصحابهم البنادق يسير معهم كثير من أهل التجارة دخولاً وخروجاً فتسهل أوعارها ويتيسر حزانها وتقل أخطارها ." (١٠٠) ويعبر الحيمي عن روابط الوحدة الاسلامية حيث يقول للحطى عن الاتراك العثمانيين "أما عداوتهم فلا ننكرها ، أما الغدر منهم فلا نظن ذلك فيهم فإن الغدر مذموم في كل ملة وشريعة . ألا ترانا دخلنا بلادكم ، ووصلنا اليكم بمجرد كتاب منكم وانتم مخالفون لنا في الدين والملّة فأنتم على دين النصرانية ونحن على دين الاسلام ... أما الأتراك فهم على ديننا وملتنا وكتابهم كتابنا ، فكيف أن لا نقبل منهم الأمان ... (١٠١)

ويشير الحيمي إلى الرابطة الدينية التى تربط بين كنيسة الاسكندرية وكنيسة الحبشة ربما عن طريق دير الأحباش في بيت المقدس حيث يقول : "والقاعدة التى جرت عليها سنتهم في هذا المقعد ألا رجل من القبط بأمر البترك صاحب بيت المقدس يوليه ذلك ، ويبعث به الى أرض الحبشة . مضت على ذلك سنن الماضين واحتذاء من خلفهم من الاخرين ... ولسان هؤلاء القبط لسان مصرى عربي ، ويخرج من مصر وكتاب الانجيل معه مكتوب بالعربي ، وجميع ما يستصحبه من كتب شريعتهم وأحكام دينهم كذلك مكتوب بالعربي أيضاً ... وحين يستقر في هذه المرتبة يشارك الملك بنصف ما يجيء إليه من ولايته من قليل وكثير ..." (١٠٢) ويكشف الحيمي بعدئذ عن الفساد الذي يقوم به القبط في الحياة الدينية والسياسية في الحبشة .

يصف الحيمي قلعة الملك ويصور أبهتها فهي "دار عالية من أعجب المباني الباهرة وأحسن العجائب الفاخرة مبنية بالحجارة ولا يوجد في سائر أرض الحبشة ما يدانيها ..." وتشتمل على دور عديدة وساحات مديدة .. "وفي كل مكان فيها ما ينبغي أن يهيأ به من الفرش الرومية المنوعة ومطارح الهند التى هي بالذهب ملمعة والأسرة الفاخرة التى هي بالحلية والجواهر مرصّعة ."

ولا يعجب الحيمي بوزراء الملك الذين يقول فيهم ".. والتدبير الذي هو في الحقيقة من التدمير إنما هو بأيديهم ، وجار على مرادهم ، وأراؤهم متطابقة في الاستواء ، متوافقة على اتباع الأهواء ، لا تظهر منهم المنازعة ، ولا تقع بينهم المدافعة ، أعمالهم مبنية على الجور ، والكل يتعاملون بذلك ظاهراً ويشترطونها على أهل الحاجات شاهراً ، لا يسترون بها ، ولا يستحيون منها .. (١٠٣) ويصف الحيمى الترف الذى يعيش فيه الوزراء الذين يلبسون "مطارح الديباج المطرزة الذهب ، ومطارف الحرير التى يغضى منها الناظر إليها بغريب الصنعة ونهاية العجب ، وجعلوا في أوساطهم مناطق الذهب المحلاة بالنصوص الفاخرة ونفيس الجواهر ... ثم أخذوا في أيديهم السيوف السنارية المحلاة كذلك بعين الذهب الخالص ... وفي أيديهم أساور الذهب وفي آذانهم الأقراط المتلألئة كاشتعال الذهب .." (١٠٤)

ويمس الحيمي ظاهرة بارزة في علاقة الملك الحبشي بأخوانه وأهله ، ويصور لنا ظاهرة متكررة في الحبشة وفي كثير من الدول في الشرق في تلك الفترة ، حيث يكيد أخْوة الملك له طمعاً في العرش ، وكثيراً ما يعمل الجالس على العرش على حبس أخوته تجنباً لكيدهم . يقول الحيمي : "هذا الملك المذكور (فاسيلادس) لما مات أبوه ، وله أولاد كثيرة على أمهات متفرقة ، وليس لهذا الملك من أمه إلا أخ واحد . فأوصى أبوه إليه وإلى وزرائه أنه إذا مات حبسوا جميع أولاده بالقيود في حصن معروف ، ولا يتركوا من الحبس إلا هذا الأخ الذي هو شقيقه من أمه ليكون عضداً لأخيه ومظاهراً له في أمره وملكه ، ففعلوا ذلك وحبسوا جميع اخوته في ذلك الحصن ، وهم خمسة عشر رجلاً . وأجرى عليهم الملك النفقات الفائضة والاحسان التام من كل وجه ، وإنما الغرض رفع منازعتهم الملك . وبقى هذا الأخر مؤازراً لأخيه ... ورفعت للملك أخبار وهي أن أخاه يريد قتله والوثوب على سرير ملكه ، وهؤلاء الأمحرة معروفون بالكيد وأكيد الحكمة في تدبير وجوه الحيل . فما زال الملك بتدبير وجه الحيلة على أخيه ، كيف يكون السبيل إلى الأخذ عليه والانتقام منه ، ولم يتيسر ذلك للملك إلا بعد مدة مديدة ."

وفي الحقيقة فإن كتاب الحيمى سفر لا يستغنى عنه الباحث في تاريخ تلك الفترة ، فهو تصوير حي للجغرافية البشرية للمنطقة يتعامل مع الحياة الاجتماعية فيها بقدر كبير من الدقة المستوحاة من مهنة الكاتب الذي كان يعمل بالقضاء في بلاده . وصف الكاتب الكثير من

القبائل التى حل ببلادها وعلاقتها بالحطى . ويمكن أن نسوق هنا جانباً من وصفه لقبيلة الفلاشا التى وصفها بأنها قبيلة كبيرة على دين اليهودية وشريعة التوراة ، "وكانوا من قبل خارجين على الملك لاختلاف الدين ، وهم أهل نجدة وشوكة عظيمة وبسالة ، فما زال الملك يغزوهم ويحاربهم ويضايقهم من جميع الأطراف حتى غلبهم واستنزلهم من حصونهم فدخلوا في طاعته وسمعوا لأوامره . ودخل أكثرهم في النصرانية ولم يبق إلا اليسير ، غير أن الملك لا يعترضهم في أمر الدين إنما يطلب منهم الطاعة له ." (١٠٦)

من المؤلفات المتأخرة :

كانت الحبشة مادة لا تنقطع في المعارف العربية ، وكثيراً ما نجد أن الكتّاب العرب يجنحون إلى إعلاء شأن هذه الأمة بوعي أو بلا وعي . فهي التى تنفرد دون سواها بأنها أرض الهجرة ، وهي التى دافعت ونافحت وحمت بيضة الاسلام ، وهي الأرض الأولى التى عبد فيها المسلمون ربهم دون خوف ولا وجل ، وعلى ثراها غرس أوائل المسلمين بذرة الدعوة .

ظهرت في القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى ، كتابات متعددة في فضل الحبش . ألفّ الإمام السيوطي (ت ٩١١هـ) ثلاث رسائل في هذا المقام وهي : رفع شأن الحبشان ، وقد اعتمد في تأليفها على رسالة ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) : تنوير الغبش في فضل السودان والحبش ، ولعل ابن الجوزى نفسه أقتفى أثر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) الذي ألفّ رسالة في فضل السودان على البيضان ، ذكر فيها مناقب السودان ، ومنهم الحبش . وهي مطبوعة في مجموعة رسائله . وكانت الرسالة الثانية للسيوطي بعنوان : أزهار العروش في أخبار الحبوش ، أما رسالته الثالثة فقد كانت بعنوان : نزهة العمر في التفضيل بين البيض والسود والسمر .

ووضع محمد عبد الباقي البخاري (ت ٩٩١هـ) من أهل المدينة المنورة ، رسالة سماها "الطراز المنقوش في محاسن الحبوش" اعتمد فيها على أزهار العروش للسيوطي .

وفي العصر الحديث ألفّ الشيخ محمد الحنفي القنائي (ت ١٣٢٠هـ) كتاباً وافياً سماه : الجواهر الحسان في تاريخ الحبشان .

من المعارف الحبشية باللغة العربية : صنّف بعض علماء الأحباش رسائل بالعربية في مسائل فقهية وأخلاقية تمس المجتمع الحبشي . وتكشف مثل هذه الرسائل القضايا الملّحة التى يعاني منها المسلمون في الحبشة ، ومحاولة استكشافها والوصول إلى حكم شرعى بشأنها .

في القات : كان القات من القضايا الهامة التى شغلت فقهاء الأحباش ، وكتبوا فيها باللغة العربية ، وكذلك القهوة والتبغ . وقد وردت في هذه الأمور قضايا طريفة .

ينسب إلى الشيخ داؤد بن أبي بكر ، مفتى الشافعية في الديار النجاشية ، أنه قال أن أول من ابتدأ استعمال القات هم سيدنا الخضر والياس وذو القرنين . "هذا والعلماء ما زالوا مختلفين في حله وحرمته ، فبعضهم يرى حرمة أكله لأنه مسكر ومضر بعقول الآكلين ونفسياتهم وأعضاء نسلهم . قال بعض الكتّاب : وقد غصّت هرر ودبردّوى وغيرهما من البلاد الاسلامية بالمجانين الذين ذهبت عقولهم بسببه ، وتأثيره يفوق تأثير سائر المخدرات ." ويستعرض هذا الفقيه الحبشي أراء الفقهاء فيقول : "... قال الشيخ ابن حجر ... والحاصل اني لم أجزم بتحريمه على الاطلاق ... ولكني أري أنه لا ينبغى لذي مروءة أو دين أو ورع أو زهد أو تطلع إلى كمال من الكمالات أن يتسعمله لأنه من الشبهات ... فيكون من الشبهات التى يتأكد أجتنابها لقوله صلى الله عليه وسلم ..." "ووافق هذا العلّامة من قال أن أكله ليس من المروءة الانسانية والشيمة البشرية بل من طبيعة البهائم :

إنما القـــات نبـــات أخـــضـــر	ليس يحــتـــاج إليـــه البـــشـــر
فـــإذا مـــالت إليـــه فـــرقـــة	فـــأعـــذروهـم إنما هـم بقـــر !

وبعد أن يستعرض الفقيه أراء بعض المتصوفة الذين تعاطوا القات "لاحياء الليالى للأذكار والدعوات" يرجع فيقول : "واليوم قد انتشر القات في أقطارنا الحبشية انتشاراً هائلاً وصارت مجالس القات مجالس خلاعة ونميمة واغتيابات وقيل وقال وأسطورات وأضحوكات وليس في حضور مجالس هؤلاء الأغمار إلا ارتكاب الذنوب والأوزار لأنهم اتخذوه وأكله لاقتحام الكبائر ومباشرة المناكر ..." (١٠٧)

في القهوة : "أما القهوة البنية فهي شراب الصالحين ، فقد أطنب في الثناء عليها الكبار وأمنوا شربها بالليل والنهار . قال السيد العارف حاتم الأهدل : اذا فقد الصائم التمر والماء أفطر بالقهوة . وقال بعض الأكابر ما أحب البقاء إلا لثلاثة : قيام الليل ، ومطالعة الكتب ، وشرب القهوة ..." ويستعرض هذا الفقيه أراء من قالوا بتحريم شرب القهوة ، وكراهة البعض تسميتها بالقهوة قال : "لأنه من أسماء الخمر . ولا وجه له إذ لا يلزم موافقة الاسم اتحاد المعنى . (١٠٨)

في الدخان والتنباك : أما الدخان والتنباك فقد صنف ابن علان رسالتين في تحريمه . "والتنباك عند ذوي العقول والأذهان من أعظم دواعي الشيطان إلى فساد الأموال والأحوال والأديان . والمبتلون به حرموا في الغالب مجالس الخير كمدارس العلم وحلق القرآن والذكر والاعتكاف في المساجد والوقوف في المشاهد والعابد ." ويورد هذا الفقيه قصة طريفة "قال بعضهم : إن الله لما خلق أدم (عم) وأمر الملائكة بالسجود له كما قال تعالى : "اذ قال ربك

للملائكة اني خالق بشر من طين ، إلى قوله : وان عليك لعنتي إلى يوم الدين . فعند ذلك خاف إبليس فبال من الخوف . فنبت هذا الدخان من بول إبليس ." ويستطرد هذا الفقيه يشجب هذه القصة فيقول "إن هذا الكلام لهراء فاسد واننا لا نثق بكلام لا يعضده كلام الله وكلام رسوله الصادق الأمين . من رأى إبليس يبول في ذلك الزمان وفي أي مكان بال من أماكن السماء والأرض ؟" ويستطرد هذا الفقيه فيقول ان التنباك "كان خروجه أولاً في أرض اليهود والنصارى والمجوس ، وأتى به رجل يهودي يزعم أنه حكيم إلى أرض المغرب ، ودعا الناس إليه فلما انتشر حرّمه بعض ، وكرهه بعض ، وأباحه بعض . وكان غالب الشافعية والحنفية قالوا أنه مباح أو مكروه وبعض منهم حرمّه . وغالب المالكية حرّمه وبعض منهم كرهه ." وبعد أن يستعرض المؤلف رسالة الشيخ عبد الغنى النابلسي : الصلاح بين الأخوان في اباحة شرب الدخان ، ويقف عند جملة نرى أنها تمثل رأى هذا الفقيه حيث يقول : "هو مباح ولكن رائحته تستكرهها الطباع ، فهو مكروه طبعاً لا شرعاً ..." (١٠٩)

في حكم السبحة : دخل رسول الله (ص) على إحدى زوجاته وبين يديها نوى أو حصى تسبح به فقال لها : أخبرك بما هو أيسر عليك من هذا وأفضل . فقال : سبحان الله عدد ما خلق في السماء ، وسبحان الله عدد ما خلق في الأرض ، وسبحان الله عدد ما بين ذلك ، وسبحان الله عدد ما هو خالق . والحمد لله مثل ذلك والله أكبر مثل ذلك . ولا حول ولا قوة إلا بالله مثل ذلك ." فلم ينهها عن ذلك إنما أرشدها إلى ما هو أيسر وأفضل ، ولو كان مكروهاً لبيّن لها ذلك .. قال علماؤنا اتخاذ السبحة جائز للتسبيح ونحوه إلا إذا ترتب عليه رياء وسمعة فيكون مكروهاً . وهذا هي الحال الظاهر من أكثر متصوفة بلادنا فتراهم يلبسون سبحة كبيرة فوق ثيابهم ليراها الناس ويعظموهم ويعتقدون أنهم أهل الخير والصلاح والسعادة والفلاح ، وأنهم الذاكرون الواحد الفتاح . وترى طائفة منهم يمسكون سبحاتهم بأيديهم ويطوفون في القري والأسواق والسكك والأبواب ومحافل الناس طمعاً لعرض الدنيا وحطامها ... وبعضهم يحمل سبحة كبيرة من نوى كبير تسمى عندهم بدّنّو ويقعقعها بين الناس . وبعضهم يتخذ سبحة من نواة السدر يبلغ عدد نواتها ألف وألفين ... ان رجلاً من سفهاء المتصوفة ودجاجلتهم لقيته يوماً لابساً مسبحة من نوى تسمى أكوكّو تكون على حجم ليمونة أو بيضة دجاجة .. قال لم ينفعنى شيء كما نفعتنى هذه السبحة ... دخلت يوماً على جماعة أغمار وقد لبستها فوق ثيابى ، فلما رأونى اعتقدوا انى من أكابر أولياء الله ، فنلت منهم في يوم واحد ثلاثين صاعاً من البسباس ." (١١٠)

وينقل هذا الفقيه عن الحافظ السيوطي في رسالته المسماه بالمنحة في السبحة ما يلي : بسند عن ابن عمر ، قال رأيت النبي (ص) يعقد التسبيح بيده . و بسنده عن بُسَيْرة ، ولا

تغفلن فتنسين التوحيد ، واعقدن بالأنامل فانهن مسؤولات مستنطقات ." وعن صفية (رض) قالت : دخل علّي رسول الله (ص) وبين يدي أربعة آلاف نواة أسبح بهن فقال : ما هذا يا بنت حيي ؟ قلت : أسبح بهن . قال : سبحت منذ قمت على رأسك أكثر من هذا . قلت : علمني يا رسول الله . قال : قولي سبحان الله عدد ماخلق من شيء . وأخرج ابن سعد عن حكيم الديلمي أن سعد بن أبي وقاص كان يسبح بالحصي ... وعن فاطمة بنت الحسين بن على بن أبي طالب أنها كانت تسبح بخيط معقود فيه .... وعن أبي هريرة عن جده أبي هريرة أنه كان له خيط فيه ألفا عقدة فلا ينام حتى يسبح به ... عن أبي سعيد الخدري انه كان يسبح بالحصي . (١١١)

توزيع المسلمين في الحبشة :

ينتشر المسلمون في جميع أرجاء الحبشة ، يقّلون في مناطق ويكثرون في مناطق أخرى . ففي جنوب الحبشة وشرقها توجد طائفة كبيرة من المسلمين يقيمون في هرر وأوجادين ، كما توجد جاليات كبيرة من المسلمين في المناطق الجنوبية الغربية أى فى مناطق غلا غوما ، وقيرة ، وبلواناريا ، وجما ، وجادو ، وشيمارو ، وهديا وضضلة .

أما سكان غوراغي وتنّو فهم خليط من المسلمين والنصارى ، كما توجد في غرب أديس أبابا قبائل ورجي ، ولني ، وهم مسلمون ، وربما كانوا من سلالة مجموعات مسلمة كانت تقيم على طول الطريق التى يربط مسلمي السواحل الحبشية على البحر الأحمر بالشعوب الاسلامية في غرب الحبشة . ويقيم في شوا ، وأمحرا وولو ، وتغري ، جماعات كبيرة من المسلمين ، وقد انتشروا في مناطق كثيرة من تلك النواحي . ومن بين هؤلاء مجموعات تنحدر من أصول يمنية غير بعيدة الجذور . ويسود الاعتقاد بأن القبائل العركوبية ، وقبائل شوكرا الحبشية ، ترجع إلى العرب اليمانيين . ولا تزال لهم من تقاليدهم وعاداتهم وألوانهم الكثير من السمات التى تربطهم بتلك الأرومة .

أما أوسة ، فكل سكانها مسلمون ، غير أن عدم وجود عدد من الفقهاء والعلماء في تلك المناطق بالقدر المطلوب ذهب برونق الاسلام فصار في حاجة إلى تجديد . ويمثل المسلمون في شمال أريتريا وشرقيها أكثرية غالبة اذا قيسوا عددياً بالنصارى هناك وذلك في قبائل أساورتا وساهو . وهم مسلمون سنيون بين أحناف وشوافع ومالكية ، ولهم – منذ عهد الاستعمار الايطالي – محاكم للأحوال الشرعية والشخصية . كما نجد في تسنى مركزاً كبيراً للطريقة الميرغنية التى كان لها دور كبير في تحضير المنطقة خاصة على أيام السيدة علوية ذات الاتصال بالمستعمرين الإيطاليين الذين تجاوبوا مع رغباتها الإصلاحية لما كانوا يعرفونه من تأثيرها في الرأي العام .

يتبع أكثر مسلمي الحبشة المذهب الشافعي الذي هو أقدم المذاهب السنية هناك ، كما ينتشر هذا المذهب أيضاً في المناطق الوالية مثل قاللو ، وتلهودرى ، وبابّو ، وايجو ، وورهمنو ، وبورنا ، ولاستا ، وعريال ، وكذلك في مقاطعة بيغمدر ، وغوندر ، وجوجام ، وولكا . (١١٢)

وينتشر مذهب أبي حنيفة النعمان في بعض مناطق أريتريا ، وقد اكتسب هذا المذهب هناك رواجاً منذ القرن السادس عشر الميلادى . (١١٣) أما مذهب الامام مالك فله وجود في مناطق صغيرة من الحبشة خاصة تلك المناطق القريبة من الحدود السودانية مثل قردة ، وقرن ، وتسني ، وبركا ، وأماكن أخرى متفرقة .

وصلت المؤثرات الزيدية إلى سواحل الصومال والحبشة منذ العصر العباسي الثاني حين أصبحت تلك المنطقة ملاذاً للهاربين من المعارضين وأصحاب الفرق والنظرات الصوفية المختلفة . كما وصل إلى هذه المنطقة الدعاة الشيعة وغلاتهم منذ القرن الثالث الهجرى ، خاصة دعاة الاسماعيلية الذين وفدوا بهذه الدعوة من نجران باليمن وعملوا على نشرها في مناطق الحبشة . (١١٤)

وينتمى العديد من مسلمي الحبشة والصومال إلى طوائف المتصوفة . وقد وجدت الطريقة القادرية لها أرضاً خصبة هناك خاصة وأن مريديها يعملون في مجال التعليم . وتسود هذه الطريقة بين أبناء الفاللي في وللو ، وأبناء قبائل الدنكلي ، والهرري ، وفي الشعب الصومالي بصفة عامة . كما انتشرت في بعض مناطق وللو وهجر . (١١٥) ونجد أن الطريقة الأحمدية التى تتبع أحمد بن ادريس ، المتوفي في عسير في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، قد اكتسبت هناك نفوذاً كبيراً ، وكذلك الصالحية ، وهم فرع متأخر من الأحمدية . وقد أسسها محمد صالح ، نزيل مكة المكرمة ، وقد عملت هذه الطائفة بالزراعة . وللطريقة الرفاعية في المنطقة مريدوها . وقد يصل الخلاف بين طوائف المتصوفة مداه . فقد تفاقمت الخلافات بين القادرية والصالحية حتى أدت في بعض الأحيان إلى نزاعات دموية . ونجد مؤلفات لبعض القادرية في الرد على الصالحية منها : نصر المؤمنين على المردة الملحدين . وللختمية كما للشاذلية والسنوسية والسمانية وجود محسوس في مناطق الصومال وأريتريا . (١١٦)

وتوجد في المنطقة العديد من الحركات الهدامة التى تنتسب إلى الاسلام غير الإسماعيلية . فقد قام في القرن الماضي من يدعي النبّوة ويستمد أسانيده من القرآن الكريم ، يفسره وفق هواه . ومن ذلك حركة شوقوله قرب غندار ، رأسها المدعو زكريا ، وغيّر في قواعد الدين الاسلامي بما يناسب ما يريده أتباعه ، فجعل الصيام إلى الظهر ، وأباح المسكرات والفسق والفجور .

وفي الحقيقة فإن إسلام أكثر أهل الحبشة من الذين لا يقرأون ولا يجلسون إلى العلماء إسلام امتزج بكثير من العادات الوثنية والممارسات غير الاسلامية . ترى في هؤلاء المسلمين

من يعظم حجراً لا يمر به إلا ناشده وخاطبه في قضاء حاجته ، وتراه يخاطب شجرة يمر بها في قضاء حاجته ويربط بها خيطاً أو خرقة ، وترى فيهم من يعظم جبلاً أو فرجة بين جبلين ، وترى فيهم من يعظم القات أو البن ، ويحرم الكلام المباح عند شربها ، ومن هذا النوع الطائفة المسماة بالقمات الأبكار . كتب محمد فقيه في كتابه المسك : "قمات طائفة دينها أكل القات ، رئيسها يسمى أبكار ، وقاسم القات يسمى إناي ، ولهم بيت يقال له كُبَدن ، يعظمونه غاية التعظيم يبنونه في الصحارى لدى أشجار عظيمة ، يجتمعون فيه حيناً يحملونه إلى بلادهم غاية التعظيم . وإذا أحدثوا في الطريق استنجوا بالماء ، وإذا أجنبوا اغتسلوا ، والحاملون لها لا يتكلمون مع أحد في الطريق ، يمشون بسكينة ووقار . وإذا كانت طريقهم واسعة إصطفوا في مشيهم كصفوف الصلاة لا يجاوز عقب أحدهم الآخر ، وإذا وصلوا إلى طريق ضيق مشوا فيها واحداً بعد واحد ، ويناجون ربهم جهراً إذا كانوا جماعة في نواحي غالا بنغم عجيب ، يذكرون النبي (ص) بما يفيد أنه رسول الله ونبيه ، وحبيبه ، وتلهج ألسنتهم ربي ربي ، نبي نبي . ينسبون أنفسهم لله والرسول ويسمون كل من لا يعرف لغتهم باسم الكافر ، ويستحلون دمه ، ولو كان مسلماً مخلصاً . لا يحبون النصاري ، ويمدحون النبي (ص) في مجالسهم بما يليق بجهلهم ، لا بمقامه الشريف ، ويتوسلون به . ولهم شروط يوافق بعضها بعض أحكام الشريعة ، ولعلهم في الأصل كانوا مسلمين . (١١٧)

هوامش الفصل الثانى

١ – أمين توفيق الطيبى ، الحبشة عربية الأصول والثقافة ، ص ٦٤ .

* قال صاحب لسان العرب فى إشارة الى هؤلاء الأحابيش انهم أحياء من القارة (القار : السواد) وهم من بنى الهون من خزيمة سموا بذلك لاسودادهم . كان هذا الحى من القارة يجيدون الرمى بالنبل ولا يخطئون . يروى أن أربعين من القارة كانوا يحرسون قبة أحد التتابعة سمعوا حساً بالليل لم يحيروا موضعه فضربوا تجاهه فلما أصبحوا فإذا أربعون سهماً فى سنورٌ . ولا شك فيما أورده المسعودى من أن الرمى أصله بلاد النوبه وما أوردته المصنفات العربية الأخرى عن حملة ابن ابى السرح من أن السودانين هم رماة الحدق وأن العديد من رجال الجيش المسلم رجعوا بأعين مفقوءة . وقد دلت الأبحاث الاثرية فى موقع الشاهيناب شمال الخرطوم ومواقع نهر عطبرة على وجود السهام فى هذه المناطق منذ العصر الحجرى الحديث . يضاف الى ذلك كله أن العرب كانوا يسمون البلاد بأقربها منهم داراً إذ انهم حين وفدوا مصر سموا بلاد السودان بلاد النوبة ، والنوبة جنس من أجناس السودان . كتب صاحب القاموس فى تفسير كلمة نوبة فقال : "هى بلاد واسعة للسودان بجنوب الصعيد منها بلال الحبشى ." فهنا تبادل صريح للفظى نوبة وحبش فسيان أن يقال نوبى أو حبشى . ويستفاد من هذا كله أن كلمة أحابيش لا تفسر إلا بالحبش المعروفين لدينا المختلطين ببعض الأعراق الأفريقية الأخرى من نوبة وغيرهم وأن القوس العربية ذات منشأ حبشى نوبى أفريقى .

راجع :

جعفر ميرغنى ، "معربات سودانية" مجلة حروف ، العدد ٢-٣ مزدوج ، الخرطوم ، ١٩٩١ ، ص ٥٠ – ٧٤ .

٢ – أمين توفيق الطيبى ، ص ٦٤ .

٣ – السيوطى (جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن) أزهار العروش فى أخبار الحبوش ، مخطوط ورقه ٤٣ – ٤٤ .

٤ – القاضى خان (علاء الدين بن عبد الباقى) الطراز المنقوش فى محاسن الحبوش ، مخطوط ، ورقة ٣ – ١٥ .

٥ – القنائى (أحمد الحفنى القنائى الأزهرى) الجواهر الحسان فى تاريخ الحبشان ، ص ٩٢ .

٦ – عمر بن فهد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد ، إتحاف الورى بأخبار أم القرى ، ج١ ، ص ٧٠ .

* التثنية ١٨:١٥ – ١٩ "يقيم لك الرب الهك نبيا من وسطك من اخوتك مثلى له تسمعون .... أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به ."

٧ – أزهار ، ورقة ٣٠ .

٨ – حسن مكى محمد أحمد ، "حوار الرسول صلى الله عليه وسلم مع أفريقيا" دراسات أفريقية ، العدد ١٠ ، ديسمبر ١٩٩٣ ، ص ٤٥ .

٩ – عبد العزيز عبد الغنى ابراهيم "حكيم أفريقى فى مجتمع يهودى" رسالة أفريقيا ، العدد ٤٥ ، ذى الحجة ١٤١٤ ، ص ٤٤ – ٥ .

١٠ – محمد بيومى مهران ، دراسات فى تاريخ العرب القديم ، ص ٣٥٤ .

١١ – عبد المجيد عابدين ، سبق ذكره ، ص ١٠ – ١١

* حدثنى بعض أهل العلم انها لغة "الجعيص" وليست الجعيز وانها تعنى ، فى بعض لسان الحبش القديم ، الراقى أو

ذى المكانة العالية ، وأن هذه الكلمة قد عاشت بعد ئذ فى الدارجة السودانية إذ نقول عن الشخص ذى الوجاهة والاعتبار "زول جعيص" . ونضيف الى هذا أن "جعيص" فى السودانية الدارجة تستعمل عادة فى الإشارة إلى الانسان دون المكان مما يدعم هذا الرأى . وعلى العموم فالرأى جدير بالاستقصاء .

١٢ -عبد المجيد عابدين ، سبق ذكره ، ص ٩ .

١٣ - نفسه ، ص ١٠ .

١٤ - محمد الخضرى ، محاضرات فى تاريخ الأمم الاسلامية ، ج١ ، القاهرة ، ١٩٤٥ ، ص ٤٤-٤٥ .

١٥ - عبد المجيد عابدين ، سبق ذكره ، ص ١٠٣ .

١٦ - نفسه ، ص ١٠٠ - ١٠٢ .

١٧ - أزهار ، ورقة ١٩ - ٢٥ .

١٨ - البقرة : ١٥٠ .

١٩ - النسا : ١٥ .

٢٠ - هود : ٧٥ .

٢١ - هود : ٤٤ .

٢٢ - يوسف : ٣١ .

٢٣ - الرعد : ٢٩ .

٢٤ - النحل : ٦٧ .

٢٥ - طه : ١ .

٢٦ - الأنبياء : ١٠٤ .

٢٧ - النور : ٣٥ .

٢٨ - سبأ : ١٠ .

٢٩ - سبأ : ١٦ .

٣٠ - سبأ : ١٤ .

٣١ - يسن : ١ .

٣٢ - ص : ٤٤ ، كذلك ق : ٣٢ .

٣٣ - الحديد : ٢٨ .

٣٤ - المزمل : ٦ .

٣٥ - المزمل ١٨ .

٣٦ - المدثر : ١٥ .

٣٧ - الانشقاق : ١٤ .

٣٨ - التين : ٢ .

٣٩ - المطففين : ٢٣ .

٤٠ – *النور* : ٣٥ .

٤١ – *هود* : ٤٤ .

٤٢ – عبد المجيد عابدين ، سبق ذكره ، ص ١٠٣ .

٤٣ – *أزهار* ، ورقة ٢٦ .

٤٤ – عبد المجيد عابدين ، سبق ذكره ، ص ١٢٢ .

٤٥ – *الطراز* ، ورقة ١٦٩ – ١٧٢ .

٤٦ – جمال زكريا قاسم ، *الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية* ، القاهرة ، معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٧٥ ، ص ٩ .

٤٧ – عبد المجيد عابدين ، سبق ذكره ، ص ١٢٤ .

٤٨ – نفسه ، ص ١٢٥ .

* لعل فى الأبيات التالية التى نظمها هذا الشاعر الذى شبب بمولاته فجلد وسجن ما يثبت شجاعته قال :

فما السجن إلا ظلّ بيت دخلته	وما الجلد إلا جلدة خالطت جلدا
أبا معبد ولله ما حلّ حبها	ثمانون سوطاً بل تزيد بها وجدا
فإن تقتلونى تقتلوا ابن وليدة	وإن تتركونى تتركوا أسداً وردا

راجع : *الطراز* ، ورقة ٩٦ .

٤٩ – عبد المجيد عابدين ، سبق ذكره ، ص ١٣٧ – ١٣٨ .

٥٠ – *الطراز* ، ورقة ١٧٨ .

٥١ – نفسه ، ورقة ٢٣٠ .

٥٢ – نفسه ، ورقة ١٦٩ .

٥٣ – نفسه ، ورقة ٢٣٦ .

٥٤ – *الطراز* ، ورقة ٢٣٨ – ٢٣٩ .

* راجع فى هذا الصدد :

يوسف فضل حسن ، *الشلوخ وأصلها ووظيفتها فى وادى النيل الأوسط* ، ط٢ الخرطوم ، دار جامعة الخرطوم للنشر ، ١٩٨٩ .

٥٥ – السيوطى (جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن) *رفع شأن الحبشان* ، مخطوط ، ورقة ٥٧ .

٥٦ – *الجواهر* ، ص ١٢٩ .

٥٧ – نفسه ، ص ١٣١ .

٥٨ – *الطراز* ، ورقة ١٥٠ .

٥٩ – *الجواهر* ، ص ١٣٧ – ١٣٨ .

٦٠ – *الطراز* ، ورقة ١٤٦ .

٦١ – *رفع* ، ورقة ٤٥ – ٤٦ .

٦٢ – عبد المجيد عابدين ، سبق ذكره ، ص ٧١ – ٧٢ .

٦٣ – الطراز ، ورقة ٥٩ – ٦٠ .

٦٤ – رفع ، ورقة ٤٦ .

٦٥ – نفسه ، ورقة ٣٩ .

٦٦ – الجواهر ، ص ١٤٨ .

٦٧ – عبد المجيد عابدين ، سبق ذكره ، ص ٢٣٤ .

٦٨ – نفسه ، ص ٢٣٧ – ٢٣٨ .

٦٩ – رفع ، ورقة ٨٦ – ٨٧ .

٧٠ – عبد المجيد عابدين ، سبق ذكره ، ص ٢٥٠ .

٧١ – أبو القاسم محمد تاج الدين الجبرتي الوللوى القاللوى ، إعلام الأغبيا بحياة عظما أثيوبيا من العلما والأوليا وسلاطين الاسلام والأصفيا ، مخطوط غير مصنف ، مكتبة جامعة أفريقيا العالمية ، الخرطوم ، ورقة ٢٥٠ – ٢٥٢ .

٧٢ – عبد المجيد عابدين ، سبق ذكره ، ص ٢٥١ .

٧٣ – رفع ، ورقة ٩٤ – ٩٦ .

٧٤ – عبد المجيد عابدين ، سبق ذكره ، ص ٢٥٢ .

٧٥ – إعلام ، ورقة ٧٦ – ٧٧ .

٧٦ – نفسه ، ورقة ٨١ – ٨٩ .

٧٧ – نفسه ، ورقة ٩١ .

٧٨ – نفسه ، ورقة ٩٦ .

٧٩ – نفسه ، ورقة ١٠٣ .

* اشتهر المتصوفة الأحباش أو الذين ارتبطت اسماؤهم ببلاد الحبشة بالعديد من الكرامات . وقد فاقت روايات الكرامات التى ارتبطت بأعلام هؤلاء المتصوفة حد الخيال . يروى أن عبداً حبشياً كان يجلس فى طرابلس مطرقاً ورأسه على مرفقيه ، فتمنى أن لو كان بالحرم فى ساعته تلك . وحين رفع الرجل رأسه إذا هو بداخل الحرم ! وهناك المزيد من مثل هذه الراويات . راجع :

رفع ، ورقة ٩٢ – ٩٤ .

٨٠ – إعلام ، ورقة ١٥٥ – ١٥٧ .

٨١ – نفسه ، ورقة ١٣٧ – ١٣٨ .

٨٢ – نفسه ، ورقة ١٤١ .

* دخلت الجيوش الإيطالية أديس أبابا فى أوائل مايو ١٩٣٦ وتم إعلان الحبشة مستعمرة إيطالية . كانت الحكومة الإيطالية تدرك مدى الظلم والإضطهاد والقتل والتشريد الذى كان يعانيه المسلمون من حكومة أديس أبابا فقررت أن تستغل ذلك فى مصلحتها حيث يمكن لها أن تنحاز للمسلمين . ووجد علماء المسلمين الأحباش وزعماؤهم فرصة سانحة فى التعامل مع الإستعمار الإيطالى فتعاملوا معه خاصة وان مظالم حكومة أديس أبابا كانت تشمل ، إلى

جانب القتل والتشريد ، التنصير القسرى للمسلمين والإضطهاد الدينى . حاولت السياسة الإيطالية فى الحبشة أن تساوى بين أتباع الأديان المختلفة خاصة وأن إيطاليا لم تكن تعد نصرانية الحبشة اليعقوبية مذهباً يستحق منها الدعم . وعليه كانت النصرانية الحبشية والإسلام الحبشى ، كلاهما - فى إعتبار السياسة الإيطالية - لا يتمايز أحدهما عن الآخر . أعلن موسولينى منذ أن وطئت أقدام جنوده أرض الحبشة أنه سيضمن لمسلميها السلام والعدل والرفاهية ، وتعهد بإحترام قوانينهم وأحكام الشرع . ووجد زعماء المسلمين الذين لم يألفوا هذا التسامح والمساواة فى المعاملة بين معتنقى الأديان المختلفة فى حكوماتهم "الوطنية" الفرصة سانحة لإقامة المساجد فى مدنهم المختلفة . قامت المساجد فى أديس أبابا ، وسكوتا ، وشلجا ، وبارك ، وإسلامجى ، ودانقيلا ، وبحيرة حيق ، وديس ، ومتمة ، وجوندار .. الخ . كما أقيمت المحاكم الشرعية وتم إدخال اللغة العربية إلى مدارس المسلمين ، والتصريح لهم بإستعمال هذه اللغة فى المرسلات الرسمية فى جيما وهرر . وأنشئت فى جيما كلية دار العلوم الإسلامية . لا ريب إذاً أن ساند الفقهاء المسلمون تلك القوة الدخيلة حفاظاً على أمنهم الروحى والمادى ، وتمسكاً بحرية ممارسة شعائرهم . وكان ذلك الأمر وضعاً شاذاً دفعتهم إليه حكومة أديس أبابا المنهارة . راجع :

فتحى غيث ، الإسلام والحبشة عبر التاريخ ، القاهرة ، ص ٢٧٩ - ٢٨ .

٨٣ - إعلام ، ورقة ١٤١ .

٨٤ - جمال زكريا قاسم ، الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية ، ص ٨ .

٨٥ - نفسه ، ص ٩ .

٨٦ - المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين) ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ٨ أجزاء ، باريس ١٨٧٤ ، ج١ ، ص ٨٨ .

٨٧ - نفسه ، ص ٩٠ .

٨٨ - نفسه ، ص ٣٣٤ - ٣٣٥ .

٨٩ - ابن حوقل (أبو القاسم محمد) صورة الأرض ، لايدن ، ١٩٢٨ ، ص ٤٢ .

٩٠ - نفسه ، ص ٥٠ .

٩١ - نفسه ، ص ٥٦ .

* عرف بالمقدس لأنه ولد ببيت المقدس .

٩٢ - جمال زكريا قاسم ، سبق ذكره ، ص ٢٤ - ٢٨ .

٩٣ - ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد بن عبد الله) تحفه النظار فى عجائب الأسفار وغرائب الأمصار ، القاهرة ، ١٩٣٣ ، ص ٢٠١ .

٩٤ - أزهار ، ورقة ٦٦ - ٧٠ .

٩٥ - القلقشندى (أبو العباس أحمد ، ت ٨٢١هـ-١٤١٨م) صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، ١٤ ج ، مصر ١٩١٣ ، الجزء الخامس .

٩٦ - المقريزى (أحمد بن على بن عبد القادر ، ت ٨٤٥هـ) الإلمام بمن فى أرض الحبشة من ملوك الإسلام ، مصر ١٨٩٥ ، ص ٣ .

٩٧ - عرب فقيه (شهاب الدين أحمد بن عبد القادر بن سالم بن عثمان الجيزانى) فتوح الحبشة ، نشر رنيه باسيه ،

القاهرة ، ١٩٢٥ .

٩٨ - *الحيمى (الحسن بن أحمد) سيرة الحبشة/حديقة النظر وبهجة الفكر فى عجائب السفر* ، تحقيق كامل مراد ، ط ٢ ، ١٩٧٢ ، ص ١٥٣ .

٩٩ - نفسه ، ص ١٥٤ .

١٠٠ - نفسه ، ص ١٥٦ .

١٠١ - نفسه ، ص ١٥٧ .

١٠٢ - نفسه ، ص ١٤٩ .

١٠٣ - نفسه ، ص ١٨٣ .

١٠٤ - نفسه ، ص ٢٤٣ .

١٠٥ - نفسه ، ص ١٨٢ .

١٠٦ إعلام ، ورقة ٧٣ .

١٠٧ - نفسه ، ورقة ٧٤ .

١٠٨ - نفسه ، ورقة ٧٥ .

١٠٩ - نفسه ، ورقة ١٣٠ .

١١٠ - نفسه ، ورقة ١٣١ .

١١١ - نفسه ، ورقة ٣١ - ٣٢ .

١١٢ - نفسه ، ورقة ١٤٧ .

١١٣ - عبد المجيد عابدين ، سبق ذكره ، ص ٢٤٦ .

١١٤ - إعلام ، ورقة ٥٧ .

١١٥ - نفسه ، ورقة ٩٢ .

١١٦ - سيرة الحبشة ، ص ٢٤٦ .

الفصل الثالث

الهجرة إلى الحبشة

- تطور فكرة الإضطهاد الديني قبل الإسلام
- مكة تضطهد أوائل المسلمين
- بعثة عثمان بن عفان للحبشة
- الهجرة من الحجاز إلى الحبشة
- المهاجرون من اليمن
- ملاحقة قريش
- بعثة الضمري إلى النجاشي
- زواج السيدة أم حبيبة
- حياة المسلمين في الحبشة
- عودة المهاجرين

الهجرة إلى الحبشة

تعد هجرة المسلمين إلى أرض الحبشة نقطة الانطلاق إلى الله، وبداية لانتشار الدين الاسلامي. خرجت الهجرة من واد غير ذي ذرع الى اودية ذات زروع. واتسعت بالهجرة الى الحبشة دائرة الاسلام، وانتفت بها فكرة القوميات وكل المبادئ الجاهلية ، فلا عرق ولاعنصر. وقع - بالهجرة - عبء حماية رسالة الاسلام الوليدة على قوميات اخرى غير عربية ، اصبح بعض أهلها أصدق إسلاما، وأخلص عزيمة من كثير من العرب الذين كانوا أسبق من غيرهم الى معاداة الإسلام ، فكادوا له واضطهدوا اتباعه المستضعفين .

كانت هجرة أوائل المسلمين إلى الحبشة ثم إلى يثرب بعدها وليدة اضطهاد ديني. حدّد ذلك الاضطهاد طريق الهجرة فاتجه المسلمون بداية الى الحبشة دون سواها من سائر الأرض، وكان ذلك نتيجة لعوامل متعددة . وحدد الاضطهاد شريحة الهجرة البشرية التي خرجت الى الحبشة ونوعيتها وحجمها، فكان فيهم المستضعفون ، وفيهم غير ذلك من المسلمين الذين رافقوا تلك الفئة ليفاوضوا عنهم، ويعلموهم، ويقوموا بأمر الدعوة. وكان الاضطهاد الذي خيّم على هذه المنطقة من الشرق العامل البشري الأقوى الذي أدى إلى ان تنداح دائرة الاسلام في هذه المنطقة من العالم وتتسع ليدخل منها انسان المنطقة خروجا من ظلم الاضطهاد الى عدل المساواة بين البشر: (يا ايها الناس انا خلقناكم من نفس واحدة)، ثم (يا ايها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثي وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) .

حين يجد الانسان - مهما كان لونه او معتقده - اضطهاد وظلما في الأرض، فإنه يتجه بفطرته التي فطر الله عليها الخلق إلى السماء يستنصرها، فإذا صادف ذلك الإنسان الاسلام ، دين الفطر القائم على معارضه كل الجاهليه العالمية القائمة على المادة والعنصر واللون ، وفرض افكار واراء السادة ومعتقداتهم ، فسرعان ما يلجأ إلى رحابه الممتد لكل البشر في كل صقع. نفى الإسلام الجهوية فهو - عند معتنقيه - صوت السماء التي تظلل كل الارض وما فوقها. وعملت عالمية الاسلام على رفع البشر فوق الحواجز المادية التي يسمو بها بعضهم على بعض ، او السياسية التي تفرقهم شيعاً وقبائل ودولا، فإذا الناس كلهم نفس

واحدة ، حرّم الله اضطهادها أو الاساءة اليها مالم يمارس الإنسان على أخيه الإنسان ، ظلماً أو اضطهاداً. هيأ الله للاسلام أن يقضي على الاضطهاد يدحضه دحضاً . ونصّ الإسلام صراحة أن لا عبودية الا لله، وأن الاضطهاد باطل ، فهو أداة تسلط، ينال به إنسان السلطة – ايا كان نوعها– من أخيه الإنسان العاطل منها، ويسخره لرغباته ويخضعه لمشيئته .

تطور فكرة الاضطهاد الديني قبل الإسلام :

لم يعرف العالم قبل ظهور الإسلام طعم التسامح الديني ، وتلك حقيقة لم يكتب لها الذيوع رغم اتفاق جمهور المؤرخين الغربيين منهم والشرقيين على حد سواء، عليها. ورغم أن النصرانية كانت أسبق من الإسلام في المناداة بالسلام، بحكم سبقها التاريخي ، إلا أن رجال ذلك الدين لم يتمكنوا من تطبيق تعاليم المسيح لظروف تاريخية يمكن أن نشير إليها بشكل موجز .

كانت شريعة بني إسرائيل التي وضعوها في شريعة موسى (عم) أول دستور للاضطهاد الديني ظهر بين بني البشر وفشا وشاع . نصّت هذه المراسيم على أن عبادة الأوثان ليست خطيئة فحسب ، بل هي جريمة لايمكن التفكير عنها إلا باهراق الدم . ويكاد ينعقد الرأي عند المؤرخين الغربيين بأن هذه السياسة قد اثرت تأثيرا ملحوظا على الفكر النصراني، ووجهت الاضطهاد الديني عندهم . يرى بيوري Bury ان ما ورد في العهد القديم من تعصب ممقوت قد تسلل بعضه الى العهد الجديد، وأصبح زادا للاضطهاد في العالم النصراني بعدئذ . وأيّد بايل Bayle ورينان Renan هذا القول حين شهدا بتأثر الاضطهاد في العالم النصراني بسياسة الاضطهاد عند اليهود . ويؤكد ليكي Lecky هذا الرأي ، ويقول انه كان ينبغي للنصارى ان يلاحظوا ان المسيح حين رفض ان يمنح رسله الإذن باحراق الملحدين كان قد دلّ بذلك على نفوره من روح التعصب البغيض (١) .

نادت النصرانية بمساواة البشر مساواة تامة أمام الله ، ونبذت العنصرية التي تشبث بها بنو إسرائيل الذين اعتقدوا انهم صفوة الخلق ، وأن الإله هو إله اليهود وحدهم دون سواهم ،

وليس إلها لسائر الشعوب .... ! وعندما بشّر المسيح (عم) بدينه المناهض للشوفينية اليهودية تآمر عليه اليهود وعذبوه حتى رفعه الله إليه ، كما يقول القرآن الكريم ، أو حتى مات الإبن الوحيد للإله على الصليب ليخلص البشر الذين كانوا عبيداً للخطيئة بهذا الفداء ، وذلك هو رأي النصرانية الحديثة .

بشّر حواريو المسيح واتباعهم بالنصرانية في الشعوب التي ضمتها الامبراطورية الرومانية. ولم تكن الحضارة الرومانية تعترف الا بما هو روماني صريح . ولم تنظر تلك الامبراطورية الى غير أهلها من البشر الذين وقعوا تحت حكمها إلا انهم أدوات تحقق بهم عزتها الوطنية ولاشي فوق ذلك. وحين وصلت هذه الإمبراطورية الى ذروة حضارتها لم تدرك معنى المساواة بين البشر في هذه الدنيا ولافي الدار الاخرة التي كان أكثر أباطرتها الوثنيين لايؤمنون بها. وعاشت شعوب الشرق الواقعة تحت ربقتهم من أهل الحضارات القديمة الذين نزلت الديانات بأرضهم مخذولة يائسه منكودة لاحول لها ولا طول . وكان النظام الوثني الروماني يستعديهم ويستذلهم . هرع هؤلاء البائسون إلى النصرانية التي وعدت البشر بالخلاص في عالم آخر يعوضّون فيه ما يلاقونه من ظلم وفقر واضطهاد في هذا العالم. وأصبحت النصرانية دين الضعفاء المقهورين، أو دين الأقوياء بضعفهم. يجدون فيها الخلاص من آلامهم الروحية والجسدية . آمن الى جانب هؤلاء المستضعفين – بالنصرانية – بعض قليل من المثاليين والمفكرين من الطبقات المختارة. وربما كان ذلك عن اقتناع حقيقي منهم بما في ذلك الدين من مثاليه وجمال، أو ربما رغبة منهم في تحدي عالم روماني لم ترق له المثاليات التي آمنوا بها. ومن ثمّ دخلت النصرانية في صراع عنيف استمر لعدة قرون مع الدولة الرومانية التي اعتبرت نفسها صاحبة الحق الأعلى في تنظيم شؤون الفرد الخاضع لسلطانها. كانت الإمبراطورية تعد نفسها الخير الاسمي ، والمثل الأعلى ، وإنما تتمثل كل الفضائل في خدمتها والولاء لها . واصبحت هذه الفكرة بلا شك سببا من الأسباب التي حدت بالرومان كي يتخذوا من أباطرتهم الهة يعبدونها، ذلك ان فكرة الدولة عند هذا الشعب قد تجسمت في الإمبراطورية ذاته (٢) .

تناقضت هذه الفكرة مع الفكرة النصرانية التي قضت بأن المملكة الخالدة الوحيدة ، إنما

هي مملكة المسيح أى ملكوت الله ، لا الامبراطورية الرومانية . ومن هنا يمكن القول بان النصراني كان في بداية عهد النصرانية هو العدو الأول للدولة الرومانية المتسلح بالفكر وبالصبر وحب التضحية . وبهذا بدأ اضطهاد الدولة للنصارى . ويقال أن النصرانية قد شهدت أول اضطهاد في عام ٦٤م في عهد الطاغية نيرون الذي قيل انه أحرق روما ليستمتع بمنظر اضطرام النار فيها، ثم ألقي تبعه إحراقها على النصارى . ولقي النصارى جراء هذا الاتهام عنتاً شديداً. طليت أجسام بعضهم بالشمع وبالقار وغير ذلك من المواد التي تقبل الالتهاب ثم اشتعلت فيهم النار أحياء . وجلس الطاغية في بستانه يراقب حفلة ألعاب ، وكان اولئك الضحايا هم المصابيح التي اضاءت الملعب (٣) . ويؤرخ البعض لحركة الاضطهاد النصراني بعهد ديوكلشيان ، فهم يعتبرون نيرون طاغية معتوها امتد شره للنصارى وغيرهم . وفاض الاضطهاد الذي لاقاه النصارى من الأباطرة الرومان حتى غطى القرن الثاني بكامله خاصة بين عامي (١٦١ – ١٧٤م) وكذلك بين عامي (١٧٧ –١٨١م) . واخذ المستنيرون من النصارى يدافعون عن دينهم بمرارة اخذت تقطر تعصباً وتضطرم حقداً على الحضارة الظالمة التي يعيشون في ظلها الشيطاني .

وشهد القرن الثالث بداية انفراج لاضطهاد النصارى حيث تمكنوا من عقد المجامع المسكونية وإقامة الاجتماعات علانية. وازدهر الأدب النصراني حيث ألفّوا القصص التي صوروا فيها متعة الاستشهاد الرائع في سبيل المعتقد . وجاء دقلديانوس (٢٨٤ – ٣٠٥م) فأمعن في اضطهاد النصارى الذين كانوا قد كشفوا عن فكرهم ولاقوا جراء ذلك عنتا مما جعلهم يسمون عهده بعهد الشهداء . وجعلوا العام ٢٨٤م – بداية حكمة وإحراقه للنصارى على النيران الهادئة – بداية لتقويمهم الكنسي (٤) .

صدر أول مرسوم بالتسامح الديني في عام ٣١١م. وأباح المرسوم لغير الوثنيين أن يؤمنوا بما شاءوا من نحل شريطة أن تكون قوانين البلاد مكان احترام منهم وتقدير. وأصدر قسطنطين في عام ٣١٣م مرسوم ميلان أقر فيه مبدأ التسامح الديني، ووضع النصرانية على قدم المساواة مع غيرها من المعتقدات. وحين اعتنق ذلك الإمبراطور، بعد ذلك بعشر سنوات، النصرانية خرجت هذه الديانة من قيد الاضطهاد الذي أخذ يقيد اعداءها، فالاضطهاد إرث

لحكومات الاباطرة . اصدر قسطنطين نفسه مرسوما يقضي بحرق كل يهودي يلقي على اي نصراني حجرا، وعقاب كل نصراني يتهود ومصادرة أملاكه ، اما اليهودي الذي يتزوج من نصرانية فيعدم (٥) . ولم يكن نصارى عهد قسطنطين طلاب حرية دينية ، فأسلافهم من الشهداء الذين قدمهم هذا الدين راحوا استجابة لوحي إيمانهم ووجوب نشر دينهم، ولم يموتوافي سبيل الدفاع عن مبدأ الحرية الدينية. ومعتقدات الوثنيين . وبهذا بدأ عهد الاضطهاد النصراني لغير النصارى ، وبدأ عهد كبح عام استمر في المناطق النصرانية – خاصة في أوربا – واستمر قرونا شدادا ، حورب فيها الفكر المغاير، والعقل والعلم ، ووضعت حتى القلوب في الأصفاد حين اقيمت "محاكم تفتيش الايمان" .

الخلافات المذهبية والاضطهاد :

نقل قسطنطين عاصمة ملكه إلى بيزنطة التي سميت بعد ذلك باسمه فتطلعت روما إلى رئيسها الديني الأعلى ليأخذ مكان عاهلها الامبراطور . واخذت الكنيسة منذ القرن الرابع للميلاد تستحوذ على سلطان دنيوي واسع النطاق ممدود الرحاب . وقد مكن لهذا السلطان الكنسي ضعف الحكومة القائمة حينئذ واجتياح البرابرة للأقاليم الرومانية . ومكّن هذا الأمر أيضاً لكنيسة روما من التخلص من رقابة الحكومة وتدخلها ، وجاهر الاساقفة بإعلاء كلمة رئيسهم الديني على سلطة الملك. وادعّوا أن البابا مسؤول أمام الله عن اعمال الملوك والناس اجمعين، معتمدين في ذلك على النص : "أعطيك ملكوت السموات ، فكل ما تربطه في الأرض يكون مربوطا في السماء ، وكل ماتحلّه على الارض يكون محلولاً في السموات "(٦) .

هكذا نجد أن النصرانية قد خرجت منتصرة على أعدائها الوثنيين واليهود ، ولكنها لم تخرج بعد انتصارها بفكرة واحدة ، أو بمذهب معيّن محدود يعترف به جميع النصارى . أدى هذا الانقسام المذهبي وما تبعه من اضطهاد الكنيسة الغربية التي حمتها قوة الامبراطورية الرومانية المادية والعسكرية إلى زيادة الإضطهاد ضد الكنائس الشرقية. وجد نصارى الكنائس الشرقية عسفاً وظلماً واضطهاداً من إخوانهم في الدين لم يألفوا مثله من الوثنيين السابقين الذين كانوا بهم أرحم .

بدأت الخلافات المذهبية بين النصارى منذ القرن الثاني للميلاد حين دار النزاع حول طبيعة المسيح (عم)، وظهرت في تلك الفترة فئة الغناطسة او الأدريين الذين روجوا لمذهبهم القائل بان المسيح لم يظهر في هذا العالم بجسده ، وأنكروا كل صلة له بالأرض ، فهو قد ظهر في شكل روحاني فقط . لم ينكر هؤلاء القوم ظهور المسيح ، ولكنهم قالوا انه كائن سماوي ، بلا لحم ودم. وظل هذا الخلاف متأججاً حتى انتصرت في القرن الرابع فكرة الكنيسة الكاثوليكية الجامعة . وفي غمرة الانتصار بدأ عصر المشاحنات داخل الكنيسة التي تفرقت فرقاواحزابا . ومن أهم تلك الشاحنات الجدل الذي ثار حول هرطقة آريوس (+ ٣٣٦م) الذي أنكر ألوهية المسيح وزعم انه لا يساوي الاب في جوهره وطبيعته ، بل هو وسط بين الله والإنسان ، وانه خلق بارادة الرب ، فهو حادث غير قديم . ونظمت الكنيسة مجتمع نيقيه في عام ٣٢٥م لتنظر في هذا الشأن. وساد المجمع الرأي بان المسيح هو الاول والآخر (٧) ، وانه بداءة الخليقة (٨) وانه حي منذ ان تأسس العالم . وجاء قرار المجتمع النيقوي "اؤمن ... ورب واحد يسوع المسيح إبن الله ... إله من إله ، مولود غير مخلوق ، فرد جوهر ، واحد مع الآب ." .... وتقرر في ذلك المجمع إبعاد آريوس ، واحراق كتاباته (٩) .

توالت المجامع المكسونية لمعالجة الخلافات المستعرة. وكشف نسطوريوس ، بطريق القسطنطينية (٤٢٨ – ٤٣١م) ، عن مبدأ له في الارهاب حين خاطب الإمبراطور قائلا : "أعطني الدنيا وقد تطهرت من الملحدين ، أمنحك نعيم الجنة المقيم ". وظهر في هذا العصر القديس أوغسطين (ت ٤٣٠م) الذي دافع عن مبدأ الاضطهاد ، وأقامه على أساس من الكتاب المقدس ، واعتمد على كلمات وردت عن المسيح إذ قال ما معناه : "اجبروهم على اعتناق دينكم Compelle intrare ". وتمشيا مع هذا المنطق سلّم الرجل بمعاقبة الملحدين . واستمد البروتستانت من أفكار هذا الرجل أعظم أسلحتهم قوّة وصلابة ، كما عرف فيها المذهب الكاثوليكي أخص مميزاته . رأى هذا الرجل أن الهرطقة أسوأ انواع القتل ، "فهي قتل للنفوس " . واذا كان العهد الجديد لم يقدم مثالا لرسول استخدم القوة والعنف في نشر الدين، كما يقول البعض ، فذلك لأن عصر أولئك الرسل خلا من وجود أمير يعتنق النصرانية :" ولكن ألم يذبح اليسع El ijah بيديه أنبياء بعل ، ألم يحطم حزقيال ويوشع Je-

siah .... بالقوة عبادة الأوثان في أقاليمهم (١٠) ...."

لم يعتمد هذا القديس وأمثاله على ما جاء في خطبة الجبل "...... أحبوا أعدائكم ، باركوا لاعنيكم ، أحسنوا الى مبغضيكم ، وصلوا لأجل الذين يسئون اليكم ويطردونكم، لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السموات فانه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين ، ويمطر على الأبرار والظالمين....." (١١) اعتمد هؤلاء على نص انجيلي آخر أقل ذيوعا جاء منه : "لاتظنوا اني جئت لالقى سلاماً على الارض بل سيفاً ، فاني جئت لافرّق الانسان من ابيه ، والابنة من امها ، والكنة من حماتها، وأعداء الانسان اهل بيته " (١٢) ومن وحي هذا الفكر اضطرمت فكرة الاضطهاد وتأججت أتونها.

يبدو أن أول قانون موضوع نص على عقوبة الملحدين ، اي غير النصارى ، كان دستور ثيودوسيوس(٣٩٥م) الذي طبق بلا هوادة على اصحاب المذهب المانوي . وفي هذا القانون نصادف الفاظ مفتشي الإيمان أو رجال محكمة التفتيش . (١٣) ولا نعرف كيف تفتش القلوب ، ولكنه على اية حال داء عدم التسامح المستشري ، واضطهاد الانسان للانسان باسم الدين الذي انزله الله لتكريم الانسان .

عانى نسطوريوس نفسه بعدئذ من الاضطهاد حين عبر بنفسه أو على لسان احد مريديه عن انه لا ينبغي لأحد أن يدعو مريم أم الله ، وذلك لان مريم ليست إلا امرأة ، وان الله لا يمكن ان تلده امرأة من البشر، وبهذا الرأي قامت على الرجل القيامة ولم تقعد بعد ، وجاء القساوسة الى افسوس في عام ٤٣١م وقضوا ببطلان رأي نسطوريوس وطرده من أسقفيته وحرمانه من جميع مناصبه الدينية ، وتم بعدئذ نفى نسطوريوس الى البتراء في عام ٤٣٥م ، وهناك انتشر مذهبه ، واصبح قوة كبيرة في منطقة سوريا ، ثم في فارس . وأخذت المجامع تنعقد وتنفض ، والخلاف يزداد ويشتد ، والاضطهاد يضطرم ويمتد ، حتى كان مجمع خليقدونية . ترتبت على هذا المجمع الأخير آثار بعيدة ، إذ أقرّ لمذهب القسطنطينية دون سواه بالسلطان، ومنح أسقفها حق الزعامة ، وأضحى هذا القرار سببا في نزاع عنيف بين روما والقسطنطينية. وقد أدى هذا النزاع في نهاية الأمر أن تنشطر الكنيسة شطرين : المعسكر الكاثوليكي والمعسكر اليوناني . يضاف الى هذا الأثر أثر آخر نبع من القرار الذي

إتخذه هذا المجمع بخصوص طبيعة المسيح . إتخذ هذا المجمع قراره بأن المسيح أقنوم واحد ذو طبيعتين ، ولم ترض كنائس مصر وسوريا وأرمينيا هذا القرار ، فأنشأت كنائسها المستقلة لاعتقادها أن المسيح ذو طبيعة واحدة ، لا طبيعتين . (١٤) وأدى انحياز الكنيسة الحبشية للكنيسة الاسكندرية بعدئذ إلى أن تلعب الكنيسة الأخيرة ، المعارضة للرومان الذين كانوا يحكمون مصر وقتها ، دوراً محسوساً في سياسة الحبشة منذ القرن الرابع الميلادي . وظلت العلاقة قائمة حتى بعد فتح عمرو بن العاص للاسكندرية في عام ٦٣٨م . فقد وردت إشارة في عهد البطريق إسحاق (٦٨٦ - ٦٨٨م) في بداية العهد الإسلامي في مصر ، تنبئ بوقوع حرب بين الحبشة وبلاد النوبة . فكتب بطريق الاسكندرية لملكي الحبشة والنوبة في الصلح بينهما وإطفاء نار الخصومة . ولازم ملوك الحبشة النصارى بعدئذ تلك الكنيسة حتى اعتقد بعضهم انه حامي حمى الأقباط في مصر ، وراح يضطهد المسلمين في الحبشة كلما وقعت مصر في يد حاكم ظالم يضطهد رعيته من نصارى ومسلمين (١٥) .

راح الأباطرة الرومان قبل الفتح الاسلامي لمصر يلاحقون أصحاب الطبيعة الواحدة . تولى بطرقة الدين في الإسكندرية قيرس ولكنه أخفق في إقناع المصريين بمذهب الطبيعتين فوطّد العزم على إكراههم على اعتناقه . وكان بنيامين ، كبير أساقفة القبط في مصر، من أنصار مذهب الطبيعة الواحدة التي تقول : "ان الطبيعة الالهية والبشرية امتزجتا في المسيح وصارتا فيه طبيعة واحدة، فكان عند التجسد ذا طبيعتين . اما بعده فصار ذا طبيعة واحدة ." ولم يجد بنيامين الا ان يفر من الاضطهاد فينجو بنفسه . أما أخوه فقد عذب كثيراً، وسلطت نار المشاعل على جسده "حتى سال دهنه من جانبيه على الارض" ولم يتزعزع ايمانه بمذهبه . خلعوا أسنانه ، ووضعوه في كيس مملوء بالرمل ، وهددوه بالغرق فلم يرعو ، فرموه في البحر ، ومات غرقا . أما الراهب الأباصمويل فقد وضعوه في الاصفاد ، وأمر المقوقس جنوده ان يضربوه حتى سال دمه كما يسيل الماء . ولاقي العامة من الاقباط من العذاب ألوانا حتى هرب الكثيرون من جراء هذا البطش ولاذوا ببلاد النوبة وبالحبشة، فرارا بمعتقداتهم (١٦) .

مكة تضطهد أوائل المسلمين :

أطلّ الإسلام على منطقة تصارعت في أرجائها المذاهب والمبادئ والأفكار والقوميات فعالج سادتها الصراع بالاضطهاد ، وبمزيد من الاضطهاد ، وإذا بدائرة الاضطهاد تتسع وتتشعب ، وإذا بأشكاله تتنوع وتستعصى على العلاج . نادى الاسلام صراحة بأن لا إكراه في الدين ، وأكد على حرية الاختيار، فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر . فالفرد – على امتداد العالم المأهول – مسؤول في ذاته عن ذاته ، مؤهل بعقله للتدبر ، مستحق – بما كرمه الإله – للحرية المطلقة في اختيار المفاهيم التي تنظم علاقته بالإله وبالخلق ، ولا تزر وازرة وزر أخرى .

قام الإسلام في مكة غريبا في أهلها على دعائم من مستضعفين فيها ثم على بعض سادة من قومها. دعا الرسول صلى الله عليه وسلم بالاحسان أهله وعشيرته الأقربين ، وامتدت الدعوة بعدئذ . وبدأ الاضطهاد ، داء جاهلية العالم قبل الاسلام ، يفعل فعله بالمسلمين . وفي الحقيقة فان الاضطهاد الذي لقيه المسلمون كان – على قسوته – اضطهاد عشيرة، ولم يكن اضطهاد جلادي حكومة منظمة . كاد الأب لابنه ، والعم لابن أخيه ، والأخ لأخيه ، وكادت الأم لابنها، كما كاد السيد لعبيده وإمائه . وهيأ الله لأوائل المسلمين الحماية بمبدأ جاهلي عربي لايسمح لعشيرة منها ان تضطهد أبناء عشيرة أخرى ، فالفرد في ذلك المذهب العربي الجاهلي يمثّل عزة القبيلة، ويحدث عن كرامتها، فتنصره ظالماً كان أم مظلوماً . لم يؤد الاضطهاد المكي الى قتل عربي واحد ، إنما كان اضطهادهم اضطهاد الضرب والمقاطعة وإحداث الأذى . وكم تغلبت عصبية القربى على الاضطهاد ليجد العربي المسلم حماية من بعض أقاربه المشركين ضد أذى الآخرين منهم . ونال رقيق مكة المسلم حظّه من الاضطهاد، ولكنه – في تقديرنا – كان اضطهاد لا يشابه ذلك الذي مارسه الرومان على الأحرار في أرضهم . فالرقيق في مجتمع مكة التجاري "مال" ولم يكن في تجار مكة من يسعى طواعية لاتلاف ماله . لاقى رقيق مكة الذين هداهم الله ، الى الاسلام مالاقوا من التعذيب الذي لايفضي إلى الموت . وما كان تجار مكة يخرصون أن المستضعفين من الرقيق يمكنهم ان

يغيروا ذلك المجتمع او يقيموا على الأرض هداية بآيات ربهم القوي الجبار . نقم المشركون من الرقيق المسلم روح المساواة بين بني البشر ، كما نقموا منهم الشرف الذي نالوه بإسلامهم فوق سادة قريش لسبقهم إلى الاسلام . وأحدث هذا الأمر إنقلاباً في ذلك المجتمع الذي يقوم الإحسان فيه للرقيق على ثقافة مادية بحته تتمثل في الفائدة التي يجنونها من جهد الرقيق في المجالات الحياتية المختلفة. كان تعذيب السادة المشركين للرقيق المستضعفين ينتهى ما أن يقّيض الله لهم من المسلمين من يشتريهم ، بل أن المشركين كانوا يساومون في الرقيق المسلم إن وجدوا في المسلمين من له القدرة على الشراء، ويظهر لنا هذا الأمر جليا في قصة "سيدنا الذي اعتق سيدنا" . قيل أن سيدنا أبا بكر اشترى سيدنا بلال بخمس أواق من الذهب ، وقيل سبع أواق ، وقيل بتسع أواق. وزعموا أن سيده أراد أن ينغّص الصفقة على الصديق بعد شرائه فقال له : لو أبيت إلا أوقية لبعناك. فقال له الصديق : لو أبيتم إلا مائة لاشتريته . (١٧) أما ما جاء في الطبقات من أن أبا جهل جعل يشتم السيدة سميه (رض) ويرفث ، ثم طعنها فقتلها ، فكانت اول شهيد في الاسلام فأمر له ما يبرره . كانت سميه (رض) جارية مسنة لاتستطيع القيام بأعمال الإماء ، ولم يكن سادتها يدركون ، بتفكيرهم المادي القاصر، ان هناك من يفتديها بالشراء لأن قيمتها الانسانية قد ارتفعت فوق أقدارهم . ولم يعد المشركون بعد قتل السيدة سميه لقتل أي رقيق مسن بعد أن أدركوا لاحقا أن أبا بكر كان ينفق ماله في شراء الرقيق الضعاف المهازيل ، ثم لا يغنون عنه في الدنيا أقل غناء . ولعل الإرادة الالهية التي سبقت في السيدة سمية تشير إلى ان الله أراد ان يكرم المستضعفين بسمية التى أصبحت أول شهيد في الاسلام ، وبدم الاحباش الذي كان أول دم يرهقه الباطل في محاولة منه للوقوف امام انتصار الحق . وفي الحقيقة لم يكن في المسلمين الأوائل مجموعة كبيرة من الأثرياء تستطيع أن تشتري رقيق مكة كله لتعتقه لوجه الله ، وقد كان دور أبي بكر الصديق في هذا المجال عظيما.

مقدمات الهجرة :

لم تكن الهجرة إلى الحبشة ، تحديدا ، عملا من أعمال الوحي ، إنما هي عمل اتخذه الرسول (ص) بعد تدبر وتدبير . إقتضى التدبير من الرسول إن يوجه هجرة أتباعه المسلمين

إلى الحبشة لأنها أرض المستضعفين من رجاله . أراد صلى الله عليه سلم أن ينتصر بها لأنها أرض عصبية للكثير من أتباعه الذين عرفتهم مكة ، حال وثنيتهم أو نصرانيتهم ، عسكراً أشداء ، وخفراً أقويا ، يقومون على حمايه مواطن المشتركين وأموالهم . فكيف بهؤلاء العسكر حين يسلمون ويعرفون طريق الجهاد ؟ واذا كان هذا هو دأب الرقيق من الأحباش في مكة ، فكيف بأحرار الحبشة حين ينهضون لحماية الاسلام والذود عنه ؟

عرف الرسول أن الأحباش "أنجدا أسخياء" كما ثبت في الحديث عنه. ولم يكن يوم الفيل ببعيد عن عهد الرسول صلى الله عليه وسلم . فقد أعد الأحباش العدة، وجيشوا الجيوش، ثم ساروا إلى مكة، وتخاذل العرب في يمنهم وحجازهم، وجانبوا تلك القوة الضاربة، وتحاشوا – كما تفيد كل كتب الأخبار والسير – لقاءهم . ولم يجرأ العرب على اتخاذ موقف يمنعون به مقدساتهم عن الحبش. وكادت تلك القوة أن تستعمر مكة لولا أن تداركها الله بقوّته ، فمنع بالطير الأبابيل – أيا كانت – بيته . فكيف بهؤلاء الجند الأحباش حين ينصاعون لأمر الله ، ويعلمون على نصرة دينه ، ثم كان الله بأسلحته وملائكته عونا لهم ؟ لم ينطلق الرسول من عصبية عرقية ، إنما من الدعوة إلى الله ، والانتصار لدينه ، بأية قوية عربية كانت أم أعجمية ، فالارض أرض الله . ويمكن لكل شعب أو قبيلة أن تنتصر لله فى أرضه ، وللحبش أن ينتصروا لله فى أرض العرب ، خاصة وهم أهل روابط متعددة بتلك الارض . م ٣ \

قضى التدبر أن تكون هجرة المسلمين للحبشة وذلك حتى يتمكن المهاجرون من الدعوة الي لله ، والانتصار بالأحباش للحق الذى قصر دون نصرته العرب من مشركي مكة . أراد الله للدعوة ان لاتقوم على العصبية العربية إنما على العصبية البشرية ، فينتصر الله للعرب المسلمين بالأحباش ضد العرب المشركين ، أراد الله ان يقيم دينه الذي نزل بلسان عربي على نبي عربي في ارض عربية بجهد الأكثرية غير العربية من المؤمنين . فكانت الهجرة للحبشة قبل أية أرض عربية . وحين تم للمسلمين شيء من الاستقرار وأرادوا الخروج من الحجاز لحمل رسالتهم الى العالم كان أسامة بن زيد ، مولى رسول الله ، أميراً على ذلك الجيش. وكان أسامه حدثا دون العشرين ، وفي الجيش نخبة من أجلاء الصحابة منهم عمر بن الخطاب . لم يكن اول خروج للهجرة خروجا الى ارض عربية ، كما لم يكن أول قائد

لجيش المسلمين الخارج من الحجاز قائداً عربياً صريحاً في النسب .

قضى التدبر من الرسول صلى الله عليه وسلم أن تكون الحبشة دار هجرة المسلمين ، فأرض الحبشة متجر لقريش منذ قرون ، يتجرون فيها ويجدون فيها رزقاً وأمناً ومتجراً حسناً . (١٨) ولم تكن الحبشة في الفكر القرشي إلا داراً يأمن الناس فيها على دمائهم وأموالهم فيذهبون إليها بالاموال ويعودون بها وقد ربت دون أن يسألهم سائل عن أديانهم ومعتقداتهم .

قضى التدبر أن يدفع الرسول بصحابته الى الحبشة للانتصار للاسلام . فالأرض من حوله شرقاً وغرباً ، شمالاً ، وجنوباً ، تنوء بثقل الإضطهاد وسوء الحكم . ما كان يمكن له ان يستعين بأهل الشام ومصر لنصرة الاسلام وهم الذين اثقلت كواهلهم وطأة الاضطهاد والتعصب المذهبي الذي مارسته قوة دولية على شعب أعزل . ولم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم ليدفع بصحابته المسلمين من إضطهاد عشيرة إلى إضطهاد دولة تتقن كل صنوف التعذيب . وبقيت تلك المناطق تصطلي بنار الاضطهاد حتى أصاب المسلمون قدراً من القوة قليل رموا به بعدئذ إلى تلك المناطق لتنتصر لأهلها المستضعفين ، فإذا بتلك الصروح الجوفاء التي اضطهدت الإنسان باسم كلمة الله تنهار ، ويهب المستضعفون فيها للانتصار لكلمة الله وينتظموا ، مسلمين وغير مسلمين ، تحت مظلة الدولة الإسلامية.

وما كان صلى الله عليه وسلم ليدفع بصحابته المستضعفين إلى شرقي الحجاز حيث قبائل نجد المتفرقة أشتاتاً والتي لم تجتمع في جاهليتها إلا على نزاع . وتقع شرقي نجد ، وراء البحر الخليج ، دولة المجوس التي يحكمها الشاهنشاه ، ملك الملوك ، الذي لايعرف للعرب فضلا ليجعل منهم الله من هو أهل لرسالته . يضاف إلى ذلك ان الروابط الحجازية الفارسية لم تكن في متانة الروابط الحجازية الحبشية ، فلم تكن هناك روابط حجازية فارسية مؤثرة . ولم يكن في روابط الدم والمصاهرة والتجارة ما يفضي إلى تفاهم أو انسجام بين العنصرين قبل أن يربط الله بينهما بوثاق الإسلام .

وما كان للرسول صلى الله عليه وسلم أن يدفع بصحابته الى أرض اليمن رغم الروابط الوثيقة غير المنفصمة بين الإقليمين الجغرافيين ، أو لنقل الوحدة التي لا تفل عراها . كانت اليمن منطقة صراع منقسمة على ذاتها تحت سلطة الفرس السياسية تتنازعتها اليهودية والنصرانية والوثنية وملل ونحل أخرى تحت دثار من حكامها الفرس المجوس .

لم يبق من موئل قريب يتحمل عبء تلك الفئة المسلمة إلا الحبشة التي كان المستضعفون من أبنائها يعانون في مكة دون ان يجدوا عصبية تحميهم . يضاف إلى ذلك أن بلاد الحبشة لم تكن تقر الاضطهاد الديني، فهي على مستوى النجاشى والصفوة التى تعاونه ، نصرانية على مذهب اليعاقبة الموحدين ، وهى على مستوى عامة الشعب تدين بالوثنية البدائية غير المؤسسة على فلسفة حكم كوثنية الرومان ، أو على فلسفة مادية نفعية كوثنية قريش. كانت وثنية الحبشة البدائية وثنية الفطرة الإنسانية في سعيها لمعرفة الإله . وكان هناك الأمل في أن تحقق الدعوة للاسلام ، دين الفطرة ، الهداية لأولئك الساعين بفطرتهم الى معرفة الاله. وكان هناك الامل في ان يحرك الاسلام، دين التوحيد، عقول الصفوة من الاحباش العارفين مبادئ التوحيد والذين كانوا اكثر طوائف النصارى مقدرة على فهم المنطق الديني للمسلمين . ولعل في الحوادث التي وقعت بعد الهجرة ما يدل على ان تلك الأمال إنما قامت على تخطيط سليم .

كان في الأرض الحبشية وجود يهودي محدود ترده الأساطير الى عهد بلقيس ولكنه – في الحقيقة – لا يصل إلى ذلك الزمن البعيد، والأوفق عندنا انه بدأ في عهد الملك الكلدي نبوخذ نصّر الذي شتت اليهود في عام ٥٨٧م . ولما كانت اليهودية منغلقة على نفسها ، قائمة على العنصر ، لا تعمل لدعوة ولا تبشير ، فقد تقوقع مجتمعها الحبشي على ذاته وانقطع عن العالم الخارجي ، وقويت فيه المؤثرات الوثنية . ولم يكن الوجود اليهودي في الحبشة مؤثرا فقد قنع بممارسة حياته في منطقة سمين ذات الطبيعة الجبلية القاسية . لم تكن هذه الجالية اليهودية مؤثرة في بلاط النجاشي ولا في المجتمع الحبشي حولها لتمنع لجوء المسلمين أو تعمل على منازعتهم .

لا نملك من الإحصاءات او الشواهد ما يمكننا من الحكم على دخول الوثنيين الأحباش في الدعوة التي تولي أمرها المهاجرون إلى الحبشة . ولكننا نضيف بأن كل وجود مسلم – مهما كان حجمه – في أي مجتمع غير مسلم ، – مهما كانت ثقافته – لم يمض بلا تأثير. وتلك نظرية لا تنطبق على بلاد الحبشة فحسب ، أو على الزمن الذي نعالجه فحسب ، إنما هي قاعدة تعمل في كل عصر ومصر حتى اليوم. وعلى ذلك نقول أن بعض الوثنيين من

الأحباش في المنطقة التي هاجر اليها المسلمون قد دخلوا إلى رحاب الاسلام . أما النجاشي ورجال كنيسته فلم يكن فهمهم للدين ببعيد عما كان يعتقده المسلمون في المسائل التي جرت مناقشتها . ففي المناظرة التي جرت بين بعثة قريش إلى بلاط النجاشي لملاحقة المهاجرين وبين اولئك المهاجرين من المسلمين ما يؤكد صحة ماذهبنا إليه. فحين قرئت على النجاشي سورة مريم شهد بأن هذا وما جاء به المسيح يخرج من مشكاة واحدة ! وحين طلب وفد المشركين من النجاشي ان يمتحن المهاجرين في شأن عيسى عليه السلام والذي زعم الوفد القرشي انهم يقولون فيه انه عبد، اجاب جعفر بن ابي طالب الذي ناظر عن المسلمين : نقول فيه الذي جاء له نبينا ، هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها الى مريم العذراء البتول. فضرب النجاشي بيده الى الارض فأخذ منها قشه وقال : ولله ما عدا عيسى بن مريم مما قلت هذا العود. وطلب الى جعفر وصحابته أن ينصرفوا آمنين.(١٩) لم تكن فكرة التوحيد بعيدة عن فهم النجاشي اليعقوبي المذهب ، والتوحيد ، بعد ، هو الذي اخرج أوائل الموحدين من ديارهم إلى الحبشة .

لم تكن الحبشة على علاقة طيبة بالدولة الرومانية في الغرب التي راحت تمارس اضطهادها على الشعوب المستضعفة، وكان النجاشي على المذهب اليعقوبي المعارض للكاثوليكية الرومانية. وشهد بلاط النجاشي قبل هجرة المسلمين لاجئين من شمال الوادي أخرجهم إليه الاضطهاد المذهبي الذي مارسته عليهم السلطات الرومانية في مصر . وقد ادى وجود هؤلاء اللاجئين الى ان تكون ظاهرة اللجوء الديني إلى بلاط النجاشي ظاهرة مقبولة. وبذلك أصبحت الحبشة ملاذا للمضطهدين في مصر والشام والحجاز واليمن .

لم تكن مصر القبطية اليعقوبية بعيدة عن اللغة العربية في زمن البعثة المحمدية خاصة في أوساط الصفوة من القساوسة الأقباط الذين كانت كنيستهم أمًا للكنيسة الحبشية. ولم تكن اللغة العربية بعيدة عن بلاط النجاشي الذي ترده البعوث الدينية والتجارية والسياسية من مصر والشام والحجاز واليمن. وكانت كل تلك البعوث تتحدث العربية مع اختلاف في الدرجة. فاذا أُضيف إلى كل هذا الوجود التاريخي للثقافة العربية في الحبشة لأدركنا أن عدداً غير قليل من الاحباش الصفوة كانوا يعرفون العربية . وفي ظننا انهم كانوا يتحدثون الى العرب

بالعربية المختلطة بألفاظ من لغتهم . فقد ورد في الأمان الذي أعطاه النجاشي للمهاجرين المسلمين : أذهبوا وأنتم شيوم ، أي آمنون بالحبشية. ولعل في هذا الخلط ما يؤكد تزاوج الثقافات الذي تم من خلال الروابط المشتركة . لا نستبعد ان النجاشي نفسه كان عربي اللسان إذا صحّ الخبر الوارد عنه انه كان من رقيق بني ضمرة . (٢٠) وفي اعتقادنا ان هذه الرواية - على مافيها من قصور يضعها موضع الأساطير - غير مستبعدة الحدوث في التاريخ القديم والوسيط ، ولنا في قصة يوسف بن يعقوب (عم) وغيرها ما يجعلنا نعتقد إن المشاكل في بعض الأسر الكبيرة قد تفضي ببعض افرادها الى الرق، وقد عرف عن ملوك الحبشة في هذا الوقت خشيتهم من منافسة اخوانهم لهم على العرش ومحاولة ابعادهم عن هذا المجال بايداعهم السجن او ربما قتلوهم احيانا .

بعثة عثمان بن عفان الى الحبشة :

قضت حكمة الرسول صلى الله عليه وسلم أن تكون الحبشة وجهة أوائل المسلمين . فالإرث الحضارى والثقافى والإقتصادى الذى ربط بين ساحلي البحر الأحمر قديم متصل ، والفكر الدينى اليعقوبى الذى يدين به النجاشى لا يرفض فكرة التوحيد التى يقوم عليها الإسلام . كما سارت الركبان بأخبار أصبحه (أرمحه) نجاشيها الملك العادل الذى لا يظلم عنده أحد . لم تغادر بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم التي رأسها عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى الحبشة الا بعد ان استوثق الرسول صلى الله عليه وسلم من ان بذرة الاسلام قد نبتت في تلك البلاد ، وتولاها بعض أهلها بالرعاية ، ودان بالاسلام بعض وجوه المجتمع من اصحاب الوجاهة والمال في الحبشة . عن ابن اسحاق قال : قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرون رجلا من الحبشة وهو بمكة حيث ظهر خبره فكلموه وساءلوه، ودعاهم الى الله، وتلا عليهم القرآن ، فلما سمعوا فاضت أعينهم من الدمع وصدقوا. فلما قاموا من عنده عرض لهم أبو جهل في نفر من قريش فقالوا : خيبكم الله من ركب ، بعثكم من ورائكم من أهل دينكم ترتادون لهم فتأتونهم بخبر الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتوه . ما نعلم ركبا أحمق منكم ، فقالوا : سلام عليكم بجاهلكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم . (٢١)

تختلف المصادر التي أوردت خبر هجرة المسلمين إلي الحبشة اختلافاً بيّناً في عدد الهجرات التي خرجت الى الحبشة . فقيل هجرة واحدة ، وقيل اثنتان ، وقيل ثلاث . والثابت ان عثمان بن عفان كان على رأس "الهجرة" الأولى التي لم تكن في تقديرنا هجرة إنما كانت بعثة أرسلها الرسول صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي للتباحث والنظر في أمر تحالف مع القوة الحبشية الحاكمة في أكسوم . وفي اعتقادنا ان لفظ "الهجرة" ينطبق على المسلمين الذين جاءوا إلى الحبشة في ركاب عثمان حين وفدها للمرة الثانية . اما "الهجرة" الثالثة التي خرجت من اليمن فتتفق أغلب المصادر على انها لم تكن "هجرة" . كان الأشعريون في طريقهم من اليمن الى الحجاز والجأهم البحر الى الساحل الحبشي ، ووجدوا هناك المهاجرين فمكثوا معهم يمارسون مهام الدعوة . لم تكن وجهة الهجرة التي قام بها الأشاعرة الحبشة ، إنما كانت الى مدينة الرسول ، ولكنهم بقوا في الحبشة الى حين .

قضى التدبر من الرسول صلى الله عليه وسلم بان يدفع اصحابه المستضعفين الى الحبشة ، وقضي التدبير منه الا يرسلهم إلا بعد ان استوثق من انهم سيجدون القبول هناك . نعرف من أخبار هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى يثرب ، الوثيقة الصلة القريبة المسافة من مكة، انه صلى الله عليه وسلم كان حريصا على ترتيب الامر قبل تنفيذه. كان الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو الى دين الله في المواسم ، فآمن به ستة من خزرج يثرب منهم أسعد بن زرارة وعبادة بن الصامت، فلما عادوا الى مدينتهم فشا ذكر الإسلام فيها . ولعل هذه البداية لامر هجرة يثرب تتفق مع بداية هجرة الحبشة النى سبقتها وذلك بلقاء بعض الحبش مع الرسول صلى الله عليه وسلم في مكة الذي أشرنا اليه . ولم يهاجر الرسول واصحابه الى يثرب إلا بعد بيعة العقبة الأولى التي حضرها نفر من الأوس الى جانب الخزرج ، ثم الثانية التى ازداد فيها عدد الانصار حتى فاق السبعين رجلا. ولم يخرج الرسول صلى الله عليه وسلم مهاجراً إلا بعد تعهد له الأنصار بأن يحاربوا الأسود والأحمر دفاعاً عن الحق ، وأن يحموا الرسول (ص) مما يحمون منه ازرهم . كان هذا تخطيط القائد الذي اراد ان يهاجر باتباعه من منطقة عربية الى منطقة عربية أخرى قريبة الشقة ، فلا يعقل ان يكون تخطيط ذلك القائد لهجرة أصحابه إلى الحبشة أقل إحكاماً ، وهو الحريص على

المؤمنين ، المدرك انه لو هلكت تلك الكوكبة فلن يعبد الله في الارض أبدا. ولهذا نقرر بان عثمان وصحبه رضي الله عنهم لم يخرجوا مهاجرين ، انما بعثهم الرسول صلى الله عليه وسلم في بعثة الى بلاط النجاشي عادوا منها سراعا بعد ان اصابوا في مهمتهم نجاحاً بارزاً.

ضمّ وفد البعثة عثمان بن عفان الذي لم ترد أية اخبار تفيد بانه لاقى تعذيبا أو اضطهاد في مكة. كان عثمان صاحب عصبية عشائرية وعصبية مالية في مجتمع مكة الوثني التجاري الذي لم يكن ليخرج على عصبية العشيرة أو يفتئت على عصبية المال. جمع عثمان بين العصبيين المؤتلتين . فهو - لأسلافه من أبيه - عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف . أما أسلافه من أمه فهو ابن أروي بنت كريز بنت ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف . كما كانت جدته لأمه هي أم حكيم بنت عبد المطلب القرشي الأموي . ولايجرؤ من أهل مكة مجترىء على وارث العصبية الجاهلية كابرعن كابر ، ولن يخطر على بال أحد انه خرج مهاجرا خشية الأذي ، او خوف الاضطهاد . كان عثمان (رض) فطنا شجاعا لبقا فقيها ، ولهذا اعتمد عليه الرسول وأرسله في أول سفارة له إلى ملوك الأرض ورؤسائها . وكانت هذه المؤهلات هي التي أهلته ليفاوض عن المسلمين في صلح الحديبية بعدئذ . وخرجت مع عثمان زوجته رقية بنت محمد صلى الله عليه وسلم . وما كان في مشركي مكة من تراوده نفسه على اضطهاد الحرائر القرشيات ، من أي بيت كانوا ، ففي ذلك عار وأيّ عار . ولعل في خروج السيدة رقية ما يشير إلى ان مهمة البعثة كانت مخاطبة الأحباش رجالا ونساء . ومن عجب ان الأمّة الوحيدة التي خرجت في هذه السفارة كانت الصحابية الحبشية بركة بنت يسار ، أم الرسول بعد أمه . ولم تكن تلك السيدة تخشى من أهل مكة اضطهاداً أو تعذيباً ، فالمشركون يعذبون رقيقهم ولا يجترئون على رقيق الغير . ويبو ان بركة قد خرجت مع رقية وزوجها لتعاونهما في القيام بأمر الدعوة ، ولربما كانت أبلغ من السيدة رقية في هذا المضمار بما يؤهلها به لسانها الحبشي ، وربما كان لها دورها في ترجمة لغة بعض سيدات قصر النجاشي اللائي لا يحسن العربية لرقية ، سيدة الداعيات . بل ربما امتد ذلك الدور الاتصالي إلى شرح بعض عادات قومها الأحباش لقومها من الدعاة

المسلمين . وحين نتجاوز هذا الثلاثي الكريم المبرأ من الاضطهاد في مكة يطالعنا اسم الزبير بن العوام الذي ينتهي نسبه لأبيه الى قصي بن مرة بن كعب بن لؤي القرشي، أما أمّه فهي صفية بنت عبد المطلب ، عمة الرسول . ومن المؤكد ان الزبير (رض) خرج في سفارة ولم يخرج الى هجرة . كان الرجل حصيفاً فقيهاً قال عنه صلى الله عليه وسلم : إن لكل نبي حوارى ، وحوارىّ الزبير بن العوام . وكان الرجل شجاعاً غير هياب . سمع الزبير قبل ان يذهب في هذه السفارة الى الحبشة ، ان المشركين قد أخذوا النبي صلى الله عليه وسلم فخرج في إثره ممتشقاً حسامه على الملا حتى لاقاه صلى الله عليه وسلم بأعلى مكة فسأله مالك يا زبير ؟ فاجاب : سمعت انك قد اخذت . فدعا النبي صلى الله عليه وسلم له ولسيفه . (٢٢) ولهذا نعتقد ان الزبير لم يخرج من مكة مستضعفاً وجلاً ، وهو القوي بعشيرته وبسيفه إنما خرج في مهمة ضمن وفد عثمان. وضم هذا الوفد أيضا مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد الدار بن قصي بن كلاب وهو - بنسبه هذا - في اعراف العصبية الجاهلية ، فوق كل اضطهاد إلا اضطهاد أسرته الذي حرمه بعض متاع الدنيا .، كان مصعب فقيهاً شجاعاً فدائياً زاهداً لا يقيم للدنيا وزناً . حضر مصعب بعد عودته من هذه السفارة بيعة العقبة الأولى ، وبعثه الرسول صلى الله عليه وسلم في سفارة أخرى إلى يثرب مع المبايعين لكي يفقه أهل المدينة في الدين ويقرئهم القرآن. فكان رضي الله عنه ، أول داعية للاسلام في يثرب ، كما كان من أوائل الدعاة إليه في الحبشة . نزل مصعب في يثرب مع أسعد بن زراره ، واكتسب في يثرب لقب المقرئ ، كما كان أول من جمع الجمع في تلك المدينة . ولهذا نقرر أنّ مصعب لم يخرج الى الحبشة مهاجرا إنما خرج إليها داعياً .

كان عبد الله بن مسعود ، أحد أوائل ائمة المسلمين ، ضمن أعضاء هذه السفارة الى الحبشة . ونستطيع ان نجد للرجل عذراً في الهجرة حين ننظر إليه بعين العصبية الجاهلية ، ولكن حين ننظر له بمنظار سيرته قبل قيام هذه السفارة ، نجده من رجال المهمات الصعبة الذين نذروا أنفسهم للفداء لينتصر الحق بهم . كان الرجل فقيها جعل نشر القرآن غاية همه وأول مهامه ، كان شجاعا غير وجل ولا هياب ، لا يصده عذاب عن القيام بامر الدعوة . اجتمع اصحاب الرسول صلي الله عليه وسلم يوما وقالوا : ولله ما سمعت قريش هذا القرآن

يجهر به قط ، فهل من رجل يسمعهم ؟ قال ابن مسعود : انا . قالوا : اننا نخشاهم عليك إنما نريد رجلا ذا عشيرة تمنعه من القوم إذا اريد به شرا ، قال : ان الله سيمنعني . فغدا الى مقام ابراهيم وأخذ يتلو بصوت جهوري ، فضربه الكفار على وجهه فلم يعبأ بهم واستمر على تلاوته . وحين رجع الى اصحابه قالوا : هذا ماكنا نخشاه ، فقال : والله ما كان أعداء الله أهون علي منهم الآن، ولئن شئتم غاديتهم بمثلها . (٢٣)

إختار الرسول أولئك النفر الكريم بقيادة عثمان ليذهبوا الى النجاشي يفاوضونه في أمر هجرة المستضعفين من المسلمين إلى الحبشة ، ويدعونه وشعبه للاسلام . ولم يزد هذا الوفد عن أحد عشر رجلا ، وقيل إثني عشر ، وقيل خمسة عشر . وورد انه كان فيهم خمس نساء ، ولم يضم الوفد أطفالاً ولا مستضعفين . كان خروج الوفد من مكة في رجب من السنة الخامسة للبعثة . ويروي ان قريش تنكبت أثرهم ولاحقتهم في اتجاه البحر . ولم تلحق بهم إذ أبحر الوفد على سفينة لبعض تجار الحبشة لقاء نصف دينار . (٢٤) وربما يدلنا هذا المبلغ الزهيد ان المسافة التي قطعوها بين الساحلين لم تكن كبيرة .

إستقبلت افريقيا بعثة الرسول لتكون الحبشة التي وصفها الرسول بانها أرض صدق ، أول أرض انبثق من خلالها شعاع الاسلام الى القارة التي ظلت تنتظر الهداية . وبقيت الحبشة - في خاطر كل مسلم - أرض الصدق ، فالرسول لا ينطق عن الهوى . فهي الأرض التي أوت ونصرت وحفظت بيضة الإسلام لتفرخ في العالم وحدانية كرمت الإنسان و رفعته من مصاف عبادة الأوثان وعبادة الإنسان إلى عبادة الله الواحد الرحمن .

اجتمعت تلك البعثة مع النجاشي وأبلغته رسالة ربه ودعته للأخذ برسالة التوحيد . وفاوضت البعثة كذلك في أمر هجرة المستضعفين من المسلمين الذين أصبحوا من أئمة الاسلام وأعلام الصحابة في الحجاز . بل ربما دعت تلك السفارة الى قيام عقد تحالف بين الدعوة والنجاشي ضد كفار قريش وسدنة أوثانها ، خاصة بعد ان ضمت مكة العديد من الرقيق الحبشي المستضعف بعد إسلامه، ولربما كان من الأيسر على النجاشي أن يصيخ لدعوة الانتصار لقومه الاحباش قبل أن يتفهم دعوة الإسلام ، ويبدو ان تلك السفارة قد حققت الكثير مما كانت تهدف اليه .

رجعت السفارة إلى مكة وهي تحمل موافقة النجاشي على هجرة المسلمين إلى أرضه ، ولربما وجدت منه قبولا لفكرة التحالف التي نعتقد انها كانت من مهام ذلك الوفد . وقد وافق رجوع هذه السفارة الفترة التي انتهت فيها مفاوضات الرسول صلى الله عليه وسلم مع كفار قريش، وقد كاد يركن اليهم شيئا قليلا . ولهذا نجد ان بعض الإخباريين والرواة وكتاب السيَر ومن لف لفهم من المؤرخين يقول بأن المهاجرين قد عادوا من الحبشة مسرعين حين بلغهم خبر المصالحة بين الرسول والمشركين ، فانتفت الحوجة إلى الهجرة واللجؤ . ونعتقد أن هذا قول مردود مغلوط نقله البعض عمن سبقه بحسن نية قائمة على الجهل ، وروّج له اخرون من المحدثين خاصة بنية سئية مبيتة فالراجح عندنا أن تلك البعثة لم تكن هجرة إنما سفارة كان عليها ان تعود لتبلغ بنتائج مباحثاتها ، فاذا تزامن رجوع السفارة مع وقوع حدث بعينه فلا يعني ذلك وجود أي ترابط بين الحدثين أو ارتباط . كما ان الثابت تاريخيا ان ذلك التصالح الذي سعى اليه الرسول صلى الله عليه وسلم مع كفار قريش لم يثبت الا للحظات او بعض من نهار ثم نقضته السماء ، وامتثل الرسول لأمر ربه "اذا لاذقناك ضعف الحياة وضعف الممات". ومن المؤكد ان ذلك الخبر ما كان له ان يبلغ الحبشة إلا منفيا لانه لم يثبت لفترة زمنية تكفي لحمله الى الحبشة ولرجوع المسلمين من هناك الى الحجاز دون ان يبلغهم خبر نقضه، ونعتقد ان نقل هذا الخبر والترويج له كان نتيجة لجهل بعض السابقين ، وسفاهة بعض المتاخرين من الإخباريين والمؤرخين والرواه.

الهجرة من الحجاز الى الحبشة :

عادت سفارة عثمان (رض) الى مكة بعد ان حققت مع الأحباش انجازا كبيرا تمثل في قبول النجاشي استضافة المهاجرين الى أرضه من المسلمين، وفي التعاون المشترك ضد الطغيان الديني الذي كانت تمثله الدولة الرومانية والوثنية المكّية. ولا نستبعد ان يكون لاقباط مصر الذين كانوا في بلاط النجاشي دور في الوصول الى هذا الاتفاق. مكنت الروابط الدينية الوثيقة بين مصر والحبشة، واتحاد المذهب بين الاقباط والأحباش، ان يكون الموقف بين الملك ومستشاريه الدينيين من المصريين موقفا موحدا في التحالف مع الموحدين ضد عباد الأوثان من العرب . كما أدت هجرة العديد من الاقباط الى أرض النجاشي الى تخفيف غلواء

الشعور بالاقليمية في ذلك البلاط، وكسر حدّتها، وتأكيد الشعور بأن المصالح المشتركة يمكن ان تحل مكان العصبية القبلية والعرقية عموما ، وتخدم اهداف الدولة بأكثر مما يخدمها التعصب لجنس أو للون . وربما ظهر لنا بعدئذ أثر التحالف الذي أقامه عثمان (رض) مع النجاشي واضحا في الخبر الذي اخرجه الطبراني في الأوسط عن ابن عباس من أن اربعين من أصحاب النجاشي قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم وشهدوا معه أحدا . وكانت فيهم جراحات كبيرة وان لم يقتل منهم أحد. رأى اولئك الاحباش ما نزل بالمسلمين من الحاجة فقالوا : يا رسول الله انا اهل ميسرة فاذن لنا نجئ بأموالنا نواسي بها المسلمين. فانزل الله فيهم : (الذين اتيناهم الكتاب من قبله هم يؤمنون) الآية ، الى قوله : (اولئك يؤتون اجرهم مرتين بما صبروا) فجعل لهم اجرين . (ويدراون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون) : قال تلك النفقة التي واسوا بها المسلمين . فلما نزلت هذه الآية قال الرهط الحبشي : يامعشر المسلمين اما من آمن منا بكتابكم فله آجران، ومن لم يؤمن بكتابكم فله اجر كأجوركم. فانزل الله : (يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم) الآية . فزادهم النور والمغفره . (٢٥)

المهاجرون الاوائل :

امر الرسول جماعة من أتباعه بالخروج الى أرض الحبشة حتى يجعل الله لهم مخرجا مما هم فيه، فالحبشة ، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم ، أرض صدق وبها ملك لا يظلم عنده أحد.(٢٦) وخرج من المسلمين رهط يزيد عن الثمانين يريد الحبشة، كان منهم من خرج فرارا بدينه، ومنهم من خرج داعية إلى دينه، ومنهم من خرج قائدا أو منظما لأمور الجماعة. وحين نستعرض أصول هذه الجماعة وانتماءاتهم القبلية نجد فيهم شريحة كبيرة من المستضعفين ، وهم – على ما نعتقد – الذين كانوا لا ينتمون الى بيوتات قريش الشهيرة أو من حلفائهم . كان هؤلاء النفر المستضعفين الذين فروا بدينهم من مجتمع مكة الجاهلي المشرك يمثلون نحو ربع المجموعة عددا. ويلي هؤلاء الرجال آخرون كانوا من أوساط بيوتات مكة، وتقل أعداد المهاجرين ما ازدادت بيوتاتهم شرفا، فنجد السهمي أكثر عددا من المخزومي أو الجمحي، يليهم العبدري، فالفهري، فالأسدي . وهنا يجدر بنا أن نلاحظ ان

للبيت الأخير صلات غير منفصمة مع النصارى والحنفاء، كما نلاحظ أيضا انه كان في المهاجرين من البيوتات المذكورة آنفا عدد من الذين ينحدرون من أمهات من ذوي الاصول الحبشية أو من المتزوجين من حبشيات . أما بيوت مكة من عامري وعدوي وزهري فنسبة مهاجريها تكاد تكون متساوية يلي ذلك الأموي فاليتمي ، ولا نكاد نجد إلا واحداً أو اثنين من العبشمي او الهاشمي . ولربما نستطيع ان نعلل زيادة نسبة المهاجرين من الأمويين عن نسبة العبشميين أو الهاشميين إلى اتساع دائرة أسفار الأمويين في جاهليتهم ، وعملهم في التجارة ، وخبرتهم بالدروب وأهلها . كانت هجرة أفراد البيوتات الكبيرة هجرة دعوة ، وكانوا السفراء لدى النجاشي وكانوا الأمراء لتنظيم امور الجماعة المسلمة .

نخلص الى ان الهجرة لم تكن فراراً الى الله من اضطهاد المشركين للمسلمين فقط إنما شملت ذوي النسب والحسب الذين لم يكن اضطهادهم في مجتمع مكة الجاهلي بالغا بشكل يفضي بهم إلى الفرار. قاد هذه الهجرة السفير عثمان بن عفان (رض) ثم عاد بعد ان استوثق من طيب إقامة الصحابة ، وترك قيادة الجماعة لجعفر بن أبي طالب . وكان من جملة صحابة الأخير الزبير بن العوام ، إبن صفية عمة الرسول صلى الله عليه وسلم وابن اخي خديجة بنت خويلد (رض) . ومنهم أيضاً الأسود بن نوفل ، إبن أخي أم المؤمنين خديجة بنت خويلد ، وابن عم ورقة ابن نوفل . ومنهم خالد بن سعيد بن العاص ابن اميه، وكان أبوه في ذروة سنام العز في مكة وفي قمة المنعه . وضمت تلك الطائفة الكريمة خنيس بن حذافة الذي كان متزوجاً من حفصة بنت عمر بن الخطاب ، وهي التي اصبحت من أمهات المؤمنين بعدئذ. شهد هذا الصحابي غزوتي بدر واحد واصابته في المعركة الأخيرة جراحات مات بسببها فتزوج الرسول من ارملته وفاء لذكراه ، واكراماً لصاحبه عمر بن الخطاب . كما ضمت هذه الطائفة مجموعة من أهل الرأي والعزم والثبات منهم سليط بن عمرو الذي كان أحد أعضاء سفارة عثمان بن عفان الى النجاشي . وحين هاجر المسلمون إلى الحبشة خرج معهم سليط ، ربما لاستكمال مهام السفارة السابقة . وقد اختار الرسول صلى الله عليه وسلم سليطا هذا بعدئذ لرجحان عقله وقوة دبلوماسيته ، ليحمل الدعوة الى هوذه بن علي الحنفي، وثمامة بن أثال الحنفي ، رئيسي اليمامة وذلك في العام السادس أو السابع من الهجرة. كما اختار

الرسول صلى الله عليه وسلم عبدالله بن خذافة ، أخاخنيس، وهو من الدعاة المهاجرين إلى الحبشة ، ليحمل كتابه صلى الله عليه وسلم إلى كسرى ويدعوه للاسلام . وقد ضم رتل المهاجرين الأوائل الى الحبشة كثيرا من الرجال الذين نصروا الله فانتصر لهم، فمنهم عامر بن عبدالله بن الجراح الذي قال الرسول عنه انه أمين هذه الأمة ، وهو من العشرة المبشرين بالجنة . ومنهم أيضا الداعية عبدالله بن مسعود وهو الذي ذهب أولا ضمن سفارة عثمان ثم انضم لرتل المهاجرين ، وابن مسعود هو الذي وصفه عمر بن الخطاب بأنه وعاء ملئ علما. ومنهم أيضا السكران بن عمرو وهو الذي خلفه الرسول صلى الله عليه وسلم على زوجته سوده بنت زمعة . ومن المهاجرين سلمة بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم ، أخو أبو جهل، وابن عم خالد بن الوليد . ومنهم أيضا عروة بن أثاثة ، أخو عمرو بن العاص لأمه الحبشية الأصل النابغة بنت حرملة. ومنهم كذلك عبدالله بن عبد الأسد المكنى بأبي سلمة ابن عمة الرسول ، فأمه برة بنت عبد المطلب ، وهو اخوه من الرضاعة كذلك ، فقد ارضعته ثويبة الحبشية مولاة أبي لهب ، وهي التي أرضعت حمزة ، ثم الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم عبد الله بن عبد الأسد ، وهو من المهاجرين الى الحبشة الذين شهدوا بدرا أيضا . وكانت زوجته هند بنت حذيفة (ام سلمة) قد هاجرت معه الى الحبشة ثم اصبحت بعد وفاة زوجها من امهات المؤمنين . وكانت زينب بنت جحش بنت رباب أيضا من مهاجرات الحبشة، خرجت في صحبة أخويها عبد الله وعبيد الله ، وكانت إحدى فتاتين بكرتين ضمتهما هذه الهجرة ، وأما الأخرى فكانت آمنة بنت قيس . وتزوج الرسول من زينب فيما بعد بامر سماوي . كما تزوج الرسول أيضا برملة بنت ابي سفيان بن صخر المكناة أم حبيبة ، وقد كانت إحدى مهاجرات الحبشة مع زوجها عبيد الله بن جحش الذي تنصر في الحبشة ومات على النصرانية . ولعلنا نلاحظ ان اغلب زوجات الرسول الكريم كن من مهاجرات الحبشة الداعيات الى الله من اللائي ضحين بالأهل والعشيرة ودفء الأسرة في مكة ، وخرجن لنصرة الإسلام والتثبيت له في أرض الله الواسعة . وحين توفى عنهن أزواجهن أو استشهدوا فيما بعد ، لم يبق لهؤلاء المجاهدات اللائى كان أكثرهن من المتقدمات في السن ، سوى إمام المسلمين يكافئ كفاحهن بالانتساب اليه ليصبحن - بنص الكتاب

الكريم - أمهات المسلمين .

المهاجرون من اليمن :

لم يكن هدف الهجرات التي ذكرها أهل السير فرارا بالدين فقط ، إنما كانت فرارا إليه أيضا . سعت الهجرات الى التمكين للدين واقامة مجتمع مسلم متآلف بعيدا عن التنظيمات الاجتماعية ، والروابط القديمة التي كان يصعب تنظيمها من جديد لتواكب حركة المجتمع المسلم وتتناسق معه . كانت الهجرة فرارا من المثل والعادات والقيم الجاهلية إلى مناطق ينتظم فيها المجتمع المسلم الجديد بعيدا عن القبيلة والتأثير العرقي والنفعي . وحين قام المجتمع المسلم اصبح قدوة سعى إليها الاخرون وانتظموا فيها ، فانتشرت الدعوة الى الله من وسط ذلك المجتمع الجديد وتشعبت، ودخل الناس في دين الله أفواجا . وربما كان هذا واضحا تماما في هجرة الصحابة من أهل اليمن الذين غادروا مجتمعاتهم دون أن يلحق بهم أذى فرارا إلي المجتمع الإسلامي الجديد في أرض الحجاز . قدم عبدالله بن قيس إلى مكة من اليمن وانصرف الي قومه بعد أن أسلم . ولما علم بهجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ركب مع نيف وخمسين رجلا من أهله الأشعريين يريد مدينة الرسول فألقتهم الريح إلى أرض الحبشة فبقوا مع المهاجرين حتى قدموا إلى المدينة سنة ثمان للهجرة ، وقابلوا النبي صلى الله عليه وسلم عند خيبر . ويروي عن أبي بردة عن أبي موسى انه قال : بلغنا مخرج الرسول صلى الله عليه وسلم ونحن باليمن فخرجنا مهاجرين انا واخوان لي كنت أصغرهما ، أحدهما أبو بردة والآخر أبورهم ، في بضع وخمسين رجلا من قومي . فركبنا سفينة فألقتنا الى أرض الحبش فوافقنا جعفر بن أبي طالب وأصحابه . فقال لنا جعفر إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعثنا ههنا ، وأمرنا بالإقامة فاقيموا معنا . فاقمنا معه حتى قدمنا جميعا ، أي سنة ثمان من الهجرة، فوافقنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين افتتح خيبر ، فأسهم لنا منها ، وما أسهم لأحد غاب عنها شيئا الا اصحاب سفينتنا مع جعفر واصحابه . (٢٧) فإذا كانت الهجرة فرارا بالدين فقط فلماذا بقى مهاجرة الحبشة هناك بعد ان أصبح لهم دار هجرة في يثرب من بلاد الحجاز ، ولماذا يطلب جعفر من عبدالله بن قيس (أبي موسى الأشعري) وهو المهاجر بأهله فرارا الى الدين ، ان يبقى بالحبشة مؤيدا ومؤازرا ؟

وهنا يجدر بنا ان نلاحظ عدة أمور أهمها ان هذه الهجرة التي قام بها الأشعريون الذين كانوا من حلفاء الأحباش فترة احتلالهم لليمن ، لم تكن نتيجة لاضطهاد قومهم لهم ، ولم تكن فرارا بالدين إنما فراراً إلى الدين ، أو إلى المجتمع الاسلامي الذي أقامه الرسول بيثرب . كما نلاحظ أيضا ان الموقع الذي هاجر منه الأشعريون هو منطقة ظفار - مخا - في جنوب اليمن ، وان المنطقة بين المخا ودهلك من البحر الاحمر منطقة لا يضلّ الملاح سبلها لوجود الجزر، لتبين لنا ان المنطقة التي هاجر اليها المسلمون في الحبشة تقع إلى الشمال من مصوع . ونلاحظ أيضا ان جعفر طلب الى الأشعريين البقاء معه رغم انتفاء سبب بقائه واصحابه ان كانت الهجرة فرارا بالدين . قامت للمسلمين دولة في المدينة المنورة ، وكان يمكن للمهاجرين الى الحبشة الرجوع الى المدينة ، إلا ان الرسول صلى الله عليه وسلم طلب اليهم البقاء فى الحبشة رغم ذلك ، مما يجعنا نثق انه كانت لهذا الوفد مهام دعوة فأراد جعفر ان يستعين على ذلك بالاشعريين ، ومهام سفارة كذلك يزيد الأشعريون بارتباطاتهم السابقة ببلاط الحبشة من أثرها وتأثيرها.

هجرة ابي بكر :

كان جملة من هاجر من الصحابة نيفا وثمانين سوى الصغار ، وقيل ثلاثة وثمانون رجلا إن كان فيهم عمار بن ياسر الذي شكّك البعض في خبر هجرته. أما النساء فثمان عشرة إمرأة، منهن سبع غرائب، وإحدى عشر قرشية . وفي اعتقادنا أن أعداد الصحابة الذين هاجروا إلى الحبشة قبل الهجرة إلى يثرب قد شهدت أزديادا قليلا عن الأعداد المذكورة . فالرسول صلى الله عليه وسلم شجع على الهجرة ، وكان على الراغبين فيها من الذين تخلفوا عن ذلك الفوج الرئيسي أن يلحقوا به اذا عنّ لهم امر يدعوهم اليها. ويؤكد قولنا ما روي عن هجرة إبي بكر الصديق (رض) بعد هجرة الفوج الرئيسي . قيل انه استأذن الرسول صلى الله عليه وسلم في الهجرة فأذن له ، فخرج مهاجرا نحو أرض الحبشة حتى إذا بلغ برك الغماد لقيه ابن الدغنة ، وهو سيد قبيلة القارة ، فقال: اين تريد يا بابكر ؟ فقال ابوبكر : اخرجني قومي فأريد ان أسيح في الارض ، واعبد ربي . قال ابن الدغنة : فان مثلك يا أبا بكر لا يخَرج ولا يُخرج ، انك تكسب المعدوم وتصل الرحم وتقري الضيف،

وتعين على نوائب الدهر ، انا لك جار ، ارجع واعبد ربك ببلدك . فرجع مع ابن الدغنة فطاف في اشـراف قريش واعلمهم بامره مع ابي بكر ، فوافقوا على ان يعبد ابو بكر ربه في داره يصلي بها كما يشاء ، ولا يقرأ في غير داره . ثم بدأ لأبي بكر فابتنى مسجدا بفناء داره وبرز فكان يصلي فيه، ويقرأ القرآن، فيتقصف عليه نساء المشركين وأبناؤهم، وهم يتعجبون منه، وينظرون اليه، وكان ابو بكر رجلا بكاء لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن فأرسل مشركو قريش الى ابن الدغنه يقولون انهم يخشون ان يفتن ابو بكر نساءهم وابناءهم، وطلبوا منه أن ينهه أو يرد عليه ذمته . وحين جاء ابن الدغنه الى ابي بكر قال الأخير له : اني اردّ اليك جوارك وأرضى بجوار الله ورسوله.(٢٨) ولم يجد ابو بكر بعدئذ من يتجرأ عليه و يعمل على النيل منه . ويسترعي انتباهنا في هذه الهجرة التي لم تتم انه (رض) قد خرج حتى بلغ برك الغماد وهو موضع يعرّفه صاحب سبل الهدي بانه موضع على خمس ليال من مكة مما يلي البحر. وفي شرح المواهب عن الحازمي بانه موضع على خمس ليال من مكة مما يلي البحر . وفي شرح المواهب عن الحازمي بانه موضع على خمس ليال من مكة الى جهة اليمن . وقال البكري هي اقاصي هجر. وقال الهمداني في أقصى اليمن. وقال الحافظ، صاحب شرح المواهب إن الأول أولى. وجاء في معرض حديث لعائشة نقله ابن اسحاق ان ابن الدغنه قابل ابا بكر على مسيرة يوم او يومين من مكة.وقال آخرون ان برك الغماد لم تكن تعني مكانا مخصوصا بل ترمز الى مكان بعيد، فتقال فيما تباعد كعسفات هجر، وحوض الثعلب. وحين نقارن بين الأقوال المختلفة نرجح ان ابابكر الذي سار في إثر صحابته المهاجرين لم يسلك الطريق المؤدية الى الشعبية، ميناء مكة، انما جاوزها في اتجاه اليمن . ولعله وصل إلى البرك، وهو مرفأ طبيعي قديم يقع في مواجه منطقة يضيق فيها البحر الأحمر بعد انبعاج. ويمكن لأبي بكر ان يقطع تلك المسافة بين مكة والبرك على دابته في خمس ليال إذا كان على عجلة من أمره . ولربما كانت البرك هي المنطقة التي عبرت منها سفارة عثمان بن عفان ثم وفد الهجرة الرئيس والهجرات المتقطعة للأفراد في إثر المهاجرين الأوائل. وحين نتخذ هجرة أبي بكر الصديق (رض) شاهدا على قيام هجرات متقطعة للأفراد ، نجد شواهد أخرى تدلنا ان رجوع المهاجرين من الحبشة قد شهد أيضا رجوع أفراد أولا، حتى عاد بعدئذ وفد

الهجرة الرئيس من هناك في السنة الثامنة للهجرة، ووافقوا الرسول وصحابته بعد سقوط خيبر مباشرة . فالثابت أن سيدنا عثمان قد شهد بدرا ، وكذلك أربد بن حمير ، وقد كان ضمن جماعة المهاجرين الرئيسية. وكان خنيس بن حذافة ممن شهدوا بدرا أيضا ، وكذلك الزبير بن العوام. أما عبدالله بن مسعود الذي ذهب في وفد عثمان ثم هاجر مع المجموعة ، فقد صلى الى القبلتين ، وشهد بدرا وأحد، والخندق، وسائر المشاهد مع الرسول صلى الله عليه وسلم . كما نجد أن أباحنيفة بن عتبة بن ربيعة قد عاد بعد هجرته من الحبشة الى مكة ثم هاجر الى المدينة بعدئذ . وجدير بالذكر ان مهاجرة الحبشة الذين لحقوا برسول الله عائدين إلى مكة ثم إلى المدينة منذ يوم أحد حتى يوم خيبر قد بلغ تسعا وستين بين صحابي وصحابية، وقد شهدت صفوف أحد نصارى الأحباش يقاتلون مشركي العرب ، وينتصرون للمسلمين . ولعل في ذلك تأكيد لتوثيق عرى التحالف بين مدينة الرسول وبلاط النجاشي .

ملاحقة قريش :

اطمأن المسلمون في دار هجرتهم الجديدة بالحبشة، وكانت قريش تخشى أن تستقر تلك المبادئ وتقوي بالأحباش، ثم تعوج لتحرير القبلة من الشرك والوثنية، وتهدم دعائم مجتمعهم. كان للأحباش تاريخ قريب مع قريش حين سار نصارى الأحباش إلى ديار قريش فلم يقووا على ردهم وفروا أمامهم هاربين ، تاركين البيت لرب البيت، فتكفل به وحماه بالطير الأبابيل ، وتلك معجزة شهدها المشركون وشهدوا بها . أما حين يأتي الأحباش المسلمون مع المهاجرين من بيوتات قريش لنصرة البيت ورب البيت، وحين يكون للأحباش المسلمين كل الحق في البيت الحرام ، فان الأمر سيكون مختلفا. كانت قريش تدرك انها ليست ندا لقوة النجاشي التي تحالفت مع المسلمين، رغم ان قوته لم تكن شيئا مذكورا مقاونة بالقوتين الأعظم وقتها من فرس وروم ، معهذلك كانت قريش تدرك تماما ان قوة النجاشي وسطوته مقارنة بقوتها التي انشرخت وتفتت بخروج مسلمي قريش وأحباشها وحلفائها ، كانت أمرا هائلا. ولعلنا نلاحظ في الأبيات التي أرسلها أبو طالب ، وهو من أوفر رجال قريش ثقافة وعلما ، إلى النجاشي يحضّه على حسن معاملة المهاجرين اليه ، انه يدعوه "بزعيم الناس" وليست الزعامة باللقب الذي يطلق جزافا في المجتمع القرشي القبلي . قال أبو طالب :

تعلم زعيم الناس ان محمدا رسول كموسى والمسيح بن مريم
أتى بالهدي مثل الذي أتيا به فكل بأمر الله هاد ومعصم
وإنكم تتلونه في كتابكم بصدق حديث لا حديث مرجّم
وإنك ما يأتيك منا عصابة بفضلك إلا أرفدوا بالتكرم (٢٩)

أرسلت قريش إلى النجاشي بعد ان هاجر النبي (ص) الى يثرب واطمأن بها، وشكّل حكومته، وقام بغزوة بدر فنصره الله . وما كان يمكن لقريش ان تنتظر لتواجه خطر قدوم المسلمين من الحبشة عن طريق اليمن بعد أن أظهرت نتائج بدر ان الطريق التجاري أمامهم إلى الشام قد صار إلى غير أيديهم. اجتمعت قريش بعد بدر في دار الندوة فقالوا ان لنا في الذين عند النجاشي من المسلمين من أصحاب محمد ثارا ممن قتل منكم ببدر، فاجمعوا مالا وما يستظرف من متاع مكة، وأهدوه للنجاشي لعله يدفع إليكم من عنده من قومكم . ولننتدب لذلك رجلان جلدان من ذوي الرأي.

جمع القرشيون الأدم ، وكانت أعجب ما يأتيه من مكة من سلع، ولم يتركوا بطريقا من بطارقته إلا جعلوا له هدية، ومما أعدوه للنجاشي فرسا وجبه ديباج . ثم بعثوا عمرو بن العاص وعمارة بن أبي معيط (وقيل ان الآخر عبد الله بن ابي ربيعة المخزومي) في سنه ستة للهجرة، مع الهدايا الأدم وغيرها ، فركبا البحر، وأتيا النجاشي والمهاجرون عنده، فقدموا الهدايا الى النجاشي وبطارقتة فقبلوها . وانفرد الرسولان بكل بطريق على حدة وقالا له : انه قد صبا الى غير دين الملك منا سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينكم، وجاءوا بدين مبتدع لانعرفه نحن ولا أنتم ، ثم قدموا الى بلد الملك. وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم من آبائهم ، وأعمامهم ، وعشائرهم ، لنردهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم، فاشيروا أن يسلمهم إلينا، ولايكلمهم ، فان قومهم أولى بهم، وأعلم بما عابوا عليهم ، وعاينوه منهم.

دخل المبعوثان حضرة النجاشي وسجدا له ثم سلما عليه وقالا : أيها الملك انّ قومنا لك ناصحون، ولإصلاحك محبون، وانهم بعثونا اليك نحذّرك من هؤلاء الذين قدموا عليك، لأنهم قوم رجل كذاب، خرج فينا يزعم انه رسول الله، ولم يتابعه أحد منا إلا السفهاء، فانا قد ضيقنا عليهم الأمر وألجأناهم إلى شعب بأرضنا لايدخل عليهم منا أحد، وقد قتلهم الجوع

والعطش، فلما اشتد عليهم الأمر بعث عليك ابن عمه ليفسد عليك دينك، وملكك ، ورعيتك. فاحذر منهم ، وادفعهم إلينا لنكفيكهم . وأضاف الرسولان بأن هؤلاء الخارجين إذا دخلوا عليك لا يسجدون لك، ولايحيونك بالتحية التي يحييك بها الناس، رغبة عن دينك وسنتك (٣٠) . أرسل النجاشي في دعوة المهاجرين فساء ذلك الرسولان لأنه لم يكن أبغض إليهما من أن يسمع النجاشي كلامهم. وما ان وصل رسول النجاشي الى الصحابة اجتمعوا ليتدبروا أمرهم . وقال بعضهم لبعض ماذا تقولون للرجل إذا حييتموه ؟ قالو : نقول والله علمنا وما أمرنا به نبينا صلى الله عليه وسلم كائن في ذلك ما هو كائن . وقال جعفر . أنا خطيبكم اليوم . (٣١)

لما وصل رهط الصحابة صاح جعفر بالباب : يستأذن عليك حزب الله ، فأذن لهم النجاشي، فدخلوا دون أن يسجدوا . فانتهز عمرو بن العاص هذه الفرصة وقال : ألا ترى انهم يستكبرون أن يسجدوا لك ؟ فسألهم النجاشي ، فاجابوا نسجد للذي خلقك وملكك، وانما كانت تلك التحية لنا ونحن نعبد الأصنام . فبعث الله إلينا نبيا صادقا منا نعرف نسبه وصدقه، وأمرنا بالتحية التي رضيها الله تعالى ، وهي السلام ، تحية أهل الجنة . فعرف النجاشي ان ذلك حق، وانه في التوراة والإنجيل.ثم سأل النجاشي : أيكم الهاتف يستأذن عليك حزب الله ؟ قال جعفر : أنا . قال : فتكلم قال : انك ملك من ملوك الأرض ، ومن أهل الكتاب ، ولا يصح عندك كثرة الكلام ولا اللغط . واوضح جعفر انه سيتحدث نيابة عن أصحابه ، وطلب الى الاخريّن ان يختارا احدهما ، وما على النجاشي الا ان ينصت ثم يحكم. قال عمرو لجعفر : تكلم . فسأل جعفر عمرو : أعبيد نحن أم أحرار؟ فقال عمرو : أحرار كرام . قال هل أهرقنا دما بغير حق فيقتص منا ؟ اجاب عمرو : ولا قطرة ، قال جعفر : هل أخذنا من اموال الناس بغير حق فعلينا قضاؤها؟ قال النجاشي : إن كان ذلك قنطار فعليّ قضاؤها ، قال عمرو لا ولا قيراطا . قال النجاشي : فماذا تطلبون منهم : قال عمرو : كنا وهم على دين واحد، وأمر واحد ، فتركوا ذلك وابتدعوا غيره، فبعثنا فيهم اشراف قومهم من آبائهم وابنائهم وعشائرهم لنردهم إليهم ، فهم اعلم بهم، وأدرى بما عابوا عليهم. وهنا تدخل البطارقة الذين ظفروا بالهدايا فقالوا : صدقوا ايها الملك، قومهم ادرى بهم عيبا .

واعلم بما عابوا عليهم وعاينوه منهم، فأسلمهم اليهم ليردوهم الى بلادهم وقومهم . ولم ير النجاشي هذا الرأي وقال : لا ارد قوما جاوروني واختاروني على من سواي، وسأسألهم في أمرهم ، فان كانوا كما يقولون سلمتهم اليهم . فسألهم النجاشي عن الدين الذي كانوا عليه، وكفروا به والدين الذي اتبعوه .

قال جعفر : أما الدين الذي كنا عليه وتركناه فهو دين الشيطان، كنا نكفر بالله ونعبد الحجارة، ونأكل الميتة، ونقطع الأرحام ، ونسيئ الجوار، ويأكل القوي من الضعيف، أما الدين الذي تحولنا إليه فدين الإسلام، جاء من الله على رسول نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله عز وجل لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا عليه نحن وأباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، فصدقناه وآمنا به . ومعه كتاب كريم مثل كتاب عيسى بن مريم، موافقا له . فقال له النجاشي، تكلمت بأمر عظيم . ثم أمر النجاشي بقرع الناقوس، فاجتمع عليه القساوسة والرهبان، فقال : هل تجدون بين عيسى والقيامة نبيا مرسلا ؟قالوا : اللهم نعم ، قد بشرنا عيسى وقال من آمن به فقد آمن بي ، ومن كفر به كفر بي . (٣٢)

سأل النجاشي جعفر ما ذا يقول لكم هذا الرجل ، وما يأمركم به وينهاكم عنه ؟ قال: يقرأ علينا كتاب الله، ويأمرنا بالمعروف، وينهانا عن المنكر، ويأمرنا بحسن الجوار، وصلة الرحم ، وبر اليتيم، ويأمرنا أن نعبد الله وحده لا شريك له، ونخلع ما كنا فيه نحن وأباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، فحرمنا ما حرم علينا، واحللنا ما أحل لنا، ثم غلبنا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردوننا الى عبادة الأوثان ، وان نستحل ما كنا نستحل من الخبائث. فلما قهرونا، وشقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا الي بلدك ، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا ننظلم عندك . وطلب النجاشي الى جعفر ان يقرأ عليه شيئا من القرآن. وقيل انه قرأ سورة العنكبوت والروم ثم الكهف. وتدخل عمرو فقال : انهم يشتمون عيسى ، فقرأ جفعر سورة مريم. ورفع النجاشي قشة من سواكه بقدر ما يقذي العين فقال : والله ما يزيد المسيح علي ما يقول هذا . اذهبوا فانتم سيوم بأرضي اي آمنون، ومن سبكم وأذاكم خسر ثلاث مرات. وأضاف ابشروا ولاتخافوا فلا دهونه اليوم على حزب ابراهيم .

واثير جدل حول ابراهيم الذي ادعاه عمرو بن العاص، وقيل ان الله انزل على رسوله (ص) في ذلك اليوم وهو بالمدينة المنورة قوله تعالى : (ان اولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا) .

رد النجاشي على عمرو هداياه وقال "انها رشوة وإن الله قد اعطاني ملكا وما قدمت له رشوة". وبهذا رجع عمرو بن العاص الى مكة ، وظل حبيس بيته ، فقالت قريش :ماله لا يخرج ؟ فقال عمرو : ان بني أصحمه (النجاشي) تزعم أن صاحبكم نبي . (٣٣)

تختلف المراجع والمصادر اختلافا يسيرا في الأقوال التي أدلى بها جعفر ، وفي الأسلوب الذي صيغت بها كلماته ، إلا انها تجتمع كلها على المعاني التي ذكرها ، كما تختلف أيضا في المرافقين لعمرو حيث ورد في بعض المصادر اسم عمارة بن الوليد غير ما ذكرنا من المبعوثين . وقد أدى هذا الأمر بدوره إلى اعتقاد بعض الباحثين ان قريش قد أرسلت بعثتين للنجاشي لا بعثه واحدة . ولا نجد بدورنا من الأسانيد ما يدعو الي مثل هذا العمل إذ لم تكن لقريش حجج متجدده أو عروض طارئة تمكّنها من التفاوض ثم التفاوض مجددا .

بعثة الضمري الي النجاشي :

في اعتقادنا ان الرسول صلى الله عليه وسلم أرسل الى النجاشي عدة بعثات ، كما بادله النجاشي السفارات أيضا، وتبودلت بينه وبين النجاشي الهدايا عدة مرات، والهدايا في العرف الدبلوماسي في الفترة التي ندرسها ، دليل على قدوم بعثة أو إشارة إلى مغادرتها .

أخرج احمد عن جابر أن راهبا أهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم جبة من سندس فارسل بها الى النجاشي وكان قد أحسن الى من عنده من اصحابه . واخرج ابو داؤد وابن ماجة عن أم المؤمنين عائشة (رض) قالت : قدمت من على النبي صلى الله عليه وسلم حلة من عند النجاشي أهداها له فيها خاتم من ذهب فيه فص حبشي . قالت : فأخذه صلى الله عليه وسلم بعود معرضا عنه ، ثم دعا امامة بنت ابي العاص فقال : تحلى بهذا يابنية.(٣٤) وأخرج احمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه عن بريدة ، ان النجاشي أهدى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم خفين أسودين ساذجين فلبسهما ثم توضأ ومسح عليهما . وبسند ضعيف

عن جابر قال : أهدي النجاشي الى رسول الله صلى الله علية وسلم قارورة غالية، وكان أول من عمل له الغالية ، وينبغي أن يعد مع الزباد أيضا.(٣٥) كما ورد ان النجاشي قد بعث الى الرسول صلى الله عليه وسلم بثلاث عنزات فأمسك واحدة لنفسه، وأعطى علي بن أبي طالب واحدة، واعطى عمر بن الخطاب واحدة، وكان بلال يمشي بتلك العنزة التي امسكها رسول الله صلى الله عليه وسلم في العيدين حين يأتي المصلي فيركزها بين يديه فيصلي إليها. ثم كان يمشي بها بين يدي ابي بكر كذلك، ثم كان سعد القرظ يمشي بها بين يدي عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان.(٣٦) واخرج احمد عن ام كلثوم بنت ابي سلمة قالت :لما تزوج النبي صلى الله عليه وسلم أم سلمة قال لها: اني اهديت الى النجاشي حلة وأواواقي من مسك . ولا أرى النجاشي إلا قد مات ، ولا أرى هديتي إلا مردودة ، فإن ردت علي فهي لك . (٣٧)

فإذا كانت كل هدية من تلك الهدايا تعني ذهاب بعثة لبلاط النجاشي أو قدوم أخرى منه فاننا نرى ان البعثات اتصلت بتواتر بين النجاشي والرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان آخر البعثات من الرسول تلك التي خرجت من المدينة ولم تدرك النجاشي الذي توفي. وعليه نرى ان بعثة عمرو بن امية الضمري الشهيرة لم تكن إلا واحدة من البعثات المتعددة التي ارسلها الرسول صلى الله عليه وسلم الى النجاشي يحثه على حسن صحبة صحابته، ويؤكد له حسن النوايا ، ويحاوره في أمر عيسى (عم) ، وطبيعة المسيح ، ويدعوه الى الاسلام . وعن جعفر ابن محمد عن أبيه قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن أُمية الضمري الى النجاشي يخطب اليه أم حبيبة فزوجها إياها، وأصدقها النجاشي من عنده أربعمائة دينار . وربما اكتسبت بعثة الضمري شهرتها من هذه الحادثة المباركة .

أخرج البيهقي في الدلائل عن محمد بن اسحاق قال: بعث الرسول صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية الضمري الى النجاشي في شأن جعفر بن أبي طالب، وكتب معه كتاباً: بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة، فإني أحمد الله اليك الملك القدوس المؤمن المهيمن. وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله، وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى، فخلقه من روحه ونفخه، كما خلق أدم بيده ونفخه.

واني ادعوك إلى الله وحده لا شريك له ، والموالاة على طاعته ، وأن تتبعني وتؤمن بي ، وبالذي جاءني ، فاني رسول الله . وقد بعثت اليكم ابن عمي جعفراً ومعه نفر من المسلمين ، فإذا جاءوك فاقرهم ، ودع التجبر، فاني أدعوك وجنودك الى الله. وقد بلّغت ونصحت، فاقبلوا نصيحتي ، والسلام على من اتبع الهدى . (٣٨)

وفي الحقيقة فاننا لا نجد مبرراً يدعو الرسول إلى أن يرسل الى النجاشي رسالة تخص إقامة جعفر واصحابه في الحبشة صحبة الضمري . ويؤكد ما ذهبنا اليه ان بعض المصادر تقول بأن جعفراً نفسه كان حامل هذه الرسالة، وهذا عندنا أرجح .

وتشير المصادر أيضا إلي أن النجاشي قد ردّ على خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم بما يلي بعد البسملة : إلى محمد رسول الله من النجاشي اصحمة بن أبجر : سلام عليك يا نبي الله من الله ورحمة الله وبركاته. لا إله إلا هو الذي هداني إلى الاسلام. فقد بلغني كتابك يارسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى . فورب السماء والأرض أن عيسى ما يزيد على ما ذكرت، وقد عرفنا ما بعثت به الينا . وقد قربنا ابن عمك وأصحابه. فأشهد انك رسول الله صادقاً مصدقاً ، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك، وأسلمت على يديه لله رب العالمين. ولقد بعثت اليك يابني الله أرمي بن الاصحم فإني لا أملك إلا نفسي ، وإن شئت أن آتيك فعلت يارسول الله ، فإني أشهد ما تقول حق . (٣٩)

وفي الحقيقة فإن المتمعن في هذه الرسالة لا يجدها تعبر عن رد للرسالة السابقة، إنما جاءت نتيجة محاورات ومداولات ومناظرات عدة متواترة في طبيعة المسيح، وكنه التوحيد. والثابت أن النجاشي لم يسلم من الوهلة الأولى ، إذ لم يزد الأمر أولا عن قبوله استضافة المهاجرين الى أرضه ورد الأذى عنهم والظلم ، ثم التحالف مع جند الله الذين خرجوا بالايمان به عن دائرة اوليجاركية قريش المهيمنة على احدى طرق التجارة العالمية. وتقول بعض المصادر أن النجاشي لم يسلم إلا في رجب من السنة الثامنة للهجرة، وهي السنة التي توفى فيها ، وذلك هو الأرجح . ولا نشك أبداً في أن النجاشي قد أعلن اسلامه للرسول (ص) بهذه الرسالة التي يشك بعض الباحثين في صحتها. فالثابت أن الرسول قد صلى صلاة الغائب حين بلغه موت النجاشي، والثابت أيضا أن الله نهى رسوله أن يصلي على أحد من

غير أهل دينه مات أبداً ، مما يجعل اسلام النجاشي حقيقة لا مراء فيها.

أخرج أبو داؤد عن عائشة (رض) قالت : لما مات النجاشي كنا نحدث انه لا يزال يرى على قبره نور. وقال الجمهور توفى النجاشي سنة تسع من الهجرة، وقيل كان اسلامه وموته سنة ثمان، وهذا ما ترجحه الشواهد. وأخرج مالك والشافعي والبخاري ومسلم وأبو داؤد والنسائي عن أبي هريرة أن رسول الله (ص) نعى للناس النجاشي في اليوم الذي مات فيه، وخرج بهم الى المصلى وكبّر أربع تكبيرات. وأخرج أحمد عن جرير قال : هذا النجاشي اصحمة. فقال المنافقون : انظروا الى هذا يصلي على علج نصراني لم يره قط ، فانزل الله على رسوله (وإن من اهل الكتاب لمن يؤمن بالله ....) الآية (٤٠) . ويذهب اصحاب هذا الرأي الخاطئ إلى أن النجاشي لم يسلم بل مات على كتابه، ولعل في تضارب الأقوال دلالة على أن النجاشي لم يسلم إلا في أواخر أيامه، وأن المنافقين لم يكن قد بلغهم خبر إسلامه فادعّوا أنه نصراني . وعلى الرغم من معرفتنا أن هذه الآية الكريمة كانت قد نزلت في الأحباش إلا اننا نشك في أن يكون الخبر الوارد هنا هو سبب نزولهما . عن ضمرة بن عطاء عن أبيه قال : ما ذكر به النصارى من خير فإنما يراد به النجاشي وأصحابه (٤١). ونعتقد بدورنا أن هذه الآية قد وردت في نصارى الأحباش، ولكنها لم تقترن بهذه المناسبة .

وفي الحقيقة فإن جملة الوقائع تشير إلى بعثة عمرو بن أمية الضمري كانت لاحقة لهجرة جعفر بن أبي طالب وأصحابه، وقد اشتهر أمرها لأنها ارتبطت بزواج الرسول من أم حبيبة، وكانت تلك الحادثة لفتة كريمة من الرسول (ص) رغم محاولات المستشرقين، ومن اتخذهم أئمة له، إتخاذ موضوع تعدد زوجات الرسول مطعنا في شخصيته الكريمة .

زواج السيدة أم حبيبة :

لم يجد المستشرقون مجالا للطعن في شخصية الرسول الكريم ولا مدخلا للنيل منه صلى الله عليه وسلم إلا في مجال تعدد زوجاته. أما المسلمون فيجدون في هذا المجال دلالات على عظمة الرسول الإنسان، ووفائه لأصحابه، وتأليفه لقلوب كفار مكة ومشركيها .

خرجت السيدة أم حبيبة، وهي بنت سيد في قريش، فخور بنسبه، مزهو بعشيرته وماله

،لتهاجر في سبيل الله ، وتؤدي واجب الدعوة . إختارت هذه السيدة الخروج من حصن منيع ، بمقاييس المادة ، تمثل في بيت أبيها الى حصن أكثر منعة بمقاييس الايمان الذي لم يكن وقتها قد تفشى في الناس ، تمثل في المعاناة في سبيل الله والتمكين لدينه في الأرض، أرض الله الدانية منها والقاصية. رافقت أم حبيبة زوجها عبيدالله بن جحش الذي خرج مهاجرا ولكنه لم يثبت على معاناة الهجرة فارتد إلى النصرانية . ووجدت السيدة المؤمنة نفسها بين يدي زوج ارتد عن الاسلام الذي خرجت تدافع عنه وتدعو اليه . وانكبّ الزوج على الخمر والموبقات . ولم يكن النجاشي قد أسلم بعد ليفرق بينهما فتدخل القدر ، فهلك عبيدالله، وبقيت بنت ابي سفيان وحيدة في بلد بعيد. كانت مأساتها ومعاناتها بمنطق النفس النشرية متفاقمة، ولم تكن جروحها لتندمل إلا بترياق يفوق دواؤه حجم الداء. وكان العلاج عند رسول الله ، وهو كما قال فيه الخالق (عزيز عليه ما عنتم بالمؤمنين رؤوف رحيم) .

أرسل الرسول من المدينة المنورة إلى الحبشة بعثة لتخطب له أم حبيبة الثيب وهو الذي كانت تتمنى الاقتران به كل حرائر المدينة، وكان في وسعه أن يبني لكل من أراد منهن ، أو من بنات سادات القبائل والعشائر المسلمة والحليفة. لم يكن هاجس الزواج لغايات الزواج هو الذي حرك الرسول (ص) لارسال بعثته إلى الحبشة لتخطب له ثيب عربية مهاجرة ، إنما تحرك لمعالجة المأساة التي لحقت باحدى المؤمنات. وكان الرسول يدرك زهو الجاهلية والعنجهية في أبي سفيان فتعامل الرسول مع ذلك بالحكمة المأثورة عنه ، وكان يمكن له صلى الله عليه وسلم أن يطلب خطبة أم حبيبة من جعفر وأصحابه المسلمين ولكنه لم يفعل ، فقد طلبها من النجاشي . وكان لهذا الأمر دلالاته لدى كفار قريش عامة ، وللبيت الأموي خاصة ، ولسائر المسلمين أيضا وخاصتهم.

عن اسماعيل بن عمر عن سعيد بن العاص قال : قالت أم حبيبة : رأيت في النوم كأن عبيد الله بن جحش ، زوجي ، بأسوأ صورة وأشوهها . ففزعت وقلت : تغيرت والله حاله ، فإذا هو يقول حين أصبح :يا أم حبيبة ، اني نظرت في الدين فلم أر دينا خيراً من النصرانية ، وكنت قد دنت بها ثم دخلت في دين محمد ، ثم قد رجعت إلى النصرانية ، فقلت : والله ما خيرلك، وأخبرته بالرؤيا التي رأيت فلم يحفل بها ، وأكّب على الخمر حتى

مات . فرأيت في النوم كأن أخي يقول : يا أم المؤمنين ففزعت ، فأوّلتها أن رسول الله (ص) يتزوجني . قالت فما هو إلا أن انقضت عدتي ، فما شعرت إلا برسول النجاشي على بابي يستأذن، فإذا جارية يقال لها أبرهة كانت تقوم على ثيابه ودهنه ، فدخلت عليّ فقالت : ان الملك يقول لك : ان رسول الله كتب إلي أن أزوجكيه ، فقلت : بشرك الله بخير . قالت : يقول لك الملك وكلي من يزوجك. فأرسلت إلى خالد بن سعيد بن العاص فوكلته. فأعطت أم حبيبة أبرهة سوارين من فضة كانتا في رجليها ، وخواتيم فضة كانت في أصابع رجليها ، سروراً بما بشّرتها . فلما كان العشي أمر النجاشي جعفر بن أبي طالب ومن هناك من المسلمين فحضروا . فخطب النجاشي فقال : الحمد لله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار . أشهد أن لا اله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ×، وانه الذي بشر به عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم ، أما بعد فإن رسول الله كتب إلي أن أزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان ، فأجب إلى ما دعا اليه رسول الله (ص) وقد أصدقتها أربعمائة دينار ، ثم سكب الدنانير بين يدي القوم . فتكلم خالد بن سعيد فقال : الحمد لله أحمده وأستعينه وأستنصره، وأشهد أن لا اله إلا الله محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . لقد أجبت إلى ما دعا اليه رسول الله (ص) ، وزوجته أم حبيبة بنت أبي سفيان ، فبارك الله . ودفع النجاشي الدنانير إلى خالد بن سعيد بن العاص فقبضها . ثم أرادوا أن يقوموا فقال : اجلسوا فإن سنة الانبياء إذا تزوجوا أن يؤكل طعام على التزويج ، فدعا لطعام فأكلوا ثم تفرقوا (٤٢) .

قالت أم حبيبة : فلما وصل إليّ المال أرسلت إلى أبرهة التي بشرتني فقلت لها : اني كنت أعطيتك ما أعطيتك يومئذ ولا مال بيدي ، فهذه خمسون مثقالاً فخذيها فاستعيني بها ، فأبت فأخرجت حقا فيه كل ما كنت أعطيتها فردته عليّ وقالت : عزم عليّ الملك أن لا ارزئك شيئاً ، وأنا التي أقوم على ثيابه ودهنه ، وقد اتبعت دين محمد (ص) . وقد أمر الملك نساءه أن يبعثن اليك بكل ما عندهن من العطر . قالت : فلما كان الغد جاءتني بعود وورس وعنبر وزباد كثير . فقدمت بذلك كله على النبي (ص) . وكان يراه عليّ وعندي فلا ينكره . قالت أبرهة : حاجتي اليك أن تقري رسول الله (ص) مني السلام ، وتعلميه أني قد تبعت دينه (٤٣) .

وأرسل النجاشي إلى الرسول خطاباً جاء فيه بعد البسملة . إلى محمد (ص) من النجاشي أصحمة ، سلام عليك يارسول الله من الله ورحمة الله وبركاته . أما بعد، فإني قد زوجتك أمرأة من قومك ، وعلى دينك ، وهي السيدة أم حبيبة بنت أبي سفيان ، وأهديتك هدية جامعه ، قميصا وسراويل وعطافا وخفين ساذجين (٤٤) .

نخلص إلى ما يستفاد من حادثة الزواج هذه إلى عدة ثوابت في تاريخ الاسلام منها :

— أن زواج الرسول (ص) من أم حبيبة بنت أبي سفيان كان بقصد رد اعتبار أمرأة مسلمة ، كانت عزيزة في قومها ، فأصابها بالجهاد في سبيل الله ماقد يبدو أنه ضير فإذا هو الخير كله حيث أصبحت من أمهات المؤمنين .

— ان الرسول كان دائم المتابعة لتقصي أخبار صحابته بالحبشة، شديد الحرص على معالجة ما يجدونه من مشكلات روحية ودنيوية ولعل في هذا تفسير لتعدد البعثات من المسلمين إلى ملك الحبشة .

— .كان يمكن للرسول أن يتصل بصحابته في الحبشة لتزويجه أم حبيبة وما كانوا ليردون له أمراً . ولكن الزواج لم يكن مقصودا لذاته إنما لمعانية . لم يأمر الرسول صحابته بهذا الأمر، إنما اتصل بالنجاشي لاتمامه . وماذلك إلا ليعطي أم حبيبة فرصة الرفض إذا عنّ لها ذلك لسبب أو لآخر ، فالطلب بالزواج لم يبلغها مباشرة عن رسول الله (ص) ولاحرج في رده إذا شاءت ، كما ردّ هذا الطلب كذلك لبنت أبي سفيان اعتبارها في أعين ذويها من أئمة المشركين المزهوين بالنسب والحسب وكثرة الأموال . فقد تم الزواج بعد موافقتها ، وفي بلاط ملك يمثل قمة السلطة في بلاده. كما تعلم المسلمون أيضا معاني احترام حقوق الضيافة ومشاركة السلطات المدنية في البلاد التي تستضيفهم في أمورهم وتنظيمها مالم تأمر بمعصية ، وذلك حتى يتم التآلف والتعايش وتبرز القدوة وتسود الحكمة : إن أكرمكم عند الله أتقاكم .

— أن النجاشي لم يكن قد أسلم بعد . فقد جاء في رسالته للرسول (ص) عن أم حبيبة أنها "من قومك وعلى دينك" ولم يكن النجاشي قد عرف بعد أن الرسول (ص) قد برئ من قومه المشركين واتخذ له قومية أخرى لا كالقوميات المعهودة التي تتعصب للعرق أو للون إنما

هي "قومية" بشرية قوامها : كلكم لآدم وآدم من تراب. وقد تم هذا الزواج - باتفاق أهل الأخبار والسير - في سنة سبع للهجرة ، وتلك قرينة تشهد بأن النجاشي لم يكن قد أسلم حتى هذا التاريخ .

حياة المسلمين في الحبشة :

عاش بعض المسلمين الذين وفدوا إلى الحبشة مهاجرين لشهرين فقط ثم رجعوا إلى ديارهم بعد انقضاء مهامهم ، وعاش فيها آخرون لفترات أطول امتدت لشهور أو لسنين ، وأقام بعضهم لست عشرة سنة متصلة . ولا نعرف على سبيل التحقيق والضبط المنطقة التي عاشوا فيها وإن كنا نعرف أنها تقع في المنطقة المواجهة لليمن القديم . الواقعة إلى الجنوب من سواكن والى الشمال من مصوع الحاليتين . عرفنا ذلك من خبر الهجرة التي ازمعها أبو بكر (رض) حتى انتهى الى البرك المواجهة لهذه المنطقة. هذا بالاضافة إلى ما نعرف من هجرة أبي موسى الأشعري وإصحابه التي نزلت ساحل الحبشة عن طريق الخطأ. وما كان للملاحيين يمانبين ان يخطئوا دروب الحبشة البحرية مالم يكونوا قد خرجوا عن خط السير البحري المعلوم الذي كان يتتبع الجزر التي تنتهي الى ارخبيل دهلك . وإذا كان هذا الخطأ غير جائز بالنسبة الى الملاحيين اليمانيين على اطلاقهم فانه لا يمكن حدوثه بالنسبة لملاحي الأشاعرة الذين خرجوا من المخا المواجهة لمراسي عصب وراس دامو اللتين تقعان على مرمى حجر من المخا . ولكننا نجيز لملاحي الجنوب اليمني من الأشاعرة ان يخطئوا الدروب البحرية للساحل الافريقي شمال دهلك في المنطقة الواقعة بين مرسى مبارك ومرسى تكلوي (Takloi) اللتين ينحصر بينهما مرسى درسيا ، (Darsia) وهذه المنطقة هي ذات المنطقة المواجهة للميناء الذي خرج منه أبو بكر .

وعرفنا من هجرة أبي موسى الأشعري وأصحابه أيضا أن موقع المسلمين لم يكن بعيدا عن ساحل البحر حيث قال أن الرياح قد ألقت إلى سواحل الحبشة حيث وجدوا هناك جعفراً وأصحابه . يضاف إلى هذا خبر آخر عن أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة ، احدى المهاجرات (أم المؤمنين بعدئذ) قالت : فأقمنا عنده (النجاشي) بخير دار مع خير جار . فو

الله أنا على ذلك إذ نزل به من ينازعه في ملكه ، فوالله ما علمنا حزنا قط كان أشد من حزن حزناه عند ذلك تخوفا أن يظهر ذلك على النجاشي فيأتي رجل لا يعرف من حقنا ما كان النجاشي يعرف منه. فسار النجاشي وبينهما عرض النيل . فقال اصحاب رسول الله : من رجل يخرج حتى يحضر وقيعة القوم ثم يأتينا بالخبر ؟ فقال الزبير بن العوام : أنا ، وكان من احدث القوم سنا . فنفخوا له قربة فجعلها في صدره ثم سبح عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التي بها ملتقى القوم ، ثم انطلق حتى حضرهم . ثم قالت : ودعونا الله للنجاشي بالظهور على عدوه والتمكين في بلاده (٤٥) . ويرد في هذا الخبر أن المهاجرين كانوا يقيمون قرب النيل. وفي الحقيقة ، بالرغم من أن النيل من أنهار الجنة ، إلا أن العرب كانوا في هذه الفترة يجهلون مجراه الحقيقي ، بل ان بعض مؤرخي وجغرافي القرنين اللاحقين ذهبوا الى حد الخلط بين النيجر والنيل . وبناء على ذلك يصبح كل نهير أو نهر "نيلا" في مفهوم العرب في ذلك الوقت . وعليه أيضا يمكن لنا ان نعتبر "نهر" فلكات Falakat في مفهوم المهاجرين "نيلا" . فإذا أضفنا لهذا المفهوم ما وعرفنا من هجرة أبي موسى الأشعري واصحابه أيضا من أن موقع المسلمين لم يكن بعيدا عن ساحل البحر . .نستطيع أن نستنتج أن المهاجرين كانوا قد رسوا في الساحل الإفريقي للبحر الأحمرفي الشروم الواقعة على الساحل الأريتري واستقروا على ضفاف أحد الأودية على مخارج الهضبة الاريترية التي تقود إلى أكسوم . والملاحظ أن كل أودية هذه المنطقة تشارك نهر بركة منابعه أو تأخذ منه أو تصب فيه . ولعل في الاسم العربي لهذا النهر لفظا ومعنى ما يشهد ان اوائل المسلمين قد سكنوا تلك المنطقة.

لا نعرف كيف عاش مهاجرة الحبشة والوسائل التي اتخذوها لكسب العيش . هل كانت تأتيهم الأرزاق من مدينة الرسول أم كان النجاشي يجري عليهم ما يكفيهم ؟ الأمران واردان . فأعداد المهاجرين المتبقية في الحبشة بعد هجرة الرسول إلى المدينة لم تكن كبيرة . رجع من المهاجرين إلى مكة قبل هجرة الرسول إلى المدينة ثلاث وثلاثون رجلاً وخمسة نساء ، كما رجع بعد أحد مباشرة سبع وعشرون رجلاً وأربعة نساء من المهاجرة . أما الفوج الأخير من المهاجرين العائدين فهم الذين رجعوا الى رسول الله ساعة فتح خيبر، وهم الذين طالت اقامتهم في الحبشة ، فكانوا واحد وعشرون رجلاً وخمسة نساء بمن فيهم من كان في سن

الطفولة . وقد كان أربعة أفرد من هذه المجموعة من أسرة جعفر بن ابي طالب وهم : جعفر وزوجته أسماء بنت عميس وابنه عبد الله وأخوه عون . وخمسة أفراد منها من أسرة خالد بن سعيد بن العاص بن أمية وهم : خالد وزوجته أمينة ويقال همينة بنت خلف وابنه سعيد وابنته أمة وأخوه عمرو . هذا بالاضافة إلى ثلاثة من بني عبد الدار(٤٦). فالأمر لايزيد عن بضع أسر أمرها الرسول (ص) بالبقاء في الحبشة ، ربما لأداء مهام إتصالية أو دعوية أو غير ذلك ، ولكنها – على أية حال – لم تكن متعلقة بهجرة أو بفرار بدين . فقد أصبح للمسلمين في هذه الفترة مدينة حصينة كان يمكن لهم ان يأووا إليها . كانت أعداد الأشعريين الذين قدموا مع هذه الجماعة كبيرة بمقاييس ذلك العهد ولكنهم لم يعيشوا في الحبشة فترة تكفي لاتخاذهم مهنا أو حرفا بعينها . ولهذا لا نستبعد أن الرسول كان ينفق على بعثته في أرض الحبشة ، أو ربما كان النجاشي مضيفهم . ولعل قدومهم في سنة ثمان للهجرة مصحوبين بوفد النجاشي وبوفد آخر كان في إثرهم في سفينة أخرى غرقت قبل أن تصل السواحل الحجازية ما يزيد في قناعتنا بأن النجاشي كان قد أسلم وقتها واطمأن المسلمون على أن الدعوة أصبحت في يد ملك كفيل بإبلاغها ، ولم يبق هناك سبب ملحّ يجعل المسلمين الأوائل يواصلون البقاء عنده .

كانت الأمور ميّسرة للمهاجرين إلى الحبشة فقد كانوا في خير دار مع خير جوار ، وهي من أرض الله الواسعة التى أوصى الله المستضعفين بالهجرة فيها ، ولكنها النفس البشرية التي لا تقبل الاغتراب عن الموطن إلا كرهاً . أكرهت الظروف التاريخية المسلمين على الهجرة فراراً بالدين ، وتبليغا للدعوة ، وإقامة لمجتمعات الطهر . وتبقى الهجرة – مع ذلك – اغترابا عبر عنه بعض شعراء المهاجرين . وكان عبدالله بن الحارث وعثمان بن مظعون أبرز شعراء المهجر . قال عثمان بن مظعون يعاتب ابن عمه أمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح على اذيته له وإخراجه (٤٧) .

أتيم بن عمرو وللذي جاء بغضه	ومن دونه الشرمان والبرك أكتع
أأخرجتني من بطن مكة آمناً	وأسكنتني في صرح بيضاء تقذع
تريش نبالاً لا يواتيك ريشها	وتبري نبالا ريشها لك أجمع

وحاربت أقــواماً كــراماً أعـــزّة ... وأهلكـت أقواما بهـــم كنت تفـــزع

ســتعلم أن نابتــك يومـــاً ملمــــة ... وأســلمك الأوباش ما كنــت تصـــنع

وقال عبد الله بن الحرث قيس بن عدي بن سعيد بن سهم يحمد جوار النجاشي ، ويدعو على قومه من قريش :

يا راكبــا بلغــوا عني مغلغلـــة ... من كان يرجــو بلاغ الله والدين

كل امرئ من عباد اللـه مضـطهد ... ببطن مكة مقهـــــور ومفتـــون

إنا وجـــــدنا بلاد اللـه واسـعة ... تنجي من الذل والمخـزاة والهـون

فلا تقيموا على ذل الحياة وخـزي ... في الممــات وعيب غير مأمـــون

إنا تبعنا رســـول الله واطرحــوا ... قول النبــي وغـالوا في الموازيــن

فاجعل عذابك في القوم الذين بغوا ... وعائـذ بك أن يغلـــوا فيطغونـــي

وقوله أيضا في صحابته المهاجرين :

نفتهم عباد الجن من حـرّ أرضـــهم ... فأضحوا على أمر رشـيد البلابل

وبدلت شـبلا شبــل كــل خبيثـــة ... بذي فجر مأوى الضـعاف الأرامل

وقال أيضاً في نفس المعني :

تلك قريش تجحــد الله حقّـــــه ... كما جحــدت عاد ومدين والحجـــر

فإذا أنا لم أبرق فلا يســعننـــي ... من الأرض بـرد وفضـــاء ولا بحـــر

بأرض بها عبـد الالــه محمـــد ... ابين ما في النفس إذ بلغ النقر (٤٨)

لم يكن ضيق المهاجرين ضيق بالحبشة أو بعاهلها إنما هو ضيق الاغتراب فقد خرجوا من جدب الى خصب ، ومن اضطهاد إلى أمن ، ومن لؤم إلى كرم ، ولكنها النفس الانسانية تحنو إلى مسقط الرأس . وقد جاء أن النبي (ص) حين غادر مكة خرج من أحب البلاد اليه إلى أحب البلاد إلى الله . ويؤثر عن بلال انه حين هاجر إلى المدينة نزل مع أبي بكر الصديق وعامر بن فهيرة في بيت واحد وهناك واصيبوا جميعا بالحمى . فكان بلال إذا فارقته الحمى اضطجع بفناء البيت وترنم (٤٩) .

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بفخ وحولي أذخر وجليل
وهل اردن يوماً مياه مجنة وهل يبدون لي شامة وطفيل

وهي مواضع ومنابت بمكة وجوارها تشوقها بلال في العلة لما إبتعد عنها ، وليس أعجب في الوفاء لموطن الصبا من هذا الوفاء ، لأن بلالاً قد لقي عند تلك المواطن والمنابت قسوة في جاهليته ، وتعذيباً في إسلامه ، وخطراً على حياته ، ولكنه عاش فيها مع الصبا الأول ، وعاش فيها مع الإيمان الأول ، فهي حبيبة اليه ، أثيرة لديه ، وإن لقي الحفاوة والسلامة في الهجرة منها إلى غيرها .

كان أكثر المهاجرين إلى النجاشي من الشباب الذين يتحملون أعباء الغربة ويعرفون حقوقها . فحين نزل بالنجاشي من ينازعه ملكه عرض المهاجرون الاشتراك معه في القتال لدفعه . ولكنه اعتذر لهم ، ربما لأنهم لم يكونوا جماعة كبيرة . وظلّ الشباب المهاجر هناك يراقبون من خلال ابن العوام سير المعركة وينتصرون له بالدعاء والابتهال إلى الله .

ويبو أنه كان لذلك النزاع اتصال باستضافة النجاشي للمسلمين . ورد خبر النزاع في كتب السيرة والأخبار مباشرة بعد اللقاء العاصف بين جعفر وصحابته وعمرو بن العاص مبعوث المشركين وصاحبه ، ذلك اللقاء الذي انحاز فيه النجاشي للمسلمين بينما انحاز البطاركة لبعثة المشركين . فهل حرّض البطارقة من أدعياء العرش الأثيوبي من ينازع الملك ملكه ؟ يبدو هذا الأمر راجحاً تماما على ضوء القلق الذي أبداه المهاجرون من أن يحوز الملك رجل آخر لا يعرف من أمرهم ما يعرفه النجاشي . وفي الحقيقة فقد كان بعض البطاركة يعمل على تنصير المسلمين المهاجرين اليهم ، وأفلحوا في تنصير عبيد الله بن جحش الذي اتخذوه فيما بعد أداة للعمل التنصيري في أوساط المسلمين ولكنه لم يفلح إلى أن أهلكه الله . كان البطاركة لا يحنقون بداية على هذه الجماعة المسلمة الصغيرة العدد ، ولكنهم حين لاحظوا الأثر الذي أحدثته في النجاشي وبلاطه تغيّر أمرهم واصبح دورهم ودور من جاء بعدهم من القساوسة تحريض البلاط الحبشي على المسلمين حتى اصبحت السياسة الخارجية للحبشة لاتقوم إلا بدور التابع الدولي للصليبية الدولية العالمية .

ورد من محاولات البطاركة تنصير المسلمين أنهم كانوا يحرضونهم على دخول كنائسهم . روي البخاري في صحيحه عن السيدة عائشة (رض) أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة يقال لها ماريه رأياها في الحبشة فيها تصاوير . فذكرتا ذلك النبي (ص) فقال : إن اولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور ، اولئك أشرار الخلق عند الله يوم القيامه (٥٠) .

لم يؤثر عن هؤلاء الشباب المهاجر ، وأكثرهم كان أعزبا أو غير مصحوب بزوجته ، أنهم اتخذوا السراري أو الجواري وهم يعيشون في بلاد نساؤها أجمل خلق الله انسانا في موازين العرب، وكان الزواج منهن لمن يعيش في ظل بلاط ملك الحبشة من أيسر الأمور . كما كان اقتناء الاماء الحبشيات أمراً ميسوراً في موازين العصر ، فقد كانت الحبشة سوقا كبيراً للجواري والحريم . ولم يعمل هؤلاء المهاجرون في تجارة رقيق أو غيره ، وهم التجار وأبناء التجار . فقد كانوا يدركون روح فقه الرق في الاسلام وحرّمة خلق الله، وكانوا – أكثر من ذلك – يدركون أنهم لم يهاجروا لنساء يصيبوهن ، أو لدنيا يظفرون بها ، إنما كانت هجرتهم لله ولرسوله ، ولإ قامة مجتمع الدعوة والطهر والعدل .

ضمت أرض الهجرة بالحبشة رفاة خمسة عشر من المسلمين توفوا هناك وقبروا بتلك الأرض الطيبة . كان منهم عشرة رجال وخمس نساء من بيوتات قريش المختلفة . توفي من بني أسد : عمرو بن أمية بن الحرث ، ومن بني جمع : حاطب بن الحرث ، وأخوه حطاب ، ومن بني سهم : عبد الله بن الحرث بن قيس ، ومن بني عدي : عروة بن عبد العزي بن حرثان ، وعدي بن فضلة ، ومن بنى زهرة بن كلاب : المطلب بن أزهرعبد عوف ، وأخوه طليب بن أزهر . ومن بني تيم بن مرة : موسى بن الحرث بن خالد ، ووالدته ريطة بن الحرث بن جبيلة ، وأختاه عائشة بنت الحرث ، وأختها زينب بسبب ماء ملوث شربوا منه في إحدى الطرق ، ومن هذا البيت أيضا توفيت فاطمة بنت صفوان زوجة عروة بن سعيد بن العاص ، وأم حرملة بن عبد الأسود زوجة جهم بن قيس بن عبد شرحبيل (٥١) .

أما من ولد بأرض الهجرة بالحبشة من الصحابة فقد كانوا عشرين ، منهم خمسة عشر رجلاً وخمس نساء . فقد ولد لبني هاشم هناك : عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، وأخواه

عون ومحمد. ومن بني عبد شمس : ممد بن أبي حذيفة بن عتبة وسعيد بن خالد بن سعيد ، وأخته أمة بنت خالد ، وعبد الله بن عثمان بن عفان . ومن بني مخزوم : زينب بنت أبي سلمى ، ومن بني زهرة : عبد الله بن المطلب بن أزهر ، ومن بني تيم : موسى بن الحرث بن خالد ، وإخواته عائشة وفاطمة وزينب ، ومن بني جمح : الحرث بن حاطب بن الحرث، وأخوه محمد ، ومحمد بن حطاب بن الحرث ، والحرث بن سفيان بن معمر . ومن بني عامر : سليط بن عمرو . ومن بني مخزوم : عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة ، وعمر بن عبد الأسد (٥٢) .

عودة المهاجرين :

عاد جعفر وأصحابه من الحبشة ووافوا الرسول في خيبر . قيل وكان معه سبعون رجلاً من الحبشة عليهم ثياب من صوف منهم إثنان وستون قدموا من الحبشة . وثمانية قدموا من الشام . فقرأ عليهم الرسول (ص) صورة يس فبكوا حين سمعوا القرآن وقالوا : ما أشبه هذا بما كان ينزل على عيسى ، فانزل الله تعالى : (ولتجدن اقربهم مودّة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصاري) (٥٣) . أما قوله تعالى : (اذا سمعوا ما انزل الله علي الرسول تري اعينهم تفيض من الدمع) قال ابن عباس في رواية عطا . يريد النجاشي وأصحابه ، قرأ عليهم جعفر بالحبشة كهيعص فما زالوا يبكون حتى فرغ جعفر من القراءة . وعن سعيد بن خبير عن ابن عباس في قوله تعالى : (اذا سمعوا) قال : كانوا نواتين قدموا مع جعفر ابن أبي طالب من الحبشة ، فلما قرأ عليهم الرسول القرآن فاضت أعينهم من الدمع ، وعن سالم بن سعيد قال : نزلت هذه الآية في أصحاب النجاشي الذين أسلموا ، وكانوا سبعين رجلاً ، فقرأ عليهم الرسول (ص) سورة يس فبكوا وأسلموا (٥٤) .

ظفر المسلمون الذين هاجروا إلى الحبشة وقاموا بمهامهم خير قيام برضاء الله ورسوله وأصبحوا من أصحاب الهجرتين . عن أبي موسى أن أسماء لما قدمت من الحبشة لقيها عمر بن الخطاب في بعض طريق المدينة فقال : أألحبشية هي ؟ قالت : نعم . فقال : نعم القوم أنتم لولا أنكم سبقتكم بالهجرة . فقالت هي لعمر : كنتم مع رسول الله يحمل راجلكم ، ويعلم جاهلكم ، وفررنا بديننا . أما اني لا أرجع حتى أذكر ذلك للنبي (ص). فرجعت اليه بذلك

الحديث فأجابها : بل لكم الهجرة مرتين هجرتكم إلى المدينة وهجرتكم إلى الحبشة .

لم تشكل عودة جعفر وأصحابه نهاية العلاقة مع الحبشة التي كان ملكها قد أسلم ، فقد استمرت الوفود في الاتجاهين حتى وفاة النجاشي . وأخرج البيهقي في الدلائل عن أبي أمامة قال : قدم وفد النجاشي على النبي (ص) فقام يخدمهم . فقال أصحابه : نحن نكفيك . فقال : انهم كانوا لأصحابنا مكرمين ، وإني أحب أن أكافئهم (٥٥).

هوامش الفصل الثالث

١ - توفيق الطويل ، قصة الإضطهاد الديني في المسيحية والإسلام ، القاهرة ، دارة الفكر العربي ، ١٣٦٦هـ ، ص ٤٦ .

٢ - جلال مظهر ، حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ، القاهرة ، الخانجي ، دت ، ص ١٤٦ .

٣ - توفيق الطويل ، سبق ذكره ، ص ٣٤ .

٤ - نفسه ، ص ٣٥ .

٥ - نفسه ، ص ٤٩ .

٦ - متى : ١٦ : ١٩ .

٧ - يوحنا : ١ : ١٧ .

٨ - يوحنا : ٣ : ١٤ .

٩ - توفيق الطويل ، سبق ذكره ، ص ٥٢ .

١٠ - نفسه ، ص ٥٣ .

١١ - متى : ١ : ٥ .

١٢ - يوحنا : ١ : ١٠ .

١٣ - توفيق الطويل ، سبق ذكره ، ص ٥٤ .

١٤ - جلال مظهر ، سبق ذكره ، ص ١٥١ .

١٥ - عبد المجيد عابدين ، بين العرب والحبشة ، ص ٨٥ .

١٧ - عباس محمود العقاد ، داعي السماء - بلال مؤذن الرسول ، ص ٩٩ - ١٠٠ .

١٨ - الطبري (أحمد بن جرير ٨٤٥هـ/١٤٤١م) تاريخ الأمم والملوك ، مصر ، ١٩٣٩ ، ج١ ، ص ١٨١ .

١٩ - القاضي خان (علاء الدين بن عبد الباقي) الطراز المنقوش في محاسن الحبوش ، مخطوط ، ورقة ٨٤ .

٢٠ - راجع الفصل الثاني من البحث .

٢١ - السيوطي (جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن) رفع شأن الحبشان ، مخطوط ، ورقة ١٦ .

٢٢ - القنائي (أحمد الحفني القنائي الأزهري) الجواهر الحسان في تاريخ الحبشان ، ص ٢٢٤ .

٢٣ - نفسه ، ص ٢٤١ - ٢٤٢ .

٢٤ - تاريخ الأمم ، ج١ ، ص ١٨١ .

٢٥ - السيوطي ، (جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن) أزهار العروش في أخبار الحبوش ، مخطوط ، ورقة ١٧-١٨ .

٢٦ - ابن الأثير (أبو الحسن علي . ت ٦٣٠هـ/١٣٣٨م) الكامل في التاريخ ، بيروت ١٩٧٩ ، ج٢ ، ص ٢٩ .

٢٧ - رفع ، ورقة ١١ .

٢٨ - عمر بن فهد بن محمد بن محمد بن محمد ، اتحاف الورى بأخبار أم القرى ، ص ٢٦٧ - ٢٦٨ .

٢٩ – نفسه ، ص ٢٦٧ .

٣٠ – الطراز ، ورقة ٧٣ .

٣١ – نفسه ، ورقة ٧٦ .

٣٢ – نفسه ، ورقة ٨١ .

٣٣ – اتحاف ، ص ٢٦٩ .

٣٤ – السيوطى ، (جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن) أزهار العروش فى أخبار الحبوش ، مخطوط ، ورقة ٢٥ .

٣٥ – رفع ، ورقة ١٠٣ .

٣٦ – الطراز ، ورقة ١١٠ .

٣٧ – الجواهر ، ص ٨٣ .

٣٨ – الطراز ، ورقة ٨٨ .

٣٩ – نفسه ، ورقة ٩٠ .

٤٠ – أزهار ، ورقة ١٨ .

٤١ – الجواهر ، ص ٤٤ .

* فى إعتقادنا أن الشهادة التى وردت على لسان النجاشى هنا تعد هفوة من هفوات الإخباريين المسلمين . وهناك العديد من الهفوات وأحياناً السقطات لهؤلاء الإخباريين فى هذا الصدد .

٤٢ – أزهار ، ورقة ٤٧ .

٤٣ – نفسه ، ورقة ٥٠ .

٤٤ – الجواهر ، ص ٤٩ – ٥٠ .

٤٥ – رفع ، ورقه ٢٤ – ٢٥ .

٤٦ – الجواهر ، ص ٣١٧ – ٣١٨ .

٤٧ – نفسه ، ص ٢١٤ .

٤٨ – نفسه ، ص ٢١٤ –٢١٥ .

٤٩ – عباس محمود العقاد ، سبق ذكره ، ص ١٠٠ – ١٠١ .

٥٠ – أبو القاسم محمد تاج الدين الجبرتى الوللوى القاللوى ، إعلام الأغبيا بحياة عظما أثيوبيا من العلما والأوليا وسلاطين الإسلام والأصفيا ، مخطوط غير مصنَّف ، مكتبة جامعة إفريقيا العالمية ، الخرطوم ، ورقة ٦ .

٥١ – الجواهر ، ص ٣٢٠ .

٥٢ – نفسه ، ص ٣١٩ .

٥٣ – المائدة : ٨٢ – ٨٣ .

٥٤ – الطراز ، ورقة ٩٢ – ٩٣ .

٥٥ – رفع ، ورقة ٣٢ .

الفصل الرابع

الدويلات الإسلامية في الحبشة

(الطراز الإسلامي)

- الهجرات الإسلامية إلى الساحل الأفريقي
- دول الطراز الإسلامى
- مملكة شوا الإسلامية
- أسرة لاستا النصرانية
- إنهيار دولة شوا الإسلامية
- العلاقات بين إيفات (أوفات) وملوك البيت السليماني
- دولة عدل
- أمارة هرر وظهور الإمام أحمد

لم ترد أية أخبار تفيد تخلف أي من المهاجرين المسلمين في المنطقة الحبشية ، ويبدو أنهم عادوا جميعاً للمشاركة في حركة الجهاد المحلي ضد المشركين واليهود . كان العائدون من الحبشة – من صناديد الصحابة وأبطالهم – يقتحمون المجهول غير هيابين فقد ساموا أرواحهم لله فاعتمد الرسول (ص) على جهدهم فأصبحوا طلائع في السفارات الموفدة منه إلى البلاطات الأجنبية ، كما صاروا قادة الوقائع الحربية أيضاً . استشهد جعفر بن أبي طالب في غزوة مؤتة في جمادي عام ثمانية من الهجرة . كان جعفر ابن عم الرسول ، من قادة جيش زيد بن حارثة ، مولى الرسول (ص) ، فلما قتل زيد أخذ الراية جعفر فقاتل حتى قطعت يده والراية معه فلم يلقها . ولما قتل وجدوا به بضعاً وسبعين جرحاً ما بين ضربة بسيف وطعنة برمح ، وكلها فيما أقبل من بدنه .

لم يتوجه الأبطال العائدون من الحبشة بجهادهم إلى منطقة الحبشة ، تلك المنطقة التى عرفوها وخبروا عوراتها وامتحنوا مداخلها . فالحبشة – في رأيهم – أرض صدق ، ودار هجرة . توجهت حركة الجهاد إلى مراكز العدوان المتمثلة في مناطق المشركين واليهود في شبه الجزيرة العربية ، وفي دولتي الاستبكار وقتها : فارس والروم . أما الحبشة فقد نشأت فيها حركة اسلامية أخذت تؤهل نفسها للقيام بأمر الدعوة فيها ، والعمل على رد العدوان عن المجتمع المسلم ، فالجهاد واجب على المسلمين كلهم ، لم يكتب على العرب دون سواهم من أمم الأرض .

تورد الأخبار أن عدداً من الأحباش اعتنق الاسلام عن قناعة . وكان النجاشى من أبرز مسلمي الحبشة في تلك الفترة . وتسكت الأخبار عن دور النجاشي في نشرة الاسلام ببلاده . ويبدو أنه لم يقم بدور مؤثر في هذا المجال وذلك لأنه قد توفي في الفترة التالية لاسلامه مباشرة . وتورد الأخبار أيضاً أن بعض المتصلين بالبلاط الحبشي قد دخلوا إلى الاسلام . فأبرهه ، أحدى وصيفات القصر الملكي ، أبلغت السيدة أم حبيبة في أرض الهجرة ، أنها قد أسلمت . وكان اسلامها صادقاً كما نستنتج من إلحاحها على أم المؤمنين أن تبلغ عنها الرسول (ص) إنها قد اتبعت دينه ، وأن تبلغه عنها السلام . وتورد الأخبار أيضاً أن النواتية الذين قدموا صحبة جعفر قد أعلنوا بين يدي الرسول (ص) إسلامهم ، ووعدوه أنهم لن يرتدوا عن دينهم . ويمكن أن نسوق في هذا المجال شواهد كثيرة تتمثل في الحبش الوافدين إلى الحجاز في تجارة أو مهام أخرى ، والعائدين إلى بلادهم بالهدى والدين الحق . وتؤكد كل هذه الشواهد أن أول الدعاة في الحبشة كانوا أحباشاً .

ورد خبر غزوة حبشية على ميناء جدة في عهد الرسول (ص) ، وأنه أرسل علقمة بن مجزر المدلجي على رأس سرية من ثلاثمائة مقاتل لردها . (١) ولا نعتقد من جانبنا صحة هذا الخبر

. لم تكن جدة في عهد الرسول مركزاً اسلامياً نشطاً ولا مخزناً لمؤن المسلمين ، فقد كان ميناء الشعيبة هو الميناء الذي يخدم المجتمع المسلم في مكة . أما المدينة فقد كان يخدمها ميناء الجار . ولم ترث جدة ميناء الشعيبة إلا في عام ٢٦هـ على عهد الخليفة عثمان بن عفان الذي اعتمد ميناء جدة ، بناء على طلب تقدم به بعض سكانها ، ميناء بديلاً للشعيبة ومن ثمّ أخذ في الازدهار . (٢) ومع هذا لا نجزم بعدم وقوع اعتداء على مرسى جدة من بعض القراصنة ، الأحباش أو غيرهم ، فقد عجّ هذا البحر في هذه الفترة من التاريخ بالقراصنة . غير أننا لا نستطيع أن نصف غزوة القراصنة بأنها "غزوة حبشية" أو أنها كانت حركة منظمة من جهة سياسية بعينها ضد الوجود المسلم في الحجاز .

وتورد الأخبار أيضاً خبر حملة بحرية قادها علقمة بن مجزز المدلجي في عام ٢٠هـ/٦٤٠م لتأديب ميناء عدول ووقف تهديدات الحبشة ، (٣) وعن عودة هذه الحملة بعد أن خسرت ثلاث من أربع سفن خرجت عليهن . فهل خلط الأخباريون بين هذه الحملة وما نقلوه من أخبار الغزوة الأولى ، خاصة وأن الغزوتين كلتاهما – الحقيقية والمزعومة – كانتا بقيادة المدلجي ؟.

كانت التهديدات الحبشية – من ميناء عدول بصفة خاصة – حقيقة مؤكدة ، فهي تمثل جزءاً من حركة المقاومة العالمية للفتوحات الاسلامية في الشام بعد معركة أجنادين ١٥هـ/٦٣٦م ، ثم ما كان من مجيء الخليفة عمر لتسلم مدينة بيت المقدس . وقد كان بيت المقدس ذا أهمية خاصة لنصارى الأحباش ، ولميناء عدول بصفة خاصة . خرج الجيش المسلم عام ١٨هـ/٦٣٩م من فلسطين في اتجاه مصر ، وكان لنصارى مصر القيادة الدينية في بلاط الحبشة ، وكان بوسعهم تحريك حملة صليبية تجاه موانيء الحجاز لعرقلة الزحف الاسلامي في الشمال ، ولعلهم فعلوا . وإذا كان هذا الخبر صحيحاً نستطيع القول بأن أولى الحملات الصليبية ضد الاسلام خرجت من الحبشة بدافع غير حبشي ، وهذا أمر نلاحظ تواتره في تاريخ الحبشة بعدئذ . فكل حملات الحبشة ضد الإسلام في العصور الوسطى قادتها دوافع صليبية .

لم يكن تجار عدول – على إختلاف معتقداتهم ومللهم – أقل حرصاً من رجال الدين النصاري على مقاومة حركة الفتوح الاسلامية . فمنذ القرن الأول الميلادي – كما يحدثنا صاحب دليل الملاحة في البحر الأحمر – كانت عدول ذات علاقة وطيدة بالرأسمالية العالمية ، وهي واسطة عقد منضود من الموانيء الأوربية حتى الموانيء الهندية مروراً بموانيء الخليج العربى ، وكان لأمم هذه الأرض كلها وجود مادي ، وحضور بشري فى ذلك الميناء . يصف الدليل السلع في هذا الميناء ، فنجد فيها الأنسجة الواردة من الهند ومن مصر ، والزجاج المصري المختلف الألوان ، فمنه الغليظ الذي يشبه الحجارة ، ومنه الشفيف الباهظ الثمن ، كما كانت ترده أيضاً كميات وافرة من النحاس الأصفر والأحمر ، والخمور اللاذقية ، وزيت

الزيتون من الموانىء الإيطالية . وكان هذا الميناء يخدم تجارة العصر الروماني ويصل دولة أكسوم بالعالم الخارجي . (٤) وخدم هذا الميناء أيضاً تجارة دولة مروي فقد كانت الدروب تخرج منه إلى سهول السودان حتى دارفور وما وراء ذلك غرباً . فقد وجدت فيه سلع مختلفة من تلك الأرجاء . كما كانت دروبه تؤدي إلى غابات الكنغو والمناطق الداخلية الأخرى من أفريقيا . وتنطلق سفنه في اتجاه الهند مروراً بالخليج العربي وموانيء البحرين وهجر حتى لنجد خبره أو خبر ما اتصل به أسما أو منشأ في معلقة شاعر الجاهلى النصراني طرفة ابن العبد الذي عاش في البحرين . حيث يقول طرفة فى وصف ناقته : (٥)

كأن حدوج المالكية غدوه — خلايا سفين بالنواصف من دد
عدولية أو من سفين ابن يامن — يجور بها الملاح طوراً ويهتدي
يشق حباب الماء حيزومها بها — كما قسّم التربَ المفايل باليد

وحين تفككت دولة أكسوم بعد هزيمة الفيل ، ودخل الفرس إلى اليمن ، انزوت أكسوم خلف الجبال ، وانفلتت القبضة الرومانية ، وأصبح للرأسمالية الفارسية فيها دور كبير ، وأمسى الميناء دولة تجار . وكان على هؤلاء التجار أن يحافظوا على سلامة الدروب البرية التى أضيرت بحركة الجهاد في منطقة الشام ومصر ، وكان عليهم أن يدعموا الحملة الصليبية على سواحل الحجاز . ولكننا لم نعد نسمع بعدئذ عن حملات أخرى في ذلك الاتجاه ، فقد انتهت الامبراطورية الرومانية في مصر ، ولقي أقباط مصر تسامحاً لم يعهدوه . أما تجار أكسوم فقد انفتحت لهم الدروب البحرية والبرية بعد أستتباب حركة الفتوح وعادوا يمارسون تجارتهم . غير أن نمط الحياة في عدول وغيرها من موانيء البحر الأحمر وساحل أفريقيا الشرقى قد أخذ يتبدل بشكل سريع استجابة للمستجدات الناشئة في الدولة الاسلامية والتى أدت إلى قيام هجرات عربية كبيرة واستقرارها على ذلك الساحل .

الهجرات الإسلامية إلى الساحل الأفريقي :

· تتبعنا العلاقة بين ساحلي البحر الأحمر في منطقة الحبشة - اليمن إلا أن الوجود العربي القديم في منطقة الساحل الأفريقي الواقعة إلى الجنوب من البحر الأحمر كان موثراً وشاملاً حتى لنجد أن الإغريق والرومان أطلقوا على ذلك الساحل اسم ساحل عزانيا (أوسانى) نسبة - فيما يقال - إلى مملكة عربية تحمل اسم عزان قامت في جنوب الجزيرة العربية ثم انتقلت مؤثراتها الحضارية إلى شرق أفريقيا . وهناك استجابت تلك المؤثرات لحركة التغيير التى نجمت بتوافد قبائل الجالا والصومال والمساى وغيرهم إلى الساحل ، وأخضعت المنطقة لنماذج حياتهم (٦) ، وقامت أول المجتمعات التى تمثل التمازج والانصهار العربي الأفريقي . ونعتقد

بدورنا أننا – اذا اعتمدنا هذه الرّواية أو انكرناها – يجب أن نؤكد بأن العرب كانوا أول الشعوب التى عرفتها السواحل الأفريقية الشرقية المكشوفة السهلية البعيدة عن مواطن الغابات أو المرتفعات التي كانت تحمى القبائل الأفريقية بعضها عن بعض . ونضيف بأن العرب كانوا أول شعوب العالم اتصالاً وتزاوجاً وانصهاراً مع الجماعات البشرية الأفريقية التي وفدتهم في ذلك الساحل ، أو الجماعات التى ربما أقامت فيه بشكل متفرق .

وكان القرب الجغرافي هو الذي جعل الهجرة التبادلية لكل من الأحباش واليمنيين إلى كلا ساحلى البحر الأحمر ميسّرة . وإن أساس الحركة التى نشأت في المحيط الهندى على ساحل أفريقيا الشرقية وتطورت بالتعامل التجارى كان أساساً جغرافياً اعتمد على حركة الرياح والتيارات البحرية صيفاً وشتاءً ، كما اعتمد كذلك على طبيعة تشكيل الساحل الأفريقي وظهيره . فالرياح التى تؤثر في حركة الملاحة شتاءً من نوفمبر إلى مارس هي الموسمية الشمالية الشرقية ، بينما تسود الموسمية الجنوبية والغربية ما بين مايو وسبتمبر . أما الفواصل فيتمثلان في أبريل وأكتوبر ، وهما شهرا انتقال ما بين ظروف الصيف والشتاء لا تأخذ الرياح فيها اتجاهات ثابتة يعّول عليها في الملاحة الشراعية . ويعتبر شهر يناير شهر السيادة التامة للتيارات الهوائية الشمالية الشرقية الخارجة من آسيا نحو شرق أفريقيا . ففي هذا الشهر تصل نسبة الرياح الشمالية نحو ٦٠٪ ما بين خطي ١٠ – ٢٠ درجة جنوباً في خليج موزنبيق ، وإن كانت في هذا الجزء المتطرف تقابلها رياح جنوبية تتجه نحو خليج بيرا ، هذا فضلاً عن قلة الضباب وإن وجدت شابورة خفيفة على السواحل . ومن ثم كان فصل هبوب الرياح الشمالية الشرقية هو أفضل موسم يناسب حركة المراكب الشراعية (الداوات) من شبه الجزيرة العربية والخليج إلى شرق أفريقيا . وتعتبر مدينة سفالة هي الحد الجنوبي الذي يمكن الاستفادة من هذه الرياح في الوصول إليه . (٧) وقد شكلت سفالة فعلاً آخر المستوطنات العربية على الساحل الأفريقي في فترة سيادة الملاحة الشراعية .

ويُعد شهر يوليو شهر تحول الرياح من شمالية إلى جنوبية متجهة نحو آسيا . وتبدأ سيادة هذه الرياح اعتباراً من خط عرض ٨ جنوباً حتى سواحل الهند وشبه جزيرة العرب ، وتقل سيادة هذا الاتجاه إلى الجنوب من خط عرض ٢٠ جنوباً . ويتميز هذا الفصل بأن درجة وضوح الرؤية فيه أقل منها في الشتاء بعامة ، وتزداد نسبة السحب ، كما يكثر الضباب قرب مدخل البحر الأحمر . ومن ثم تقع رحلة الشتاء من عمان والجنوب العربي في الفترة ما بين نوفمبر وفبراير . أما السفن التى تبحر قبل هذا التاريخ فتتعرض لنسائم وتيارات شمالية ولكنها أقل قوة في دفعها للشراعيات التي تستغرق ما يتراوح بين ٣٠ – ٤٠ يوماً لتصل إلى زنجبار وممبسة . وتقل هذه الفترة الزمنية مع ثبات إتجاه الرياح الموسمية الشتوية وازدياد

قوتها . ففى ديسمبر تستغرق الرحلة بين ٢٠ -٣٠ يوماً ، ثم تقل مرة أخرى إلى ما يتراوح بين ٢٠ - ٢٥ يوماً للرحلة التى تبدأ في يناير . ويتضح من دراسة حركة وصول الدوات الأجنبية إلى موانىء شرق أفريقيا أنها تبلغ الذروة في شهر مارس . أما العدد القليل من الدوات التى ترد هذه الموانيء من مايو إلى نوفمبر فهو في الغالب من الهند . وتقوم الشراعيات برحلة الصيف أو رحلة الإياب ابتداء من أوائل أبريل . وتعتبر مثل هذه الرحلات مبكرة لعدم استقرار الرياح في هذا الفصل ، وتستغرق الرحلة ما بين ٣٠ - ٣٥ يوماً قبل منتصف أبريل ، وحوالى عشرين - يوماً إذا تحركت في الفترة من منتصف أبريل إلى منتصف مايو . ثم تأخذ حركة رحيل السفن الشراعية تخفت حتى يحل شهر أغسطس فلا تجد في نهايته داواً أجنبياً في تلك المرافىء .

ظلت الرياح الموسمية سراً من الأسرار التى احتفظ بها العرب والمتعاملون معهم من الهنود حتى حوالى عام ٤٥م حيث تمكن اغريقي ، لعله من تجار الاسكندرية ، من كشف حركة الرياح . وكان من نتيجة ذلك ظهور بعض الكتابات باللغتين اليونانية واللاتينية عن المحيط الهندي ، وحركة التجارة فيه . (٨)

أخذ الرؤساء الأفارقة يتجرون في سلع داخلية أفريقيا وفي الرقيق مع المراكز الساحلية التى أقام فيها جنس لا نستطيع أن نصفه بأنه جنس من العرب المتأفرقين ، أو الأفارقة المستعربين ، إنما هو هجين خليط من الدماء والثقافات العربية والأفريقية غذّته ، بعد ظهور الإسلام ، هجرات إسلامية عربية وفارسية كبيرة . كما غذّته أيضاً هجرات أكبر من مناطق أفريقيا الداخلية نتيجة للإزدهار التجاري الذي أحدثته في تلك المراكز الحركة التجارية المزدهرة بمتطلبات الدول الاسلامية التى استقرت وتعاملت في سلع الرفاهية . وأصبحت تلك المراكز على الساحل الأفريقى مناطق آمنة يلجأ إليها كل معارضى سياسات الدول الاسلامية المتعاقبة يجدون فيها الأمن ويصيبون الثراء ، ويهاجر إليها كل من رغب في الثراء وحياة الحضر من الأفارقة . ونشأ عن هذا التمازج ما أسماه الأوربيون أخيراً بالحضارة السواحلية ، وباللغة السواحلية التى ترجع في أصولها البعيدة إلى لغات أفريقية ، خاصة لغة البانتو ، ثم اتخذت عبر العصور صفات عربية وأصبحت لغة التجارة مع داخل أفريقيا .

أحدث الاسلام أثره في تلك المراكز نتيجة لاستيطان المسلمين على الساحل . ولعبت الحروب الأسرية والعقدية والسياسية والأمنية في بلاد الاسلام دورها في زيادة الهجرة إلى ساحل أفريقيا الشرقي . ونشأت مدن مثل مقديشو في ساحل الصومال التى أصبحت مع زيلع في الشمال تشكلان أهم منفذين لتياري الإسلام والعروبة والتحضر واستقرارها في الصومال . وسرى التيار العربى الإسلامى عبر القبائل من الشرق والجنوب إلى قلب الهضبة الحبشية

التى كانت سلطة أكسوم فيها تتفكك وتفسح المجال لسلطات أخرى تمثلت في سلطة رؤساء المناطق والقبائل الحبشية المختلفة . وإذا كانت هذه العوامل قد أثرت تأثيراً مباشراً على المناطق الجنوبية والجنوبية الشرقية من الهضبة الأثيوبية فقد أثرت تحركات البجة فى المناطق الشمالية والشمالية الشرقية وأدت إلى حجب دولة أكسوم واغلاقها عن كل المؤثرات الحضارية العالمية الأخرى ، وزادت في تفسحها السياسي . ويبدو أن سيطرة البجة على تلك المنطقة من ساحل البحر الأحمر الأفريقي أصبحت نافذة تماماً حتى أن اليعقوبي (ت ٢٨٢هـ - ٨٩٥م) يطلق على جميع الأرض الممتدة من جنوب أسوان وحتى سواحل البحر الأحمر في مناطق أريتريا وشمال الحبشة إسم مملكة البجة . (٩)

لم يكن البجة قوم متحضرون ، خاصة في بدايات تحركاتهم التى استدعتها العمليات الحربية التى شنتها عليهم دولة المقرة النصرانية في السودان . وأصبح البجة يمتهنون القرصنة البحرية ، فهم لا يحتاجون من التجارة العابرة إلا ما تقع عليه أيديهم سلباً ونهباً . لم تكن المناطق التى خرجوا منها تزخر بامكانات التجارة المشروعة على تلك الأيام فقاموا يهاجمون التجارة العابرة للبحر عبر مناطقهم ويشنون الغارات على السواحل المواجهة لهم ويعودون بالأسلاب . وتأثرت تجارة الدولة الأموية (٤١-١٣٢هـ/٦٦١-٧٥١م) بهذه القرصنة . أغار أولئك القراصنة في عهد عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦هـ/٦٨٤-٧٠٧م) على ميناء جدة مما دفع بالخليفة إلى ارسال حملة لاسكات الشغب في البحر الأحمر . تمكنت تلك الحملة من الاستيلاء على جزر دهلك التى استخدمت بعدئذ كمنفى للمغضوب عليهم (١٠) . استولت تلك الحملة أيضاً على ميناء مصوع وخرّبت ميناء عدول . وتمّ تأمين الملاحة في البحر الأحمر لتجارة الأمويين بعد تخريب مواطن القرصنة أو المحرضين عليها . وإذا كانت الضرورات الأمنية هي التى حركت الأمويين في هذا الاتجاه ، فإن الخلافات السياسية والعقدية التى شهدتها الحقبة الأموية أدّت إلى تسارع الهجرة العربية والاسلامية في اتجاه الحبشة . وكانت تلك الخلافات كثيرة ومتواترة .

أدت خلافات الأمويين مع الشيعة والخوارج وكذلك مع الأرستقراطية الحجازية إلى هجرات كبيرة في اتجاه الحبشة . هاجر العديد من أنصار الحسين بن على بعد معركة كربلاء في عهد يزيد بن معاوية (٦٠-٦٣هـ/ ٦٨٠-٦٨٣م) . وتشعبت إتجاهات هجرتهم ، وبلغ بعضهم إلى الحبشة . ثم كانت ثورة أهل الحجاز بقيادة عبد الله بن الزبير التى استعرت لتسع سنوات متصلة حتى انتهت بمقتل ابن الزبير في عام ٧٣هـ وتشتت أهل الحجاز ، وكانت السواحل الحبشية قبلة الكثيرين منهم . وفي عام ٧٦هـ/٦٩٥م قامت ثورة الأخوين سليمان وسعيد الجلندي ضد عبد الملك بن مروان وتصدى لها ولاة الحجاز من قبل الأمويين . وفرّ آل الجلندي

بأتباعهم من الأزد إلى ساحل أفريقيا الشرقي واستوطنوا - كما تشير العديد من المراجع - في جزيرة مافيا . وتعاقبت الهجرات العربية بشكل ملحوظ . ففي عام ١٢٣هـ ٧٤٠م وفدت هجرة زيدية واستقرت على الساحل ، ربما قرب مقديشو الحالية . (١١)

استمرت الهجرات تتدفق إلى ساحل أفريقيا الشرقي في عصر الدولة الأموية حتى إذا زالت تلك الدولة فرّ مروان الثاني ، آخر ملوكها ، إلى مصر فدخلها لثمان بقين من شوال ١٣٢هـ/٧٥٠م . وفي بوصير شتت صالح بن علي ، والي العباسيين على مصر ، فلول آخر الأمويين . وفرّ الخليفة المخلوع بأتباعه فوصل بعضهم إلى النوبة ، وتجاوزها آخرون فى الاتجاهات المختلفة . واتجه كثير من أنصار الأمويين إلى الحبشة ، أقرب الأراضي التى لم تكن للعباسيين سيطرة عليها رغم أنها تزخر بامكانات الاستقرار الاقتصادي ، واستقرّ بعض أولئك الهاربين في مصوع .

لا نرمى هنا إلى تتبع الهجرات الأسلامية ، فأمرها ممتد ، ولكننا نريد أن نؤكد أن الهجرة إلى ساحل أفريقيا الشرقي قد بلغت مداها في العصر العباسي حيث بلغ الأزدهار التجاري أوجه ، وبلغ الاستقرار السياسي ذروته ، وكان على المعارضين للعباسيين أن يتركوا أراضى تلك الدولة ليستقروا على تخومها . وتحدثنا الروايات عن هجرة قامت من الأحساء في عام ٩٢٤هـ/١٥١٨م دعامتها قبيلة الحارث العربية بزعامة سبعة أخوّة فروا من جور الحاكم ، واستقروا في ساحل أفريقيا حيث أسسوا هناك عدة مدن منها مقديشو ، فبراوة . وتشير الروايات أيضاً إلى أنهم كانوا شوافع فاضطر الزيود الذين كانوا في تلك المناطق أن يهربوا إلى الداخل ، ونشأت باختلاطهم مع سكان الداخل جماعة الأموزيدج . كما قامت هجرة من المسلمين الفرس واستقرت عند كلوة التى تقع على مقربة من ميناء دار السلام الحالي ، وتمكن قائدها على بن الحسن الشيرازي من إقامة دولة الزنج (٣٧٥-٩٠٤هـ/٩٨٥-١٤٩٨م) التى امتدت سلطتها إلى عدة موانيء وجزر شملت المنطقة من بمبا فى الشمال إلى سفالة في الجنوب . تقول تلك الروايات أن على بن الحسن كان ابن أمة حبشية ، فلما توفي والده لم يوقّره أخوانه وازدروه ، فركب البحر في أتباعه حتى بلغ زنجبار التى لم يستطع أن يستقر بها لاختلاف مذهبه الشيعى عن المذهب السني السائد هناك . فواصل على بن الحسن سيره شمالاً حتى بلغ كلوة واشترى الجزيرة من أهلها شرط أن يخلوها له وينسحبوا إلى الساحل ، ففعلوا . أما جزيرة بات فلربما يرجع تأسيسها إلى عهد عبد الملك بن مروان ، الخليفة الأموي ، الذي شهد عهده تأسيس العرب لعدد من المدن في تلك الرقعة من الساحل مثل ماليندة وزنجبار وممبسة ولامو وكلوة وبات (١٢) . وبادر العباسيون إلى تدعيم مراكز الاستقرار في شرق أفريقيا ، وشجع الخليفة هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ/٧٨٦-٨٠٨م)

العديد من العناصر ، خاصة الفرس ، على الاقامة في تلك المراكز . وتوالت الهجرات العربية والإسلامية على تلك السواحل .

قامت في عام ٦٠١هـ هجرة عربية كبيرة من إقليم عمان تزعمها ملوك بني نبهان فغادروا عمان إلى بات التي وجدوا فيها جماعات كبيرة خليطاً من العرب والفرس والأفارقة . ونظراً للشخصية التي كان يتمتع بها الملك النبهاني الذي كان ملكاً على عمان فقد استقبله المسلمون والعرب الذين كان معظمهم من إقليم عمان استقبالاً طيباً . وحين تزوج الملك النبهاني من ابنة حاكم الجزيرة السواحيلي إسحاق تنازل الأخير للأول عن حكم الجزيرة ، وبدأ حكم الأسرة النبهانية في بات . (١٣) وهكذا أصبحت الهضبة الحبشية بنصاراها ووثنيها تجاور كتلاً اسلامية مختلفة الأهواء والمشارب والسياسات ولكنها ، في اختلافها وفي اتفاقها على حد سواء ، كانت ترسل إشعاع الاسلام متخطياً الحواجز الطبيعية والعرقية لينفذ إلى داخل القارة . فإذا تناصرت المراكز الاسلامية على الساحل – ونادراً ما يحدث ذلك – شكّل الاسلام قوّة ، وأصبح بدعوته للإخاء قدوة ، يسعى إليها غير المسلمين ، وإذا تنافرت وتنازعت هرب طرف أو آخر إلى داخل القارة ، وهناك يتشرنق حوله مجتمع إسلامي جديد . وكانت دول الطراز التي قامت حول الهضبة الحبشية تجسيداً حياً لهذا الائتلاف والاختلاف .

دول الطراز الإسلامي : (ممالك عدل أو الزيلع)

تأسست هذه الممالك في القرن الثالث عشر الميلادي . يقول المقريزي "كان أول قيام هذه الدولة أن قوماً من قريش قدموا من الحجاز ، ونزلوا أرض جبرت ، وهي أراضي الزيلع ، واستوطنوها وأقاموا بمدينة أوفات . وعرفت جماعة منهم بالخير ، واشتهروا بالصلاح ، إلى أن كان منهم عمر الذي يقال له ولشمع ، ولاه الحطي مدينة أوفات وأعمالها فحكم بها مدة طويلة ومات ، وترك أربعة أولاد أو خمسة ملكوا أوفات من بعده واحداً بعد الآخر ، وتوفي آخرهم ، صبر الدين في حدود ٧٠٠هـ . (١٤)

يقول القلقشندي في صبح الأعشى أن دول الطراز تقع على أعالي بحر القلزم ، وما يتصل به من بحر الهند ، ويعبر عنه بالطراز الاسلامي لأنه على جانب البحر كالطراز له ، وهي البلاد التي يقال لها بمصر والشام بلاد الزيلع ، والزيلع إنما هي قرية من قراها غلب عليها اسمها . وتشمتمل هذه البلاد علي سبع قواعد كل قاعدة منها مملكة مستقلة يقوم عليها ملك مستقل . وطول أرض الزيلع براً نحو شهرين إلا أن غالبها قفار غير مسكونة . ومقدار العمارة مسافة ثلاثة وأربعين يوماً طولاً في عرض أربعين يوماً . أما ممالكها السبع فهي أوفات (ايفات) وداوارو وأرابيني وهدية وشرخا وبالي ودارة . ويتسلط الحطي ، ملك أمهرة ، على ملوك هذه

المالك ويأخذ منهم القطيعة من المال في كل سنة ، وهي قماش وغيره ، وكلها ممالك ضعيفة قليلة المتحصل ، وفيها المساجد والجوامع التي تقام بها الجمعة والجماعة ، وعند أهلها محافظة على الدين ، ويقال لها الجبرت . (١٥)

ويذكر القلقشندي نقلاً عن مسالك الأبصار في وصف بيوتهم وأحوالهم الاجتماعية وأشكالهم فيقول أن بيوتهم من طين وأحجار وأخشاب مسقفة بجمالونات وقباب ، وليست بذات أسوار أو بها فخامة في البناء . ومن ذلك فيها الجوامع والمساجد وعند أهلها محافظة على الدين ، إلا أنهم لا تعرف عندهم مدرسة ولا خانقاه ولا رباط ولا زاوية وهي بلاد شديدة الحر ، وألوان أهلها تميل إلى الاصفرار ، وليست شعورهم كما في أهل مللي وما يليها من جنوب الغرب . فطنتهم أنبه من غيرهم من السودان ، وفطرهم أزكى . (١٦) فيهم الزهاد والأبرار والفقهاء والعلماء ويتمذهبون بمذهب أبي حنيفة النعمان .

ومملكة أوفات (جبرت) طولها خمسة عشر يوماً في عرض عشرين يوماً ، كلها عامرة بالقرى . والأسعار بها رخيصة يباع كل عرجون فيه نحو مائة أوزة بربع درهم . أما اللحم فيباع الطابق منه ، وهو ثلاثون رطلاً ، بدرهم ونصف ، وملك أوفات يحكم على الزيلع . غالب أهلها شافعية وبعضهم أحناف . وكلام أهلها باللغة الحبشية ، ويتكلمون أيضاً بالعربية . ولهذه المملكة عدة مدن . وملكها يجلس على كرسي ، ويركب بالطبل والزمر ، وعندهم الفواكه ، وقصب السكر ، ويجلب اليها الذهب من داموت وسحام ، وهما منطقتا تعدين ببلاد الحبشة وبه معاملتهم . ولهم نباتات لا يعرف بمصر والشام مثل القات ، وهي نبات لا ثمر له ، يؤكل ورقة و يشبه أوراق شجر النارنج . (١٧) تقع أوفات شرقي شوا ، ومن مضافاتها زيلع التى هى ميناء من موانئها .

ومملكة دوارو طولها خمسة أيام في عرض يومين ، وأهلها حنفية المذهب ، ومعاملاتهم بالحديد ، تسمى الواحدة من تلك الحدايد حنكة ، وتباع البقرة بخمسة آلاف حنكة ، ورأس الغنم بثلاثة آلاف حنكة ، والحنكة طول الإبرة في عرض ثلاثة . ومملكة دوارو مجاورة لأوفات وتقع إلى الجنوب منها .

أما ثالثة الممالك الاسلامية فهي أرابيني التي تقع شمال شرق بحيرة تانا ، طولها أربعة أيام وعرضها كذلك ، وأهلها أحناف وهي تلي دوارو ، وهم كأهلها في المعاملة وغيرها .

وتعد هدية التى تقع جنوب أوفات رابعة هذه الممالك ، وطولها ثمانية أيام وعرضها تسعة أيام ، وملكها أكثر الجميع عسكراً ، وزيهم كزي أهل أرابينى ، حتى في المعاملة وإليها تجلب الخدام الخصيان الذين يعرفون بالطواشية . يأتي سراق العبيد بهم إلى مدينة وشلو ، وأهلها

همج لا دين لهم . ويخصى العبيد هناك ثم يساقون إلى هدية حيث يعالجون حتى يبرأوا . وجدير بالذكر أن الحطى كان يمنع خصي العبيد ويشتد في ذلك . (١٨)

ومملكة شرخا ، خامسة ممالك الطراز ، طولها ثلاثة أيام وعرضها أربعة أيام ، وأهلها أحناف . وهي تجاور مملكة بالى ، أكثر ممالك الطراز خصباً . وطول هذه المملكة الأخيرة عشرون يوماً في عرض ستة أيام . وأهلها يتعاملون بالمقايضة غنماً ببقر ، وبقراً بثياب ، ونحو ذلك . وهي تقع غربي أوفات . وربما كانت فى موقع منطقة ساركا الواقعة في أقليم جودجام جنوب الحبشة . (١٩)

أما سابع ممالك الطراز فهي دارة التى يبلغ طولها ثلاثة أيام ، وعرضها كذلك ، وهي أضعف ممالك الزيلع ، وأهلها أحناف ، وهم أيضاً يتعاملون بالمقايضة . وتقع دارة إلى الجنوب الغربي من بحيرة تانا . (٢٠)

ويجاور هذه الممالك باضع وسواكن ودهلك ، وأهلها مسلمون لكنهم يتحدثون ألسنة مختلفة ، ويكتبون بالقلم الحبشي من اليمين إلى الشمال . وتبلغ حروف هذه اللغة المكتوبة ستة عشر حرفاً لكل حرف سبعة فروع . وجملة ذلك مائة واثنا عشر حرفاً سوى حروف أخري مستقلة بذواتها مضبوطة بحركات متصلة بالحرف لا منفصلة عنه . (٢١)

وأكثر ملوك هذه الممالك يأخذون الملك بالوراثة ومع ذلك فلا يستقل أحد منهم بملك إلا من أقامه سلطان أمحرة . وإذا مات منهم ملك قام من أهله رجال قصدوا جميعهم سلطان أمحرة وتقربوا اليه جهد الطاقة فيختار منهم رجلاً يوليه . فاذا ولاه سمع له البقية وأطاعوا . (٢٢)

مملكة شوا الإسلامية :

لم يتناول أهل المصنفات العربية والإخباريون أحداث مملكة شوا ولم يشيروا إليها . لم تكن شوا من دول الطراز الإسلامي التي عرفوها ، إنما هي دولة قامت في منطقة شوا في قلب الهضبة الحبشية ، وعند أمنع المعاقل في مرتفعات الحبشة حيث تقع أديس أبابا ، عاصمة أثيوبيا الحالية . ولا نملك من المصادر ما يشير إلى الطريقة التي تم بها إنشاء تلك الدولة إلا اننا ندرك بداهة أن تلك الدولة الاسلامية لم تقم نتيجة حروب ولا غارات ولا اقتتال إنما هي نتاج تطور سلمي طبيعي أثمر عن قيامها في تلك المنطقة الحصينة المنيعة التي ما كان للتجار المسلمين أو الدعاة أو الجند أن يبلغوها بوسائل قتالية . تدعّي تلك الدولة الاسلامية التي ترد المصادر المتأخرة قيامها إلى حوالي عام ٢٨٣هـ/٨٨٤م نسباً مخزومياً قرشياً عربياً . (٢٣) ولعل في هذا النسب ، كما في إغفال المصنفات العربية لذكر تلك الدولة ، ما يثبت أن هناك أسرة من بني مخزوم عاشت في تلك المنطقة حيث دعت إلى الإسلام عن قصد أو بغير

تخطيط . وتبلورت حول تلك الأسرة بدايات دولة إسلامية إشتد ساعدها وقويت بأهل المنطقة الذين أصبحوا مسلمين لا يربطهم بعرب الجزيرة سوى ذلك النسب البعيد لأمرائهم للبيت المخزومي . ولا تحفظ لنا المصادر أخبار هجرات مخزومية كبيرة إلى هذه المنطقة مما يدل على أن الوجود العربي في هذه المنطقة لم يكن بذي تأثير كبير ، أما الوجود الاسلامي فهو الذي أدى إلى قيام تلك الدولة وانتشارها في تلك الهضبة الحصينة واستمرارها في الحكم لفترة أربعة قرون . وقد ظلت تلك الدولة بمعزل عن دول الطراز الإسلامي ، ولا نعرف لها أية اتصالات خارجية .

يعتقد المؤرخون أن ملوك هذه الدولة يعودون إلى ود بن هشام المخزومي الذي هاجر من الحجاز في جماعة من قومه بني مخزوم على أيام الخليفة عمر بن الخطاب . ويبدو أنهم أقاموا لفترة في شوا بعيداً عن سلطة أكسوم المهترئة . وانتشر الاسلام في المنطقة مما أتاح لبني مخزوم إقامة تلك الدولة (٢٨٣-٢٨٨هـ/٨٨٤-١٢٨٨م) . ويبدو أنه كان لهذه الدولة علاقات بأكسوم وملوكها إذ تثبت الوثيقة اليتيمة التي عثر عليها شيرولي في عام ١٩٢٦م التي تتحدث عن هذه الدولة أن بعض ملوكها المسلمين كانوا يهربون حين ينهزمون أمام منافسيهم إلى مملكة أكسوم ، وأن الأخيرة كانت تساعد أولئك الملوك على استعادة عروشهم . كما هرب آخر ملوك أكسوم وأتباعه إلى دولة شوا الاسلامية بعد سقوط الأسرة الأكسومية الحاكمة وقيام أسرة الأجويين في عام ٣٢٩هـ/٩٤٠م . (٢٤)

دولة لاستا النصرانية :

مثلث هذه الدولة الكتلة الثالثة من السلطة في المنطقة الحبشية . فهناك دول الطراز الإسلامي ذات العلاقة الأقرب إلى التبعية لسطة أكسوم ، ودولة شوا التي لم ترتبط بتبعية لها ، ثم دولة الأجويين التي توسعت على أنقاض تلك الدولة .

تنحدر أسرة الزجويين ، وهم فرع من الأجاو ، من مقاطعة لاستا الواقعة إلى الشرق من بحيرة تانا . واستطاعت بمجهود لا نعرف مقداره لعدم وجود مصادر ، أن تستولي من أكسوم على السلطة في منتصف القرن العاشر الميلادي . وارتكزت هذه الدولة على إدعاء قديم لا يقل وجاهة عن إدعاء الأسرة الأكسومية السليمانية . تقول الأساطير الحبشية أن سليمان أنجب ولدين أحدهما من الملكة ماكيدا والآخر من وصيفتها ورئيسة حرسها ، وأن الأجويين هم من نسل ابن الوصيفة . وبهذه الإسطورة استطاعت تلك الأسرة أن تحتفظ بالملك قرابة ثلاثة قرون ونصف ، وتداول عرشها في هذه الأثناء إثنان وثلاثون ملكاً ، كان أولهم الملكة جوديت أو أستير التي يذكر أنها كانت تدين باليهودية . اضطهدت هذه الملكة النصاري ، وقتلت الكثير

من القساوسة والرهبان ، وخلع الآخرون منهم ملابسهم المميزة وهربوا ، كما خربت الأديرة والكنائس واستولت على نفائسها . (٢٥)

تقول الروايات الحبشية أن جوديت أو أستير قامت من المنطقة التي يقطنها يهود الفلاشا في منطقة سمين الواقعة شمالي الحبشة إلى جهة الشرق تساعدها جموع من قبيلة زاجوا ، وهم فرع من الأجاو الذين يقطنون الجزء الجنوبي من الهضبة الحبشية . استولت هذه الملكة على أكسوم وذبحت جموع النصارى الذين تحصنوا فى قلعة دامو . ولكن الغريب فى الأمر أن حلفاءها من الحكام كانوا من إقليم لاستا . وكان لهؤلاء الحكام صلة قرابة بالملكة ، كما كانوا يدينون بالنصرانية التي كانت مختلفة عن تلك التى كان يدين بها الأكسوميون إختلافاً كبيراً . ولربما أدخل نصارى هذه الأسرة بعض أفكار من الإسلام على تلك النصرانية ثم وضعوا هذه الخليط في قوالب خرافات محلية ومعتقدات قديمة . (٢٦)

حكمت هذه الملكة أربعين عاما (٣٢٩-٣٧٠هـ/٩٤٠-٩٨٠م) وخلفها تخلي هيماتوت (٣٧٠-٣٨٥هـ/٩٨٠-٩٩٥م) الذي أخذ يعيد الكنيسة والأديرة اعتبارها ، كما أرسل إلى مصر يطلب إعادة العلاقات بين كنيسته والكنيسة القبطية إلى سائر عهدها . (٢٧) جاء في سيرة الأنبا فيلاثاوس (٣٦٠-٣٨٥هـ/٩٧٠-٩٩٥م) أن الملك جورج الثاني ملك النوبة (٩٦٩-١٠٠٢م) توسط لدى البطريك لإعادة العلاقات بين الكنيستين القبطية والحبشية إلى سابق عهدها . وأن البطريك استجاب لوساطة الملك السوداني فسيّر الأنبا دانيال إلى لاستا حيث لقي هناك استقبالاً طيباً (٢٨) وأخذ في تنظيم الشؤون الكنسية هناك .

عاصرت فترة تأسيس هذه الأسرة الخليفة "الفاطمي الحاكم بأمر الله (٣٨٦هـ/٩٩٦-١٠٢١م) الذي سام أهل مصر ، مسلميها ونصاراها ، صنوف الاضطهاد* حتى هرب الكثير منهم إلى الصعيد وإلى السودان واستقروا هناك . وكانت أسفار الأقباط المصريين أبعد مدى حيث وجدوا في بلاط الحبشة ترحيباً . وأفادت الحبشة من جهود هؤلاء المهاجرين فأخذت الصناعات والحرف والفنون في الأزدهار ، سيما فن البناء . وفى عام ١١٣٧م أخذم أمر الزجويين في الثبات حيث أسسوا لهم عاصمة في روحا ROHA في قلب بلادهم ، ولكن يبدو أن الكنيسة لم تكن بادىء الأمر راضية عن هذه الأسرة . وتبلورت معارضة حول "أبونا" ميخائيل أراد الملك الزجوي تجاوزها فأرسل إلى البطريك يوحنا (١١٤٨-١١٦٧م) يطلب اليه تعيين "أبونا" جديد لكنيسة الحبشة بحجة أن ميخائيل أصبح عجوزاً لا يقوي على تصريف شؤون الكنيسة . وقد رفض بطريك الاسكندرية الاستجابة لهذا الطلب فالقوانين الكنسية لا تجيز له تعيين قسيس جديد يرعي الكنيسة ما لم يشغر منصبه بالموت . واتصل الملك بالوزير المصري علي بن صالح الذي مارس ضغوطاً مختلفة على

البطريك ، بما فيها السجن ، ولكنه رفض الامتثال . ويبدو أن الملوك الزجويين استقطبوا مع الوقت المعارضة النصرانية بالاجتهاد في خدمة الكنيسة والعمل بهمة في التنصير وسط شعبهم ، وبناء الكنائس والأديرة ، فاعترفت بهم الكنيسة أبناء لسليمان .

أخذت أسرة الأجويين في الامتداد حتى وصلت الركن الجنوبي الشرقي من الهضبة وإلى تخوم دول الطراز الإسلامي . وفي الحقيقة فاننا لا نعرف الكثير عن أعمال هذه الأسرة إلا ما كان من عهد الملك لاليبالا بن جان سيوم (٥٨٦-٦٢٢هـ/١١٩٠-١٢٢٥م) وهو الملك السابع من ملوك هذه الأسرة ، وكان قد اتخذ لنفسه اسم جبرا ماسكال الثاني (خادم الصليب) حين اعتلي العرش ، أهتم هذا الملك بتعمير الأديرة وبناء الكنائس فأصاب بين القساوسة ونصارى الحبشة صيتاً طيباً حتى لقبوه بسليمان الثانى ، ورفعوه بعد موته إلى مرتبة القديسين . (٢٩)

لم تمارس أسرة الأجويين أية سلطة أو نفوذ حقيقي في أمارات الطراز الاسلامي ، أما جودجام والركن الجنوبي من الهضبة فقد ظلتا بعيدتين عن سلطة الأجويين . وتذهب الروايات إلى أنهما كانتا تحكمان ، بشكل أو بآخر ، بملوك الأسرة الأكسومية القديمة . تقول الروايات أن أحد أمراء الأسرة السليمانية السابقة قد فرّ إليى تلك المنطقة ولقي من أهلها الترحيب والطاعة . وظلت سلالته من بعده تحكم تلك المنطقة طيلة الثلاثة قرون ونصف التى عاشتها الأسرة الأجوية على عرش لاستا . وحين أشتد أمر تلك السلالة الطريدة قضوا على الأسرة اللاستية وأخذوا في استعادة سيطرتهم واسترداد ملكهم . (٣٠)

انهيار دولة شوا الإسلامية :

ظهر في شوا الاسلامية من يدعي يكونو ملاك مدعياً نسباً إلى الأسرة السليمانية . تقول الروايات أن هذا الرجل كان من سلالة أمراء أسرة أكسوم الذين فروا إلى شوا بعد انهيار ملكهم على يد الأجويين في عام ٣٢٩هـ/٩٤٠م . عمد يكونو ملاك إلى الاتصال بتكلاهيمانوت ، رئيس دير دبراليبانوس ، وعقد تحالفاً مع الكنيسة يقضي بأن يقدم لها ثلث أراضي دولته المرتقبة ، وأن ينصب تكلاهيمانوت رئيساً للرهبان الأحباش ، وأن يكون منصب رئيس دير دبراليبانوس وقفاً على تكلاهيمانوت وسلالته من بعده يتوارثونه ، وأن يكون ذلك الدير حلقة الاتصال بين المطران المصري الذي سيعمل على استقدامه وبين الأكليروس الحبشي .

كانت تلك صفقة رابحة ليكونو ملاك وجماعاته العشائرية ، ولتكلاهيمانوت وعشيرته الذين ستبقي فيهم المناصب الدينية ، ولكل العاملين بالأديرة والكنائس المختلفة الذين راودهم حلم الثراء جراء الاقطاعيات التي ستوقف عليهم باسم الكنيسة . وبدأ هذا التحالف العشائري الديني يعمل فاتصل تكلاهيمانوت بالمدعو نكويتالاب ، آخر ملوك الأجويين في لاستا ، يفاوضه

في التنازل عن ملكه ليكونو ملاك بحكم انحدار الأخير من أصلاب الأسرة الملكية القديمة ، وبحكم حماسته للنصرانية وقساوستها الذين لم يهتم لهم أكثر ملوك تلك الأسرة الأجوية الذين قام بعضهم بتهديم الكنائس وتخريبها . واستند تكلاهيمانوت في الشروط المقدمة لقاء الحصول على موافقة الملك الأجوي على جند أعدّه من ست ولايات من شمال الحبشة وتساهل في الشروط المقدّمة للملك الأجوى كي يظفر بموافقته ، فعرض عليه الاحتفاظ بولاية لاستا ولاية وراثية للأجويين ، وأن يكون لهم عرش ذهبي كعرش الإمبراطور ، وأن تكون لهم الطبول المحلاة بالفضة ، وأن تكون لهم الشارات الملكية المصنوعة من الفضة كذلك .(٣١)

كان يكونو ملاك رجلاً داهية فأحكم التخطيط . استطاع هذا الرجل أن يجمع عشيرته إلى سلطة الكنيسة وعشائر الكهان والرهبان ، ولكنه كان يخشي الجبهة الاسلامية المتمثلة في دولة شوا التي أخذ سلاطينها يتنازعون ملكها ويقتتلون فيما بينهم ، وكذلك دول الطراز الاسلامي المتنافرة اقتصادياً المتطلعة إلى الرئاسة والسلطان دون هدف بارز تسعى إلى تحقيقه . استثمر يكونو ملاك هذا التطلع في عمر ولسمع الذي كان يحكم في ايفات ومنّاه باطلاق يده للحصول على ملك شوا على أن يقدم ولسمع له الدعم والمساندة والجند والسلاح ليظفر بها على الأجويين . يقضى التحالف بأن يكون ولسمع سلطاناً على كل الولايات الإسلامية في الحبشة ، له حرية التصرف المطلق فيها ، وأن يرث السلطنة أولاده من بعده بضمان هذا التحالف الذي يجعله اسمياً تابعاً ليكونو ملاك الذي تعهد له تعهداً ملزماً لمن يخلفه أيضاً بضمان الملك في أسرة ولسمع . (٣٢)

تدخل عمر ولسمع لي نزاع السلطنة في شوا ، وناصر بعض سلاطينها المتنافسين على الحكم على البعض الآخر ، وأجّج ثورات صاحب مورة وصاحب جداية وصاحب دجين ، وهي من أمارات شوا الشرقية الواقعة في مجاورة إيفات . وأرسل عمر ولسمع أربع غزوات خربت شوا ، كانت الأولي منها في رجب عام ٦٧٥/١٢٧٦م على عهد دلمارة الثاني القصير ، وكانت الثانية في رمضان عام ٦٧٨/١٢٨٠م على عهد دلجامس الثالث ملك شوا (٦٧٧-٦٨٧م) . ووقعت الغزوة الثالثة في ربيع الآخر عام ٦٨٤ . أما الغزوة الرابعة التي كانت بقيادة صبر الدين بن عمر ولسمع فقد قامت في عام ٦٨٧هـ وانتهت بسقوط دولة شوا الضعيفة المنهكة فى ٦٨٨هـ ، وضمّها إلى سلطنة إيفات التي أصبح أمر ضمان استقرار الأمارة فيها أمر من شأن حطى البيت السليماني . (٣٣) وبهذا انهت أسرة ولسمع التفوق الحبشي الإسلامي المتمثل في شوا ودول الطراز ليبدأ عهد من التفوق الحبشي النصراني الذي أصبح يتحكم في أسرة ولسمع . وبدأ يكونو ملاك بأن أقام عاصمته فى تاجيلات في قلب أقليم شوا الذي أخضعه ولسمع ولم ينل منه إلا الأطراف التي لم يستطع المحافظة عليها طويلاً أمام تحرشات الملك الحبشي يكونو ملاك وغزوه للمنطقة الاسلامية .

العلاقة بين أفات (إيفات) وملوك البيت السليماني :

تشير المصادر إلى أن أسرة ولسمع الحاكمة في أوفات (إيفات) كانت من أرومة عربية طيبة ، فقد ردها البعض إلى بني عبد الدار فيما رجّحت أكثر المصادر نسبتها إلى بني هاشم وحصرتها في ذرية عقيل بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن مناف التي ذكر أنها نزلت إيفات واستوطنتها ، (٣٤) وأصبح لهم فيها السيادة والحكم . وكانت إيفات هي المقدمة على غيرها من دول الطراز ولكنها دخلت في تحالف مع يكونوملاك وانهت حكم دولة اسلامية في الهضبة الحبشية وأفسحت المجال لتمدد دولة نصرانية . وفي الحقيقة فإن تنافس الدويلات الاسلامية في الاضرار بعضها ببعض ظاهرة متكررة في التاريخ الاسلامي التي غالباً ما تقدم دولها علي أسر ارستقراطية بعينها اكتسبت الريادة ثم الرئاسة والحكم في منطقة ما . ولما كانت تلك الأسر قد اكتسبت وضعها المتميز من انتسابها إلى الأشراف ، أو مناصرتها لدعوة دينية بعينها ، أو حصولها على وضع مالي متميز يحكم اشتغالها بالتجارة وشؤن المال ، فإن نظرتها للأسر المماثلة في المنطقة كانت تطفح بالكثير من التحاسد والتنافر . تخشي تلك الأسر على أوضاعها المكتسبة فى الحكم والرئاسة من توفر عامل الوحدة بين شعوب المنطقة الاسلامية فتراها تعمل على تبديدها . فبالوحدة تفقد أسرة ما رئاستها لصالح أسرة أخرى مماثلة . ولهذا كان تطلع كل دويلة مسلمة إلى حليف غير مسلم لتستعين به على ضرب نظام الحكم في الدولة الاسلامية المجاورة لها وذلك حتى تتمكن تلك الدولة من الحفاظ على "استقلالها" واستقرار الحكم" في الأسرة المعنية . وتفقد الأسر الاسلامية ودويلاتها الواحدة تلو الأخرى استقلالها لصالح القوة المتربصة حتى لا يبقى منها غير الدويلة المتحالفة معها ، والتى سيصبح أمر التعامل معها سهلا وذلك باستقطابها وحمايتها ما قامت بالمهمة المنوطة بها ، أو بالاطاحة بها وبأسرتها الحاكمة إذا تطلعت لسيادة أو نصرة دينها ومبادئها .

كانت المناطق الإسلامية أكبر مساحة من المناطق النصرانية في الحبشة ، وأكثر سكاناً ، وتزخر بالتجارات التي تربط المنطقة بالعالم الخارجي . كما كانت أو فر حظاً في الثقافة والتعليم ، ولكنها لم تكن تستند إلى فكرة أو مبدأ في نظام الحكم والسياسة يؤدي بها إلى الاستقرار . تفوق يكونو ملاك على تلك الأمارات بأن وضع له هدفاً في الحكم وخطة لتثبيت ملكه . قامت خطته على توسيع دائرة النصرانية ، واستغلال رجال هذا الدين ، يربطهم بعرشه مادياً وأسرياً ومصيرياً ، وإقامة خلايا من الأديرة والكنائس على طول البلاد وعرضها ، وتفريغ الأرض من سكانها المسلمين بالقتل أو التشريد . واقتضت خطته أن يستغل التنافس الأسري بين البيوتات الحاكمة في المنطقة الاسلامية لضرب بعضهم البعض ، وأن يعين كل أسرة من هذه الأسر الموالية له بالمال والرجال والسلاح حتى تظفر بمنافستها . ومن ثم يضمن

ولاءها لفترة ما يحقق فيها أهدافه منها ، ثم يعود عليها بالبوار . على هذه الاستراتيجية سارت سياسة هذا الملك ومن خلفه من الأسرة السليمانية ، وحققت نجاحاً باهراً حتى قضت على تلك الأسر المسلمة جميعها التي ، لو تعاونت فيما بينها واجتمعت عليه ، لكان أمرها مختلفاً . ولعلنا نجد في هذا الأمر تفسيراً لانتشار الكنائس في الحبشة حتى قال بعض المعاصرين لتلك الحقبة أن عدد كنائس الحبشة فاق مجموع كنائس أوربا مجتمعة . كما تدلنا المصادر أن كل حكام الأقاليم كانوا من البطاركة ، وكذلك قادة الجيوش فقد كانوا في أغلبهم من البطاركة المصهرين إلى الأسرة الحاكمة .

كانت إيفات الواقعة ، في منطقة هضبة شوا الشرقية والتي امتدت أراضيها حتى شملت المنخفضات النازلة إلى وادي هواش في بداية حكم الأسرة السليمانية ، أقوى الدويلات الاسلامية في الحبشة . حكمت إيفات كل هذه المناطق بما في ذلك أمارتي مورا وعدل ، وامتد نفوذها إلى ما وراء ذلك حيث وصل إلى منطقة زيلع وخليج عدن . وكان شيوخ قبائل العفر في سهل أوسا يعترفون بنفوذ ملوك إيفات ، ويقدمون لهم شكلاً من أشكال الولاء . كما سيطر ملوك إيفات على الطرق التجارية التى ربطت بين الساحل والداخل وذلك فيما بين زيلع والهضبة الحبشية . (٣٥)

لم تزد الحروب التي قامت بها أسرة ولسمع لإسقاط مملكة شوا إلا ضعفاً أمام ازدياد نفوذ يكونو ملاك وامتداد سطوته . أخذ يكونو ملاك في تهديد الدويلات الاسلامية المختلفة فتسقط له الواحدة تلو الأخري تناصره إيفات (أوفات) لارتباطها بحلف معه . ثم تنكر الأخير للحلف الذي ربطه بإيفات وواصل حروبه مجتاحاً المنطقة حتى بلغ ساحل البحر الأحمر . ربط يكونو ملاك بين مسلمى دول الطراز والنظام الحاكم في مصر ، فكلهم – في ظنه – مسلمون مهما استشري بينهم الخلاف ، وبلغ عدم التنسيق مداه ، ورجحوا المصالح الآنية ، فالملك يكره المسلمين ويحاربهم أينما كانوا . (٣٦) تذرّع يكونو ملاك بعدم استجابة الظاهر بيبرس (٦٥٨-٦٧٦هـ/١٢٦٠-١٢٧٧م) لعيين مطران للكنيسة الحبشية فقام إلى المساجد في إيفات (أوفات) يدمرها ويحرقها ، فحكام المسلمين في مصر لم يستجيبوا لطلبه ، وذلك أمر لا يعالجه إلا احراق أرض إيفات ومساجدها ومصاحفها ! كان يكونو ملاك قد أرسل إلى الظاهر بيبرس يطلب تعيين مطران للحبشة . ورغم لغة الرسالة الرقيقة التي جاء منها "أحقر المماليك يقبل الأرض بين يديك" وينهي بين يدي السلطان الملك الظاهر ، خلّد الله ملكه أن رسولاً وصل من جهة قوص بسبب الراهب الذي جاءنا فنحن ما جاءنا مطران (فليأمر) مولانا السلطان نحن عبيده ، فليرسم ... للبطرك يعمل لنا مطراناً يكون رجلاً عالماً لا يحب ذهباً ولا فضة يسيره إلى مدينة عوان (مقابل تهامة اليمن) فأقل المماليك (يعني نفسه) يسير إلى نواب الملك المظفر

صاحب اليمن ما يلزمه وهو يسيره إلى أبواب السلطان ... وعندي في عسكري مائة ألف فارس من المسلمين . وأما النصارى فكثير لا يعدوا ، كلهم غلمانك وتحت أوامرك . والمطران الكبير يدعو لك وهذا الخلق كلهم يقولوا آمين . وكل من يصل من المسلمين إلى بلادنا نحفظهم ونسيرهم ونسفرهم كما يحبوا . والرسول الذي حضر الينا من جهة والي قوص مريض وبلادنا وخيمة ولا يقدر أحد أن يدخل اليه شيء . ومن يدخل ويشم رائحته يمرض ويموت" . (٣٧) ورغم التهديدات البارزة فى إشارة الملك السليمانى إلى كثرة الجند إلا أن بيبرس لم يستجب للطلب بحجة أنه لم يرد من النجاشي طلب صريح "حتى نعرف الغرض المطلوب" (٣٨) ولعله يشير بذلك إلى أن الطلب لم يرد من النجاشي مباشرة إنما عن طريق صاحب اليمن . ولم يفت بيبرس أن يلاحظ التهديد الخفي لهذا الملك حين أجاب "أما ما ذكره (ملك الحبشة) من كثرة عساكره وأن من جملتها مائة ألف فارس مسلمين فان الله تعالى يكثر من عساكر المسلمين وأما وخم بلاده فالآجال مقدرة من الله" . (٣٩) وعلى الرغم من أن بيبرس أرسل في عام ٦٦٣هـ/١٢٦٥م حملة بقيادة والي قوص واخميم في اتجاه الحبشة لاخضاع سواكن ، وقد تم بالفعل إخضاعها وإقامة حامية عسكرية دائمة فيها لحماية التجارة المصرية إلا أن الحملة لم تتقدم لمناصرة مسلمى الحبشة ووقف تعديات الملك السليمانى عليهم . قدمت الحملة التحذير لصاحب دهلك المواجهة لمصوع (٤٠) ولكنها لم تتدخل لنصرة دولة إيفات المسلمة التى لم تظفر من محالفتها الملك السليماني الذي ازداد حقده حتى على حلفائه من المسلمين . أرسل هذا الملك سفارة في عام ٦٨٠هـ/١٢٨١م إلى امبراطور بيزنطة ، ميخائيل الثامن (٦٥٧-٦٨١هـ/١٢٥٩-١٢٨٢م) طالباً اليه التنسيق لقيام حملة ضد الأراضي الاسلامية تتحرك في آن واحد من الشمال والجنوب ، ولم يتحقق لهذا الملك سعيه في قيام تلك الحملة الصليبية .

هلكَ يكونو ملاك وتولي الملك بعده يجيباصيون (٦٨٤-٦٩٤هـ/١٢٨٥-١٢٩٤م) الذي واصل القتال ضد أوفات ، يحارب بجنده تحت راية الصليب ، ويقوم البطاركة على قيادتهم للعمل على سحق القوي الاسلامية في المنطقة . وقد اتبع هذا الملك سياسة والده في العمل على تأليف حكام مصر فأرسل سفيراً مسلماً هو عبد الله بن يوسف فى رمضان ٦٨٩هـ/١٢٩٠م بخطابين أحدهما إلى السلطان قلاوون يطلب ، بعد تقديم التحية وعبارات المجاملة ، السماح لرئيس الكنيسة في الاسكندرية بتعيين مطران لكنيسة الحبشة ، والآخر للبطريق يؤنس الثامن يسأله أن يصفح عن ذنب أبيه الذي عيّن مطراناً سريانياً يدعي يوب لكنيسة الحبشة ، ويطلب اليه أن يعيِّن من قبله مطراناً لا يكون همه "اقتناء الذهب والفضة" . وقد استجاب قلاوون لطلبه وسمح بترسيم المطران * . وحسنت العلاقات بين يجيباصيون وبين الناصر قلاوون الذي كان

قد تلقي من هذا الملك هدية "قومت بمائة ألف دينار وأكثر من ذلك حتى غدت من النوادر في ذلك الوقت ، وان قاصد ملك الحبشة هو الذي حضر بالهدية وأقام في الميدان ثلاثة أيام ، وسافر هو ومن معه إلى القدس ليزوروا كنيسة القيامة . (٤١)

استمر يجيباصيون في سياساته العدائية تجاه الأمارات المسلمة فقام بحملة على عدل (زيلع) فأحرقها بعد أن سلب أموالها وشرد أهلها . وبوفاة يجيباصيون استردت الدويلات الاسلامية أنفاسها حيث مرّ العرش السليماني في الحبشة بفترة نزاع ألهته بنفسه عن تقتيل المسلمين . وبرزت مرة أخرى الدويلات والممالك الساحلية المسلمة التي تطل على البحر الأحمر بعد أن كانت قد أنهارت تماماً في الفترة السابقة .(٤٢) وأخذت أمارة أوفات تتطلع إلى استرداد أطرافها المبتورة فانبرت تهاجم حدود الدولة السليمانية .

ظفر ود أم أرعد بن يجيباصيون بملك أبيه (٦٩٨-٧١٤هـ/١٢٩٨-١٣١٤م) إلا أن الدويلات الاسلامية كانت قد أخذت في الانعتاق ومقاومة جبروت الملكية السليمانية ، فما عاد ود أم أرعد طليق اليد كما كان أسلافه ، فاضطر إلى المهادنة . اضطر هذا الملك للتنازل لامارة أوفات عن بعض الأراضي الإسلامية التي ضمنها أسلافه بشرط الاعتراف بسيادته الاسمية عليها . ويبدو أن الوضع لم يستقر له كما يريد في تلك الأرجاء فاضطر لطلب العون من بابوية روما ضد جيرانه من المسلمين الأحباش وغيرهم .

كان حق الدين محمد بن عمر ولسمع هو ملك أوفات في فترتي حكم يجيباصيون وود أم أرعد ، وامتد عهده الطويل إلى فترة النصف الأول من حكم عمداصيون (٧١٤-٧٤٥هـ/١٣١٤-١٣٤٤هـ) الذي يعتبره بعض المؤرخين المؤسس الحقيقي لمملكة الأمحرة . ففي عهده ثبتت أركان المملكة وتوسعت رقعتها وأصبح الحكم في الأسرة السليمانية مستقراً . (٤٣) كان عمداصيون رجلاً داعراً قضى النصف الأول من فترة حكمه يلهث وراء ملذاته . كان رجلاً لعيناً حتى يحكى أنه عاشر أختيه وخليلات أبيه ، وخرج عن كل الأعراف مما أثار عليه سخط رجال الدين النصراني الموالين له . ولقي المطران وكثيراً من رجاله منه عنتاً حتى اضطر عدد كبير من القساوسة إلى اللجوء إلى جزر بحيرة تانا . أظهر هذا الملك في فترة النصف الثاني من عهده اهتماماً بشؤون الملك واتخذ مواقف مناصرة للنصرانية في الحبشة وخارجها . ويبدو أنه أدرك أن استعداء رجال الدين النصاري ، وهم عماد ملكه الوحيد ، سيودي بهذا الملك فعمل على استرضائهم . أخذ حق الدين ولسع يحارب أطراف المملكة السليمانية ويحقق الانتصارات الجزئية للمسلمين . وكان المسلمون قد حققوا انتصاراً أخر حين تحولت دولة المقرة فى سودان وادى النيل إلى الاسلام بتولي عبد الله برشمبو عرش المقرة كأول حاكم نوبي مسلم ، كما أخذ الناصر محمد بن قلاوون يضطهد الأقباط في مصر

وخرّب بعض الكنائس . وتحركت البابوية لمجابهة الأخطار المحدقة بالنصرانية في المنطقة فأرسلت بعثة إلى الحبشة يبدو أنها تمكنت من اقناع عمداصيون باستعادة تحالفه مع رجال الدين النصراني مرة أخرى . (٤٤) أرسل عمداصيون إلى الناصر قلاوون في ١٦ محرم ٧٢٦هـ/٢٣ ديسمبر ١٣٢٥م رسالة تهديد حذّره فيها بأنه سيضطهد مسلمي الحبشة ما لم يكف الناصر عن اضطهاد أقباط مصر ، كما هدد أيضاً بسد مجري النيل حتى لا تصل مياهه إلى مصر فتهلك عطشاً . وبطبيعة الحال لم يهتم الناصر بهذه التهديدات واستثقل عقل رسل الملك وعوملوا بغاية الاطراح والإهانة . (٤٥) كان الملك الحبشي يتكلم عن خطط لا يعرف من أمرها شيئاً فهو لم يستطيع أن ينصب نفسه حامياً لطائفة نصرانية في مصر ، فذلك أمر أكبر من مقدراته ، كما أنه لن يستطيع أيضاً تحويل مجرى النيل ، وكلا الأمرين همس أوربي صليبي . أما الأمر الذي كان في متناول يد الملك وضمن نطاق مقدراته فهو العمل لاضطهاد مسلمي الحبشة . أحاط عمداصيون بايفات من كافة الاتجاهات وحاصرها وضيّق عليها حتى تم له أسر حق الدين متذرعاً في ذلك بأن الأخير كان قد قتل رسولاً له كان قد أرسله في طريقه إلى القاهرة . وعلى الرغم من ذلك لم يستطع عمداصيون أن ينزع الملك من أسرة ولسمع حيث أناط أمر ايفات بصبر الدين ، أخي حق الدين ، وضمّ له فطجار على أن يعترف صبر الدين بسيادة اسمية لعمداصيون عليه . وعندما حاول حق الدين الثورة نزلت عليه جيوش عمداصيون وهزمته ، كما هاجم عمداصيون هدية وخرّب المنطقة الاسلامية وأفرغها من أهلها فإذا هم بين قتيل أو أسير (٤٦) وانبري الملك إلى فطجار ثم دواروا ونزل على ايفات وأنهي كل أثر للاستقلال في تلك المناطق التي جمعها في وحدة إدارية واحدة تحت جمال الدين ، أخي حق الدين ، على أن يكون تابعاً له تبعية مباشرة . وسار الملك بعدئذ لأقاليم شوا المختلفة وضمها لسلطته المباشرة .

كانت حروب عمداصيون مدمرة للوجود الاسلامي في الحبشة فقد أعمل في المسلمين كل صنوف القسوة والوحشية ولم يرع للانسان حرمة . وبات الملك واثقاً أنه لن تقوم للمسلمين بعدئذ قائمة أبداً ، ولكنه فوجيء بثورة ملكي مورا وعدل اللذين اجتمعا مع الشريف صالح ، ابن شريف مكة ، وقد كان له نفوذه ، لشرف نسبه ، في هرر . ولم يلبث جمال الدين أن انضم لهذا التحالف . ونزل عمداصيون على إيفات فقتل جمال الدين والشريف صالح ، وأعمل السيف في الثوار ، وانتهي بتخريب المنطقة وحرق مساجدها . وكانت إيفات قد أرسلت إلى مصر في الفترة (٧٣٣-٧٩٠هـ/١٣٣٢-١٣٨٨م) بعثة برئاسة عبد الله الزيلعي تطلب إلى السلطان الناصر أن يتدخل لدى عمداصيون ليرفع سلاحه عن رقابهم . وقد استقي العمري معلوماته عن الحبشة في مسالك الأبصار (٧٤٣-٧٥٠هـ/١٣٤٢-١٣٤٩م) من هذا السفير

الزيلعي . يقول القلقشندي نقلاً عن مسالك الأبصار في وصف الأحوال في المالك والامارات الاسلامية في الحبشة ما نصه : (٤٧) "إن جميع ملوك هذه المالك ، وإن توارثوها ، لا يستقل منهم بملك إلا من أقامه سلطان أمحرا . وإذا مات منهم ملك خرج من أهله رجال قصدوا إلى سلطان أمحرا ، وتقربوا إليه جهد الطاقة ، فيختار منهم ملك يوليه ، فإذا ولاّه سمع البقية له وأطاعوا ، فكلهم له كالنواب ، وأمرهم راجع إليه ، ثم كلهم متفقون علي تعظيم صاحب أوفات ، منقادون اليه ... وهذه المالك السبع ضعيفة البناء ، قليلة الغناء لضعف تركيب أهلها وقلة محصول بلادهم وتسلط النجاشي ، سلطان أمحرا ، عليهم مع ما بينهم من عداوة الدين ، ومباينة ما بين النصاري والمسلمين ..وهم مع ذلك كلمتهم متفرقة وذات بينهم فاسدة ... انه لو اتفقت هذه الملوك السبعة ، واجتمعت ذات بينهم قدروا علي مدافعة الحطي أو التماسك معه ، ولكنهم مع ما هم عليه من الضعف وافتراق الكلمة بينهم تنافس ... وهم على ما هم عليه من المذلة والمسكنة للنجاشي ، سلطان أمحرا ، عليهم قطائع مقررة تحمل اليه في كل سنة من القماش والحرير والكتان مما يجلب اليهم من مصر واليمن والعراق ..."

سعي عبد الله الزيلعى لدي السلطان أن يستكتب البطريك في رسالته إلى الحطى يطلب منه أن يكف أذيته عمن في بلاده من المسلمين وعن أخذ حريمهم . وصدرت المراسيم السلطانية للبطريك بكتابة ذلك فكتب إليه كتاباً بليغاً شافياً فيه معنى الانكار لهذه الأفعال ، وأنه حرّم هذا على من يفعله بعبارات أجاد فيها . (٤٨)

خلف نواي كرستوس ، سيف أرعد (٧٤٥-٧٧٤هـ/١٣٤٤-١٣٧٢م) والده عمداصيون وسار سيرته ، واستقام على سياسته في التنكيل بالمسلمين . وحدث أن زاد سلطان مصر الجزية المقررة علي النصاري وامتنع بطريق الاسكندرية عن التنفيذ فزجّ به في السجن . وانتقم سيف أرعد ، الذي اعتبر نفسه حامي النصاري في مصر ، لذلك بأن تصدي لعرقلة تجارة مصر في البحر الأحمر ، فقبض علي جميع التجار المصريين (الكارميه) في المنطقة ، وبعث بفرسانه لطرد كافة القوافل التي تأتي من القاهرة ، وأصاب الكساد تجارة مصر بحراً وبراً . واضطر السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون إلى أن يطلق سراح البطريك وطلب اليه أن يستخدم نفوذه لدي الحطي لكي يسمح بأن تسير القوافل المصرية إلى بلاده سيرتها الأولى . (٤٩) حمل رسالة بطريك الاسكندرية إلى ملك الحبشة عدد من الأساقفة سافروا من مصر* ولكنهم لم يعوداو إليها بعدئذ أبداً . (٥٠)

عمل هذا الملك السليماني للاتصال بملك قبرص يطلب اليه التعاون معه في شنّ حرب علي مصر . وبالفعل فقد قامت الحملة المقررة من قبرص وهاجمت الاسكندرية في عام٧٦٦هـ/١٣٦٥م وانسحبت متقهقرة قبل أن يستعد الملك سيفا أرعد للهجوم الذي الغي بعد

أن عرف ذلك الملك بانسحاب القبارصة . (٥١)

لم يستقم أمر الحكم في إيفات التي أصبحت ولاية تابعة لملك أمحرا ولكنه لم يكن يستطيع حكمها إلا بواسطة رجال من أسرة ولسمع . وكان بعض هؤلاء الحكام طيِّعاً يعمل بإرادة الملك ، وحاول بعضهم التمرد والخروج عليه . وقد تسبب هذا الوضع في نزاعات عديدة بين أفراد هذه الأسرة التي صارت تحكم أرضاً خراباً خلت بالحروب من الزرع والضرع والتجارة وكافة النشاطات الاقتصادية ، وهدمت فيها المساجد ، وأحرقت المصاحف ، وأصبح دين الاسلام فيها جريمة تفضي بصاحبها إلى الموت حيث أمر الحطي باعدام ونفي كل من يرفض الدخول في النصرانية من المسلمين .

تدخل الحطي في الاضطرابات الأسرية في إيفات . فحارب الأمير علي بن صبر الدين وأسره وولي إبنه أحمد حرب أرعد في مكانه* ، ثم عاد وأطلق على بن صبر الدين مرة أخري بعد اعتقال دام ثمان سنوات وردّه إلى الحكم في بلاده وعزل ابنه وولاه مقاطعة من مقاطعات جبرت . واشتدت الاضطرابات الأسرية في إيفات في عام ٧٦٩هـ/١٣٦٧م حتي أتت بحق الدين الثاني من أحمد حرب أرعد سلطاناً علي ايفات . (٥٢) وقد حاول حق الدين أن يستقل ببلده عن سلطة الحطى وأفلح في ذلك لفترة ما ، وكان بذلك أول من خالف أهل بيته المتأخرين على الحطي ، ملك أمحرا ، وخرج علي طاعته ، وظل يحارب الحطي سيفا أرعد حتى هلك . فاستمر بعدئذ في مقارعة نواى مريم ، داؤد الأول (٧٨٤-٨١٤هـ/١٣٨٢-١٤١١م) . وامتد كفاح حق الدين لحوالي أحدي عشر سنة حاول فيها استخلاص الأرض الإسلامية من قبضة الحطي ، والعمل علي تأمين الشعب الحبشي المسلم ، ونشر الإسلام في المنطقة . وما لبث حق الدين أن استشهد في عام٧٧٦هـ/١٣٨٦م وهو يقاتل في أرض شوا ، فقد كان شجاعاً مقداماً قوي الشكيمة يقاتل بالعدد القليل . وتولي الأمر بعد أخوه سعد الدين أبو البركات محمد بن علي الذي سار سيرة أخيه ، وامتد حكمه لثلاثين عاماً اتسعت فيها حدود الدولة الاسلامية حتي استعاد بالي ، وأخذ يعمل بجد علي التمكين للإسلام في أرضه ونشره في أوساط شعبه .

كان داؤد دائم الاتصال بالمخططات الصليبية الأوربية ، ويبدو أنه حاول غزو بلاد النوبة ليسير منها شمالاً إلى مصر . يقول المقريزي أن جيش داؤد بن سيفا أرعد قد هاجم حدود مصر الجنوبية في عام ١٣٨١/٧٨٣م "ونال أهل الاسلام منهم بلاء كبير . (٥٣) ولا تحفظ لنا المصادر الأخري أي خبر لهذه الغزوة مما يجعلنا لا نميل للأخذ بهذه الرواية خاصة وأن خبر الهجوم على أسوان وحدود مصر الجنوبية غير وارد فى هذه الفترة فى مصادر تاريخ السودان الذى يفصل بين الحبشة ومصر . ومع ذلك يبدو أن مصر التي عرفت في داؤد همة لا تفتر في قتال المسلمين بالحبشة واحراق المساجد والمصاحف ، رأت أن تستأنسه ولا تعمل على

استعدائه حتى لا يتزايد بلاؤه . فطلب الظاهر برقوق إلى الأنبا متاؤس ، صاحب كنيسة الاسكندرية ، أن يخاطب ملك الحبشة في شأن العلاقات المشتركة . وسافرت بعثة مصرية برئاسة المدعو برهان الدين في عام ٧٨٣هـ/١٣٨١م إلي الحبشة وعادت منها في عام٧٨٦هـ/١٣٨٤م . بعد أن قضت هناك نحو ثلاثة أعوام . ويبدو أن العلاقات قد حسنت حتى أننا نجد خبر وفد حبشي يصل القاهرة بعد عودة برهان الدين بعامين محملاً بالهدايا الثمينة "فيها من طرائف بلادهم ، ومن جملتها قدور ملئت بذهب صيغ علي قدر الحمص .." هذا بالاضافة إلي أشياء أخري حملت علي عشرين جملاً . (٥٤) وتمكن داؤد ، سلطان أمحرا ، أن يطمئن الظاهر برقوق وابنه الناصر من بعده أنه لا يريد بالمسلمين شراً ، وأن حروبه في الحبشة لا تحمل طابع الصليبية إنما هي نزاع بينه وبين منافسيه .

نزل داؤد بجيوشه علي إيفات فاستعد له سعد الدين بقواته المتواضعة المنهكة ، وسار معه الفقهاء والمشائخ والدراويش يحمل كل منهم أبريق وضوئه ، وقد أقسم الجميع على الاستشهاد دون حقوقهم والدفاع عن بلادهم وتراثهم . ويبدو من صيغة القسم أنهم كانوا يدركون أنهم غير مؤهلين عدداً وعدة لمجابهة الجيش الغازي ، فاستعدوا للقاء ربهم . ووقعت موقعة شنيعة استشهد فيها من المشائخ والصالحين أربعمائة شيخ كان سلاح كل منهم لا يزيد على عصاه . واستمر القتل في تلك الجماعة حتي استشهد أكثرهم . (٥٥) إذ أعمل جيش الحطي فيهم قتلاً وذبحاً حتى أبيد أكثر الجيش المسلم . وهربت قلة منهم منها الأمير سعد الدين الذي أوي إلي جزيرة زيلع ، ولكنه حوصر بعدئذ وقتل في عام ٨١٧هـ/١٤١٥م في عهد الحطي إسحاق بن داؤد (٨١٧-٨٣٣هـ/١٤١٤-١٤٢٩م) .

حرّكت النجاشي إسحاق روح صليبية عارمة دفعته إلي التفكير في اقامة الملة العيسوية في الشرق المسلم . وأجري اتصالاته مع ملك أرغونة ، الفونس الخامس ، وملك فرنسا ، شارل السابع ، بهدف القيام بحملة صليبية على مصر . ويبدو أنه أجري اتصالاً في هذا الشأن أيضاً مع قساوسة الأقباط في الاسكندرية . (٥٦)

واشتد اضطهاد سلاطين القاهرة للقبط وبطاركة الاسكندرية ، ويتضح ذلك من أن السلطان برسباى كان قد استدعى البطريك ليقبض عليه نظير ما أنزل الحطي بالمسلمين في الحبشة من ذلة وإهانة ، فوبخّه في مجمع من المشائخ والقضاة ، ولم يسمح له بالجلوس في حضرته وهدده بالقتل ، وانتدب له محتسب القاهرة صدر الدين بن أحمد العجمي (وشهرته المكروه) . وأصدر برسباي منشوراً باضطهاد القبط واغلاق كنيسة القيامة ، والقبض علي البطريك . وجاء في حوليات عام ٨٥٣هـ/١٤٤٨م أن السلطان غضب علي البطريك فضربه وحبسه ، وأخذ منه شيئاً كثيراً ، وطلب اليه أن يكتب تعهداً على نفسه ألا يتصل بملك الحبشة ، ولا يراسله

بشخصه أو عن طريق وكيل ، وأن لا يولى في بلاد الحبشة لا قسيساً ولا أعلي منه ولا دونه إلا بإذن من السلطان ، علي أن يقف السلطان علي كافة المراسلات المرسلة إلي الحبشة . وأنه متي خالف ذلك ، ونقض عهده ، ضربت عنقه . (٥٧) وفي الحقيقة فإن الروابط الحبشية مع كنيسة الاسكندرية لم تستغل في مصلحة البلدين : الحبشة ومصر ، بل أن تلك الاتصالات أضرت كثيراً بالعلاقات المشتركة ، وكثيراً ما أدت إلي توترها توتراً يصل بالملك الحبشي إلي محاولة القيام بحرب صليبية ضد مصر كما أوردنا . وإذا كانت الحملة الصليبية التي أخذت تلك الدوائر المختلفة تعد لها قد فشلت ، فإن الاتصالات الأخيرة قد أثمرت عن هروب الطنبغا مفرق ، والي قوص ، إلي بلاد الحطي . واستقر هناك يدرب الجيش ، فعلمهم من فنون الحرب رمي الرمح ، وضرب السيف والنشاب ، وعمل لهم النفط فعرفوا صناعات الحرب . وسارت في أثر الطنبغا مجموعة أخري من المماليك الجراكسة هاربين إلي بلاط النجاشي وعلّموا رجاله "الزردخاناه المملوكية" . ويبدو أن ذلك يشمل ترتيب الكتائب ، وتنظيم شؤون الجيش وتسليحه وترتيبه . كما فرّ إلي بلاط داؤد من أقباط مصر فخر الدولة الذي "رتب له مملكته ، وجبي الأموال ، وجند له الجنود ..." واستطاع داؤد بقوته التقليدية والمستحدثة أن ينزل علي إيفات التي كانت قد فقدت كل مقومات المقاومة فأوقع بمن تبقى من المسلمين في أرضها ، وأعمل فيهم قتلاً وذبحاً لم ينج منه شيخ ولا أمرأة أو طفل . وحين خلت الأرض من سكانها تماماً خرّب مساجدها فلم يبق لها أثر ، وحرق الكتب والمصاحف لازالة كل أثر للإسلام ، ثم بنى الكنائس وأسكن البلاد النصاري ، وانتهي بذلك دور مملكة إيفات . يقول المقريزي عن حروب هذا الملك : "فأوقع بمن تحت يده من ممالك الحبشة من المسلمين وقائع شنيعة طويلة قتل فيها وسبى واسترق عالماً لا يحصيه إلا خالقه سبحانه ." واستمر القتل في المسلمين حتى هلك أكثرهم ، وأنكسر من بقي ، وفر سعد الدين علي وجهه وأمحره يتبعه حتى التجأ إلي جزيرة زيلع فحصروه بها ومنعوه الماء . فلما وصلوا اليه قاتلهم .. فطعنوه فمات . (٥٨)

فرّ أبناء سعد الدين الأربعة بعد استشهاد أبيهم إلي اليمن ونزلوا علي سلطانها الامام ناصر أحمد بن الأشرف اسماعيل . ولحق بهم الكثير من أهل أوفات (إيفات) والممالك الاسلامية الأخري الذين نجوا من القتل ، فاستقروا هناك لفترة استجمعوا فيها القوي وحصلوا علي السلاح . ثم عاد هذا الجمع بقيادة صبر الدين الثاني بن سعد الدين (٨١٨-٨٢٥هـ/١٤١٥-١٤٢٢م) لاستعادة ملك أسرة ولسمع . واستقر العائدون من اليمن في دكر ، جنوب شرق هرر ، ليكونوا بعيدين في هذه المرحلة عن متناول يد الملك إسحاق . أقام العائدون المساجد وجمعوا لها الفقهاء وأخذت نغمات الجهاد في المنطقة تتصاعد من جديد . بدأ صبر الدين الثاني يشن حرب عصابات ضد حاميات داؤد ، وحقق انتصارات عديدة ، إلا

أن الأخير عاجله وأسره ثم قتله ، وخرّب المنطقة ، وغنم من أسلابها الشيء الكثير . وتولي منصور بن سعد الدين (٨٢٥-٨٢٨/١٤٢٢-١٤٢٤م) قيادة الجهاد عن أخيه ، وقام بعمليات جريئة أصاب فيها نصراً تلو نصر ، ولكنه أُسر في نهاية عام ١٤٢٤م . وقامت جماعات داؤد بعد ذلك بعمليات تمشيط واسعة انتهت باسترقاق كل المسلمين الذين وقعت عليهم الحملات . وعلي الرغم من تلك الهمجية الحربية إلا أن همة الجهاد لم تفتر في المنطقة التي تولي أمرها جمال الدين محمد بن سعد الدين (٨٢٩-٨٣٦هـ/١٤٢٥-١٤٣٢م) ، الأخ الثالث لصبر الدين الثاني ومنصور .

كان جمال الدين "خير ملوك زمانه ديناً ومعرفة وقوة وشجاعة ومهابة وجهاداً في أعداء الله ." ينشر العدل ويقيم الأحكام حتي علي أهل بيته . وكان كثير الصحبة للفقهاء "وأهل الفقر من الصالحين ." يروي أنه اقتصّ من ابن له صغير كسر يد صبي ، رغم عفو أولياء الصبي المكسورة يده ورغم تضرع أعيان دولته بأن لا يفعل . (٥٩)

قام جمال الدين بعمليات حربية ناجحة ضد سلطان الأمحرا النجاشي إسحاق اعاد بها ترميم القاعدة الاسلامية المتصدعة في الحبشة التي انطلق منها لاسترداد بالي المسلمة . وهناك حقق جمال الدين انتصارات كبري ضد جند إسحاق فأصبحوا لديه أسرى . لم يقتل جمال الدين أسراه كما كان إسحاق يفعل بالمسلمين ، ولكنه فرّقهم على جنده والمرافقين له حتى قيل أن كل فقير مسلم ظفر بثلاثة رووس من الأسرى . وسار جيش جمال وراء جيش إسحاق الذي كان شعاره قبل الهزيمة أن لا يبقى في الحبشة من المسلمين أحداً . وحقق الجيش المسلم النصر تلو النصر ، وراح يسبي ويغنم ويحرق كل كنيسة يصادفها في طريقه . وتراجع الحطي إلى أمحرا ، وجمال يلاحقه لمدة خمسة أشهر حتى أصبح الأول بلا قوة ، وراح يستعصم بالجبال يلفظه أحدها إلى الآخر .

رجع جمال الدين إلي عاصمته مرفوع الهامة والراية وأخذت رقعة بر سعد الدين تتسع حيث استقطب هذا السلطان أكثر الأراضى السابقة التي كانت تحت حكم أسرة ولسمع . وانتهز جمال فرصة قتل الملك اسحاق وما تلاه من نزاع أسري (كان من نتائجه أن تولي ملك أمحرا في الفترة بين عامي (٨٣٣-٨٣٨هـ/١٤٢٩-١٤٣٤م) ثلاثة ملوك هم : (اندرياس بن إسحاق ، وحربناي بن داؤد بن سيفا أرعد ، وسليمان بن إسحاق بن داؤد) ليدرج في رقعة حكمة أكثر المناطق التي كان للأسر المسلمة عليها سيادة في السابق ، وضم كذلك منطقة كبيرة من أراضي المسلمين التي اغتصبها سلاطين الأمحرا المتقدمين .

إتّبع زرع يعقوب (٨٣٨-٨٧٣هـ/١٤٣٤-١٤٦٨م) الذي خلف إسحاق علي عرش الأمحرة سياسة تأجيج الخلافات في أسرة ولسمع ، وعمد إلي المؤامرات والرشاوي ، كما قام بتحريض

عمالهم عليهم . وأودت تلك الدسائس بالسلطان جمال حيث قام عليه بعض أبناء عمومته المتآمرين مع ملك أمحرا وقتلوه في جمادي الآخره ٨٣٥هـ/١٤٦٨م (٦٠) وآل الحكم إلي أخيه شهاب الدين أحمد بدلاي الذي صمد للمؤامرات والدسائس التي كان يحركها زرع يعقوب في أسرته . وجري شهاب علي سنة أخيه في توسيع رقعة أرضه ، ولاحق الملك في بلاد الأمحرة ، وتمكن من السيطرة علي بالي ، وردّ اليها ألف بيت من المسلمين التي كان سلاطين الأمحرة قد شردوهم منها ثم أحرقوها وأبادوا كل فرد فيها لم تمكنه ظروفه من الهرب .

كانت القسطنطينية تتعرض لهجوم المسلمين بقيادة آل عثمان وأوشكت أن تسقط في أيديهم ، فأرسل إمبراطورها يستعين ببابا روما ، جون الثامن ، عارضاً عليه تناسى كافة الخلافات العقدية بين الكنيستين الشرقية والغربية . ولم يمانع الإمبراطور في أن تصبح كنيسة تابعة لكنيسة البابا لقاء أن يدعو البابا ملوك أوربا يحرضهم علي قيام حملة صليبية تنقذ القسطنطينية ، ثم تسير في الأرض بعدئذ لضرب المسلمين في الشرق . وتبني البابا أيوجنيوس الرابع (٨٣٥-٨٥١هـ/١٤٣١-١٤٤٧م) في مجمع فلورنسا المسكوني مشروع طموح يحقق بها آمال الكنيسة الرومانية الغربية قضي بقيام حلف نصراني متحد تشترك فيه كافة القوي الأوربية إلي جانب نصاري الشرق بالإضافة إلي نصاري الحبشة . ولتحقيق هذا الأمل أرسل أيوجنيوس البرتودي سارتيانو ، أحد الرهبان الفرنسسكان ، بخطابات إلي تجمعات الكنائس في الشرق المسلم يطلب اليهم تفجير الوضع من الداخل حين تقوم القوي الصليبية الأوربية بالهجوم من الخارج . كما أرسل معه خطابات إلي الملك السليمانى زرع يعقوب . وصل المبعوث البابوي إلى مصر وسلّم حنا الحادي عشر ، بطريق الاسكندرية ، رسالته ولكن المبعوث لم يتمكن من الذهاب إلي الحبشة . فاتصل بنيقوميدوس ، رئيس دير الأحباش في القدس ، وأبلغه الرسالة . وأسفرت تلك الرسالة عن قيام وفد حبشي بدعم من زرع يعقوب وبتفويض منه ، وصل إلي روما في أغسطس ١٤٤١م . وتشكلّ هذا الوفد الحبشي من اثنـي عشـر قسيساً أهمهم اندراوس رئيس دير القديس انطونيوس في الوجه القبلي بمصر ، ونيكوديم أحد رهبان دير السلطان . ولا تزال هناك لوحة مرسومة لهذين الرجلين تمثلهما في رفقة البابا ، وهي محفوظة الآن في مكتبة الفاتيكان . (٦١)

وافق هذا الوفد الحبشي الذي كان قد قدم إلي روما برفقة أحد التجار الإيطاليين المتعاملين مع بلاد الشرق لعدة سنوات ، علي مقررات المؤتمر ، وأكد علي دمج كنيستي الاسكندرية والحبشة في الكنيسة الكاثوليكية التي يقوم بابا روما علي رأسها . وأقروا كذلك بالأهداف الصليبية ومحاربة المسلمين . ووثق البابا هذه الصفقة بالسماح للملوك السليمانيين بتأسيس دير حبشي علي مشارف روما . (٦٢)

أخذ زرع يعقوب في تنفيذ مقررات المؤتمر بكل الحماس فشنّ في عام ٨٤٧هـ/١٤٤٣م حرباً كبري علي منطقة الطراز الاسلامي . استعمل الملك في تلك الحرب جنود أمراء المسلمين إسماً الموالين له ، من أمثال حاكم هدية الذي لم يتورع في أن يزوج بنته إيلني (هيلانة) لزرع يعقوب ، بالاضافة إلي الجنود المتنصرين رغبة ورهبة ، والنصاري الآخرين . وحققت هذه الحملة انتصارات علي السلطان شهاب الدين احمد بدلاي انتهت بقتله في عام ١٤٤٤م . وأحست سلطنه عدل بهذا الفقد لأن سلطانها كان يسير في أهلها سيرة عادلة ، مقيماً للشوري ، لا يفارق الفقهاء والعلماء مجالسه . كما كان قد نظّم بلاده إدارياً فأشرف علي قسم منها إشرافاً مباشراً ووضع قسم منها تحت أخيه خير الدين الذي كان يتابع عن كثب الأمراء الصغار ، وبذلك استقام الأمر . "وكف الناس عن الظلم" . (٦٣)

وفي الوقت الذي كانت فيه جنود زرع يعقوب يحاربون فيه جند شهاب الدين في مناطق عدل قامت بعثة من الحبشة لتبدأ التحرشات مع مصر . أرسل زرع يعقوب إلي مصر سفارة في عام ٨٤٧هـ/١٤٤٣م لبلاط السلطان جقمق تحمل هدايا من الرقيق والجواري وطست وأبريق من ذهب وسيف منقط بذهب وأشياء أخري مع رسالة جاء منها : (٦٤) "اتصل الينا جميع أخباركم وأنكم حفظكم الله تعالي أمرتم بإبطال المظالم من سائر العالم وردعتم القوم الظالمين ورفعتم أسباب المضرات من الرعايا بكل البلاد والأقاليم ... قصدنا تجديد ما سبق من العهود من الملوك المتقدمين من بلادنا وبلادكم أتباعاً لآثارهم المشكورة وقصدنا اعلامكم ذلك بشارة لكم ليكون ذلك مستمراً بلا انحراف والاتفاق بيننا وبينكم بلا خلاف ... ثم بلغنا أيضاً أن ثمّ من يتعرض لهم (النصاري) في كنائسهم في أوقات صلاتهم وفي أيام أعيادهم ... وأنهم في غاية الضيق من ذلك . وأنتم حفظكم الله ليس يخفي عليكم ما في بلادنا الواسعة من المسلمين تحت حكمنا ونحن لهم ولملوكهم مالكون ولم نزل نحسن اليهم كل وقت وحين ... وليس يخفي عليكم ولا علي سلطانكم أن بحر النيل ينجر اليكم من بلادنا ، ولنا الاستطاعة علي أن نمنع الزيادة التي تروي بها بلادكم عن المشى اليكم لأن لنا بلاداً نفتح لها أماكن فوقانية يتصرف فيها إلي أماكن أخري قبل أن يجيء اليكم ..(٦٥) وعمل جقمق علي استرضاء زرع يعقوب فأرسل له سفيراً ليعمل علي تحسين العلاقات بين القطرين ، ويعتذر له عن سوء معاملة النصاري في بلاده "لأن نصاري الديار المصرية قد كثر تعديهم واستطالتهم في المبالغة في البناء ولإحداث الكنائس ونحو ذلك" . ولعله من الطريف أن زرع يعقوب لم يستجب للسفارة المحملة بالهدايا وأرسل السفير فأدرك هزيمة شهاب الدين وشهد بعينيه خير الدين وهو يذبح الشياة "حتى يكون ذلك أنكي للمسلمين ."

تولي محمد بن شهاب الدين سلطنة عدل (٨٤٨-٨٧٥هـ/١٤٤٤-١٤٧٠م) ووجد من زرع

يعقوب ما اعتاد عليه أسلافه من حرب وقتل وإثارة فتن وزرع دسائس ، فأختار أن يهادن مثل الآخرين . عمد إلي استرضاء زرع يعقوب فأخذ يتقرب إليه بالهدايا ، والتزم بدفع أتاوة من سلع وقماش وغيره ، وغضّ الطرف عن تنصير أتباعه بالاكراه ، ولم يمانع في التنكيل بالمسلمين . ونستطيع أن نقول أن أمارة عدل قد أخذت تنوب بالثقافة النصرانية الموجّهة بالصليبية الأوربية ، ودخلت مع سلطانها الضعيف تحت سلطة الحطي .

نزع زرع يعقوب إلي استقطاب المسلمين في دولته فبدأ بأمرائهم وعمل علي تنصير أفراد من تلك الأسر الحاكمة ليستخدمهم في مشاريعه التنصيرية . ولم يكتف بذلك فحسب إنما جعل من بعضهم بطاركة يقودون الصلاة في الكنيسة ، ويقودون الكتائب التي تحمل راياتها شعار الصليب يغزون بها أصقاع سلطناتهم لصالح الحطي . وخرجت تلك الأمارات الاسلامية من أيدي أبناء سعد الدين خروجاً بيّناً بعد أن أصبحوا تابعين ولم يبق لهم من السلطنة إلا اسمها فقط . أما الحكم فقد كان للحطي الذي يستعملهم ، أو لأمراء صغار يتصرف كل منهم في ناحيته مستقلاً بها عن الآخرين . صالح بعض أولئك الأمراء الصغار الحطي بينما ثار عليه البعض الآخر بعد أن خرجوا علي سلطنة عدل التابعة التي لم يبق لسلطانها "غير خراج البلد يأكله" .

نظم زرع يعقوب دولته ، وسالم الأمراء المرتدين ، والأمراء المسلمين الذين عملوا وفق أهدافه وعملوا علي تقدم النصرانية الصليبية . واشتري أولئك الأمراء رضاء الملك بالهدايا والأتاوات لقاء الحفاظ علي الحكم في مناطقهم التي لم يبق لهم من أمرها إلا الكرسي ، وهيلمان موروث ، وبعض خراج يقدمونه للحطي ويأخذون فتاته .

أصدر زرع يعقوب أمره بأن يعصب كل فرد من أتباعه جبهته بخرقة حمراء للدلالة علي تبعيته للأب والابن والروح القدس ، وعليه أيضاً أن يربط علي ذراعه شارة تفيد بأنه عبد لمريم "والدة خالق العالم ." وعين الملك عدداً من الموظفين لملاحقة غير الملتزمين لملته ، وجعل فوقهم رئيساً هو الأكابي ساعات الذي كانت مهمة مكتبه تعقب من لا يدين بالنصرانية ومحاكمته ومصادرة أرضه وتنفيذ كل حكم يراه فيهم . (٦٦) واتبع هذا الملك سياسة تعسفية هدف منها تنصير كل حبشي بقوة السيف ، وأوغل في سياسته الصليبية ، وأخذ يعد العدة لبناء أسطول في البحر الأحمر ليهاجم به المقدسات الإسلامية فى الحجاز . وجهز زرع يعقوب في ٨٥٤هـ/١٤٥٠م عدداً من السفن استعداداً لاشارة من المتحالفين علي الصليب في فلورنسا تحت زعامة البابا لتدمير المقدسات الاسلامية في مكة والمدينة . وانشغل أباطرة أوربا والبابا معهم بالقسطنطينية التي سقطت في عام ١٤٥٣م لتفتح عهداً جديداً في العلاقات الدولية .

تولي بلنيدا مريم عرش أمحرة (٨٧٣-٨٨٣هـ/١٤٦٨-١٤٧٨م) وسار علي نسق سلفه في

العداء للإسلام والكيد لأهله حتي بين أفراد قبيلته التي لم يجرؤ أي منهم علي اعلان اسلامه وان أطمأن قلبه به . وسارع سلطان عدل يجدد فروض الطاعة والولاء إلي بلئيدا مريم ويهنئه بالعرش ويتعهد بدفع الاتاوة وتنفيذ كافة الأهداف . وتبع بلئيدا مريم سنة أبيه في الزواج من بنات حكامه "المسلمين" بعد تنصيرهن فتزوج من روماني ورق " ذهب الرمان" وهي التي أصبحت أماً لولي عهد الاسكندر وكانت من بنات حاكم هدية . (٦٧)

اطمأن بلئيدا مريم لتفرق الأمراء "المسلمين" الذين نبذوا فكرة التناصر للحفاظ علي المسلمين ، والتناصح لخير المسلمين ، والاتحاد لقوتهم وسؤددهم . فقاد بنفسه حملة ضد قبائل دباعة وهي قبائل كانت – فيما يبدو – وثنية لكنها اعتنقت الاسلام . ولعله من الطريف أن نذكر أن من أهم نتائج اضطهاد سلاطين أمحرا للمسلمين الأحباش وما تلا ذلك من هجرة وتهجير قسري وتفرقهم في القبائل الأخري ، خاصة القبائل الوثنية التي لجأوا إليها ، أن ازداد انتشار الاسلام . وجدت تلك القبائل في الهاربين والمهجرين طهارة في الجسد والروح والممارسة فدخلت طوعاً واختياراً إلي الاسلام . وكان هذا الأمر تجسيداً للمبدأ الاسلامي : لا إكراه في الدين حيث كان أولئك اللاجئون لا يملكون وسائل الاكراه ، فهم فرادي وجماعات من المستضعفين . فشا الاسلام في قبائل دباعة التي تسكن مناطق التلال في ويقرات عند أنبا الاجي ، ونقم عليهم بلئيدا مريم ذلك ، وسيرّ لهم حملة بقيادته ، شتت جمعهم ، واغلقت دروب التجارة التي يعتمد عليها اقتصاد عدل . وأسكن بلئيدا مريم الأحباش النصاري ديار الأحباش المسلمين . وسيطر البطاركة علي الاقتصاد ولم يعد لغيرهم وسيلة للرزق إلا باختيار الأوائل . وازداد اضطهاد المسلمين حتي أصبح علي النصراني أن لا يصافح المسلم إلا اذا اضطر إلي ذلك لكونه من ذوي قرباه مثلاً ، وعليه – في هذه الحالة – أن يصافحه باليد اليسري إمعاناً في إذلاله . كما قضت تلك القوانين الظالمة أن لا يشرب النصراني من إناء شرب منه مسلم ما لم يطهّره ، وحظر الملك علي النصاري أيضاً أكل اللحم المذبوح علي الطريقة الاسلامية . (٦٨)

وعلي الرغم من أن بلئيدا مريم سيطر علي معظم أراضي الحبشة إلا أن لفظ ملك الحبشة الذي يسبغه كثير من المؤرخين عليه وعلي أسلافه من الملوك السليمانيين لا يستقيم حين ننظر اليه بمنظار التاريخ . رضي هؤلاء الملوك أن يكونوا ملوكاً لنصاري الحبشة دون مسلميها ، وفرقوا بذلك بني أبناء الشعب الواحد علي أساس المعتقد . وكان هذا الأمر من دواعي خروج المسلمين عليهم فلم يستقر لهم ملك في المناطق الاسلامية التي كانت تعتبرهم غزاة ظالمين . وإذا استطاع بعض هؤلاء الملوك أن يسيطر بالسيف والدسائس علي بعض ضعاف الايمان وعلي من لا إيمان لهم من حكام المسلمين ليحققوا مآربهم من خلالهم فقد كان هناك من الأمراء الصغار من لم يقبل بتحقيق غايات هؤلاء الملوك . لم يقصد هؤلاء الأمراء إلي الخروج

عن الشرعية إنما قصدوا إلي رد الظلم والحيف والواقع علي مناطقهم ، وتحرير الانسان الحبشي ليعبد الله علي الوجهة التي يراها . كان لاداي عثمان من هؤلاء الأمراء فنادي في قومه بالجهاد . ولم يتوان بلئيدا مريم معه أو يهادنه إنما سار بجيشه وباغت عدل وهزم الأمير وأسر عدداً من قادته وقتل ونهب وسلب . ولم يكن انتصار بلئيدا مريم حاسماً وما كان له أن يكون ، فقد ازداد انتشار الاسلام في قبائل العفر بفرار المسلمين الأحباش من القبائل والمناطق المستضعفة إلي ديارهم . وأصبحت تلك القبائل الصومالية التي ازدادت قوة بهروب قبائل المنطقة الحبشية اليها سنداً للمسلمين الأحباش . وخرج من هذه القبائل قادة ومصلحون وجنود عملوا علي رد العدوان عن إنسان تلك الأرض التي ما كانت قد عرفت بعد الحدود السياسية . وأخذت الحركة الاسلامية في المنطقة تقوي واشتد عودها حتى إذا واجهها بلئيدا مريم بحملتين سارتا إلي عدل في ١٤٧٣-١٤٧٤م عادتا بالهزيمة والخسران . وانعكست هذه الهزائم علي سلاطين عدل الذين أخذوا بالتقية والمداراة والذين خرج عليهم أمراؤهم الثائرين علي الأهداف الصليبية التي ارتضاها السلاطين . وازداد الأمراء الثائرون بأهل مناطقهم قوة ومنعة وخرجوا للجهاد لأنهم لقوا الظلم ، وأدركوا "أن الله علي نصرهم لقدير ." . (٦٩)

هلك بلئيدا مريم بعد أن أزال باضطهاده للمسلمين الرماد عن جذوة الجهاد التي أخذت في التوهج بحروب ابنه الإسكندر (٨٨٣-٩٠٠هـ/١٤٧٨-١٤٩٤م) الذي هاجم عدل التي كانت تحت السلطان شمس الدين بن محمد (٨٧٧-٨٨٣هـ/١٤٧٢-١٤٧٨هـ) . وصل الملك بجنوده حتي دكر ، العاصمة ، ولكنه ارتد عنها خاسراً . وشكلت هذه الحادثة بداية انحسار فعلي لسلطة ملوك أمحرة في المنطقة وأصبح لأمراء المسلمين قوة متطلعة لخوض غمار الجهاد .

أمارة هرر وظهور الأمام أحمد :

اعتلي ناؤود عرش أبيه الاسكندر وظل طول فترة ملكه (٩٠٠-٩١٤هـ/١٤٩٤-١٥٠٨م) ، في نزاع مع أمراء المسلمين . حاول محمد بن أزهر الدين حاكم عدل (٨٩٨-٩٢٤هـ/١٤٩٢-١٥١٨م) أن يشتري رضاء الملك الجديد فقدم الهدايا وقدم الأتاوة وتعهد باتباع سياسات الملك . ولم يقم هذا الصلح المجحف الذي أحدثه حاكم عدل حيث ظهر في هرر الأمير محفوظ الذي رفض الانصياع والخضوع وأخذ في تحريك عجلة الجهاد . قام ناؤود بتجهيز جيشه وأقصي كل "المسلمين" المتطوعين في جيشه عن قتال أخوانهم المسلمين فقد تشكك في نواياهم فيما يبدو ، أو ربما ازدري فيهم جبنهم الذي جعلهم ينصاعون اليه رهبة أو طمعاً . خرجت تلك القوات النصرانية الصرفة فأعملت السيف في رقاب مواطنيهم المسلمين ، ثم تصدت لهرر فانزلت بأهلها هزيمة ساحقة وأحرقت الزرع وسلبت الضرع ولكنها لم تنتصر علي فكرة الجهاد التي بقيت متأججة في المنطقة حتى استقطبت السلطان محمد

الذي انقلب علي ناؤود . وراح السلطان يجاهد الملك بلا هوادة . ودخل في طاعة السلطان بعض أمراء الملك ناؤود وقادته مثل وناج جان الذي أخلص لدعوة الاسلام بعدئذ . يقول صاحب فتوح الحبشة : (٧٠) "كان وناج جان من الذين أسلموا وخرجوا إلي السلطان محمد فاكرمه وولاه أنكرسح وعيّنه قائداً لجيش بالي المسلم ." وحين أراد الملك ضم بالي أرسل اليها بطارقة شداد قتلوا من مسلميها خلقاً كثيراً وعادوا بوناج جان أسيراً . وعفا عنه ناؤود بعد أن توسط وسن سجد ، أخو وناج جان ، له . وكان للأخير منزلة خاصة عند الملك . تنصر وناج جان كرهاً ، فولاه الملك أرض بالي . وفي بالي دبر وناج جان مكيدة لبطاركتها حيث جمع منهم ستين بطريكاً لوليمة كبيرة وأسكرهم حتي أترعوا ثم شد وثاقهم وذبحهم ذبح الشياة وأرسل إلي السلطان محمد في دكر من بر سعد الدين يستنصره ، ولم يسرع السلطان لنجدته . وأرسل ملك الحبشة إلي بالي البطريك جبرأندرياس في حشود كبيرة لم يقو وناج جان علي ردها فهرب إلي الوبي بجماعاته وهناك أدركه الموت . وكان السلطان محمد قد تحرك في هذه الأثناء تجاه بالي فتراجع جبرأندرياس عنها واستولي عليها السلطان فأقام بها نحو شهرين ونظم ادارتها ثم تراجع . ونزل بعدئذ وسن سجد في جيوش من أرض الملك وحل بالمنطقة وأعمل السيف بالمسلمين حتي قتلوا علي ظهور جيادهم .

ويقي محفوظ علي قيد الحياة بعد موت ناؤود ليواجه قوات الملك الجديد لبنادنقل (٩١٤-١٩٤٧هـ/١٥٠٨-١٥٤٠م) . وكان محفوظ ، حاكم زيلع ، قد أصبح ، بعد أن تعافت قواته من الهزيمة التي لحقت بها ، الحاكم الفعلي لعدل ، والمناصر الأول لسلطانها محمد* . فحمل علم الجهاد الأخضر وتحرك في حملة للسلطان محمد لاستعادة فطجار . وتصدي لبنادنقل للمهاجمين وحصرهم في واد ضيّق بين الجبال يقع بين فطجار وعدل وأعمل فيهم قتلاً حتى استشهد في ساحة المعركة أكثر من اثني عشر ألف مسلماً ، واعتصم الباقون بالجبال حيث هلكوا جوعاً وعطشاً . وغنم لبنادنقل غنائم كثيرة ، منها الراية الخضراء ، وقتل الأمير محفوظ . (٧١) وهاجم لبنادنقل بعدئذ عدل ودمّر قلعة السلطان في دكر . وتم في نفس الوقت احراق زيلع بواسطة الأسطول البرتغالي الذي كان يقوده لوبو والذي حلّ بالمدينة في فترة غياب سلطانها ورجاله .

وظل السلطان محمد يقاتل ، وكانت حروبه في منطقة دليدة خاسرة فقد فيها الكثير من الأرواح . وأسرت جيوش الملك في تلك المعركة عدداً من المقاتلين المسلمين منهم أورعي حرب أرعد الذي "علم الملك أنه من أهل السلطان فأرسل به إلي حيق (تانا) وسط الجزيرة مع الرهبان وأمرهم أن ينصروه ويعلموه الانجيل فتعلم حتى حفظ كتابهم ." (٧٢)

أنطوت فترة حكم السلطان محمد حين استشهد الرجل في عام ٩٢٤هـ/١٥١٨م في طريق

عودته من إحدي حملاته ضد لبنادنقل . واستعرت الخلافات بعد قتله ومزقت البيت السلطاني . وتوالي علي حكم عدل خمسة سلاطين في ظرف سنتين فقط ، كان كل منهم يكيد للآخر ، ويقتل اللاحق منهم السابق . وانتهت فترة الفوضي بظهور الجراد أبون بن عداش الذي قام بإقرار النظام وعمل على اعادة هيبة السلطنة لتقوم بدورها الريادي في المنافحة عن المسلمين . أقام الجراد أبون العدل ، وقضي على اللصوص وقطاع الطرق ، وأصدر أوامره المشددة للقبض علي السكاري وأهل الميسر ، وملاحقة العابثين الراقصين علي أنغام الدفوف .

سعي الجراد أبون لاقامة مجتمع الطهارة والعفة فأمن شعبه علي عروضهم وأموالهم . وكان الرجل محباً للأشراف والفقهاء ، مجالساً للشيوخ العلماء . وعارضه أبوبكر بن محمد الذي نصب نفسه سلطاناً إعتماداً علي نسبه لأسرة سعد الدين وسعي للخلاص منه . نقل السلطان أبوبكر عاصمته من دكر في عام ٩٢٧هـ/١٥٢١م إلى هرر ثم أخذ في ملاحقة الجراد أبون حتي قتله في زيلع عام ٩٣١هـ/١٥٢٥م . ولم يتصد أحمد بن ابراهيم ، أحد أبرز قادة الجراد أبون للسلطان ابراهيم في هذه الفترة ، فخرج إلي هوبت ، مسقط رأسه في هرر الشمالية ، واستقرّ هناك دارساً للدين . يقول صاحب فتوح الحبشة في هذا الصدد :

"حارب السلطان أبوبكر بن السلطان محمد بن أرز من ذرية سعد الدين في جماعة من مفسدي الصومال وقطاع الطرق الجراد أبون وانتصر عليه ثم تولي أمر البلاد بعد مقتل الجراد أبون . وعاث السلطان أبوبكر فساداً في البلاد التي كثر فيها قطاع الطرق فما عاد أحد آمناً علي ماله ، وطغي المنكر وفاض فما عاد أحد آمن علي عرضه وماله . وكثر الموبقات وتعاطي الناس الخمور جهاراً نهاراً ، ومارس السلطان علي شعبه كل صنوف المظالم ، فأنكر الأشراف والفقهاء والمشائخ أفعاله . (٧٣)

أدرك أحمد بن ابراهيم أن السلطان قد سدر في غيه ، وأنه وعسكره قد خرجوا علي الكتاب والسنة ، وتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وانكبوا علي المحرمات ينهلون بلا وازع ، فقرر أن يخرج مهاجراً من تلك البلدة . وخرج مع أحمد بن ابراهيم من اعتقد اعتقاده من عسكر الجراد أبون حتي إذا وصلوا إلي هوبت استقروا فيها ونظموا صفوفهم استعداداً للجهاد لتطهير المجتمع . ولم يكن عدد هؤلاء النفر يزيد عن المائة فرد . وبينما هم كذلك إذ سمعوا أن بطريقاً من بطارقة الحطي من أهل دوارو اسمه فانيل قد نزل بجماعة من النصاري كبيرة علي بلاد المسلمين ، فسبي النساء والأطفال ، وأخذ المواشي والأموال ، وقتل الرجال ، وأفادت الأخبار أن ذلك البطريق قد أصبح علي مقربة من هوبت فخرج أحمد لملاقاته . ووقعت في عقم ، وهي منطقة قريبة من هوبت ، أولي المعارك بين أحمد بن ابراهيم وبين قادة الملك المعتدين . "والتقتهم المسلمون بقلوب اسلامية ، وبهمة محمدية ، واقتتلوا هناك كأعظم ما

يكون ، وصبرت لهم المسلمون وصدقوهم بالضرب فولت الكفرة الأدبار . وقتل يومئذ من البطارقة جماعة ومن العساكر ألوف . وغنم المسلمون يومئذ ستين فرساً ومن الآلات والبغال شيئاً كثيراً لا يحصي ، وأخذوا ما كان في أيدي الكفرة من أساري المسلمين ومواشيهم كلها وردوها علي أهلها . وانثني المسلمون راجعين فرحين مستبشرين إلي بلد يسمي زيغة ، قريب من بلد السلطان أبي بكر بن محمد . (٧٤)

وبدلاً من أن ينسّق السلطان محمد عسكرياً مع جماعة أحمد بن ابراهيم وأميرهم عمردين عمد إلى الفرار من وجههم ،خرج بمفسديه من الصومال وغيرهم هارباً إلي منطقة كداد . سار أحمد بن ابراهيم في أثره يتعقبه لقطع دابر فساده . والتقي الجمعان عند قرن ، وهو نهر كثير الماء ، ودارت الدائرة علي السلطان وجنوده . وغنم عسكر أحمد ثلاثين فرساً ثم كروا راجعين من هناك إلي هرر . ولم يرعو السلطان المهزوم ولم يسع لضم الصفوف الاسلامية باتفاقه مع القائد أحمد إنما أخذ في تعبئة جنوده استعداداً لمعركة أخري ضده تزيد الصف الاسلامي في المنطقة وهناً . سار السلطان أبوبكر بجنوده إلي هرر التي انسحبت منها جيوش أحمد في اتجاه هوبت زبرت حيث تحصنوا هناك بجبل منيف ، فضرب عليهم السلطان الحصار ، وضيّق عليهم بضعة عشر يوماً حتي أضطر أصحاب أحمد إلي النزول من الجبل ليلاً . ووقعت معركة كبري انهزم فيها أصحاب أحمد وقتل عمردين .

أصبح أحمد بن ابراهيم بعد مقتل عمردين أميراً وقائداً للمجموعة الثائرة فاستجاب لأهل الوساطة وصالح السلطان أبابكر . ولم يستمر أمر الصلح طويلاً إذ نقضه السلطان وغدر بأحمد وقتل نفراً من قادته ورجاله ، واستولي علي خيله وسلاحه . هرب أحمد بليل وسار إلي هوبت ولاحقه السلطان يقتل وينهب حتي وصل زعكة حيث بيت القائد أحمد ، فأحرقها ونهب أموال المسلمين فيها ثم تقدم إلي هوبت . وخرج أحمد بجنده من هوبت للقاء السلطان ودارت عدة معارك بين الجانبين المسلمين في أماكن متفرقة هناك كان آخرها معركة عند شمنجود دارت فيها الدائرة على عسكر السلطان "فأخذ الامام أموالهم بالأجمع مائة أو تزيد ، وقتلوا جماعة . وانثني الامام بعسكره إلي هرر وملك البلاد ، وأقام الحق ، وأزال المنكر وصاح المنادي : كل أحد يلزم بيته ، وكل علي عادته ، ولا تخافوا ، ولا تحزنوا ، ولا ضير علي أحد من الناس . (٧٥)

الحكم لأحمد والرسم لأبي بكر :

لم يسكت السلطان أبوبكر علي أمر ذلك الثائر الذي استطاع أن يقيم دولة في أرض تابعة له ورأي أن ينازله مجدداً . نادي السلطان في حشوده ونظم فرسانه وسار في جموعه يريد

أحمد بن ابراهيم . واستعد الأخير له وتقابل الجمعان في بلدة دّكر ، فتحصن السلطان أبوبكر بجبل جون المنيع الواقع علي أطراف تلك البلدة . وتدخل الفقهاء والأشراف والأمراء بالصلح بين السلطان والقائد أحمد لحقن دماء المسلمين "علي أن يكون السلطان سلطاناً علي حاله ، والأمر يكون للإمام من تحته ، وكل منهم علي عادته ، والبلد بينهم بالسوية . فرضي الامام لحقن الدماء ، ولا خالف الفقهاء والمشايخ شوراً أبداً ." (٧٦)

لم تؤد هذه التسوية إلي سلام بين السلطان وبين أحمد بن ابراهيم فقد مالت قلوب المسلمين في المنطقة إلي أحمد ، المناصر للحق المناهض للباطل ، وانصرفت عن السلطان أبي بكر ، السادر في الغي والمظالم . وأخذ الأهالي يتحدثون عن كرامات أحمد بن ابراهيم وعدله مما أكسبه لقب الامام .

يحدثنا في هذا الصدد صاحب فتوح الحبشة فيقول أن الامام أحمد خرج من معسكره في سليم يريد زيارة السلطان ، قال الراوي : "أقبل نحل طائر كأنه غمامة سوداء فظلل علي رأسه حتي غطي علي عين الشمس من موضع يسمي شمنجود إلي بيت السلطان ، وتحابا وتسالما والنحل واقف علي الباب وإلي أن خرج الامام أحمد فصفت فوق رأسه إلي أن وصل إلي بيته ، ولم يضر أحد من الناس . ورجع النحل إلي الشجرة وكان ذلك كرامة للإمام وبشارة من الله تعالي . قال الراوي : فإنه أهل لذلك وإنما سمي الأمام إماماً . قال المولف رحمه الله : حدثني الشيخ محمد بن أحمد الدهماني المغربي انه قال : بينما أنا راقد ذات ليلة من الليالي فرأيت رجلين من الأولياء وأنا حينئذ بين النوم واليقظة .. وهما يقولان لا تسموه (أحمد بن ابراهيم) السلطان ولا الأمير ولكن سموه إمام المسلمين . قال : فقلت لهما : إمام آخر الزمان ؟ فقالا لي : نعم ... قال الراوي : حدثني من أثق به ... انهما سمعا رجلاً يسمي سعد بن يونس العرجي يقول : بينما أنا راقد ذات ليلة من الليالي فرأيت النبي (ص) وعن يمينه أبوبكر الصديق وعلي يساره عمر بن الخطاب ، وبين يديه علي بن أبي طالب رضي الله عنهم . وبين يدي علي بن أبي طالب الامام أحمد بن ابراهيم فقلت له : يا رسول الله من هذا الرجل الذي بين يدي علي بن أبي طالب ؟ فقال صلي الله عليه وسلم : هذا رجل يصلح الله به بلاد الحبشة . (٧٧)

وفي الحقيقة فإن مثل هذه القصص الشعبية عن الكرامات تكشف تطلع المجتمع لرفع الظلم ودرء الحيف ومحاولته الهروب للتغيير الذي لم يتمكن من تحقيقه في عالم الواقع فاتجه لعالم الكرامات . أيد المجتمع بهذه الكرامات الامام أحمد بن ابراهيم الذي أصبح أمله في القيادة لما أنس فيه من كفاءة ودراية دينية وقتالية " يصلح الله بها بلاد الحبشة ." لم تكن لأحمد الشرعية التي تؤهله لأن يكون اماماً في ذلك المجتمع والتي تمكنه من معارضة شرعية آل سعد الدين الوراثية في الحكم . أضاف آل سعد الدين إلي جور الحطي وظلمه وتسلطه علي معتقدات

المسلمين وأموالهم وأعراضهم فأخذوا يزيدون في التعدي علي الشعب المسلم تساندهم في ذلك طائفة من المفسدين . ولم يبق للسلطان من همّ في السلطنة إلا "أكل خراج البلد" . (٧٨)

لا نعرف عن النشأة الأولي لأحمد بن ابراهيم إلا اليسير إذ تتضارب المصادر تضارباً كبيراً ولا تكشف عن كثير . أول معرفتنا بأحمد كانت في صفوف جيش الأبون بطلاً فارساً شجاعاً غير هياب يقاتل المفسدين . ورفعت هذه الصفات أحمد في نظر الأبون فأصبح مع صغر سنه قائداً بارزاً في ذلك الجيش . ونال هذا القائد الشاب تقدير الامام محفوظ ، صاحب هرر ، الذي زوجه من ابنته بعتيه دولنبره . أما العامة فقد أحبوا أحمد بن ابراهيم لدينه وورعه وتقواه . واكتملت عناصر القيادة والحكم في شخصية أحمد وأصبحت له كل مؤهلات الحاكم في ذلك المجتمع . فهو الشجاع الفارس الهمام الذي يلهم جنده المقاتلين تحت الراية الاسلامية ، وهو الورع النقي العادل الذي تتطلع العامة لرفع الراية الاسلامية به ، وهو صهر بيت حكم بارز مما يهيء له الشرعية لدي الارستقراطية الحاكمة التي أخذت تصيغ لأمره عندما اجتمعت له القوة المادية بالجند ، والقوة الشعبية بمؤازرة العامة له .

هوامش الفصل الرابع

١ - الواقدى (أبو عبد الله محمد بن عمر) المغازى ، تحقيق مارسون جونس ، ج٣ ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ٩٨٣ .

٢ - محمد أحمد الرويثى ، الموانىء السعودية على البحر الأحمر ، دراسة فى الجغرافية الإقتصادية ، بيروت ، ١٤٠٣هـ ، ص ٥٠ .

٣ - حسن أحمد محمود ، إنتشار الإسلام والثقافة العربية فى إفريقيا ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص ٤٢٦ .

٤ - جمال زكريا قاسم ، الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقيا ، ص ٥٠ .

٥ - عن معلقته التي تبدأ :"لطرفة إطلال" راجع :

بدوى طبانة ، معلقات العرب ، الرياض ١٤٠٤ ، ص ١١١ .

٦ - محمد عبد الغنى سعودى ، "الإتصالات العربية الأفريقية فى العصور القديمة" فى : العلاقات العربية الأفريقية دراسة تحليلية لأبعادها المختلفة ، ص ٢٦ .

راجع كذلك :

MC Master, The Ocean Going Trade to East Africa.E.A.G.R., 4 Apr. 1966, p.4.

٧ - جمال زكريا قاسم ، سبق ذكره ، ص ٥١ .

٨ - اليعقوبى (أحمد بن أبى يعقوب بن واضح الكاتب .ت ٢٨٢هـ/٨٩٠م) كتاب البلدان ، ليدن ، ١٨٩١ ، ج ٤ ، ص ١١٤ .

٩ - إبن الأثير (على بن أحمد بن أبى الكرم ت ٦٣٠هـ/٢٣٨م) الكامل في التاريخ ، بيروت ١٩٧٩ ، ج٢ ، ص ٥٦٥ .

١٠ - جمال زكريا قاسم ، "الروابط العربية قبل حركة الكشف الجغرافية وبدء حركة الاستعمار الأوربى فى القرن الخامس عشر ." فى : العلاقات العربية الأفريقية - دراسة للآثار السلبية للإستعمار ، القاهرة ، معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٧٧ ، ص ١٧ .

١١ - *Freeman, Granville, The Mediveal History of The Coast of Tanganiyka, Berlin, 1962, p.62 - 3.*

١٢ - جمال زكريا قاسم ، الأصول ... ص ٦١ - ٦٢ .

١٣ - القلقشندى (أبو العباس أحمد) صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، ١٤ جزء ، مصر ، ١٩١٣ - ١٩١٧ ، ج٥ ، ص ٤٢٢ .

١٤ - المقريزى (أحمد بن على بن عبد القادر) الإلمام بمن بأرض الحبشة من ملوك الإسلام ، ص ٦ .

١٥ - صبح ، ج٥ ، ص ٣٢٤ .

١٦ - الإلمام ، ص ٧ .

١٧ - نفس المصدر ، نفس الصفحة .

١٨ - *Budge, History of Ethiopia and Nubia, vol.1, p.288*

١٩ - عبد المجيد عابدين ، بين العرب والحبشة ، ص ٢٠ .

٢٠ – صبح ، ج٥ ، ص ٣٣٢ .

٢١ – فتحى غيث ، الإسلام والحبشة عبر التاريخ ، ص ٨٣ .

٢٢ – Budge, op. cit, p. 327

٢٣ – زاهر رياض ، تاريخ أثيوبيا ، ص ٦٣ – ٦٤ .

٢٤ – Budge, op. cit, p. 154

٢٥ – عبد المجيد عابدين ، سبق ذكره ، ص ١٤٦ .

٢٦ – زاهر رياض ، سبق ذكره ، ص ٦٤ .

٢٧ – ساويرس بن المقفع الأشمونى ، تاريخ بطارقة الكنيسة المصرية المعروف بسيرة البيعة المقدسة ، نشر يس عبد المسيح وآخرين ، م ٢ ، ج٢ ، مصر ١٩٤٣ – ١٩٤٨ ، ص ١١٣ – ١١٤ .

٢٨ – زاهر رياض ، سبق ذكره ، ص ٦٥ – ٦٦ .

* كان ملكاً معتوهاً إدعى الألوهية بعد أن أوهمه محمد بن اسماعيل الدرزى أن روح آدم (عم) قد إنتقلت إليه . أمر هذا الملك المعتوه بسب الصحابة على المنابر . وكان يرسل جنده يغيرون على أحياء القاهرة يقتلون ويحرقون ، بينما يخرج هو إلى القرافة ويطلع الجبل ليستمتع بمشاهدة الحرائق وأصوات العويل والنواح . كانت له أطوار غريبة وأوامر غير مؤسسة . حرّم على المصريين أكل الملوخية ، وأمر النصارى بان يحمل كل منهم صليباً على عنقه تبلغ زنته خمسة أرطال مصرية ، وأن يلبسوا العمائم السوداء . لم ينج اليهود بدورهم من شر هذا الطاغية .

راجع :

أبو المحاسن (جمال الدين بن تفرى بردى الأتابكى) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ص ١٧٧ – ١٨٢ .

٢٩ – زاهر رياض ، سبق ذكره ، ص ٦٥ – ٦٦ .

٣٠ – نفسه ، ص ٦٨ .

٣١ – Budge, op. cit, p. 284

٣٢ – زاهر رياض ، سبق ذكره ، ص ٧٠ .

٣٣ – الإلمام ص ٧ .

٣٤ – Trimingham, J.S., Islam in Ethiopia, 3rd imp. London, 1976, p.67.

٣٥ – Budge, op. cit, p. 285

٣٦ – ابن عبد الظاهر (عبد الله الكاتب) الروض الزاهر فى سيرة الملك الناصر ، القاهرة ، ص ٦٢.

٣٧ – نفسه ، ص ٦٧ .

٣٨ – نفسه ، ص ٨٩ .

٣٩ – عبد العزيز عبد الغنى ابراهيم ، تاريخ الحضارات السودانية القديمة ، ص ١٨٩ – ١٩٠ .

* حفظ العمرى (شهاب الدين أحمد بن يحى فضل الله) صيغة الخطابين اللذين أرسلهما يجباصيون (سلمون سليمان) : جاء فى الأول : "إنى أحفظ المسلمين فى جميع مملكتى ، ومولانا يحفظ النصارى فى بلاده حتى تصير مشورة واحدة ويداً واحدة وتتواصل الرسل بين الجهتين". وجاء فى خطاب المطران : "وهؤلاء السريان المطارنة الذين

عندنا من غير مصر يغضناهم وما أحببناهم ولأجل محبتنا فى بطركية مصر ما خليناهم عندنا وطردناهم ، وما كانوا قعدوا عندنا إلا بوالدنا لأنه ما كان عنده أحد من جهتك ". راجع :

التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ١٧٠ – ١٧٢ .

٤٠ – إبن إياس (محمد بن إياس الحنفى) بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، بولاق ، ١٣٧٢هـ ، ص ٩ .

٤١ – Trimingham, J.S., op. cit, p. 71

٤٢ – فتحى غيث ، سبق ذكره ، ص ١٢٤ .

٤٣ – Trimingham, J.S., op. cit, p. 71

٤٤ – السلوك لمعرفة دول الملوك ج٢ ، ص ٢٥٤ .

٤٥ – Trimingham, J.S., op. cit, p.

٤٦ – صبح ، ج٥ ، ص ١٣٧ .

٤٧ – نفسه ، ص ٣٣٢ .

٤٨ – Budge, op.cit, p. 299

* لم تكن السلطات المملوكية تحبذ الإتصال المباشر بين بطريق الاسكندرية والملك الحبشى . وحدث أن حذرت البطريق صراحة فى عام ٧٦٤هـ بان لا يحاول بأية حال من الأحوال الإتصال بالأحباش لا سراً ولا علناً "حتى إذا قدر لا يشم رائحة الجنوب ". راجع :

التعريف ، ص ١٤٦ وكذلك : صبح ، ج١١ ، ص ٣٩٧ .

٤٩ – عبد المجيد عابدين ، سبق ذكره ، ص ١٧٧ – ١٧٨ .

٥٠ – محمد الحافظ مصطفى النقر . "الصراع الإسلامى المسيحى فى الحبشة فى فترة الأسرة السليمانية الحبشية" دراسات أفريقية ، العدد ٩ ، الخرطوم يوليو ١٩٩٣ ص ٩٦ .

* بدأت هذه الحروب بالنزاع الذى شب بين حق الدين الثانى وبين عمه أبى بكر بن على بن صبر الدين الذى كان قد ورث الحكم عن والده . وتدخل ملا أصفح بن على فى النزاع واستنجد بالحطى الذى أعانه بجيش كثيف لمحاربة حق الدين . وهزم حق الدين عمه ملا أصفح ، فهرب العم الى بلاط الحطى الذى عاد الى المنطقة بجيش آخر أكثر عدة وعتاداً ولكنه هزم مرة أخرى وتفرق جنده . وسار حق الدين منتصراً إلى مدينة أوفات (إيفات) التى كان عليها جده على بن صبر الدين والذى لم يكن ليغفر لحفيده قتل عمه ملا أصفح . ومع ذلك تأدب حق الدين لجده وأقرّه على أمارة أوفات . وسار حق الدين من هناك حتى نزل شوا وأقام داراً لمملكته أنزل بها أتباعه من أهل أوفات وغيرهم . ومنذ ذلك التاريخ أخذت أوفات تتلاشى . جدير بالذكر أن حق الدين كان أول من خالف أهل بيته على الحطى وخرج على "الكفار ". راجع :

الإلمام ، ص ١١

٥١ – السلوك ، ج٣ ، ص ٤٤٧ .

٥٢ – نفسه ، ص ٥٥٥ . كذلك : ابن حجر ، أنباء الغمر ، ج١ ، ص ٣١٦ . كذلك السخاوى (محمد بن عبد الرحمن) ، التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، مصر ١٨٩٦ ، ص ٦٨ .

٥٣ - أنباء الغمر ، ج١ ، ص ٣١٦ - ٣١٧ .

ويضيف ابن عبد الظاهر (بدائع ص ٣٧٩) أن تلك الهدايا شملت قماشاً وتحفاً من الذهب وجاريات حسناوات وطواشيه .

٥٤ - الإلمام ، ص ١٣ .

٥٥ - *Leo Hansburry. "Ethiopian Ambassadors to Latin Courts and Latin Emissionaries to Prester Jhon," Ethiopian Observer, 2, 1965, p. 90.*

يحكى عن ورع سعد الدين وصلاحه وزهده أنه جمع من غنائم الحطى أربعين ألف بقرة فرّقها بالكامل على عسكره وعلى الفقراء والمساكين ولم يستبق لنفسه شيئاً حتى أنه لم يجد ما يأكله فأطعمته زوجته ! . والثابت أن الرجل كان مؤمناً متوكلاً لا يعتمد على كثرة جند أو قوة عتاد . ففى الغزوة التى شنها على بالى كان فى نفر قليل من أتباعه وبدأ المعركة بالوضوء والصلاة ، وابتهل إلى الله بالنصر وكان اتباعه يؤمّنون . راجع :

الإلمام ص ١٩ .

٥٦ - التبر المسبوك ص ٢١٠ - ٢١١ .

٥٧ - الإلمام ، ص ١٢ .

٥٨ - نفسه ، ص ١٨ .

٥٩ - نفسه ، ص ١٧ .

٦٠ - زاهر رياض ، سبق ذكره ، ص ٨٠ .

٦١ - *Leo Hansburry op.cit, p. 91*

٦٢ - الإلمام ، ص ٢ .

٦٣ - التبر المسبوك ، ص ٦٧ - ٧١ .

٦٤ - نفسه ، ص ٧٢ .

٦٥ - زاهر رياض ، سبق ذكره ، ص ٨١ .

٦٦ - *Trimingham, J.S., op.cit, p. 83*

٦٧ - محمد الحافظ مصطفى النقر ، سبق ذكره ، ص ٩٢ .

٦٨ - عرب فقيه (شهاب الدين أحمد بن عبد القادر بن سالم بن عثمان الجيزانى) فتوح الحبشة ، نشر رينييه باسيه ، القاهرة ، ١٩٢٥ ، ص ٢٠٧ .

٦٩ - نفسه ، ص ٩٣ - ٩٤ .

* كان محفوظ أمير زيلع من أخلص ولاة السلطان محمد بن ازر بن أبى بكر بن سعد الدين . خاض هذا السلطان فى خلال الثلاثين عاماً التى حكمها حروباً عديدة ضد ملوك الأمحرة ، وانتصر فى الكثير من المواقع ، ثم لقى مصرعه فى مؤامرة دبرها صهره محمد بن أبى بكر بن محفوظ . ولم تدم السلطنة للأخير لفترة طويلة إذ إنقلب عليه ابراهيم ، أحمد حاكم بلاد هوبت ، فقتله وحكم البلاد لثلاثة أشهر . وأحدث وسنى ، مملوك الجراد محفوظ ، على ابراهيم انقلاباً وأمسك بزمام الأمور لثلاثة أشهر فقط أسره بعدها منصور بن محمد بن الجراد عداش . وظفر الأخير بمنصب السلطنة لمدة خمسة أشهر فقط وآلت بعده إلى الجراد أبون الذى حكم البلاد لسبع سنين متصلة حتى

استخلص السلطنة منه محمد بن أبى بكر بن ازر بن أبى بكر بن سعد الدين بمساندة مجموعة من مفسدى الصومال . وحين همّ أحمد بن ابراهيم بمعارضة السلطان محمد بن أبى بكر اتخذ عمر دين بن محمد بن أظهر الدين بن على بن أبى بكر بن سعد أميراً لجماعته ليعارض السلطان بشرعية آل سعد الدين فى الحكم .

٧٠ – عبد المجيد عابدين ، سبق ذكره ، ص ١٨٩ .

٧١ – فتوح الحبشة ، ص ٢٣٢ .

٧٢ – نفسه ، ص ٢١٣ .

٧٣ – نفسه ، ص ٨ .

٧٤ – نفسه ، ص ٩ .

٧٥ – نفسه ، ص ١٢ .

٧٦ – نفسه ، ص ١٣ – ١٤ .

٧٧ – نفسه ، ص ١٢ كذلك : نفسه ، ص ٧٨ .

٧٨ – نفسه ، ص ٩٦ .

الفصل الخامس

إمامة الحبشة

(أحمد بن ابراهيم الجران)

- الامام يبدأ الجهاد
- الجولة الثانية في منطقة الطراز الاسلامي
- الجولة الثالثة
- دبرا برهان وبيت أمحرة
- تصفية جيوب المقاومة والتصدي للمتسللين
- إلى التجري وأطراف الحبشة
- بداية الاتصال بالسودان
- البرتغال تحارب إمامة الحبشة
- محاولات بعث الإمامة

الإمام يبدأ الجهاد

نادى الإمام أحمد في قبائل الصومال فلحقت به في هرر قبيلة هبرمقدي تحت راية مقدمهم احمد جري بن حسين الصومالي ، ونزلوا في قشة ، أعلى وادي هرر ، بخيلهم وسلاحهم . واستجابت للإمام قبيلة جري بقيادة متان بن عثمان بن خالد الصومالي ، فأمرهم السلطان أن ينزلوا في سيم . وجاءت بعد ذلك قبيلة زربة ، ومقدمهم السلطان محمد ، إبن عمة الإمام ، ونزل في هرر . وتأخرت قبيلة مريحان وكبيرها حرابوا ، فبعث الإمام في طلبه . وتعلل الأخير بأعذار واهية لكنه أرسل رجال قبيلته بعدئذ مع ابن أخيه ووصلوا في خيلهم وسلاحهم إلى هرر(١) وقد قدرت أعداد محاربي مريحان بحوالي ٣٠٠ محارب (٢).

سار الإمام بكل هذه الحشود التي تحركت من معسكراتها في هرر يريد الحطى ورجاله ، وكانت القبائل تلقاه حيثما حلّ بالعون والمدد حتى وصل إلى الديرة ، وهو نهر غزير المياه فعسكر عنده . وعرف الملك وثاج سجد (لبنا دنقل) وهو في أرض بادقي خبر حشود الإمام فانحاز بجنده إلى بيت أمحره ، "وهو أصل مملكتة ، وخلف في بادقي بطريقا يسمى عثمان بن دار علي كان مسلماً، وأبوه مسلم ، أسره الكفرة في زمن السلطان محمد بن أبي بكر ، وارتد عن الاسلام وتنصر وبطرقه الملك (٣)." وكان هروب هذا الملك بداية النهاية للمملكة السليمانية وإشارة لقيام دولة الإمامة في الحبشة .

في بيت أمحره أعلن الملك وثاج سجد (لبنا دنقل) التعبئة العامة فجاءة بطارقة التجري المقادمة منهم أربعة وعشرين بطريقا ،كل بطريق تحته جيش كبير لايحصى ، وأهل بقى مدر ، وأهل العنقوت ، وأهل قدة ، وأهل جن ، "وهم عساكر كالجراد المنتشر .... واجتمعت جميع النصارى في بيت امحرة في العدد العديد والزرد النضيد."

ـ خرجت جموع المسلمين من الدير وساروا ليومين حتى وصلوا الى بقل زر، وهو نهر كثير المياه . وهناك نظّم الإمام جيشه، فعقد رايه بيضاء للوزير عدلي، وضم اليه أهل سيم، كما ضم اليه من قبائل الصومال قبيلة هبر مقدي، وقبيلة أحمد جري، كما ضمت هذه الراية أيضا العديد من الصناديد الأبطال مثل الأمير مجاهد سوحة، وأبسمانور ، والجراد

شمعون ، والجراد برهان ، وبلو عبد ، وعلوش الهجين، والاورعي نور قاطابن عمر ، صهر الجراد محفوظ ، وفرشحم عثمان يماج ، ودل سجد فارس سيم، وشوم ووردای وغيرهم . وعقد الإمام راية حمراء لمتان بن عثمان بن خالد الصومالي ، وهو زوج فردوسة أخت الإمام ، وتبعه من قبائل الصومال قبائل هرتي، وجيران، ومزرة، وكان قوام قوته نحو ثلاثة الاف رجل . أما الراية الثالثة ، وهي الصفراء المختلطة بالأحمر ، فقد سلمها للوزير نور بن إبراهيم ، وجعله على قبائل شوا، وقبائل هرجاية، وكان مقدمهم يومئذ محمد بن إبراهيم ، أخو الإمام ، وعسكر جرير ، ومقدمهم أخو السلطان عمردين من أمه . أما الراية البيضاء ذات الطرف الاحمر فقد اختص الامام بها نفسه . كتب الإمام على رايته بعد البسملة العديد من الايات القرآنية، والأدعية المأثورة ، وأبيات الشعر العربي . وجاء من ذلك إنا فتحنا لك فتحا مبينا ، نصر من الله وفتح قريب ، وكان حقا علينا نصر المؤمنين، انا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ، ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون وأنّ جندنا لهم الغالبون ، ربناافرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا علي القوم الكافرين ، ربنا افرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين. وكتب في وسط رايته (الم تر الى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتو الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشهد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب) . كما كتب أيضا :حصنتكم بالحي القيوم الذي لايموت أبدا ودفعت عنكم السوء بألف ألف لاحول ولاقوة إلا بالله العلي العظيم . وكتب أيضا : والآخرة لمن اتقى . (واتل عليهم نبا ابنى آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من احدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين) . ثم كتب هذين البيتين الذي يقال انهما كانا على راية علي بن ابي طالب :

الحرب إن باشرتها فلا يكن منك الفشل
واصبر على أهوالها لاموت إلا بالأجل (٤)

وكان سيدي الفقيه مفتي المسلمين أبو بكر بن نصر الدين بن محمد ، المكنى بارشوته ، هو الإمام الذي يصلي بالجند، وكان رجلا حصيفا يتمثل المناسبة ، فلا يقرأ في الصلاة إلا ايات الحرب والقتال التي تدل على فضل المجاهدين والشهداء .

تحركت جموع المسلمين في اتجاه نهر هواش فبلغوه بعد مسير يومين ، ثم ساروا الى أماجة "وهي بلدة من بلدان الحبشة يسكنها المسلمون ويحكمها بطارقة الملك . حذره أهل البلدة من أن لملك الحبشة قوة لاتقهر وخيلا لا تحسب" . وأباوك وأجدادك والأمير علي ، والأمير محفوظ صهرك ، والجراد إبراهيم ، والسلاطين المتقدمة ممن ملك بر سعد الدين لم يكن أحدهم منهم يقصد ملك الحبشة إلى بلده ومسكنه ، لكن يغزون إلي أطراف البلاد ويغنمون ويرجعون ... وأنت تريد أن تقصد ملك الحبشة الى وطنه ؟! والآن لاتهلك المسلمين . فقال الامام أحمد : الجهاد ماهو بتعب على المسلمين. فقالوا : نحن ما مرادنا إلا الجهاد ، ومن قتل منا صار إلي الجنة ، ومن عاش منا عاش سعيداً، "وقال هؤلاء أنهم مدركون لقوة الحطي وكثرة عدد رجاله "لكن نحن ما نقاتلهم لا بكثرة ولا بقوة ، وما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ." (٥)

كانت أولى المناوشات بين طلائع الجيشين في منطقة جان زلق الواقعة بين جورجان ومنطقة شوا على السفوح الجنوبية الشرقية. هناك التقت بعض القبائل المسلمة التي كنت تحت راية الامام بجيوش أربعة من البطارقة فقارعتهم وانتصرت عليهم . وسارت جموع القبائل المسلمة حتى بلغت أرض فطجار عند نهر مجوا ، ونزلت على تخوم بادقي ، موضع بيوت الملك وخزائنه . واعتقد جند الجيش المسلم أن البلدة غير محروسة فدخلوها وما كانوا يفعلون حتى نزلت عليهم جيوش البطارقة كالسيل المنهمر من الجبال . واستبسلت كتيبة البطريق دجلجان صهر الملك ، والبطريق محطنتي دواروا نجاشي ، والبطريق تخلي سوس صاحب التجري . وتراجع المسلمون إلى نهر سمرما لجمع الصفوف وإعادة الكرّة (٦) .

فصل النهر بين جيشي القبائل المسلمة والبطارقة . وفي حركة غير مدروسة عبر الجيش المسلم النهر فلاقاهم الجيش النصراني . وحمل البطريق روبيل الذي كان على ميسرة الجيش النصراني على ميمنة المسلمين فانكشفوا . واشتد البطارقة الذين كانوا يقودون القلب حتى انكسر الجيش المسلم وتسارع رجاله يعبرون النهر إلى ضفّته الأخرى حيث كان الإمام أحمد يعسكر فى بقية من الجند – وأخذ الإمام أحمد يعيد تنظيم صفوفه وينادي في رجاله : إلى أين تفرون ؟ أتفرون من الجنة ؟ إنما هو إلا أجل قد كتب . وذكّر الامام أحمد القبائل

بالجهاد وفضله ، وأصدر أوامره إلى رجاله المخلصين بقتل رجال القبائل الذين ينكصون على أعقابهم متقهقرين .

انسحب أتباع الإمام أحمد حتى منطقة عجام جي ، وهو نهر من أرض لال من الفطجار قريب من زقالة ، حيث عسكر هناك لإعادة تنظيم صفوفه (٧) . ونزلت بهم خطأ حملة تابعة للملك كانت تحمل الأرزاق والمؤون إلى البطارقة . ظنت الحملة أن جموع المسلمين من عسكرهم ، ولكنهم ما أن أدركوا خطأهم حتى عمدوا إلى الهرب فتبعهم المسلمون يأسرون ويغنمون فتمكنوا منهم جميعاً ورفع ذلك العمل من الروح المعنوية للجند المسلم بعد أن أصابوا ذلك النصر السهل في فطجار التي هي من أرض شوا التي اغتصبت من المسلمين لصالح الحطي ورجاله .

وصل الحطي لبنادنقل في جمع غفير من البطارقة وجماعاتهم إلى بادقي ، وكافأ قساوستها على ثباتهم وردهم المسلمين عن البلدة. هناك نظّم الملك حشوده وسار بهم يريد معسكر الإمام أحمد . وعند صمبركوري ، وهي من أرض شوا ، التقى الحطي وبطارقته بأحمد الذين كان يهمّ بالتراجع . وأحاط الملك بالجيش المسلم فلم يكن من القتال بد . حجز الملك طريق جماعات القبائل المسلمة المتراجعة وكان جيشه في سبعة صفوف لاترى أوائلها ، وكان جيشه من فرسان بلغت حوالي ستة عشر ألفا ، ومشاة من أهل القسي والسيوف والسهام السامة بلغت حوالي مائتي ألفاً، وثبت الامام للقاء وهو يدري ضعف موقفه الحربي . جعل الامام ميسرة جيشه من قبيلة جري أهل الخيل ، وقبيلة هرتي أهل السيوف ، وقبيلة يبري أهل القسي ، وكلها قبائل صومالية قاتلت في الميسرة مع قبائل مريحان وجزان ومرزة وبرسوب وغيرها من القبائل الصومالية الأخرى . وجعل الامام أهل الحرلة ، وهم عرب تخا، وقبيلة القي ، في الميمنة . أما القلب الذي تولى الامام بنفسه قيادته فقد كان من الملساي بالاضافة إلى جماعات منتخبة من القبائل الأخرى المذكورة جميعها (٨) .

تلاقى الجمعان في مستهل رجب ٩٣٥/مارس ١٥٢٩ ونال الامام نصرا مؤزرا بعد أن استشهد أكثر من خمسة آلاف من خيرة رجاله . وتقهقر من بقى من جيش البطارقة لا يلوي على شيئ تاركا عدته وعتاده غنيمة ساقها أحمد إلى هرر حين تراجع اليها بعد ان رفض

جنده التقدم إلى بادقي وراء فلول المهزومين وآثروا العودة على مواصلة الجهاد. وصحب أحمد إلى هرر أعداد كبيرة من الذين دخلوا في الاسلام من النصارى ومن الذين اجبروا سابقا على الارتداد ثم عادوا بقلوب مطمئنة حين تهيأت لهم فرصة العودة الى رحاب الاسلام . وكان لهؤلاء المسلمين الجدد الذين حسن إسلامهم دور كبير في الحروب التي وقعت في مناطقهم التي كانوا قد وفدوا منها ، وأبلوا مع الامام بلاء حسناً . رحبت بهم تلك المناطق وسارت تحت الويتهم وعاضدتهم ونصرتهم . وهكذا انتهت الجولة الأولي بالأنتصار على العديد من المدن في منطقتي شوا وجوجام ، وتأكد الأمام أنه يستطيع أن يجتاح مملكة الحطى (٩) .

كان الامام أحمد قد نصب عمردين سلطانا مكان أخيه أبي بكر . وحين عاد أحمد منتصرا من صنبركوري بدأ في تنظيم الدولة الاسلامية على أسس من الشورى والعدل الاجتماعي ، ووافقه الفقهاء في ان تصرف الزكاة في مصارفها . وكان من العادة "أن من يتولون بر سعد الدين يأخذون الزكاة من المسلمين ويصرفونها في مصالحهم لا يعطون الفقراء والمساكين ومن يستحقها منها شيئا." ولم يرض السلطان المعيّن عمردين هذا التنظيم المالي الذي حرمه من ممارسة أفادمنها أسلافه ، فانتهز فرصة غياب الامام لاصلاح ذات البين بين بعض قبائل الصومال واستمال اليه بعض قادة الامام ، كما استمال أيضا الفقيه أبا بكر ، قاضي هويت ، والفقيه أحمد بن علي ، أخو الفقيه نور قاضي المسلمين بأرضه الحبشة . استقر رأي هذه المجموعة من فقهاء السلطان على ان الإمام قد حرمهم من ممارسة تقاليد استقرت منذ عهد آبائهم وأجدادهم "من زمان سعد الدين وهذا يريد أن يبطلها ونحن لا نبطلها ، وهو الآن راح الى زربة ، ولامعة قوة . وهذا خيلة كلها هنا نأخذها وإذا جاءنا قاتلناه وإلا يترك لنا ويخرج عنا هو وزوجته دولنبرة بنت الامير محفوظ إلى حيث ما أراد ، إن أراد بر العرب ، وإن أراد إلى مكة ولا يجيئ الينا ولا نريده في بلدنا" (١٠) . ولم يرض الامام هذا الرأي وعاد حيث نظم حشوده في ويلقم حيث يوجد كثير من مسلمي التجري . وخشي السلطان مغبة فساده وفساد علمائه المرتشين ، وتوسط له الأشراف والفقهاء عند الامام في الصلح ، ولم يعترض الإمام على حقن الدماء . وسار إلى بلاط السلطان فى هرر ، وهناك أصبح نافذ الكلمة مرفوع الراية ، لا يجرؤ السلطان أن يخالف له رأي يبرمه بعد

استشارة أصحابه من الفقهاء والزهاد .

الجولة الثانية في منطقة الطراز الاسلامي :

نظم الامام جنده استعدادا للجولة الثانية لتحرير مسلمي الحبشة من صلف البطارقة وملكهم . وقد استغرق هذا العمل التنظيمي حوالي الشهرين ونصف في الفترة الممتدة بين شعبان ونصف شوال ٩٣٥ . تحرك الإمام يريد دواروا فبلغها ولم يلق منها مقاومة بل ظفر بحسن استقبال ، فأهلها في أغلبهم مسلمون كان الحطي قد غلبهم على ديارهم. تحرك بعض وزراء الامام بعدئذ إلى أرض جوانز فسبوا وغنموا وتراجعوا منصورين الى أدل مبرق من أرض دواروا وهزموا بطريقها وأسروه . "وكان بطريق كبير في دواروا يسمى راس بنيات وهو عظيم عند الملك ، وبطرقه الملك وجعله على جميع البطاركة قد أعتد جيشه استعداداً لقتال أحمد وأتباعه . وتوسط البطريق ، زبيل ، بطريق أدل مبرق ، في الصلح بين احمد وراس بنيات على أن يدفع الاخير الجزية ولا يحرق الأول الكنائس . وعلى هذه الشروط دخل أحمد بلاد راس بنيات ووجد من بطريقها الكرم والطاعة ، فانحاز عنه وسار حتى بلغ الى أرض يحكمها المدعو راجح ، وهو مسلم مرتد كان يغير على بلاد المسلمين ، فاستحث فيه الامام إسلامه القديم وكتب له : "انت مسلم وابن مسلم ، ومجاهد وابن مجاهد من اول الزمان ، وقدر الله عليك بالذي كان ، والآن أن ان تتوب وترجع الى دين الاسلام وتكون أخانا و ولاتقنط من رحمة الله ،(١١) فأطاع الرجل ، وخرج بقومه للجهاد في صفوف الإسلام ، وهكذا توالت انتصارات الإمام دون ضربة سيف أو طعنة رمح ، فقد أخذت جماهير الإسلام التي كانت مغلوبة على أمرها تثوب اليه طائعة مختارة .

خرج الإمام بعدئذ بقادته إلي بور وأصاب نصراً سهلاً على البطارقة الذين تمكنوا بعد ذلك من الفرار الى بوس فتعقبهم إلى هناك . وفي هذه المنطقة فاجأ رأس بنيات، بطريق دواروا ، جيش أحمد ، وكان الأول يسير في حشد كبير من البطارقة وأنصارهم بعد أن نقض عهده مع الامام وسار وراءه يلاحقه ، وانهزم جيش رأس بنيات ومات قائده بضربة سيف على ورداي الذي كان بطريق الجوانز قبل أن يأتي الإمام تائبا عن وزر الردة . وأصاب

المسلمون في هذا النصر الذي هيأه له رأس بنيات بنقضه العهد غنائم كثيرة . وأخذت جماعات احمد العسكرية تسيح في الأرض يؤمنون المسلمين من أهلها والعائدين إلى حظيرة الاسلام من مرتديها والآخرين الدين هداهم الله الى الاسلام، ويقضون بهم ومعهم على فلول البطارقة . وعاد الإمام بعدئذ بجيشه إلى هرر مؤزراً منصوراً في عدد كبير من المسلمين الجدد ، وتحقق لأحمد عزل المملكة السليمانية عن العالم حين تراجعت إلى مرتفعات الهضبة الحبشية لتحتمي من هذا الزحف الضخم الذي أتاها من السواحل منظما جاداً . ولم تكن جيوش الطراز لتبلغ هذه المناطق فقد تأتي الغارة ولكنها سرعان ما تريد منحسرة (١٢) .

لم تكن همة الإمام أحمد في الجهاد لتفتر أو يهدأ له بال حتى يستخلص كل أراضي الحبشة المسلمة لأهلها بعد أن اغتصبها البطارقة التابعين للأسرة السليمانية الحاكمة . أراد الامام الخروج إلى بالي ولم يوافقه السلطان لقلة الميرة في أرض الصومال التي رافق فيها الأخير الأول لقتال بعض شيوخها الخارجين على السلطة . رجع السلطان من كداد بالصومال إلى هرر ، أما الإمام فلم يأبه لقلة زاد الجند فجمع الأشراف العلويين في تلك المنطقة وطلب اليهم ان يعينوه بالزاد على الجهاد ففعلوا . وسار الإمام مع جموعه حتى بلغ نهر وبي ، وهناك نفذ زادهم وبلغ منهم الجوع مبلغه . وقدم على الإمام في ذلك المعسكر قوم من أهل بالي معلنين إسلامهم ، وكانوا قد خرجوا قاصدين الإمام دون أن يعلموا انه كان في طريقه إليهم . وأخبر هؤلاء الرجال ان بالي تقع تحت حكم البطريق ازماج دجلجان ، صهر الملك ، وأنه غادر لزيارة الملك واستخلف مكانه البطريق شنكور، وانه يعسكر بجنوده عند بلده زله. أما قاقمة فيحرسها البطريق تخلي أمانوت. وكان الأخير مسلما ارتد بعد خلاف له مع الإمام ، فولّاه الملك الحبشي تلك المنطقة (١٣).

سار الامام حتى بلغ الى عقرى ، وكان أهلها مسلمون تحت حكم البطارقة . ودخل المسلمون في اليوم التالي الى أدل جلات من أرض بالي وأقاموا معسكرهم هناك ، وتحركت فرقة من جيشه إلى قاقمة عادت بتخلي أمانوت أسيراً ، فأرسله الإمام هديّة الى صاحب عدن ، وغنم المسلمون غنائم كثيرة ولم يعودوا يحسون جوعا ولا مسغبة، وتقدمت فرقة من فرق الإمام إلى أرض مالو ، في وسط بالي وتمكنوا منها وعادوا بالغنائم من الأسرى والكراع الى

معسكرات الامام في أدل جلات . أما شنكور ، نائب دجلجان على أرض بالي ، فانه جمع حشوده وسار قاصدا إلى أدل جلات للقاء الإمام . واستطاعت طليعة جيشه أن تكسب في أطراف معسكر الامام ولكنها ارتدت وتقهقرت مسرعة بعدئذ، وأقبل على الإمام مجموعة من العرب والمسلمين من الذين كانوا في أرض بالي ، فرحّب بهم وأكرمهم . وسارت جماعات الإمام المسلمة في أرض بالي واسكتت جيوب المقاومة بها ثم عاد الامام الى هرر مؤيدا بالنصر المبين .

الجولة الثالثة :

بقى الامام في هرر نحو شهرين يعد للمعلرك الفاصلة مع الملك وبطارقته ، ثم خرج الى بلاد زربة ، وهي من بلاد الحرلة ، يستنصر أهلها ويحرضهم على الجهاد . وأرسل من هناك الى زيلع بعثة لشراء آلان الحرب من سيوف ومدافع ، وعادت البعثة بعدد من السيوف وبسبعة مدافع ادوا ثمنها للتجار، ولم تكن تلك الأسلحة هدية من الدولة العثمانية ولامن رجالها في المنطقة . وجاء مع تلك البعثة التي ذهبت لشراء السلاح سبعون مقاتلا من المهرة على نية الجهاد مع الإمام يقودهم سعيد بن صعبان المهري ، وكان الشريف أحمد مرزوق هو رئيس هذه الجماعة ومقدمها .

توافدت على الإمام فى هرر قبائل الصومال المختلفة فأقبلت عليه قبيلة هبر مقدي مع الجراد دويد ، ومريحان مع شيخهم أحمد بن حرابوا ، وجرجرة مع مقدمها جراد عبيد ، وجري يقودها جراد متان (١٤) وذربة من الحرلة . واجتمعت القبائل في أطراف هرر وتكاملت للخروج ولاسترداد أرض المسلمين من أيدي البطارقة .

أخذ الامام الطريق إلى دواروا ، وكان بطريقها قد أمر بحفر خندق في ذلك الطريق عند دل ميدة جمع خلفه حشود دواروا وحشود بالي . واستعان الإمام بأهل المنطقة فدلوه على طريق آخر فسلكة. ولم تشعر جيوش البطارقة إلا بحشود الإمام وقد تجاوزتهم ونزلوا دل ميدة . وتقهقرت جيوش البطريق عدلية من منطقة الخندق إلى منطقة باب سري. ورأى الامام أن يتجاوزهم إلى أنطاكية ، وأصبح لزاما على الملك أن يحشد جيشا كبيراً حتى لا تصير

تلك المدينة الهامة الى أيدي المسلمين . وأرسل الملك "البطريق بدلى بيت ودد، وهو في كلامهم كالوزير في كلام العرب ، ومن فوق البطريق والجيش دجلجان، صهر ملك الحبشة المتزوج على أخته وأسمها وليتي قلميس وماتت تحته وزوّجة على أخته الثانية وأسمها أمتوطين .... وصلوا إلى أنطاكية واجتمعوا مع عدلية والجيوش المذكورين" (١٥) . أما الإمام فإنه - كعادته - سلك اليهم طريقا غير مطروقة ، وعبر نهر عارة بجيشه ليلاً ، واستقر قريبا من أنطاكية .

خشى دجلجان مغبّة اللقاء فأرسل إلى زوجته لتشفع له عند أخيها الملك ليعود إلى القصر . واستجاب الملك وعيّن البطريق إسلاموا ، صاحب فطجار ، قائداً عاما ، وانتقل الأخير بجماعته إلى أنطاكية . وهاجمت حشود الإمام البلدة وردتهم حشود الملك السليماني من مكمن قريب . واستبسل البطارقة في الدفاع عن البلدة. ونزل إلى الميدان المهرة من العرب ، وهم رماة قوس أقوياء ، وكان في العرب رجل جسور من المغرب جمعه الجهاد مع المهرة والصوماليين والأحباش يدعى الحاج محمد كان دوره كبير في الانتصار للمسلمين من أهل المدافع ، وكانوا قد عبروا بها النهر حاملين إياها على أعناقهم حتى انتظموا في الميدان . وتقدم أيضا أهل التروس من الملساي واجتمعت همم المسلمين وأسلحتهم فحملوا على البطارقة ، وسقطت أنطاكية للمسلمين في رجب ٩٣٧ فبراير /١٥٣١ وهرب البطريق أسلاموا الى أرض هدية (١٦) . وقد أحدث الامام استراتيجية جديدة في أسلوب دخول المدن خوفا من أن تكون هناك مكيدة مدبرة كما حدث في معركة بادقي (١٧) فوزع قواته على الأبواب المختلفة ثم دخلوها دفعة واحدة بعد قوات الاستطلاع . ويبدو أن المدافع لم تكن سلاحا فعالا في تلك المعارك إذ أشار بعض قادة المسلمين بالتخلص منها بالقائها في الطريق حتى لاتعوق الحركة السريعة في الطريق الوعرة غير المطروقة التي تطلبتها استراتيجية الحملة . ونعتقد من جانبنا أن دور المدفع لم يكن فعالا في هذه الحملة ، ولم يكن في جيش الإمام من يحسن ضرب المدفعية . كان الامام قد اشترى تلك المدافع من ثغر عدل ولم ترد أية أخبار تدل على وصول من يدرب أفراده عليها . وهذا بالإضافة إلى أن المدن التي قصدتها الحملة لم تكن ذات أسوار حتى تدكها المدافع ، إنما هي ذات حماية طبيعية مستعصية لوقوعها على المرتفعات الوعرة أو على جوانبها أو من خلفها ، وكان المدافعون عنها يلقون بالصخور على

المهاجمين ، أو يحرسون الداخل ، ولم تكن المدافع ذات مدى فعال حين ترمي من السفح ، ولم يكن نقلها على أكتاف الرجال ، وهي ثقيلة ، عبر طرق الجبال أمراً ميسوراً .

أرسل الإمام من هناك وزيره عدلي إلي جنبه من أرض شرخة ، ولاقوا هناك البطريق بدلي بيت ودد الذي كان قد انسحب من أنطاكية قبل وقوع القتال احتجاجاً على تعيين الملك إسلاموا قائدا عاماً ، فقد كان يرى نفسه الأجدر بالقيادة . انتصر المسلمون هناك ولحق بهم الإمام في جنبة. وسار الوزير عدلي مع الأمير نور إلى شرخة ، وعادت جموعهما بالغنائم "ونساء البطارقة واولادهم وأشياء كثيرة من القماش وغيره وغنما من الذهب شيئاً يسيراً ." (١٨)

حين بلغ الملك خبر الهزائم المتواترة التي لقيها بطارقته في كل اتجاه صمم على أن يبعث للإمام جيشا لا قبل له به ، فجمع "البطارقة والعسكر بغير حساب" ، ثم أمر على الجيش بطريقا اسمه تخلي سوس ، صاحب عنقوت ، وكان والياً على هذه المنطقة وعلى التجري وبندر دخنوا ، وبعث به إلى دواروا في مجموعة من البطارقة الآخرين وجنودهم. وصل هذا الجند إلى هواش وعبروه حيث التأم شملهم مع فلول جيش اسلاموا فى زري . وخرج الامام في جيشه لملاقاتهم وصبّحهم وانهزمت جموع البطارقة بعد مقتل سيدهم تخلي سوس ، ووقع العديد منهم أسرى في يد الإمام . وقد أسلم بعض من أولئك البطارقة وحسن اسلامهم واستبسل بعدئذ في ميادين الجهاد حتى راح شهيداً . وقد قتل في ذلك اليوم فى زري مائة وثلاثين بطريقاً من التجري والأمحرة ، كما قتل الألوف من الرجال والفرسان ، وأورث الله جند الامام أموالهم (١٩).

أرسل الإمام بعد هذه المعركة أحد البطارقة من الأسرى بخطاب إلى ملك الحبشة يطلب اليه تبادل الأسرى من قادة القوم ، ويخطره "أنت لا تحسبنا مثل الأول نغزو ونرجع أما الآن فما نحن راجعون حتى يفتح الله لنا البلاد ان شاء الله تعالى أو نموت حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين" (٢٠) وطلب الامام إلى الملك أن يختار بين الاسلام أو أداء الجزية أو الحرب . واختار الملك لبنا دنقل أن يحارب وذلك حين رفض خياريّ الإسلام والجزية ، ولكنه لم يحسن الاختيار، ولم يعمل له ، فقد ظل بعيدا عن أرض المعارك يهرب من أرض إلى

أخرى .

خرج الإمام بجنده حتى بلغ إلى قنبورة ، بالقرب من سوق دوراوا ، وأهل سوق دوراوا مسلمون ولكنهم كانوا يعطون "الخراج" لبطريق دواروا مرغمين ، فلما وصل الامام اليهم أكرموه وأحسنوا وفادته وجنده، وهناك وصل الامام البطريق أزماج حيب ، صاحب جانز ، وكان لبنادنقل قد بعثه لدعم تخلي سوس الذي لم تكن أخبار مقتله قد بلغت الملك بعد . وأسلم أزماج حيب ، وحسن إسلامه ، وأبلى في صفوف المسلمين بعد ذلك بلاءً حسناً . وبذلك أخذت المملكة تفقد جندها لصالح الامامه .

أخذت جموع الإمام تنداح في دواروا تأسر وتفتك وتغنم . وأشار أحد البطارقة الأسرى على الإمام أن يتوسط لدى نصارى دواروا على أن يدفعوا الجزية وينجون بذلك من القتل ، وتنجوا أموالهم من التخريب . فوافق الامام وأطلق سراح ذلك البطريق ليتمكن من الوساطة والاتصال بقومه واهل ملته فقد كان الإمام حريصاً على حقن الدماء ما وجد إلى ذلك سبيلاً ، وفي جان زجرة اجتمع الأسير مع البطارقة ووافقوا على أداء الجزية وقبلها الإمام منهم ، واشترط عليهم ان لايعينوا الملك عليه إذا قامت الحرب بنيه وبين الملك ، وأن لا يضربوا المسلمين من خلفهم إذا جاوزوهم وخرجوا من أرضهم مصالحين لهم .

خرج الإمام بجيشه من دواروا عبر أرض المابة . وكان جيشه مثقلا بالغنائم والأسلاب بشكل أعاق تقدمه ، وخاطب الامام جماعته في ترك غنائمهم وتساءل قائلاً : "نحن قاصدون الجهاد أم نجمع البرازين والبغال والرزن والرقيق . فإذا كان هذا معكم فكيف تقدرون على القتال مع المشركين وانتم مشغولون بهذا" . ووجد الامام في بعض جنده من يرغب في الاحتفاظ بالغنائم بل ان بعضهم فكر في العودة إلى دياره بعد أن بلغ من الثراء هذا المبلغ . واستمر الجيش في زحفه الثقيل حتى دخل إلى منطقة محصورة بين جبلين ، وهناك أمرهم الامام قائلا : "أرموا مافي أيديكم ولا يسير احد منكم إلا ببغلته ... ومن خالف منكم ضربت عنقه" . فأخذ الجند يتخلصون من الغنائم طوعا وكرهاً "والإمام واقف على الطريق من وقت الضحى إلى صلاة الفجر" (٢١) وبهذا الدرس البليغ أدرك الجند أن خروجهم كان خالصاً لله رب العالمين ، وأن الجهاد جهاد النفس أولا حتى إذا طبعت على الصفاء وهان عليها

زخرف الدنيا بلغت في مدارج الرقي ذروة العزة في الدنيا والآخرة . قصد الامام أن يقيم إمامه الحبشة على أنقاض مملكة مايزت بين أفراد الشعب الحبشي ، إمامه تجعل الدنيا وزخرفها مقدمة طبيعية ومنطقية لنعيم الآخرة وزينتها .

سار الإمام حتى بلغ زقاله فقاومته فأباحها . وكان الملك وبطارقته على مسيرة يومين منه فأرسل الملك إلى البطريق وسن سجد في أرض الداموت يأمره بالمسير إليه ليتقوى به وبجنده . أما جحافل المسلمين فقد جّدت فى مسيرها حتى انتهت إلى بلاد الفطجار تريد أن تبلغ بادقي قبل أن تصل اليها حشود الملك وبطارقته. واستحسن الملك أن يحرق القرية قبل أن يبلغها الجيش المسلم فأرسل بعض بطارقته اليها فأشعلوا فيها النيران التي أتت على القصر الملكي وكنوزه ولكنهم لم يحرقوا الكنيسة ، ثم انسحبوا من تلك القرية بعد أن خلفوها رماداً وفى اليوم التالى أرسل الإمام سرية أحرقت الكنيسة بعد أن استولت على ما تبقي فيها من ذهب وقماش . وجدّ الامام بمن تبقى له من جند في المسير حتى بلغ نهر عواش، وكان لبنادنقل قد بلغ بدوره الضفة المقابلة منه . ويبدو أن عبور النهر مثل عقبة لكلا الجانبين فنفذ صبر الملك وتراجع بجيشه إلى أرض ورب ، ويبدو أن المدافع مثلت عبئا على الجيش الملكي المتقهقر فتخلص من مدافعه الثمانية والقوها على قارعة الطريق . واستطاع المسلمون من ثمّة ان يعبروا النهر إلى الضفة الأخرى ليجدوا أن الملك قد بلغ إلى أطراف الداموت . وهناك وافى البطريق وسن سجد ملكه ، وأرسل للإمام خطاب تهديد جاء فيه : "أما بعد ، أنتم المسلمون ونحن النصارى وقد كنا نسير إلى بلادكم ونخربها ونحرقها ، والآن قد ادلكم الله علينا والنصر لا يدوم كل يوم ، الآن يكفيك مافعلت وأرجع الى بلدك .... والملك معه الآن جيوش كثيرة ما قد رأيتها قبل هذا ولاسمعت بها ... فأنا أول قتلت أخاك الجراد أبون بن الجراد ابراهيم وهو أكبر منك سنا ، وهزمت جيشه وفعلت مراراً ، ولاتظن اني مثل من لاقيت من البطارقة قبل ذلك . أنا وسن سجد." (٢٢) ويتضح من هذا الخطاب أن المملكة السليمانية لم تكن مملكة جميع أفراد الشعب فقد كانت تمثل قوة نصرانية حبشية تعمل على قهر القوى الحبشية المسلمة .

تمثلت الخطة التي رسمها الملك مع البطريق وسن سجد أن يستمر الملك في تقهقره تجاه

الداموت بينما يقوم وسن سجد بحركة التفاف وراء صفوف جيش الامام ويتظاهر بأنه في طريقه إلى هرر وذلك لكي يعود أحمد لحماية هرر ويلاحق وسن سجد إلى هناك تاركاً الهضبة الحبشية (٢٣) . ولم تنطل الخطة على الامام الذي قرر بعد التشاور مع قادته للحاق بالملك في الداموت ، واهمال شأن المتسللين خلف صفوفه ، وكان قراراً موفقا حيث تمكن المسلمون من السيطرة على سوق ويزة في الداموت "وهو سوق عظيم لم يكن في الحبشة مثله ، لا يبتاعون فيه إلا بالذهب" . ثم سيطروا بعدئذ على أرض الداموت كلها التي تركها الملك وولى هاربا ، وفقدت سرايا المسلمين وهي تجدّ في مسيرها خلف الملك ثلاثة عشر مدفعاً ، فقد كان الفصل خريفا والسماء تنهمل ليلاً ونهاراً "فصارت الأرض كلها طينا من كثرة المطر، وتعب المسلمون"، وتحطمت الجمال حق المدافع حتى رموا المدافع وكان عددها سبعة ، وعدد التي غنموها ستة فرموا بهم الجميع" . (٢٤) وربما تشير هذه الفقرة إلى أن عدد المدافع المصاحبة لقوة الملك كانت أكثر عدداً من مدافع الامام .

انقسم الر أي في معسكر الإمام ، وكان من رأي البعض ضرورة اللحاق بالملك في أرض وج ، وقال آخرون بضرورة تنظيف الجيوب التي تقع خلف مسيرتهم وضرب المتسللين إلى مناطق دوارو ، واستحسن البعض المضي قدماً في الفتوحات وتجاهل أمر الملك الهارب والمتسللين إلى المناطق الخلفيةالتي لن يجدوا لهم بها نصيراً . واستقر الرأي أخيراً على المضي قدما وتحرير منطقة شوا بأسرها وتجاهل أمر الملك والمتسللين .

أصبحت شوا الاسلامية ، على عهد الملوك السليمانيين ، مكتظة بالقصور والكنائس التي قامت حولها المدن العامرة بالأسواق . وقد اسهمت الملكة ماجوسا ، زوجة زرع يعقوب ، في هذه الحركة العمرانية واقامت هناك قصورا ملكية قامت عندها مدينة كاملة وسوق عامرة . وفي قري شوا الشمالية في منطقة فطجار تقع كنيسة القديس أباو ، وبالقرب منها الكهوف التي لجأ اليها الكهنة والقساوسة حين لحقهم الاضطهاد في بدء عهد الأجويين واستضافتهم الدولة الاسلامية في شوا وآوتهم . وفي عصر لبنادنقل ، على وجه التحديد ، انتشرت في هذه المنطقة قرى عديدة ذات معسكرات وكنائس وأسواق يجري التعامل فيها بالذهب (٢٥) .

أرسل الإمام سريتين إلى شوا ، كانت الأولى إلى اندقبطن يقودها عبد الناصر ، والاخرى

آلي دار ديني يقودها حسين . وانتصر القائدان كل في ميدانه ، واستولى كل منهما على أموال الكنائس ثم احرقوها . وعادت السريتان إلى معسكر الإمام بالغنائم . أما أهل شوا فقد أذعن غير المسلمين منهم لدفع الجزية ، كما اكرم أهل برارة المسلمين جيش الامام بالضيافة وتلقوهم بالترحاب (٢٦) .

جهز الملك لبنادنقل حشوده ومن كان معه من الأفرنج وسار بهم إلى منطقة على نهر عواش "وقال للإفرنج الذين كانوا معه ، وهم أربعون رجلا ، افعلوا عمل بلادكم ما نتعدى به عواش ، فعملوا له سنابيق ، وأمر أهل بلده أن يفعلوا عادة بلده شيئا يعبرون فيه النهر يسمى بلغتهم لخي ....." (٢٧) وانبرى البطريق وسن سجد للقيادة بعد أن أقنع الملك بتخليه عنها خشية عليه من عبور النهر مع جيشه . واستطاع ذلك البطريق ان يعبر النهر بجيوشه الكثيفة التي ضم لها الملك طائفة من الهاربين من أهل دواروا ، وأهل أوفات مع رئيسهم المرتد أورعي عثمان ، وأهل قجام ، وأهل فطجار وغيرهم ، واستقر الجيش الملكي بقيادة وسن سجد عند باب قرقرة من الفطجار ، وعمل على تنظيم جماعاته للقاء جيش الإمامة بقيادة الإمام نفسه .

تحرك الإمام بجماعاته حتى أصبح على مقربة من جيش البطريق وسن سجد الذي لم يصدّق خبر قدومهم حين بلغه وذلك - في ظنه - لأن المسلمين "ما يسيرون في عيدهم عرفة ولايسيرون في أيام المطر والطين" (٢٨) وحين تبين البطريق صدق الخبر انسحب من قرقرة إلى جبل بوسات القريب منه للإعداد للمعركة . ولحق المسلمون ببقايا الجيش الملكي في قرقرة الذين كانوا يحاولون نقل معدات المعسكر وخيامه ، فهربوا تاركين المعسكر غنيمة للمسلمين . ونظّم الإمام جيشه فجعله أربع فرق ، لحقت فرقة منه بأورعي عثمان وشتت جموعه ، ولحقت فرقة أخرى بوسن سجد . ولاقت هذه الفرقة الأخيرة مقاومة جادة وكادوا ينهزمون لولا أن تداركتهم نجدة من الفرسان المشهود لهم بالشجاعة والبذل . واستبسل وسن سجد في المعركة ولكنه هزم . وهرب الكثير من أتباعه ولاقوا في طريقهم السرية الثالثة من جيش الإمام التي كان يقودها الإمام بنفسه . وعلى الرغم من أن الإمام لم يكن في وسط سريته حين صادفته فلول البطريق الهاربة ، فقد كان في قلة من رجاله في مهمة استطلاعية ، إلا أنه تمكن منهم لأنهم بعد أن فروا منهزمين من ميدان المعركة الرئيسي لم يكونوا متأهبين لحرب

أخرى إنما عمدوا للهرب ، وأخذتهم المفاجأة حين وجدوا أنفسهم أمام مجموعة الإمام.

سار الامام الى منطقة جان زلق ، وراء شوا ، حيث امتدت مساحات واسعة من الأرض حفلت بالزروع وبالثمار . وكانت حقولها تروى بالأمطار وبالترع على السواء (٢٩). وقام خالد الورداي ، أحد قادة الإمام ، بحملة على جان زلق التي تفرق أكثر أهلها في الجبال خوفاً ورهبة. ونادى الورداي في أهل المنطقة أن مسالمته لهم تتوقف على إعلانهم الاسلام أو إعطاء الجزية . وتبادل أهل المدينة الرأي وجادل بعضهم بأن أكثر الحبشة قد أصبحوا مسلمين "والمسلمين متفرقون فيها فإذا سمعوا بنا أن نحن خالفنا لم يفلت منا أحد وسيدنا وسن سجد قتل والآن نسلم " فأسلموا . وتراجع خالد الورداي عن بلدهم ولحق بالأمام في أنطيطة . وعاد الامام إلى جان زلق مرة أخرى بعد أن ارسل سراياه إلى مناطق قوت . وأوكل الإمام إدارة جان زلق الى الجراد عثمان بن جوهر وجعل إدارة قوت عند خالد الورداي الذي سار إلى بلادهم "وأسلم نساؤهم وأولادهم وحسن إسلامهم " (٣٠)

دبرا برهان أوبيت أمحرة :

أعاد الإمام تنظيم صفوفه ليسير الى دبرا برهان ، فجعل جيشه قسمين أمر أحدهما بالسير في الطريق العليا على أن يسير هو بالطريق السفلى بالقسم الاخر من الجيش وذلك للإطباق على دبرا برهان من جوانب مختلفة . وكانت منطقة دبرا برهان من أهم مناطق النفوذ السياسي النصراني في الحبشة . فهي منطقة خاصة بالرهبان الذين حملوا لقب الدفترا ، وهو لقب مشتق من الدفتر ، ويعني الدارسين للعلم . كان الأمراء والملوك السليمانيون يقصدون هذه المنطقة لتلقي العلم من هؤلاء الرهبان حتى ليقال انه مامن إمبراطور إرتقى العرش إلا وقد أمضى مدة من الزمن دارساً في دبرا برهان. وتزخر هذه المنطقة بالعديد من الكنائس والأديرة ، وقبور الأباطرة السليمانيين ، ومازالت بعض كنائسها تحتفظ بأسماء مؤسسيها مثل كينستي أترونسا مريم وجناتا جورجيس اللتين اقامهما زرع يعقوب . كانت الأولى تمثل قمة الترف والإسراف حيث صنعت هياكلها من الذهب الخالص ، أما جاناتا جورجيس فقد بلغت الذروة في الروعة المعمارية ، وحليت أعمدتها بأشكال فنية

رائعة صممها بعض الفنانين الأوربيين من أمثال برانكاليوني الذي عاش في بلاط زرع يعقوب وظفر بعنايته ورعايته . أما أروع تلك الهياكل فقد كان هيكل مكنا سلاسي (مكان الثالوث) الذي بدأ العمل فيه على أيام والد لبنادنقل واكتمل في عهد هذا الإمبراطور الأخير ، غطيت كثير من جوانب هذه الكنيسة بصفائح من الذهب الخالص ، وكانت أبوابها محلاة بالجواهر والأحجار الكريمة النادرة التي جلبت لها خصيصا من الهند ، وعلى المدخل رسم الفنانون صورة العذراء جالسة على عرش ذهبي تحيط بها الملائكة. (٣١).

وصل قسم من جيش الإمام إلى أطراف دبرا برهان ، أما القسم الذي يقوده الإمام فقد عدل عن خطته بعد أن نزل منطقة شجرة، فقد استطاع بطارقة أوفات أن يحدثوا هناك شغبا بعد أن وصلتهم فلول البطارقة المتراجعة من مناطق العمليات التي انهزموا فيها ، فأرسل الإمام من هناك شمسوا ، مقدم عسكر بحر ، وأمره بالتقدم إلى أوفات وردها إلى الطاعة ، على أن يكون والياً عليها بعدئذ . وكان أورعي عثمان قد سار إلى أوفات بعد عودته مهزوما من الحملة التي قادها وسن سجد . وحين علم أورعي عثمان بجيوش المسلمين تتجه اليه لإعادة تحرير بالي سارع بارسال رسالة إلى الإمام جاء منها "أنا من أول مسلم وابن مسلم أسرني المشركون ونصروني وان قلبي مطمئن بالايمان. وأنا الآن جار الله وجار رسوله وجارك وإن تقبل توبتي ولاتواخذني بما عملت فأنا تائب إلى الله . وهذه جيوش الملك الذين هم معي أنا أحتال عليهم حتى يدخلوا عندك ويسلموا " ، ولم يتردد الإمام في قبول توبة التائب ، وكان نصراً كبيراً حيث قدم أورعي عثمان ومعه أكثر من عشرين ألفاً بمن فيهم النساء والأطفال إلى معسكر الإمام وأعلنوا إسلامهم . وكان فيهم ثمانية من البطارقة "فاسلموا جميعهم من الظهر إلى المغرب. "(٣٢)

واتصل الإمام بقائده فرشحم على الذي كان يقود الكتيبة المعسكرة عند دبرا برهان يبشره باسلام صهره أورعي عثمان وجماعاته في أوفات ، وبأن المنطقة قد عادت بأسرها إلى حظيرة الإسلام ، ويطلب اليه أن يتقدم إلى منطقة أخرى ويترك أمر دبرا برهان حتى يتم الاستعداد اللائق لها ، وسار فرشحم إلى أرض نقلت . أما الامام فتقدم في جنده وجند أورعي عثمان إلى أرض جدم وتلقاهم أهلها مسلمين .

أدرك لبنادنقل أن عليه أن يتحرك لوقف الزحف الاسلامي فجمع بطارقته في معسكره في أرض وج ، واستقر رأيهم على أن يسيروا إلى بيت أمحرة للدفاع عن عاصمة المملكة أو الموت دونها (٣٣). كانت بيت أمحرة أرض واسعة " كثيرة الأرزاق والجبال دائرة بها ، وهي بين الجبال ولها طرق وأبواب في الجبال ، وهي دار ملكهم . ولم يكن لها طريق إلا وعليه أبواب وحراس من أرض أباوين إلى أرض عنقوت إلى بحر حيق ، جبال تدور عليها مسيرة عشرين يوما ولها خمسة أبواب ..." (٣٤) وصل الملك إلى تلك الأرض ووضع على كل باب جيشا لمقاتلة المسلمين . ويبدو لنا أن خطة الملك كانت دفاعية للحفاظ على الأرض المتبقية له حتى تصله النجدات من البرتقال التى أرسل يستعين بها ضد الزحف الوطني المسلم . ولم يكن الملك في وضع يسمح له بالهجوم خاصة بعد أن حرّر الامام كل الأرض الإسلامية وهي دول الطراز جميعها بالإضافة إلى العديد من مناطق شوا . وقد لاقت النجدات التى أرسلت للبطارقة الموجودين في تلك الأرض هزائم شنيعة متلاحقة نتيجة لتوبة المرتدين المتنصرين وأبنائهم قسراً ، وعودتهم إلى رحاب الاسلام طوعا . ولم تبق للملك الا تلك الرقعة الصغيرة من أمحرة ذات الأغلبية النصرانية ، وبلاد التجري التي فشت فيها النصرانية بعد أن كانت أول أرض في العالم تستضيف أوائل المسلمين المهاجرين اليها والتي أضافت اليهم من أبنائها الذين كانوا أول قوم في المعمورة يحمون بيضة الاسلام .

استقر الملك لبنادنقل عند باب واصل في قسم من جيشه كبير، وجعل القسم الأكبر من الجيش تحت قيادة صهرة البطريق دجلجان على باب ميات لمواجهة جيش الإمام الذي لابد من أن يسوقه الطريق إلى تلك المنطقة. وأرسل الملك سرايا أخرى لحراسة الأبواب الأخرى المختلفة. وسار الإمام من كساية في أرض جدم حتى أصبح في مواجهة دجلجان حيث انتهى به الطريق ، وبذلك بدا لدجلجان أن خطته محكمة. وأدرك الإمام ، بعبقرية القيادة الفذة، خطة الملك والبطارقة فعمد إلى إلى التمويه . تيّقن الامام أن التغلب على موقع دجلجان الحصين المنيع كان أمراً غير ممكن، ولكنه مع ذلك وضع فرقة من جيشه في مواجهة ذلك الموقع كأنها تستعد لقتاله. وسار الامام خلسة على رأس فرق الجيش الرئيسية بعد ان ارتدى افرادها زي النصارى ، في طريق عسرة بين هبوط وصعود حتى أصبح عند باب واصل حيث

معسكر الملك . وفي هذه الأثناء شنّ دجلجان هجوما عل الفرقة المواجهة له من جيش الإمام تحقق له فيها نصر خادع حيث تراجعت أمامه تلك الفرقة. وأرسل دجلجان إلى الملك يبشره بنتائج قتاله مع المسلمين وبأنه "لاعاد تقوم لهم قائمة وهم يريدون يهربوا الى فطجار". وقامت الاحتفالات في معسكر الملك ابتهاجا بالخبر في الوقت الذي كانت فية جيوش الإمام على مقربة منه عند أسفل الجبل يتدبرون أمر الهجوم ويضعون خطته . واستقر الرأي أن تبدأ طلائع الجيش الهجوم على معسكر الملك دون انتظار لتكامل القوات، فقد كان عنصر المباغتة في رأيهم أقوى من عنصر الكثرة، بل هو أقوى من المدافع التي تسير بها بعض فصائل الجيش التي لم تصل بعد ، "واذا قام رجل واحد وأدى صخرة علينا فهي أشد من مدافعنا التي نذكرها . لكن نطلع الآن "(٣٥).

إعتلت طلائع جيش الإمام الجبل إلى معسكر الملك ، وكانوا قلّة . ولم يثبت الملك وبطارقته لهم فقد أخذهم عنصر المباغتة وراحوا يهربون في كل اتجاه لايلوون على شئ ، وتفرقت بهم السبل . وكان نصراً كبيراً للامام وطليعة جيشه فدخلوا "في خيام المشركين وهم في فرح وسرور وقد امتلأوا من الغنائم من الذهب والفضة والخيول والبغال والحرير ، ولبس الملك شيئ لايعد ، ومن الفرش الديباج حق الملك وحق خواصه ، ومن النساء الفائقات من بنات البطارقة واولاد البطارقة وغيرهم الوف، وقبة الملك مضروبة في مكانها وفيها سريرة وسلاحة "(٣٦) وهكذا انتهت في يوم الجمعة ١٦ ربيع الاول ٩٣٨ / اكتوبر ١٥٣١ معركة واصل ، ودخل المسلمون عاصمة الملك التي هرب منها إلى العنبا ، وفتحت أبواب البلدة ، وانسابت منها جيوش المسلمين مرفوعة الأعلام يدوي هديرها بالتهليل الذي رددت تلك الجبال صداه (٣٧).

استقر الإمام في بيت واصل لثلاثة أيام ثم سار إلى بيت أمحرة ودخل كنيسة مكنا سلاسي (مكان الثالوث) "ودخل الامام يتعجب عليها ودخل معه خواصه فلما رآها كادت تخطف الأبصار وهي مزينة بصفائح الذهب والفضة وفيها فصوص من اللؤلؤ ولها مصراع من الخشب طوله عشرة أذرع وعرضه أربعة أذرع وقد فرشوا فوقه صفائح الذهب والفضة ومن فوق الذهب جعلوا فصوصاً من كل لون. وطول الكنيسة مائة ذراع وعرضها مثل ذلك ، وعلوها إلى فوق مائة وخمسين ذراعاً وأسقافها وأصحانها ملبسة بصفائح الذهب وتصاوير

من الذهب فتعجبوا من شغلها .... وقال الامام :كل من أخذ شيئاً فهو له إلا الصحاف . فاشتغلوا فيها بالف قدوم وهم يقلعون الذهب والفصوص التي في الكنيسة من العصر الى وقت العشاء ، وكل قد أخذ حاجته من الذهب واستغنوا غنى لافقر معه" (٣٨) ثم احرقوا الكنيسة.

يتكرر ذكر إحراق الكنائس في هذه الحملة . ولربما كان ذلك العمل نتيجة ترسبات قديمة حركت الأحباش المسلمين ليثأروا للمساجد التي أحرقت في عهود الملوك السليمانيين ، وفي الحقيقة فأن هذا الأمر لم يكن – فيما نعتقد – المحرك الأساسي لأولئك المسلمين الذين كان فيهم الفقهاء المدركين لروح الاسلام ، ولنهيه عن الثأر ، وعن حرق الكنائس والبيع .

أوصى الخليفة الصديق (رض) أول جيش للمسلمين خرج للفتح ونشر دين الله بأن لا يحرقوا زرعاً ، ولايقتلوا شيخاً ولاطفلاً، وأن يتركوا الصوامع والبيع التي انقطع أهلها فيها للعبادة على دينهم الذي ارتضوه ، لايقربوها أو يقربوهم بأدنى أذى . ومن المؤكد أنه كان في جيش الإمام أحمد من عرف وصية الصديق وأدرك أنها ديدن مقاتلي المسلمين مع أعدائهم ، وعرف أن الثأر ليس من شيم المسلم. ومن المؤكد أيضا أنهم كانوا يملكون القدرة على كف أيدي أتباعهم عن بيوت العبادة و لكنهم لم يفعلوا ، ونعتقد أنهم عزفوا عن ذلك لاعتبارات عدة لعل أهمها :-

ـ ان التحالف السياسي الذي ربط بين الملك السليماني من جهة والبطارقة والقساوسة من جهة أخرى ، والذي ورث بموجبه الأخيرون ثلث أراضي الدولة ، جعل من الكنيسة تجسيداً للاقطاع واغتصاب الأرض، وأصبح القساوسة ملاكا للأرض باسم الكنيسة التي يخدمونها ، أو باسم الدولة التي يتولون حكم المقاطعات باسمها ، وازدادت الكنيسة ثراء في أرض شعب ازداد فقرا ، وأصبحت الكتيسة في خدمة شريحة صفوة المجتمع من رجال الدين الذين ربطوا مصائرهم بالعرش . أما أفراد الشعب من نصارى ، ومسلمين أجبروا على النصرانية ، فقد كانوا من جملة أتباع البطارقة ، ملاك الأرض وأصحاب السلطة الحقيقية . صارت الكنيسة في خدمة العرش حتى أن الملك نفسة لم يتورع في هذه الفترة من مفارقة مذهبه الديني لصالح الحفاظ على سلطته. ارتضى الملك ، ووافقته بطانتة من البطارقة ، التخلي عن

مذهبه الأرثوذكسي واعتناق الكاثوليكية بشرط أن تسارع أوربا النصرانية لنجدته من يد الإمام والابقاء على عرشه . لم تعد الكنيسة الحبشية في هذه الفترة تمثل معتقدات الحبشي النصراني ، إنما أصبحت للحبشي ، النصراني كما هي للحبشي المسلم ، مظهرا من مظاهر السلطة الملكية . ولهذا فلا يعني إحراقها بالنسبة للجيش المسلم إلا إتلافا للسلطة التي يقاومها . ولم يتحمس الحبشي النصراني للدفاع عنها ، فهي تمثل معتقد سادته الخاضع للتبديل والتغيير كما تقتضي المصالح الدنيوية.

كان القساوسة والبطارقة قادة كل الحروب التي خاضها الملك ضد الإمام . وكانت الكنيسة مركز انطلاق الجيوش التي تقاتل المسلمين . ولهذا وجب على الجيوش المحاربة ان تقضي على ذلك المركز وتحرقه.

– ضمت الكنائس الحبشية ثروة هائلة من الذهب والفضة من التماثيل التي تمثل العذراء والملائكة ، وكذلك العديد من تماثيل الأبقار التي صيغت من الذهب الخالص ، ولعل تماثيل الأبقار قد دخلت إلى النصرانية الحبشية من بعض المعتقدات الوثنية القديمة أو ربما من اليهودية الحبشية التي عظّمت الأبقار حتى أصبح لها التماثيل من الذهب . وكانت مخازن الكنائس تضم ثروات هائلة . وكان هناك بيت قريب من كنيسة أترونسا مريم ضم نفائسها ، أدخل اليه وزير الامام مائة من جنده فرأوا "الصناديق بعضها فوق بعض من عرصة البيت الى أن وصلت قريب السقف ..... وقال لهم : أدخلوا وأخرجوا المال . وكان كل واحد منهم يحمل من الديباج حملة ويخرج بها مراراً والبيت على حاله ، فتعبوا من الحمل فجلسوا .... وقال لغيرهم : أنتم اخرجوا الذهب وخلوا الديباج . فدخلوا وأخرجوا له من الذهب والفضة ومن أواني الذهب من المجامر والفناجيل التي كلها ذهب حمل عشرة رجال أقوياء فحطوها له ، فطلب الوزير أصحابه ، وهم ألفا رجل قال لهم : هذا حصتي وحصة الإمام ، وانتم ادخلوا البيت واخرجوا لأنفسكم مافيه فكل من أخذ شيئاً فهو له . فدخلوا وحمل كل واحد منهم من الذهب والفضة والحرير، منهم من أخرج ثلاثة حملات ومنهم من اخرج أربعاً ، فلم يزالوا كذلك من الظهر إلى المغرب ومن المغرب إلى الصبح وهم يخرجون المال، ثم قال لهم الوزير : قد شبعتم ولامعكم جمال تحملوا عليها وقد حملتم على رقابكم وعلى بغالكم الآن البيت ملآن

من المال والحرير ولانخلي هذا الحرير الكثير للمشركين بل نحرقه" (٣٩) فاحرقوا البيت والكنيسة . وفي الحقيقة فلن تجد جيشا يظفر بمثل هذه الثروة الطائلة ولا يستعين بها على عطاء جنده أو شراء معداته ويتركها لأعدائه الذين اعتصروها من عروق ذلك الشعب الكادح أيا كان دينه . وقد كانت حصة الإمام من هذه الكنيسة وحدها كبيرة تمثلت في الديباج "وذهب لايحصى وفيه عجل من الذهب له أربعة قوائم اسمه عندهم تابوت وكان وزنه الفا وقية وشيئاً ، وكتاب من الذهب فيه صورة آدمي وصورة الطيور والسباع ، وصحاف الذهب قدر ما يأكل أربعة رجال .... والباقي أدخله الامام بيت مال المسلمين ". (٤٠) أما كنيسة جاناتا جورجيس فقد ضمت خزانتها "من الديباج المثقل بالذهب قدر خمسمائة حمل ، وكذلك أخرجوا من الذهب الاحمر بالأبهرة ومنها عجائب في الكنيسة من التيجان الكثير حق الملك، وتيجان الملوك المتقدمة وفيها الزنوط التي يلبسها الملوك ، وفي وجوه الزنوط الواح من الذهب مكللة بالفصوص ومناطق من الذهب وأساور من الذهب وخناجر من الذهب، كل واحد نصاله وغلافه كله ذهب ، ودبابيس من الذهب وعجول من الذهب لها أرجل مكللة بالفصوص ، ورقبة العجلة ذرعان ، ومن الجمة الذهب للخيول وصحاف وفناجيل كلها من ذهب ... فلما رجعوا الى عند الامام .... فتعجب الامام وأصحابه على شيئ لم يروا مثله . وقسم الامام الديباج ثلاثة اسهم ، سهم أخذه الامام وأدخله بيت المال ، وسهمان أعطاهما لعبد الناصر وأصحابه ، اما الذهب فما كان من الزينة والعجائب أخذه الامام للمصالح ، والباقي من الذهب الكثير الذي يسمى صمبره وهو شيئ كثير لايوزن فرقه عليهم." (٤١).

تصفية جيوب المقاومة والتصدي للمتسللين :

هرب الملك آلي بقي مدر واستقر هناك يراسل قادته من البطارقة ويحثهم على المقاومة ، ويرسل النجدات لبعض حامياته المحاصرة ، وينفذ الجيوش خلف خطوط الإمام لقطعها عن قواعدها وعرقلة تقدمها . وتصدي الإمام لخطة الملك بالمقاومة حيث أعد الرايات المختلفة وجعل على كل منها أميراً طلب إليه أن يسير إلى منطقة بعينها ، واستقر الإمام في معسكره في أرض أمحرة ودبرا برهان، وكان يخرج منه إلى المناطق القريبة لاسكات الشغب ورد الأرض للهدوء والنظام وإقرار الآمن . وجاء إلى الإمام في أرض واصل جماعة من بر سعد

الدين منهم ورجابي أبون صاحب زيلع وأصحابه ، وطمأنوه باستقرار الأحوال في تلك المناطق . وسارت كتائب الإمام من مختلف الأرجاء واستطاعت أن تحقق الانتصارات ضد جيوب المقاومة والسرايا التي أرسلها الملك وذلك في مناطق أوفات وفطجار وبالي ودوارو. وكانت بعض السرايا التي أرسلها الملك لبنا دنقل تتشتت قبل أن تبلغ إلى المناطق التي تقصدها ، كما استعادت كتائب الإمام أرض هدية الواقعة قرب بحر زواي ، وهو نهر عذب يضم مجموعة من الجزر، كما دخل أهل الجانز في الإسلام وحسن إسلامهم.

وفي الحقيقة فإن دخول هذه الأعداد الغفيرة من الحبش في الإسلام تلفت النظر إلى أن الجانب الدعوي في حركة الإمام أحمد لم يكن بأقل من الجانب الحربي الذي تحدث عنه انتصاراته الواضحة . إنهارت النصرانية بشكل سريع ومؤثر حتى لم يتورع بعض المستشرقين من القول ان أشهر دور من 'أدوار التاريخ الحبشي بقيت أخباره محفوظة في أذهان الغربيين هو دور هرر بقيادة أحمد جران الذي كاد أن يودي بالنصرانية في الحبشة تماماً ويدخلها برمتها إلى حلبه الإسلام (٤٢) وكانت كتائب الإمام تزداد عدداً وعدة أينما اتجهت بازدياد عدد الذين يسلمون و ينخرطون في كتائب الجهاد ، وبالغنائم الكثيرة والأسلوب والأموال التي يغنمونها من جيوش الملك وبطارقته، ولم يبق للمك إلا جزء صغير يمثل الحبشة التقليدية التي يسكنها قسم من الأمحرة، وأرض التجري ، وكلا الأرضين يعمرها الجنس السامي الذي يقاسم العرب أصله ، وكلاهما قد أفاد من الحضارة العربية السابقة للاسلام حين قامت الحضارة الأكسومية وكانت أول حضارة حبشية نظمت حركة المجتمع الحبشي ، وقادته إلى مدراج العصر الحديث . وكانت أرض التجري ، فوق كل هذا، هي الأرض التي استضافت أوائل الصحابة المهاجرين اليها ، وضمت أوائل المسلمين من الأحباش.

لم يقنع الإمام بتحرير الأرض المسلمة الذي انجزه وأقام فوقه الإمامة فأراد أن يضم الجزء المتبقي من الحبشة ويوحدها تحت لوائه خاصة وأن جيشه كان يضم بعض مواطني تلك المناطق من المسلمين الذين خاضوا معه معارك الجهاد ، واستشهد بعضهم في تلك المعارك ، ومنهم عبد الله التجري ، وهو من قادة الامام الذين نالوا الشهادة. ويحسب للإمام

وقادته انهم تمكنوا من ادخال كثير من الوثنيين في الداموت وبلاد جافات إلى رحاب الاسلام . وقد عمل الداموت بإخلاص تحت لواء الامام ، واعترضوا جيوش البطارقة العابرة لأرضهم إلى مسارح العمليات او المنهزمة المتراجعة عبر تلك الأرض . كما استطاع أهل جافات الذين كان أكثرهم همجا هزيمة بعض جيوش البطارقة المتقهقرة عبر أرضهم ثم انضموا إلى جيوش المسلمين المطاردة لتلك الفلول وأسلموا وانتظموا في صفوف الإمام جنداً مخلصين . وهكذا تم تحويل واسع النطاق من النصرانية إلى الإسلام مما يحدث بأن حركة الإمام قد لقيت تأييداً من عامة الشعب الحبشي (٤٣).

قامت سريتان للإمام أرسلتا لتنظيف جيوب المقاومة في أمحرة بالهجوم ، دون أمر من الامام ، على عنبا فوق جبل جاشان ، وهو جبل شامخ صعب المرتقى لايصعد إليه إلا من خلال درج منحوت في الصخور على جانب الجبل جعلت عليه أبراج بوابات من حديد. وقد جرت العادة على أن يسجن الإمبراطور في العنبا أفراد أسرته حتى لاينازعونه الملك . واستغاث أفراد العائلة الملكية في العنبا بالملك فأرسل ثلاثة بطارقة بجندهم لنجدتهم. ووجد المسلمون المهاجمون أنفسهم بين المدافعين عن الجبل من أبراجه ، وبين النجدة التي أرسلت . وجرت هزيمة المسلمين هناك في ١٤ ربيع الآخر ٩٣٨ . وتراجع من بقى منهم على قيد الحياة إلى معكسر الإمام الذي عنّفهم على ذلك الهجوم غير المأذون . واستشهد في هذه الموقعة على الورداي وهو من المسلمين الذين كانوا قد ارتدوا ثم عادوا إلى الاسلام حين أقام الإمام أحمد دولة الاسلام . وكانت عودته للإسلام عن قناعة وإيمان لا عن رهبة وطمع ، فما أن أصابته حربة في صدره حتى صرخ مستبشرا : لقيت الجنة ورب الكعبة. (٤٤).

حاول الإمام وقادته بعدئذ إخضاع العنبا فسيطر الإمام بكتيبة يقودها بنفسه على الدرب الوحيد الذي يقود إليها ليمنع عنها وصول النجدات والامدادات بينما حاصر أتباعه الجبل وأحاطوا به لشهرين. وكان للنصارى المدافعين بنادق ومدافع يضرب بها رجلان من العرب كانا في معسكر النصارى ، وهما حسن البصري وعبده أصغر . ويبدو أنهما كانا حاذقين في هذا الفن فاستغلا استراتيجية الموقع الحصين المرتفع وأخذا يرميان المسلمين بوابل من قذائفهما ، ويحرسان الدرج وأبوابه الحديدية . ورأى الامام أن لا مندوحة من قتالهم بنفس

السلاح فأرسل إلى زيلع من يشتري له مدفعا نحاسياً كبيرا فاشتروه وعادوا به محمولاً على أعناق الرجال، كما استجلبوا معهم مدفعيّين من الهنود . ولم ينجح الإمام بمدفعه النحاسي ولم تفده بسالة رجاله في الحصول على استسلام الحصن الذي استبسل المدافعون عنه من مدفعيين ورماه بالحجارة والسهام المسمومة ، وحرسوا ذلك الدرج الضيق، وأعاقوا تقدم المسلمين ، واقتنع الامام بالانسحاب وترك العائلة في حصنها لمعركة لاحقة .

تقوم على سفوح هذا الجبل الحصين بحيرة حايك (بحر حيق) ذات الجزر المتعددة التي بنيت عليها مجموعة من الأديرة على النمط الأكسومي . ففي جزيرة سانت أتين يقوم دير جبرا اجزاهبهيز حيث حفظت مخطوطات الملك سيف أرعد (٤٥). ويمتد الطريق الرئيسي إلى إقليم تجري من هذه البحيرة عبر إقليم لاستا الغني بهياكل لاليبالا.

انصرف الإمام بعد قتاله لأمحرة إلى بحر حيق وطلب إلى قساوستها الافراج عن أورعي حرب أرعد بن صبر الدين المجاهد المعتقل في الجزيرة منذ ست عشرة سنة بهدف تنصيره فرفضوا معتمدين على موقعهم الحصين في الجزيرة . جمع الامام الأشراف والعرب والمغاربة والمهرة وقال لهم : "نحن لا نعرف إلا البر والجبال أما البحر فهو شغلكم تعرفون أموره...." بني هؤلاء القوم الذين وفدوا للجهاد مع مسلمي الصومال والحبشة مراكب كبيرة لم تظفر برضاء الإمام لأنها بطيئة ويمكن لمدافعي الجزيرة إصابتها بسهولة . أدخل العرب تحسينات على صناعة تلك القوارب بأن صنعوا قرباً من جلود العجول وربطوا تحت كل قارب تُسع قرب مملوءة لاهواء ، ثلاث في المقدمة ، ومثلها في المؤخرة، وكذلك ثلاث في المنتصف ، فاكتسبت تلك القوارب سرعة وأصبحت تسير كالسهم . وأمر الإمام مقدم المهرة بأن يركب مع جماعاته من العرب ، وطلب إلى الآخرين التطوع للذهاب معهم . ولم يمهلهم القساوسة إذ خشوا مغبة الهجوم، فاسرعوا باطلاق الأسير وأرسلوه لمعسكر الامام يتشفع لهم ويعرض عليه أداء الجزية له . ووافق الامام بشرط "أن يأتي أبونكم البترك ينزل ويعقد لكم الأمان ...." وخرج أبونهم إلى الامام وأراد أن يقبل الأرض فمنعه الامام وقال : "يا خسيس لاتسجد للناس". (٤٦) وتم عقد الصلح مع الأبون البطريق حيث افتدوا أنفسهم وأديرتهم بالمال .

إلى التجري وأطراف الحبشة :

أرسل الامام قائده يعقيم إلى بلاد ورب "وكان بجنبهم أهل السودان وعندهم العرب والسوقة والمسافرون فأعطوه هدية وتقبلوه ثم ما لبثوا أن انقلبوا ثاروا عليه بقيادة البطريق اكليل . وتمكن القائد يعقيم منهم فأقروا له بدفع الجزية "في السنة خمسة عشر ألف حمل من الحنطة ، والف وقية ذهب ، والف كدوجة من العسل ، ومن السمن كذلك في كل سنة فأطاعوا على ذلك وجلس يعقم في بلادهم "(٤٧) كما قام الوزير مجاهد الى منطقة بحرجمة ، فخدعه أهلها حين تظاهروا بالصلح وإعطاء الجزية ثم نكصوا وحاصروا جيش الوزير الذي اصبح رجاله لايأملون في النجاة لولا أن تداركتهم نجدة قادها عبد الناصر من أرض الجنز وصلت اليهم بعد ثمانية أيام من بدء الحصار. وكان أهل تلك المنطقة همجاً لادين لهم ولاكتاب، ولم تكن صلتهم بملك الحبشة صلة تبعية تامة، إنما كانت اسمية تصالحية.

جال الإمام في هذه الفترة بعسكره على العديد من مراكزه القيادية في المقاطعات المختلفة ينظر في شؤون رعاياه . فقد استبدلت أرض الحبشة الملك بالإمام ، وأصبحت تصيخ لأمره. سار الإمام بعدئذ في اتجاه أرض التجري من عنقوت بعد أن ولى الأمير شمعون على جدم جي ، ثم نزل في قدة على أطراف اقليم التجري. وهناك أقام الامام معسكره ، ونظم جنده وهاجم كنيسة لاليالا وهي "كنيسة منقورة من جبل ودعائمها نقرت من جبل لا فيها خشب سوى أصنامهم وتوابتهم "(٤٨) وتمكن منها ثم عاد ادراجه إلى معسكره في قدة.

صمم لبنادنقل على حماية التجري، آخر معاقله ، فاستدعى بطارقته وأرسل اليها منهم جيشا تحت قيادة البطريق دجلجان الذي وزع جنده على كافة المنافذ لئلا يلجها الإمام، وعلى الرغم من تلك الخطوط الدفاعية استطاع الامام أن يتقدم إلى قرقارة ويدخلها، ويرسل من هنالك وزيره عدلي إلى أبارجلي حيث حقق بدوره انتصارات عادت على جنده بالغنائم . وحين عاد عدلي إلى إمامه أحمد جعله على العسكر ، وسار الامام الى اندرته فأخضعها ثم عاد إلى معسكره ظافرا غانما . سار الامام بعدئذ إلى الى التنبين ، وبلغ في اليوم التالي قبر أحمد النجاشي (أصحمه) واستعاد ذكرى المهاجرين من المسلمين الأوائل . ومما لاشك فيه

أن الإمام أحمد كان يولي الدعوة إلى الإسلام اهتماما فائقا . وكان الدعاة والفقهاء والعلماء يسيرون إلى جانب الجند يحرضونهم على الجهاد ويحثونهم على طاعة الله ورسوله (٤٩) .

إتجه الإمام من هنالك يريد أكسوم . وانضم إلى الامام وهو في طريقه إلى أكسوم جماعة من البلو ، وهم مسلمون من أهل التجري ، فتقوى بهم . وظفر الامام بالنصر في أنباستيت ، وأرسل الغنائم والأموال إلى وزيره عدلي في معسكره في قدة وطلب اليه أن يستعد لمعركة فاصلة في أكسوم .

بداية الاتصال بالسودان :

لم يلق الإمام في أكسوم حربا على الرغم من أن الملك وبطارقته كانوا قد استعدوا وساروا اليها في حشودهم . ولم تثبت تلك الجيوش أمام الامام فقد هرب الجند بعد أن أخرجوا "الصنم الكبير" من كنيسة أكسوم ، ساروا به الى حصن تاير من بلاد السيري . أما الملك فقد هرب من المدينة مع جماعة من خلصائه وسارو في اتجاه مزجه .

أرسل السلطان مكتر، صاحب مزجه، للإمام مستنجدا به طالبا اليه أن يمنع الملك من النزول بأرضه لأن أهل مزجة مسلمون . وانبرى الامام يسير في إثر الملك وخرّب في طريقه كنيسة أبا سمائيل وقتل رهبانها . وجّد جند الامام في المسير تجاه مزجه التي عدل الملك عن النزول بها بعد أن قتل جنوده بعض رجالها وضيقوا عليها . وصل الامام أطراف مزجة فتلقاه مكتر في جماعة من جنده بلغت خمسة عشر الف نوبي . واستضاف مكتر الامام وجنوده لعشرة أيام كاملة ، وهكذا اتصلت دولة الإمامه في الحبشة بأطراف دولة الفونج في السودان.

هرب الملك الى القجام وسار الامام في إثره يريد اللحاق به . وانضم نافع بن مكتر في عشرين فرسا لقوة الامام ليدلهم على الطريق . ولم تتقدم القوة كثيرا حتى أرسلت جعوة، أخت مكتر ومدبرة ملكه، إلى الامام تخطره بوفاة مكتر ، فاعتمد الامام تعيين نافع مكان أبيه. وواصل جند الامام سيره في إثر الملك يعاضده قائد عبد الناصر حتى وصلوا إلى بحر قماري دون أن يلقوا مقاومة أو حرباً بل ظلوا يجمعون في مسيرهم الكثير من أمتعة الملك وقدوره التى كانوا يلقونها في الطريق كي لا تثقل مسيرتهم وهم في هربهم ممعنون . ووصل الملك

إلى رأس طريق ضيقة على نهر أباوين الذي يتصل ماؤه إلى النيل ، وهناك لحقت طلائع المسلمين بمعسكر الملك ودخلوه متنكرين يقصدون أن يأسروا الملك ليتم رسميا وفعليا إنهاء المملكة ، وإعلان إمامة الحبشة. وحين أحس الملك بالخطر الداهم امتطى فرسه وانطلق ليواصل هربه ،لا يلوي على شئ وتفرق جيش الملك ، وغنم المسلمون معدات المعسكر وقتل من موظفي الملك البطريق أسية اقبسات الذي هو "قاضيهم وهو ثاني البترك لأن لمشركين بتركين أحدهما من مصر يأتون به بالف وقية يقولون له أبون ، والآخر حبشي منهم ولايقوم لهم دين إلا به" (٥٠) كما تم في هذا الهجوم أيضا أسر أمتي دنقل ، أخت الملك .

حرص الإمام على القاء القبض على الملك ليتمكن من الملكية لصالح الامامة ، إلا أن مهارة لبنادنقل في الافلات وإمعانه في الهرب من المعارك أعجزت الإمام . ولم يجد الإمام إلا أن يلجأ إلى الزواج السياسي لانهاء الملكية سلميا وحقن دماء الجميع فتقدم يخطب إبنه الملك على أمل أن تؤدي المصاهرة إلى السلام المنشود . ورفض الملك ذلك العرض فلم يجد الامام بداً من ملاحقته بعد أن هرب إلى أرض جودحام . وهكذا أصبحت الأسرة الملكية مطاردة تقاسي الذل والحرمان والأسر والتشرد. (٥١)

أنهكت الحرب أرض التجري فأصبحت في جوع وقلة أزواد. وعلى الرغم من ذلك كانت جيوب مقاومة البطارقة في المنطقة نشطة لم يهدأ لها أوار. ترك الإمام وزيره عدلي في أكسوم . وخرج الأخير لتأديب أهل سيري وردهم إلى طاعة الامام فقتلوه وتراجع جنده بالهزيمة وحين بلغ الإمام هذا الخبر أرسل إلى قائده عباس يعينه وزيرا مكان عدلي وينيط به مهامه . واضطر الامام إلى إرجاء ملاحقة لبنادنقل والاسراع إلى السيري لمشاركة عباس حملته ضدها ، ولكنه ما أن بلغها حتى وجد أن عباس قد قام بمهمته في المنطقة خير قيام، ولم يعد هناك أثر للتمرد في تلك المنطقة (٥٢).

ظل الامام مع جيشه في أرض التجري لعام كامل ولكنه كان عاماً وخيما انعدمت فيه الأزواد وكثرت فيه الأمراض . نظم الامام إدارة التجري وجعل ولايتها لبعض قادته . وسار في اتجاه مزجة يريد ان يخرج منها إلى بقي مدر . ولقى في طريقه مقاومة من أرض السيري التي اعتادت التمرد والعصيان. قاد المقاومة في هذه المنطقة بعض البطارقة ودعمتهم بعض

طوائف الهمج والنوبة الذين كانوا لايزالون على النصرانية . ولربما كان هذا الامر مؤشرا صحيحا في درب العلاقات السودانية الحبشية حيث تتصل المؤثرات المتبادلة . شهدت هذه الفترة في السودان قيام دولة الفونج كما شهدت في الحبشة قيام الإمامة ، فلاريب أن كان الاتصال والتنسيق بين القوتين النصرانيتين المنهارتين وثيقا، ولاغرو أيضا في قيام بداية اتصالات بين القوتين المسلمتين اللتين أصابتا النصر والحكم ، كل في نطاق إقليمه ، وفي هذا الصدد يذكر الفارز انه التقى إبان وجوده بالحبشة في الفترة ١٥٢٠ - ١٥٢٧م ببعض نصارى السودان فأفادوه بأن ببلاده مائة وخمسين كنيسة تزدان بصور المسيح والعذراء والقديسين.

وصل الإمام إلى مزجة وقضى بها شهر رمضان ثم تحرك منها في اتجاه بقى مدر لتأمين فتوحاته في المنطقة ، وتأكيد سلطة الامامة في الحبشة جميعها. كانت مهمة الامامة عسيرة إذ عملت على إدخال المنطقة في نظام إدارة أشبه باللامركزي وتركيز السلطة في حكام الأقاليم يحكمونها بالشرع ويرجعون في مسائل السلم والحرب إلى الامام الذي حرص على تطبيق مبدأ الشورى خاصة في أوساط الأمراء والوزراء وحكام الأقاليم. ولم يكن من السهل على أرض الحبشة التي لم يسودها في يوم من الايام قانون موحد أن تقبل توحيد القوانين . ولم يكن من اليسير أن يرضخ حكام الأقاليم من البطارقة الذين كانوا يحكمون مناطقهم وفق أعرافهم وأغراضهم في استثمار جهد الشعب الحبشي لبناء الكنائس والقصور واكتناز الأموال فيها لمثل هذا الحكم . ولهذا نجدهم يشعلون الثورات كلما وجدوا إلى ذلك سبيلا حفاظا على أوضاعهم المتميزة المترفة التي أصابوها . وكانت الأوضاع المتميزة والحفاظ عليها لدى الإمبراطور وبطارقته أهمّ من كل ما عداها من زديان أو صلة دم أو سيادة عنصر.

كان نظام الحكم في الحبشة الذي انهار لصالح الامامة ملكيا استبدادياً يستند إلى حق الهي ورثه الملك بتسلل عن منليك الأول ، ولهذا أصبح لقبه "الأسد المنتصر الخارج من سبط يهوذا، المختار من الله ، ملك ملوك أثيوبيا"، وليس معنى هذا أن يتولى الملك في الحبشة الإبن الأكبر للملك ، بل يرثه الأقوى من أفراد الأسرة . وإذا اعتلى أحدهم سدة العرش ما كان يمكن له أن يمكث فوقها الا بمقدار استطاعته المحافظة عليها من الطامعين. ولهذا كان

أول عمل يقوم به الملك السليماني ، حين يرقى العرش ، أن يعمد إلى اخوته جميعا فيقبض عليهم ويسجنهم ، كما كان عليه أن يسجن جميع أعمامه، وكل من يرى فيه طمعاً في العرش من أقربائه. لم يكن الملك يحترم إلا رغباته الخاصة حتى وان كانت منافية للنصرانية التي تحالف مع بطارقتها لتقوية ملكه. وفي هذا الصدد يورد زاهر رياض (٥٣) أن الإمبراطور عمدا صهيون قد حكم ثلاثين عاما (١٣١٢ -١٣٤٢م) قضى نصفها الأول لايعرف للذّاته حداً يقف عنده ، مهما كانت تلك الملذاته منافية للاخلاق مجافية للدين . لم يحجم هذا الملك عن معاشرة خليلات أبيه، ولم يتعفف عن اغتصاب أخته ، مما أثار عليه سخط رجال الدولة وعلى رأسهم رجال الدين فهددوه بتوقيع الحرمان عليه .

دخلت الحبشة إلى حكم الإمامه حيث حدود الأحكام واضحة ، وحدود الحكام أوضح، ومصارف الأموال محددة ، فلا بزخ ولا ترف ، ولا تكديس للثروة في بيوت العبادة والقصور الملكية . ولهذا كانت مقاومة البطارقة للإمامة جادة وقوية ومؤازرتهم للمكية كبيرة . وكان عليهم أن يستعينوا بكل وسيلة حتى بالشيطان لاستعادة وضعهم القديم. وتمثلت وسيلتهم لاستعادة نفوذهم في دعوة الاستعمار البرتغالي الجاثم على أبواب الحبشة ينتظر الدعوة لدخولها . وكان ثمن المعونة البرتغالية المعروف لدى البلاط الحبشي تماما هو التخلي عن النصرانية اليعقوبية لصالح الكاثوليكية ، وهو أمر لم تفكر فيه الملكية السليمانية من قبل (٥٤). كان الملك السليماني يدرك تماما أنه - بقبوله الكاثوليكية الوافده ، يفقد سلطته السياسية لصالح ملك البرتغال بينما عرف البطارقة أن سلطة روما الدينية ستستبدلهم بقساوسة بيض وتسلبهم إمتيازاتهم الموروثة وتأتي بفكر مناهض للفكر الذي يعتنقونه . وعليه فقد كان أمر الاستعانة بالبرتغاليين من الأمور المؤجلة لدى الملك وبطانته يستبقونه لاستعماله حين لا يكون هناك بد . فاستعادة السلطة من قوة أجنبية نصرانية وافدة أيسر عليهم من استرجاعها من قوة وطنية مسلمة أخذت تهيمن على المنطقة سياسيا ودينيا .

خرج الامام من مزجة يريد بقي مدر فوجد في طريقه مقاومة من البطارقة وفتتها كعادته وهرب بعض البطارقة إلى منطقة سمين ، وهي بلاد عسرة ذات حصون مانعة وجبال شامخة لم يكن للخيل فيها سبيل ، "ولم يكن في الحبشة أعسر بلادا منها" وكان الفلاشا ، يهود

الحبشة ، يعيشون في تلك المنطقة القريبة من حصون عنبا التي لم يتمكن المسلمون منها رغم أنهم قد حاولوا الاستيلاء عليها في مناسبتين مختلفتين وذلك لأنها كانت تضم أكبر عدد من أفراد العائلة المالكة. انتصر الامام في تلك الأرض الوعرة على فلول البطارقة المنهزمين ونزل اليه يهود الفلاشا فرحين بظفرة لما كانوا يلاقون من ظلم على أيدي الأسرة الملكية في العنبا. عرض الفلاشا على الامام أن يأتوا له بأقارب الملك من سجنهم في العنبا مصفدين فوافقهم الامام ودعمهم بالجند . ووفي اليهود بوعدهم (٥٥) وقليلا ما يفعلون، وبهذا وقع أكثر أفراد الأسرة الملكية السابقة في يد الإمامة.

دخلت الفلاشا في امامة الحبشة الموحدة ، وأعطى يهودها الجزية فقبلها الامام منهم ، وعيّن الجراد عثمان بن جوهر واليا على أرض سمين يعاونه فرشحم بن عثمان. وسار الامام إلى أرض وقرة وعين الجراد صبر الدين واليا عليها، وأخذ في تعمير مدنها وقراها واقامة المساجد، كما عين الامام على المنطقة الممتدة من بقي مدر إلى القوجام فرشحم على واليا عليها يعاونه فرشحم سلطان وأدل وشموا وتخلاي ، وبني فيها المدن والمساجد . وولي الأمير بابكر قطين على بلاد الوفلة وكنفات في المنطقة الممتدة من بقى مدر إلى أرض واق ، وجعل معه شوم شكر يعاونه بأربعين فارساً من البلو، وكذلك شوم محمد . وصلحت المنطقة بالوالي أبي بكر ومساعديه الذين عملوا على إصلاح المدن المدمرة وبناء مدن جديدة وإقامة المساجد في تلك المدن.

وصل الإمام إلى بلاد الدنبية، وهي بلاد كثيرة الخيرات "وفيها السوق يقوم فيها الخيول مثل البقر من كثرتها وهي بندر الذهب عليها بلدان كثيرة ، بلاد النوبة التي يخرج منها الذهب فرتب فيها واتخذها مسكناً، وأصلحها جميعا، وبقى أهلها فلاحين للمسلمين . وبنى فيها مساجد وفرق الامام بلادها على جميع المسلمين إلى كل فارس وأعطى ثغر بلاد التاكا (كسلا) وهي ثغر بلاد الهمج للوزير عباس. واستراحت المسلمون". (٥٦)

طلب الامام إلى أهل الجزر الخصبة التي تقع على الدنبية أن يسلموا أو يؤدوا الجزية فرفض الراهب نبرازون ظناً منه أن الماء سيعصمه وجماعاته من جيوش الامام . أمر الامام أحمد بن سليمان المهري وجماعاته بصنع قوارب توصلهم إلى الجزيرة، فلجأوا إلى جذوع

الأشجار ينجرونها . وتحرك الامام باحدى فصائله من هناك وتقدم بجيشه إلى اطراف النوبة فخربها ثم سار الى القجام . وهناك وافاه القائد شمعون من جدم بعد أن خاض في تلك المنطقة معركة مظفرة ضد الملك الحبشي الهارب. وعادت جيوش الامام الى بحر الدنبية حيث المهري ورجاله ، وتم استسلام الجزر . ووفد إلى الامام هناك أربعون فارسا من الاشراف ، ولقوا منه ترحيبا ، وأقطعهم أراضي على أطراف النوبة "واصطلحت جميع الدنيا إلى بلاد النوبة" (٥٧).

البرتغال تحارب امامه الحبشة :

نذر هنرى ملك البرتغال نفسه لأهدافه الصليبية ، فأراد كما يقول كاتب الحوليات البرتغالي أزورارا Azurara أن يهزم المسلمين "تماماً ونهائياً" واهتم هنري بشؤون البحر والابحار ، وأرسل البعوث الكشفية إلى الشرق ، أراد البرتغاليون أن يتحكموا في تجارة الشرق ليدقوا عصب الاقتصاد الاسلامي ويتمكنوا من تحقيق هدفهم النهائي : بناء حضارة نصرانية على أشلاء الدول الاسلامية . وكان على البرتغاليين أن يجدوا طريقا يأخذهم للهند، مستودع السلع الكبير، لايمر بديار المسلمين. ،لهذا عمدوا إلى ان يساحلوا القارة الافريقية ليصلوا إلى غاية امتدادها ، ثم يدلفون بعد ذلك شرقا (٥٨) ، وقد حصل الملك هنري على مرسوم من البابا نقولا الخامس (٨٥١ -٨٦٠هـ/١٤٤٧ - ١٤٥٥م) في عام ١٤٥٤م يبارك فيه جهود البرتغاليين الكشفية لسواحل افريقيا . وقد قام هذا الملك بالاتصال بالملك الحبشي زرع يعقوب عن طريق لوفيكودابولوتا ، أحد الرهبان الفرنسسيكان من الذين لعبوا دوراً هاماً في التنسيق بين البرتغال والحبشة والبابوية خاصة في عهد البابا كالستس الثالث (٨٦٠ - ٨٦٣هـ / ١٤٥٥ - ١٤٥٨م) (٥٩) وفي عهد الملك البرتغالي يوحنا الثاني (٨٨٦ - ٩٠١هـ / ١٤٨١ - ١٤٩٥م) وصلت البعوث البرتغالية في ذي العقدة ٨٩١ / ٢٠ نوفمبر ١٤٨٦ إلى رأس الرياح الهوج الذي جرى استبدال اسمه برأس الرجاء الصالح . وفي ٨٩٢هـ / ٨ يوليو ١٤٨٧ أرسل الملك عمانويل (٩٠١ - ٩٢٨هـ / ١٤٩٥ - ١٥٢١م) أربع سفن بقيادة داجاما نجحت في أن تعبر الرجاء الصالح وتصل إلى ناتال في عيد الميلاد. وهناك التقى داجاما بالتجارالمسلمين ، وجمع منهم حصيلة خبرتهم في البحر والإبحار ،

ولاقى منهم ترحيبا.

أرسل يوحنا الثاني إلى بيت المقدس بعثة لم تعد له بالكثير من المعلومات ، فأردفها ببعثة أخرى برئاسة بترودي كافيلام. وكانت مهمة البعثة الرئيسية جمع معلومات أوفى عن أرض القديس يوحنا (الحبشة) ودراسة مصادر التوابل . وتبالغ الكثير من المراجع التاريخية في القول بعدم وجود معلومات عن أرض القديس يوحنا في البرتغال ، والأمر - في حقيقته - غير ذلك . كانت دولة الحبشة معروفة تماماً في القدس ، ولها مراكز دينية معلومة منذ عهد الحملات الصليبية وقيام دولها (٤٩٠ - ٦٩٢هـ / ١٠٩٦ - ١٢٩٢م) وكانت الكنيسة الحبشية معروفة تماماً لدى بطارقة الاسكندرية التي كانت كنيستها مسؤولة عن تعيين الأبونا الذي يرأس الكنيسة الحبشية . ومع ذلك فإن البرتغاليين ، في صراعهم الصليبي ضد المسلمين، وصراعهم العرقي مع الشرقيين والأفارقة كافة، أخذوا من التراث النصراني القديس يوحنا وجعلوه رمزا للنصرانية في إفريقيا، وذلك بدلاً من أن يشيروا إلى الأحباش بصفة مباشرة، أو السودانيين الذين هم أهل القديس يوحنا . قصر البرتغاليون القول بنصرانية الأرض وانكروا نصرانية إنسانها . وقد قادت نصرانية البرتغاليين العرقية السياسية بعدئذ إلى تعارض كبير بينهم وبين المملكة السليمانية الحبشية وأدت الى القطيعة التامة بين القطرين في مناسبات عديدة .

قامت بعثة كافيلام من بارشلونة في عام ٨٩٢هـ / ١٤٨٦م ونزلت في نابلي وفارقتها إلى القاهرة . ويلاحظ أن البعثة لم تعمد في القاهرة إلى أن تتحرى في أخبار الحبشة، فهم يبيتون أمراً لكنيسة الاسكندرية التي يريدون قطعها عن امتدادها في الحبشة. خرجت البعثة من القاهرة في رفقة بعض التجار المغاربة إلى عدن. وأرسل بترو من عدن أحد رجاله إلى الحبشة ، أما هو فقد يمم السواحل الغربية للهند . وزار بترو في طريق عودته من الهند هرمز ، ثم قصد إلى زيلع وبعض مناطق افريقية أخرى على باب المندب ، ثم نزل جنوبا حتى وصل إلى سفالة، آخر المستوطنات الإسلامية ، وعاد بترو مرة اخرى من القاهرة إلى عدن ، ثم لحق برفيقه في بلاط الملك السليماني لتنفيذ خططه في المنطقة مع الملك الاسكندر ولد بلئيدا مريم (١٤٧٨ - ١٤٩٤م) . ولم نعد نسمع عنه مرة أخرى.

كان في بيت المقدس دير يقيم فيه الأحباش ويعرف بإسمهم، ويرجح أنه ظهر إبّان الحروب الصليبية . وقد شمله صلاح الدين بعنايته عندما استولى على بيت المقدس ، ٢٥ رجب ٥٨٣هـ / ١١٨٧م وأطلق عليه اسم دير السلطان . وكان لهذا الدير رئيس يسمى ممهز أي المعلم ، ويترك أمر تعيينه لملك الحبشة (٦٠) والراجح أن الرهبان الفرنسسكان والرهبان الأحباش الذين يقيمون في القدس كانوا أداة اتصال بين ملوك الحبشة النصرانية من جهة والبابوية والملكيات الأوربية من جهة أخرى . والثابت أن ملوك الحبشة النصرانية شاركوا في بعض الحملات الصليبية التي قامت ضد مصر خاصة في عام ٥٦٤هـ / ١١٦٨م في حملة عموري الأول ، ملك بيت المقدس ، وكذلك في الحملة الصليبية التي احتلت مدينة دمياط في عام ٦١٥هـ / ١٢١٨م والتي تعهد بعدها ملك الحبشة بمهاجمة الاسكندرية (٦١) .

وفي اعتقادنا أن الاسكندر، رغم سياسته القاسية ضد المسلمين الأحباش، لم يحاول اغضاب القاهرة التي كان قد أرسل اليها في عام ٨٨٦هـ / ١٤٨١م بعثة تطلب تعيين أبونا جديد للكنيسة الحبشية. وقد استجاب السلطان قايتباى للطلب وحصلت البعثة الحبشية على امتيازات نصرانية جديدة من ذلك السلطان في بيت المقدس (٦٢) . وكان على الاسكندر أن يختار بين البرتغال وكنيستها الكاثوليكية ، وبين القاهرة وكنيسة الاسكندر ، التي تغذي كنيسة الوطنية بأبوناتها ، فرجح الانحياز للقاهرة . ولم يثبت هذا الوضع كثيرا حيث رأت الملكة هيلانة ، الوصية على الملك الطفل لبنادنقل (١٥٠٨ - ١٥٤٠م) ، أن تتصل بالقوة البرتغالية التي أخذ نجمها في الشرق يصعد بعد انتصارهم على الاسطول المملوكي المصري في معركة ديو البحرية في عام ١٥٠٩م ، تلك المعركة التي أكدت سيطرة البرتغاليين على البحار الشرقية وسواحل الهند والسواحل الشرقية لافريقيا . كتبت الملكة هيلانة إلى الملك عمانويل رسالة جاء منها : (باسم الله .... السلام على عمانويل سيد البحر وقاهر المسلمين القساة الكفرة .. تحياتي لكم ودعواتي .. لقد بلغ مسامعنا أن سلطان مصر قد جهز جيشا ضخما ليضرب قواتكم وليثأر من الهزائم التي الحقها به قوادكم في الهند . ونحن مستعدون لمقاومة هجمات هؤلاء الكفرة بارسال أكبر عدد من جنودنا في البحر الأحمر أو إلى مكة أو جزيرة باب المندب . واذا اردتم نسير الى جدة أو الطور وذلك لنقضي على جرثومة الكفار .

ولعله قد آن الوقت لتحقيق النبوة القائلة بظهور ملك نصراني يستطيع في وقت وجيز أن يبيد الأمم الاسلامية المتبربرة ... ولما كانت ممتلكاتنا موغلة في الداخل وبعيدة عن البحر الذي ليس لنا فيه قوة أو سلطان فإن الاتفاق معكم ضروري ، فإنكم أهل بأس شديد في الحروب البحرية. (٦٣)

ليس هناك نص أوضح من هذا النص للدلالة على صليبية ملوك الأسرة السليمانية واحساسهم بضرورة إبادة المسلمين ، واحتلال مناطق مقدساتهم. وليس هناك نصّ أوضح من هذا للتدليل بأن الحبشة لم تكن تعيش بمعزل عن السياسة العالمية بل انها كانت تعرفها وتتبين اتجاهاتها وتبني سياستها وفق معطياتها . ومن هنا نستطيع أيضا ان نؤكد أن مملكة القديس يوحنا كانت رمزا استعمله النصارى الأوربيون حتى لا يشيروا إلى النصارى الأحباش نصا . فالثابت أن الحبشة كانت تعرف السياسات الاوربية ، وكان ملوكها النصارى يتطلعون للاتحاد الصليبي مع أوربا ضد محيط بلادهم المسلم . والثابت أيضا أن طلائع البلاطات الأوربية الاستعمارية أرادت أن تشير إلى شخصية القديس يوحنا (برسترجون) النصرانية دون الإشارة إلى شخصية سياسية بعينها أو كيان سياسي بذاته في المنطقة وذلك إنطلاقا من فلسفة الاستعمار الأوربي التي تعتبر كل تلك المناطق في إفريقيا أرض خواء (Res Nullas) لاصاحب لها . وهنا تستطيع تلك الدول أن تجد لها هدفا أخلاقيا لاستكشاف المنطقة واستعمارها وتغريبها ، ثم تعديل نصرانية القديس يوحنا بما يتفق مع النصرانية الأوربية لربط تلك المناطق قلبا وقالبا بما يتفق المصالح الاستعمارية المادية باستغلال ثروات الإنسان وأرضه ، والمصالح الاستعمارية الأخلاقية التي تقوم على رسالة الرجل الابيض في تحديث المنطقة وقطعها عن ثقافاتها التقليديه وأعرافها المتوارثة.

عرفت بلاطات أوربا السفارات الحبشية منذ زمن بعيد . كما أن بداية عهد الأسرة السليمانية الذي اخطته يوكونوا ملاك قد شهد ارسال بعثة حبشية الى بلاط الامبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن باليولوجوس . وقد اشفع يكونوا ملاك رسله بهدية فارهة . كما وصلت بعثات حبشية مختلفة الى البابوية حيث نجد الملك ودم أرعد يرسل سفارة إلى بابا روما في عام ٧٠٨هـ / ١٣٠٨م تحمل مشروعا صليبيا . ولعل البعثة التى أرسلها داؤد الأول

إلى بلاط البندقية في عام ١٤٠٢م كانت أشهر تلك السفارات لما أحدثته من اثارة في تلك المدينة بما صحبته معها من هدايا افريقية كان أهمها الفهود.وزارت في عهد هذا الملك أيضا بعثة من الحجاج الأحباش بولونا ، وكانوا في طريقهم إلى روما بعد ان حجوا الى بيت المقدس . (٦٤)

تحفظ لنا الوثائق أن اسحاق الأول (٨١٧ - ٩٣٣ / ١٤١٤ - ١٤٢٩م) أرسل الى بلاطات أوربا حين علم باستيلاء المماليك في عام ١٤٢٧م على قبرص وأسرهم ملكها جانوس ، يحثهم على تضامن القوى النصرانية من أوربية وحبشية والقيام بعمل حربي مشارك ضد المماليك. وكان رسوله الى أوربا هو نور الدين التبريزي ، أحد التجار الفرس المتعاملين مع الحبشة ، ونعرف من أرشيف نابلي أن هناك سفارة من ملك الحبشة قد وصلت الى الفونس الخامس ، ملك أرغونة، حول ذلك التاريخ استقبلها الملك بالحفاوة في حضور الكاردينال فويكس ، المندوب البابوي الذي قدم تقريرا للبابا مارتن السادس بشأن هذه الزيارة (٦٥) . ولايدع هذا الخبر مجالاً للشك من أن الملوك الاحباش لم يكونوا مجهولين لدى البرتغاليين الذين حاولوا تجاهل أولئك الملوك سياسيا واستغلالهم عملياً لصالح الاستعمار البرتغالي.

استجاب الملك عمانويل لطلب هيلانة وأرسل إلى الحبشة بعثة للتفاوض حول تفاصيل العمل العسكري المشترك الذي كان يتطلع اليه للسيطرة على الحبشة ومنطقة البحر الاحمر. تكونت تلك البعثة التي أوكل الملك رئاستها للنبيل جلفان الذي شارف التسعين من عمره، من ستة عشر رجلا من رجال السياسة والدين . ولم تبلغ البعثة بلاط الملك الحبشي الا في عام ١٥٢٠م بعد أن هلك خلال الرحلة رئيسها العجوز على ظهر احد قوارب الاسطول الصغير الذي رافقهم بقيادة لبوز الغارز، كما هلك ماثيو خلال رحلتهم من مصوع الى بلاط الملك، ويبدو أن أهداف البرتغاليين في وقف التجارة الاسلامية قد تحققت في هذه الفترة بشكل تام. ويذكر ابن اياس في حوادث عام ٩٢٠هـ/ ١٥١٥م أن المراكب قد انقطعت عن ميناء جدة لمدة تقرب من الست سنوات (٦٦).

تحول للوضع المحلي في هذه الفترة تماما لصالح الملك لبنادنقل الذي كان قد تمكن من تحقيق انتصارات بارزة على القوى الحبشية المسلمة، ويبو أنه قد بات واثقا من أهداف

البرتغاليين في المنطقة بعد ان صاروا يسيطرون على مناطق عديدة من الساحل الافريقي ، وأدرك انهم مستعمرون ووفدوا المنطقة لتحقيق أهداف قومية برتغالية تدثرت بالصليبية على النهج الكاثوليكي . وكان ملك البرتغال قد اتخذ لنفسه لقب (ملك الملاحة والغزو ، وملك تجارة الحبشة والجزيرة العربية وفارس والهند) (٦٧) تطابقت الاهداف الصليبية للملكين الحبشي والبرتغالي، وتباينت الأهداف القومية ، فلن يضرب الملك الحبشي الأحباش المسلمين ليصبح ملك البرتغال ملكا لتجارة الحبشة !

لم ير لبنادنقل ضرورة وجود نص مكتوب لتحالف بينة وبين ملك البرتغال يتيح للبرتغاليين أن يتمكنوا من تجارته ويستبدلوا نصرانيته الأرثوذكسية بأخرى كاثوليكية . وأدرك الملك أن الأمرين اللتين تفاوض البعثة الكاثوليكية فيهما لن يعودا عليه بنفع خاصة وان معطيات الظرف التاريخي كانت قد حققت له ما يرغب فيه من غلبة وزادت عليها. ففي الوقت الذي كان فبه لبنادنقل يحقق الانتصارات ضد محفوظ، صاحب هرر ، ويسحق القوى المسلمة في تلك المنطقة، ويغزو عدل ، ويدمر عاصمتها ، كان أسطول لوبي ساوريز يقوم بهجوم مدمر على زيلع ويحقق فيها نصراً سهلاً حيث كان رجال حاميتها يحاربون مع محفوظ ضد لبنادنقل ، ويبادون على أيدي بطارقته.

بدا للملك الحبشي جلياً أن خطر الأحباش المسلمين على عرشه قد تلاشى تماما خاصة بعد أن تم له اجتياح مقاطعتي دوارو وفطجار المسلمتين وتدمرهما تدميرا تاماً . يضاف إلى ذلك أنه لم يعد للمسلمين الأحباش من أمل في الاتصال بالمحيط الاسلامي الواسع الذي قطعهم عنه البرتغاليون بانتصار ديو في عام ٩١٥هـ / ١٥٠٩م . ومهاجمة ميناء جده ٩٢٣هـ/١٥١٧م الذي انقطعت عنه السفن تماما وتوقفت فيه حركة الملاحة في السنوات الأخيرة ، وكذلك التخطيط لاحتلال عدن ومصوع وجزيرة ميون عند مدخل البحر الاحمر للسيطرة عليه. لم يكن الملك الحبشي يسعى إلا إلى السيطرة على الممالك الإسلامية الحبشية، وقطع تلك الممالك عن العالم الاسلامي حتى لايتأثروا بتياراته السياسية أو الروحية . وقد حقق الملك السيطرة التي يريدها في مجاله الحبشي ، أما في المجال الأقليمي فقد قام البرتغاليون بتلك المهمة نيابة عنه ودون تفويض منه لأنهم كانوا بذلك يحققون أهدافهم القومية

في الاستعمار والاستثمار.

كانت هيلانة العجوز الداعية للانفتاح على أوربا النصرانية قد انزوت وأوت إلى قصورها في الجوجام بعد أن خرجت من دائرة صنع القرار ببلوغ لبنادنقل السن القانونية . وحين بلغت البعثة البرتغالية البلاط الحبشي وجدت ملكا شب عن طوق الوصاية، مزهواً بانتصاراته على عدل وممالك الأحباش المسلمة، مدركا لأهداف البرتغاليين الذين تأكد له أنهم لن يهبّوا لنصرة الكنيسة الأرثوذكسية وهم غلاة الكاثوليك الذين يظنون بكنيسة الحبشة ظنونا تخرج بها تماماً عن دائرة النصرانية . قنع لبنادنقل بممارسة الصليبية في مجاله الحبشي تاركا للصليبية العالمية أمر العالم الإسلامي.

شكر الملك الحبشي للبعثة البرتغالية سعيها، ولكنه أنكر أنه خول لسفارة الهالك ماثيو الأرمني أمر تفاوض لتحالف سياسي أو عسكري أو ديني، وادعى انها كانت سفارة تهنئة لقوة نصرانية ظافرة فتية ممثلة في البرتغال على الممالك الاسلامية المتنافرة المتقاتلة في المنطقة . قضت السفارة البرتغالية ست سنوات في بلاط الملك أذن لهم بعدها بالسفر ، واحتجز المدعو برمنذر الذي استبقاه رهينة لديه حتى يأمن مكر البرتغاليين . ويبو أنه استبقى معه بعضاً من الجند البرتغالي حيث وجدنا بعدئذ خبرهم وهم يشاركون في المعارك الخاسرة للملك الحبشي ضد الإمام أحمد بن إبراهيم . وتزامن رحيل البعثة في عام ٩٣٢هـ/ ١٥٢٦م ، بشكل او بآخر ، مع بداية حركة الجهاد التي حمل لواءها الشباب أحمد بن إبراهيم ذي التسعة عشر عاما (٦٨) تلك الحركة التي عملت على حماية مسلمي الحبشة من تعديات الأسرة السليمانية الحاكمة في المناطق الداخلية من الهضبة الحبشية والتي اصطلح المؤرخون على تسمية ملوكها بملوك الحبش .

ظل برميذر ومن معه من الجند البرتغالي إلى جانب لبنادنقل الذي شردته بعدئذ حروب الجهاد ، والذي ظل طريدا حتى فقد ملكه لامامة الحبشة، وانتهز برمنذر هذه الفرصة لتحقيق الأهداف القومية لبلاده، فطلب إلى الملك الطريد أن يعيّنه بطريقا على الحبشة، وأن يلغي الكنيسة الارثوذكسية التي ضعفت بامتداد الاسلام، وأن يعلي مبادئ الكنيسة الكاثوليكيةالتي تحاول الانتشار تحت حماية جندها الذين اصبحوا عصبة استعمارية ذات

قوة في الشرق . وافق الملك الهارب واحتفل في قلة من حاشيته وبطارقته بعيد الفصح في عام ١٥٣٨م وفقا للتقويم الجيوجوري (٦٩) وسارع برميذر ، ذلك البطريق المعين بمرسوم من ملك لايملك أرضا ولا شعبا، لمذهب لاينتمي اليه نصارى الحبشة ولا يعرفونه، الي ملك البرتغال يطلب دعما عسكريا لاستقطاب الحبشة بكافة ملكها ونحلها تحت الاستعمار البرتغالي . وسارع جون الثالث ، ملك البرتغال، بتلبية هذا الطلب الذي سعى وأسلافه لتحقيقه من أجل ادراج الحبشة في قائمة مستعمراتهم ، أمد ملك البرتغال البطريق برميذر بخطاب الى دون جراسيا ، نائب الملك في جوا بالهند، يأمره بإرسال الجند ، والسلاح لنصرة الكنيسة الكاثوليكية ومداهنة الملك الذي دان بمبادئها في الحبشة.

وصل برميذر بخطاب الملك الى جوا في ١٥٣٩م . وفي هذا الوقت هلك دون جراسيا وآلت نيابة الملك الى داجاما الذي كان يؤمن بما آمن به قادة البرتغال في الشرق قبله من أن استراتيجية البرتغال يجب أن تعتمد على استعمار مفاتيح السواحل لتكون قواعد للدوريات العائمة التي يمكنها السيطرة على تجارة المنطقة والتحكم في اقتصادها دون الدخول في نزاعات قارية ، واستعمار أرض داخلية يتطلب الدفاع عنها جندا وعتادا لاتستطيع البرتغال أن تفي بهما إلا بصعوبة . وقد أدى هذا التباين في الفكرة الاستعمارية الى تلكؤ جوا في تنفيذ الأمر الصادر اليها من لشبونة.

هلك لبنادنقل في عام ١٥٤٠م قبل وصول الجند البرتغالي المرتقب، وخلفه في المطالبة بالعرش إبنه الثالث جلاديوس (٩٤٧ - ٩٦٧هـ / ١٥٤٠ - ١٥٥٩م) حيث قتل ابن لبنادنقل البكر في المعارك ضد الإمام وجري أسر الابن الثاني . ويبو ان جلاديوس كان اثبت جنانا من ابيه فجرد حملة على شرق شوا حقق فيها انتصارات جزئية ضد نصر الدين ، ابن الامام أحمد ، وكان لهذه الانتصارات صدى في نفوس بعض انصار الامام الذين اعتقدوا تماما أن الملكية قد زالت فاذا هي مطلة من جديد، وداخلهم الشك فيما كانوا يعتقدونه من أن الامام لايقهر ، فقوته مؤيده بالقوة الالهية (٧٠).

وصلت القوة البرتغالية إلى مصوع فانبرى اسحاق ، البحر نجش ، الذي كان لايزال على ولائه للملكية السليمانية يهيج جموع التجري ، معلنا باسم صلبا وانجل، أرملة لبنادنقل ،

ضرورة تدخل البرتغاليين لاقامة العرش من جديد . أما الإمام أحمد فقد أنبت خطته على منع اتصال الأربعمائة وخمسين جنديا برتغالياً المؤيدين ببعض الامحرة من الاتصال بجموع جلاديوس الذين كانوا في توجلات من أرض شوا. وجرى اعتراض البرتغاليين في منطقة اناصة الواقعة بين أمباالاجي وبحيرة أشانجي، وحقق البرتغاليين انتصارا على قوات الإمام التي أعادت عليهم الكرة مرة أخرى ، وأكد البرتغاليون انتصارهم بانتصار آخر. واضطر الامام أن ينسحب إلى منطقة جبل زبل المطلة على بلاد الدناكل ليعالج جروحه ويعيد تنظيم قوته ويعمل على تعبئتها من جديد . وأرسل الامام من هناك سفارة الى الباشا العثماني في زبيد يبصره بمخاطر الاحتلال البرتغالي للحبشة ويطلب اليه أن يمده بالدعم للحفاظ على استقلال بلاده . واستجاب الباشا فأرسل للامام تسعمائة من القناصة الاتراك والألبان مع عشرة مدافع . وتقدم أحمد مدعوماً بالقوات العثمانية وهاجم البرتغاليين وجماعات الملك في وادي أوفلة ، وحقق الامام ، مدعوماً بالجند العثماني ، انتصاراً كبيراً على البرتغاليين وأسر قائدهم كرستوفاداجاما وقتله، كما فقدت الكتيبة البرتغالية العديد من رجالها وسلاحها وذخيرتها وتقهقرت فلولها هاربة . واعتقد الامام احمد انه استعاد زمام المبادرة ولم يعد بحاجة إلي خدمات الجند العثماني فأمرهم بالعودة الى زبيد . وسار الامام مع جنده الى قواعده عند بحيرة تانا حيث اعتاد أن يرابط (٧١) . وإلى هده الفترة ترجع وثيقة كنسية جاء فيها "لقد كنا نحترق وأصبحت بلادنا ومدنها وقراها وكنائسها ومعابدها لاتنم الا على الدمار ، جرى نهب كنوز كنائسنا التي باتت مدمرة وتشرد كهانها وهاموا على وجوههم في الجبال وأصبح أملنا ضعيفا في استعادة بلادنا أو احراز النصر مرة أخرى ، وزاد الطين بلة عندما تلقى الامام من اصدقائه الاتراك مساعدات كبيرة من الأسلحة الحديثة كالبنادق مثلاً التي تطلق رصاصا قاتلاً . فوجئنا باستعمال هذا الرصاص ولم نجد علاجا للمصابين به حتى يقضي عليهم الموت (٧٢) ".

ويبدو جلياً أن الامام أحمد لم يقدر قوة البرتغاليين الحقيقية حين أعاد الجند العثماني إلى زبيد معولا على قوته المحلية لمجابهة قوة دولية استعمارية مستندة إلى قوة الكنيسة الكاثوليكية وأتباعها في العالم.

تمكن جلاديوس من تنظيم جماعاته مرة أخرى في اكتوبر ١٥٤٢ وضم اليهم فلول البرتغاليين الذين جرى دعمهم بقوة برتغالية جديدة جيدة التسليح ، وسار إلى معسكر الامام حيث وقعت معركة في ايناداجا عند بحيرة تانا، وكانت خطة البرتغاليين صائبة . قامت تلك الخطة على وجوب قتل الامام لتشتيت رجاله. وانبرى القناصة يلاحقونه برصاصهم فأصابته رصاصة أرسلها عليه القائد البرتغالي بدروليوني ، وكانت نهاية الإمامة بمقتل الامام (٧٣)، ففي تلك العصور كان الجند يتشتتون عند مقتل القائد ولايجتمعون مرة أخرى إلا بعد اجتماعهم على قيادة جديدة . ولم يكن قيام قيادة جديدة لتملأ الفراغ الناشئ عن مقتل الإمام بالأمر الهين أو اليسير .

اعتقد قادة البرتغال أنهم سيطروا بعد مقتل الامام على الحبشة من خلال جلاديوس . وبدأ عهد جديد شهد محاولة إبادة الأحباش المسلمين واضطهاد الأحباش النصارى ومحاولات إعادة تعميدهم على المذهب الكاثوليكي. وهكذا اصبحت الحبشة مشلولة الارادة بعد محاولات البرتغاليين قتل شقها الاسلامي وتصفية الوجود المسلم ، وخنق شقها النصراني ومصادرة المعتقد الأرثوذكسي. ولم يؤد الاستعمار البرتغالي المقنع إلا إلى فتح الباب على مصراعيه للفوضى والاضطراب في الحياة السياسية والثقافية والنيل من حضارة الحبشة العريقة.

محاولات بعث الامامة :

جهد الامام أحمد بن ابراهيم في وضع خارطة دينية صحيحة لبلاد الحبشة فأمن المسلمون في مناطقهم التقليدية المتمثلة في دول الطراز وفي شوا ووكما أمن الآخرون الذين كانوا يمثلون أقلية في التجري وفي أمحرة . واستعاد المسلمون الذين تعرضوا لاضطهاد الأسرة السليمانية وبطارقتها حريتهم الدينية ورجعوا إلى حظيرة الاسلام بعد ارتداد قسري. أما النصارى الأحباش ، فكانوا قسمين : قسم عريض تمثل في القاعدة الشعبية ، وشريحة على القمة ممثلة في الملك وبعض الأسر التي تتوارث المناصب الدينية وتظفر بكافة الامتيازات والمناصب الروحية والادارية . استرد القسم الاول حريته ديناً ودنيا، ولم يؤثر عن الامام او صحبه إنهم أجبروا أي من هؤلاء على الدخول في الاسلام ما داموا يؤدون الجزية

ولايعارضون حركة المجتمع المسلم . أما شريحة القمة فقد فقدت الملكية ومعها ذابت كل الامتيازات القديمة . لم تعد هناك ملكية تسكن القصور المترفة إذ كان الامام الذي تولى مسؤليات الملك يسكن في معسكرات جنده. ولم تعد هناك قيادات دينية تسكن حول الكنائس المتخمة بالذهب، إنما كانت هناك المساجد التي تبنى من المواد التي يبني الشعب والجيش مساكنه منها . أما الأموال والذهب والفضة فقد ظلت في بيت المال لصالح المجتمع كله . وأمن اليهود الفلاشا من اضطهاد رجال الدين النصارى فأدوا شعائرهم دون تدخل من أحد ، وانبروا يزرعون أرضهم ويؤدون جزيتهم أما الوثنيون الذين دخلت أرضهم في حوزة الإمامة فقد تأسى العديد منهم بحكامهم المسلمين فآمن بعضهم وساروا في مدارج الرقي الروحي ، وبقى آخرون على وثنيتهم لم يكرهوا على الدخول في دين أو آخر .

برزت فترة الامامة بشكل مؤثر في التاريخ الحبشي إذ كشفت بوضوح عن أغلبية حبشية مسلمة ترضخ قسراً لملكية متحالفة مع رجال الكنيسة، وكانت أعراض التحالف وأهدافه دنيوية أكثر من كونها دينية ، فالكرسي للملك ، الطرف الأول في التحالف ، وللبطارقة والقساوسة ، الطرف الثاني في التحالف ، الادارة والحكم الفعلي ، وريع الأراضي الحبشية ، وثمار جهد الانسان الحبشي الذي لم يكن له ، بكافة نحله وملكه، إلا الطاعة العمياء والفقر المطلق .

أخذت الملكية تسعى لاسترداد سدة العرش ، و سعى البطارقة الاستعادة امتيازاتهم التي أودت بها فترة الامامة ، ولم يتورع الطرفان في تغيير معتقدهم بالتحالف مع البرتغاليين واغراق الحبشة في غمار الصراع الدولي التي لم تكن مؤهلة لخوضه وذلك على أمل أن يستعيدوا سيطرتهم السابقة .

حاول عباس ، وزير الامام، أن يستعيد الامامة التي سقطت بمقتل الامام ، فنادى بالثروة في مناطق دواروا وفطجار وبالي وغيرها من المناطق المسلمة ، فاستجاب له أهلها وناصروه وآزروه. وانبرى جلاديوس وبطارقته مع الجنود البرتغاليين لثورة عباس فأفشلوها في عام ١٥٤٥م . عملت حملة جلاديوس المدعومة بالجند البرتغالي على إبادة المسلمين في تلك المناطق إبادة جماعية فأصبحت تلك الأرض خواء من سكانها الذين لاقوا حتفهم ثباتا على الحق أو

فروا بإسلامهم أو بدونه إلى مناطق أخرى . ولم يهنأ الملك الحبشي بتفريغ الأرض من سكانها المسلمين إذ تحركت قبائل الجالا البدوية الى تلك المناطق واستوطنتها واستقرت أعداد كبيرة منها في بالي . وأخذت تلك القبائل تعتنق الاسلام ، رغم ضعف أهله وتشتتهم ، ولم يمض زمن طويل حتى كانت بالي قاعدة انطلاق للهجوم على مناطق الحبشة النصرانية (٧٤) .

دخلت بعتيه دولنبرة ساحة الجهاد لاعلاء راية زوجها الامام أحمد ، خاصة وأن تلك الساحة كانت قد خلت حتى من وزيره عباس الذي لاقي حتفه على يد رجال جلاديوس . بعثت دولنبرة إلى مناطق دواروا الاسلامية جيشاً أوكلت قيادته إلى بركات بن عمر دين ، وعلى الجراد بن الامام . ولقيت كتيبة المسلمين الذين نالت منهم الهزائم المتتالية هزيمة جديدة فتت في عزيمتهم . وجرى أسر القائدين المسلمين الذين كانا على رأس الكتيبة . وقد تم بعدئذ فك سراحهما تبادلاً حيث اطلق المسلمون بدورهم سراح ميناس ، أخي جلاديوس ، الأسير لدى الامام الذي كان قد أرسله سجينا إلى زبيد (٧٥) .

نشط الملك جلاديوس في ميادين القتال خاصة في المناطق التي خلت من قيادتها ، فغزا كل المناطق الواقعة فيما وراء نهر هواش وتمكن منها وانزاح عنها ليغزو المناطق ذات الأغلبية الوثنية حول نهر وبي . وبينما كانت عمليات الملك تسير على قدم وساق في الداموت انتفضت هرر مرة أخرى بتحريض من دولنبرة، وقاد الأمير نورين بن مجاهد ، أحد أقارب الامام، تلك الانتفاضة . ونزل الملك الحبشي بحمله على هرر دمرت وسلبت ونهبت وأحرقت ثم تراجعت . ويبدو أن الهزيمة لم تكن ماحقة حيث لم تأسر أو تقتل نور بن مجاهد الذي أضحى بطلا قوميا في هرر (٧٦) وتم اعلان امارته هناك في ٩٥٩هـ / ١٥٥١ - ١٥٥٢م . وتقدم الأمير نور لقتال الملك في محاولة لاعادة بعث الإمامة من جديد (٧٧).

لم يكن هناك أدنى تنسيق بين إمامة هرر التي خرجت تقاتل جيش الملك جلاديوس عن الإمامة وبين العثمانيين الذين أخذوا في هذا الوقت ينشطون في حماية البحر الأحمر من الامتداد الاستعماري للبرتغال. ونزلت الكتيبة العثمانية في شمال الحبشة بدلا من أن تنسق مع مسلمي الأحباش في المناطق الجنوبية الشرقية، استولت تلك الحملة على مصوع وحرقيقو

في عام ٩٦٥هـ / ١٥٥٧م وسارت إلى دبراوا، ثم إلى دبردامو ، شمال غرب عد يقرات واستولت على قلعتها التي كان الملك لبنادنقل قد قضى فيها أيامه الاخيرة قبل موته في عام ١٥٤٠م ، وتحرك اسحاق ، البحر نجش ، وتصدى لحملة العثمانيين فأوقف تقدمها في الهضبة الحبشية. وسار اسحق بعدئذ لمهاجمة مزجة حتى لايتصل مسلموها بالعثمانيين وتمكن منها ودمرها . ولجأت جعوة، أخت مكتر المذكور آنفا ، إلى ازدمر ، الباشا العثماني ، تطلب عونه لرد عدوان إسحاق على أمارتها الاسلامية . وتقدم ازدمر باشا الى مزجة بينما انتهز البحر نجش الفرصة ليلتف خلف الجيش العثماني ويستولى على قلعة دبردامو. وتراجع الباشا العثماني ليستقر في قلاع في الساحل هي حرقيقو ومصوع بالاضافة إلى سواكن (٧٨) ، ولم يجر أي اتصال أو تنسيق بين هذا الباشا وأمير المؤمنين نورين بن مجاهد في هرر.

هاجم نور منطقة فطجار في ٩٦٧هـ / ١٥٥٩م وكان جلاديوس يحارب في جوجام فبعث من هناك حاملمال، ابن عمه ، في حملة لغزو هرر وذلك حتى يضطر الأمير آلى التراجع للدفاع عنها، وصل حاملمال إلى هرر واحتلها وهرب سلطانها بركات الذي تم القبض عليه بعدئذ وأعدم ، وعلى الرغم من ذلك لم تحقق الحملة أهدافها إذ استمر زحف الأمير نور ولم يتراجع الى هرر. واضطر الملك جلاديوس إلى قياد حملة أخرى لمجابهة الأمير، ولقى الملك حتفه في معركة جرت بين الفريقين في مارس ١٥٥٩. وربما تعود هزيمة جلاديوس إلى تخلي البرتغاليين عنه في هذه الفترة.

وضحت النوايا الاستعمارية للبرتغال سافرة للملك وبلاطه حين أرسلت تلك الدولة للملك جلاديوس بعثة يسوعية يرأسها الأب رود ريجز تطلب اليه الاعتراف بحماية البرتغال للحبشة، وكذلك الاعتراف بتبعية الكنيسة الحبشية للكنيسة الغربية الكاثوليكية بعد قطع علاقتها بكنيسة الاسكندرية. ورفض الملك الامتثال لتلك المطالب وجرت بينه وبين الأسقف الكاثوليكي مناظرات دينية عقدية انتهت به إلى وضع كتابه الشهير : الإعتراف بالايمان ، وذلك في محاولة منه لحماية عقيدته. وإزاء هذه المقاومة غير المتوقعة من الملك ، لم يتعفف البرتغاليون، تعاضدهم الكنيسة الكاثوليكية ، عن دعم ثوار خارجين على حليفهم الملك ،

فامدتهم بالمؤون والسلاح لتنفيذ مآربهم في اتمام استعمار الحبشة . وكانت مساعدتهم للثوار واضحة حتى أن الامبراطور الجديد ميناس بن جلاديوس استدعى المطران البرتغالي وأمره أن يوقف نشاطاته ويرحل عن البلاد (٧٩) .

أما نور ، فبرغم انتصاره على جلاديوس ، وعلى الرغم من أن المصادر المعاصرة له تنعته بأنه صاحب الفتح الثاني للحبشة ، إلا أن ظروفه لم تكن مواتية لتحقيق طموحاته في إحياء الامامة . قضت حملات جلاديوس وأنصاره من البرتغاليين على الإنسان المسلم في تلك المناطق فأصبح إما هارباً أو مقتولاً . وقضت تلك الحملات على مصادر الأرض والثروة التي نهبت ، وأصبحت الأرض بلا عامل يقوم عليها فأجدبت . وتقدمت قبائل الجالا البدوية إلى تلك الأرض الخواء فاحتلتها . وحين توفى الأمير نور ودفن في هرر عام ١٥٦٧م كانت الحبشة بكافة ملكها ونحلها وعقائدها في أسوأ حالاتها سياسيا واقتصادياً وإنسانياً .

هوامش الفصل الخامس

١ - عرب فقيه ، فتوح الحبشة ، ص ٣٢ - ٣٣ .

٢ - لوثرب ستودارد ، حاضر العالم الإسلامى ، مترجم ، ج١ ، القاهرة ، ١٩٢٥ ، ص ٢٤٤ .

٣ - فتوح الحبشة ، ص ٣٣ .

٤ - نفسه ، ص ٣٣ - ٣٤ .

٥ - نفسه ، ص ٣٤ .

٦ - نفسه ، ص

٧ - لوثرب ستودارد ، سبق ذكره ، ص ٣٤٥ .

٨ - فتوح الحبشة ، ص ٤٢ .

٩ - *Crammer, La Mer Rouge, L'abyssinie et Larabie, Paris, 1977, p. 16*

١٠ - فتوح الحبشة ص ، ٦٣ .

١١ - نفسه ص ٦٦ - ٦٩ .

١٢ - *Trimingham, J.S. Islam in Ethiopia, p.66*

١٣ - فتوح الحبشة ، ص ٨٢ .

١٤ - نفسه ، ص ٩٧ .

١٥ - نفسه ، ص ١٠٠ .

١٦ - نفسه ، ص ١٠٣ .

١٧ - عبد المجيد عابدين ، بين العرب والحبشة ، ص ٢٠٠ .

١٨ - فتوح الحبشة ، ص ١١٧ .

١٩ - نفسه ، ص ١١٩ .

٢٠ - نفسه ، ص ١٢٥ - ١٢٨ .

٢١ - نفسه ، ص ١٣٥ - ١٣٦ .

٢٢ - نفسه ، ص ١٤٥ .

٢٣ - لوثرب ستودارد ، سبق ذكره ص ١٤٦ .

٢٤ - فتوح الحبشة ، ص ١٥٤ .

٢٥ - زاهر رياض ، سبق ذكره ، ص ٨٦ .

٢٦ - فتوح الحبشة ، ص ١٥٨ .

٢٧ - نفسه ، ص ١٦٠ .

٢٨ - نفسه ، ص ١٦٥ .

٢٩ - زاهر رياض ، سبق ذكره ، ص ٨٧ .

٣٠ - فتوح الحبشة ، ص ١٧٦ - ١٧٩ .

٣١ - زاهر رياض ، سبق ذكره ، ص ٨٨ .

٣٢ - فتوح الحبشة ، ص ١٨١ - ١٨٢ .

٣٣ - لوثرب ستودارد ، سبق ذكره ، ص ٣٦٠ .

٣٤ - فتوح الحبشة ، ص ١٨٦ .

٣٥ - نفسه ، ص ٢٠٥ .

٣٦ - نفسه ، ص ٢١٠ .

٣٧ - *Crammer, op.cit, p. 19*

٣٨ - فتوح الحبشة ، ص ٢١٣ .

٣٩ - نفسه ، ص ٢١٤ - ٢١٥ .

٤٠ - نفسه ، ص ٢١٥ .

٤١ - نفسه ، ص ٢١٦ .

٤٢ - لوثرب ستودارد ، سبق ذكره ، ص ٣٤١ .

٤٣ - عبد المجيد عابدين ، سبق ذكره ، ص ١٩٣ .

٤٤ - فتوح الحبشة ، ص ٢٢٦ .

٤٥ - زاهر رياض ، سبق ذكره ، ص ٨٦ .

٤٦ - فتوح الحبشة ، ص ٢٣٤ .

٤٧ - نفسه ، ص ٢٩٧ .

٤٨ - نفسه ، ص ٣١٤ .

٤٩ - حسن أحمد محمود ، انتشار الاسلام والثقافة العربية فى افريقيا ، ص ٣١٤ .

٥٠ - فتوح الحبشة ، ص ٣٢٩ .

٥١ - *Crammer, op.cit. p. 20*

٥٢ - فتوح الحبشة ، ص ٢٩٨ .

* فى هذا الصدد راجع :

عبد العزيز عبد الغنى ابراهيم ، تاريخ الحضارات السودانية القديمة ، ص ١٨٠ .

٥٣ - سبق ذكره ، ص ٧٤ .

٥٤ - *Crammer, op.cit. p. 8*

٥٥ - فتوح الحبشة ، ص ٣٤٢ .

٥٦ - نفسه ، ص ٣٤٤ .

٥٧ - نفسه ، ص ٣٤٧ .

٥٨ - عبد العزيز عبد الغنى ابراهيم ، بريطانيا وساحل عمان ، ص ١٩ - ٢١ .

٥٩ – محمد الحافظ محمد النقر ، الصراع الإسلامى المسيحى فى الحبشة ..." دراسات أفريقية العدد ٩ ، ص ٩٧ .

٦٠ – عبد المجيد عابدين ، سبق ذكره ، ص ١٦٩ – ١٧٠ .

٦١ – محمد الحافظ محمد النقر ، سبق ذكره ، ص ٩٥ .

* جاء فى بعض المصادر انه استحوذ على ثقة الملكة كما ظفر بعدئذ بثقة ابنها الملك بعد أن بلغ الأخير سن الرشد .
وجاء أيضاً أنه تزوج من حبشية ثرية ذات نفوذ وانجب منها عدة أبناء . راجع
Leo Hansburry, "Ethiopian Ambassadors to Latin Courts," E.O, 17, 2, P. 12
ولا تبدو هذه المعلومة راجحة إذ لم يعد هذا الرجل من مهمته ، ولم يرسل أية تقارير تدل عليه ، ولا نحس له أثراً فى مجريات الأحداث .

٦٢ – *Trimingham, J.S., op.cit., p. 82*

٦٣ – حامد عمار ، علاقات الدولة المملوكية بالدول الأفريقية ، ص ١٠٩ .

٦٤ – *Leo Hansburry, op.cit, p.*

٦٥ – *Ibid. p.*

٦٦ – بدائع الزهور ، ج٤ ، ص ٣٥٩ .

٦٧ – عبد العزيز عبد الغنى ابراهيم ، بريطانيا وساحل عمان ، ص ٩٨ .

٦٨ – *Trimingham, J.S., op.cit., p. 82*

٦٩ – *Budge, op.cit, p. 89 - 90*

٧٠ – *Ibid. p. 338*

٧١ – *Trimingham, J.S., op.cit., p. 89 - 90*

٧٢ – *Leo Hansburry, op.cit, p.*

٧٣ – *Budge, op.cit, p. 574*

٧٤ – *Ibid. p. 577*

٧٥ – *Trimingham, J.S., op.cit., p. 91*

٧٦ – حسن أحمد محمود ، سبق ذكره ، ص ٤٦٨ .

٧٧ – *Trimingham, J.S., op.cit., p. 92*

٧٨ – زاهر رياض ، سبق ذكره ، ص ٩٨ .

٧٩ – فتحى غيث ، الإسلام والحبشة عبر التاريخ ، ص ١٦١ .

الخاتمة

أدت عوامل الجوار الجغرافى والروابط الانسانية المختلفة التى تفاعلت على ساحلى البحر الأحمر الى تداخل وتمازج فى الحياة البشرية بكافة شعبها العرقية منها والحضارية . وتجلى هذا الهجين الحضارى المتجانس ، أبرز ما يكون ، فى المنطقتين الحبشية واليمنية حيث يقترب ساحلا البحر بعضهما من بعض حتى يوشكا على العناق . ويتجلى هذا التداخل فى التاريخ المنظور عن قبائل يمنية تهجر بلادها إلى منطقة الحبشة وتتفاعل مع انسانها تفاعلاً أدى الى تمدن وقيام دول وسيادة ثقافات ولغات مميّزة فى هذه المنطقة من أفريقيا . ويعود إنسان الحبشة بالمؤثرات الأفريقية الصرفة والهجين ليشارك – من خلال اليمن – فى مسيرة المجتمع العالمى ، ويدفع بجهوده حركة التجارة الدولية التى كان اليمن أهم منافذها ، وليسهم بجهوده فى إرساء المشروعات المعمارية والزراعية والاقتصادية المختلفة التى كان ملوك اليمن وأقياله يولونها جهدهم وعنايتهم . وتنداح الدائرة عن تأثير حبشى ينطلق من مناطق بعينها فى اليمن ، أكثر ما تكون وضوحاً فى دروب التجارة ومحاطها ، فيبلغ الحجاز ويتجاوزه إلى الشام ثم إلى ما وراء ذلك . وسارت المؤثرات الحبشية الصرفة والهجين التى تدجنت بالوجود الدائم فى اليمن حتى كادت أن تتيمن ، مع دروب التجار من اليمن عبر الحجاز ، وتركت بصماتها فى ضروب الحياة العربية المختلفة . وغدت البصمات الحبشية واضحة وإن اختلف تأثيرها من منطقة عربية إلى منطقة عربية أخرى اختلافاً نسبياً يمكن أن نرده سلباً وايجاباً إلى قرب المنطقة المعنية من مراكز التمدن أو بعدها عن مساراته . أما المؤثرات العربية الصرفة وهجينها الأفريقى فقد وجدت طريقها عبر سفوح الحبشة إلى هضابها وبلغت إلى وادى النيل ثم تجاوزته غرباً مع تباين فى مقدار التأثير بين منطقة وأخرى تبايناً يمكن أن نرده سلباً وإيجاباً للظروف الإيكولوجية ومن ثمة البيئية والإقتصادية والأمنية .

إزداد ارتباط الحبشة بالعالم وسياساته حيث دخل ملوكها فى القرن الرابع الميلادى إلى النصرانية اليعقوبية . وخرجت الحبشة بالنصرانية عن نطاق الإقليمية والروابط السياسية والثقافية المحلية وانطلقت إلى عالم أرحب لتسهم بنصيبها فى المجال العالمى . وقام جسر من الروابط الثقافية والسياسية والنفعية بين الدولة الرومانية الشرقية وأباطرتها من جهة ، وبين دولة

أكسوم ونجاشييها من جهة أخرى . وتوثقت هذه الروابط الطارفة مع الروابط التليدة فى المنطقة العربية الأفريقية والقحت عن زيادة فى التواصل والتعاون والتضارب والاختلاف والاختلاط كان له مردوده الإيجابى فى توطيد الروابط القديمة والتمكين لأركانها .

عملت الحبشة النصرانية على دعم النصرانية الوليدة فى اليمن ودعمها مادياً ومعنوياً وتأييدها ضد المعتقدات الوثنية الأصيلة ، والمعتقدات اليهودية التى عملت فارس للتمكين لها فى اليمن . أصبح لملوك الحبش معتقد ينصرونه ويعملون على نشره والدفاع عنه ، وكانت اليمن هى المجال الذى جرى فيه هذا الاستنصار وقامت فيه تلك المدافعة . وخرجت روابط بلاط الحبشة مع العالم عن الإطار اليمنى وعن النطاق اليمني ، وامتدت بصفة مباشرة دون وساطة يمنية إلى الشمال حيث كنيسة الإسكندرية مقر الرئاسة الروحية للحبشة ، وتوغلت بعد ذلك حتى بلغت القسطنطينية . وأصبح البحر الأحمر واليمن وتهاماته حلقة الوصل بين الحبشة والمراكز الدولية التى تتعامل معها . وتطلع نجاشيو الحبشة للسيطرة على هذه الحلقة ووجدوا الذرائع لتنفيذ تطلعاتهم . تذرعت الحبشة بحماية النصارى العرب ضد اليهودية ، كما تذرعت بدحض الوثنية لصالح الوحدانية اليعقوبية فشنت الحملات على اليمن ، وأيدتهم بيزنطة ، تأكيداً لتعاضدها مع النصرانية اليعقوبية ، و إتلافاً للاقتصاد العربى لصالح الاقتصاد البيزنطى الذى تطلع للسيطرة على دروب التجارة عبر بلاد العرب .

لم يكن أكاسرة فارس ، القوة الدولية الأخرى فى العالم ، بمعزل عما يجرى فى نطاقهم الأمنى على مشارف البحر الأحمر . فتدخلت فارس ، القطب الآخر فى السياسة العالمية وقتها ، لصالح الأقيال ومعتقداتهم وتراثهم حتى لا يختل التوازن الدولى بسقوط اليمن فى دائرة الأباطرة . وحين قامت الجيوش الحبشية للتمكين للأهداف الحبشية البيزنطية الدينية وتحقيق الربط الجغرافى والسياسى والاقتصادى بين القسطنطينية وأكسوم عبر بلاد العرب وسواحل البحر الأحمر تدخلت فارس لصالح اليمن بمعارضة هذا الاتجاه . وهجرت اليمن نشاطاتها السلمية فى الزراعة والتجارة ودخلت إلى مرجل الصراع الدولى . وعصفت اتجاهات السياسة الدولية بالتجانس السياسى والاقتصادى الذى ساد العلاقات اليمنية الحبشية دهراً ولكنها أدت – فى نفس الوقت – لتوثيق الروابط الحضارية والثقافية ، وتأكيد الروابط العرقية بين المنطقتين . أدّت الحملات الحبشية على اليمن إلى زيادة فى أعداد الأحباش فيه غذّتها بعدئذ هجرات

حبشية واسعة تدفقت إثر الانتصارات الحبشية في اليمن للمساهمة فى حياة اليمن الاقتصادية والإثراء فى تلك المنطقة القريبة الصلة والشقة من أوطانهم . وأرسى السادة الأحباش فى اليمن دعائم هيمنة ثقافية طاغية حين انتصروا لنصارى العرب ضد طغيان الوثنية واليهودية . ولعلنا نلاحظ أن رقعة الأثر الثقافى الحبشى ما كانت تتقلص إنما تزداد مساحتها وتتسع كلما تعرضت الحملات الحبشية على اليمن إلى النكسات ، أو الدول الحبشية فى اليمن إلى الانهيار . يتفرق الجنود الأحباش المهزمون بين القبائل أسرى مستضعفين ، وتزداد بذلك أعداد الحبش فى القبائل حين تضاف أعداد الجند المهزومين إلى أعداد الرقيق الحبش المجلوب بالشراء . يأخذ الجند الحبشى فى الانتشار القسرى بين القبائل بعد أن لفظتهم مراكزهم التى كانوا يحكمون منها . ولما كان رق العرب لا يزيد عن كونه استثماراً قسرياً للجهد الانسانى ، فقد عاش الرقيق الحبشى والمستضعفون من الأحباش فى أوساط سادتهم الوثنين ، وكانوا – فى مجملهم – بحكم نصرانيتهم أكثر رقياً روحياً من السادة الذين ما كانوا يضعون اعتباراً كبيراً لمعتقدات الرقيق الروحية . وهنا يمكن أن نجد التفسير لاستجابة المستضعفين السريعة لنداء السماء وتأييده والانتصار له ما أن أعلنه الرسول صلى الله عليه وسلم . كانت استجابة سريعة للحق من المستضعفين الذين حملوا مبادىء الحق ، أما السادة فقد كانت روح التغيير فيهم خامدة بليدة بلادة أوثانهم التى وجدوا أنفسهم لها بالوراثة عاكفين . وعليه فلا ريب أن كان الأحباش المستضعفون ، والقبائل اليمنية التى كانت أكثر تفهماً لثقافتهم ، السبّاقين إلى الاسلام . ولا تثريب علينا اعتبار الحبش ، قبل العرب ، مادة الاسلام .

كان صدر ثويبة الحبشية أول صدر شرف بضم محمد الرضيع اليه بعد صدر أمه وكان لبنها أول زاده فى هذه الدنيا . أما أول من بشّر الدنيا بمبعثه صلى الله عليه وسلم فقد كانوا رهطاً من الأحباش تبينوا – بحكم ثقافتهم الدينية – فى محمد الطفل دلائل النبوة ، ونازعوا فيه مرضعته حليمة السعدية التى عادت الى أم الرسول لتعلمها الخبر الذى كان الأحباش أسبق معرفة به من أمه العربية وعشيرته الأقربين . وكانت أم أيمن الحبشية ، أم محمد كفلته بعد أن فقد أمه . وأبلغ من ذلك كله أن أرض الحبشة ، كانت قبل أرض شبه الجزيرة العربية ، الأرض التى عبد المسلمون فيها ربهم دون توجس أو وجل ، وكانت أرض الهجرة قبل يثرب من أرض العرب . أما النجاشى ، فقد كان دون سائر زعماء العرب والعجم ، أول زعيم فى العالم يحمى

بيضة الاسلام ، ويقوم مدافعاً عن المسلمين المستضعفين حين لاحقتهم قريش إلى أرض الحبشة . وفقدت السيدة سمية حياتها ثباتاً على كلمة الاسلام . ولا يزال دم مهجع الحبشى ، أول دم مسلم يراق فى أول حرب شنها الكفار على المسلمين ، يسرى فى عروق كل مسلم يحرضه على الشهادة والحياة فى رحاب الله . وقد حارب الأحباش النصارى مشركى العرب فى صفوف المسلمين فى معركة أحد ولم يبخلوا بنفس أو بمال . ولم يعرف التاريخ أكثر صحبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم من بلال رضى الله عنه مؤذن المسجد الذى كان الرسول صلى الله عليه وسلم إمامه فكان يلقاه – على أقل تقدير – فى الإقامة والصلاة خمس مرات فى اليوم والليلة ، وكثيراً ما كان يُرى رضى الله عنه مظللاً للرسول بستارة من وهج الظهيرة . ولا يشك المسلمون فى أن بلال هو رفيق الرسول (ص) فى الجنة كما ثبت بالأحاديث الشريفة ، وبما نعرف من عطائه وبلائه فى الإسلام . أُبتلى رضى الله عنه بالضرب حتى تمزق جسده وسال الدم من جراحه على الأرض المرمضة ، ولم يمسك قط – وهو على تلك الحالة – عن ترديد كلمة التوحيد : أحد ، أحد ! كان بلال ، دون سائر العرب والعجم ، أول من اعتلى الكعبة الشريفة منادياً :

الله أكبر

الله أكبر

أشهد أن لا إله إلا الله

أشهد أن محمداً رسول الله

حي على الصلاة

حي على الفلاح

الله أكبر

الله أكبر

لا إله إلا الله

ولا يزال كل من يسمع الاذان يرفع فى كل زمان وفى كل مكان يرجع به – كما يقول العقاد – إلى أول من نادى به من أجيال وأجيال ، ولا يزال المؤذنون يتوارثون ذلك اللحن الأفريقى النابع من سليقة بلال الأفريقية الأبدة .

قضت الحكمة الإلهية إن ينتصر الاسلام بجهود سائر الأعراق ، الأفريقية منها والآسيوية والرومية . ولم يكن اجتماع جهود بلال الإفريقى فى نصرة الاسلام إلى جهود كل من سلمان الفارسى ، وصهيب الرومى ، وأبى بكر العربى ، صدفة تاريخية إنما كان ذلك بتدبير إلهى يدركه المؤرخون المسلمون ، وإن تشكك فيه غيرهم . وساد التراحم علاقات الأعراق فإذا هم جسد واحد مهما تباعدت أوطانهم ، وتباينت أزمانهم .

سادت ظلال هذه العلاقة المجتمعات التى عاشت فى منطقة الطراز الاسلامى التى لم تكن إسلامية النشأة إنما ترجع نواتها إلى دهور بعيدة من التعامل بين الساحلين الأفريقى والآسيوى . ومما لا شك فيه فإن الهجرة من شبه الجزيرة العربية لمنطقة الطراز أصبحت أكثر تواتراً وأبلغ أثراً بعد ظهور الاسلام فنزلت بالمنطقة عناصر جديدة أدت إلى قيام مراكز استيطان جديدة . وازداد بعدئذ وقع حركة الهجرة . وخرجت إلى السواحل الأفريقية جماعات مسلمة تضاربت مصالحها السياسية أو مذاهبها الدينية مع الدول الإسلامية القائمة ، هذا بالإضافة إلى طائفة كبيرة من المسلمين خرجت فى طلب الرزق من التجارة والأعمال المرتبطة بها . وازدهرت المجتمعات الاسلامية على تلك الأرض الأفريقية ازدهاراً اقتضاه التطور الطبيعى من الاختلاط السلمى بين الجماعات وتبادل المصالح . ولا نعرف لأية دولة اسلامية قائمة فى الفترة التى نعالجها نشاطات لضبط تلك الهجرة أو لتنظيمها فضلاً عن عدم توجيه أية حملات عسكرية لنصرة المسلمين فى تلك الأرض أو لتنفيذ سياسة إسلامية بعينها أو غير ذلك مما كانت تفعله الحكومات الحبشية فى نصرة النصرانية فى الفترة السابقة لظهور الإسلام .

ثبتت جذور الإسلام فى هذه المنطقة الطرازية وتشعبت منها فروعه بفضل الخاصية الحركية الذاتية التى يتمتع بها الدين الاسلام ، دين الفطرة . خاطب الاسلام فى الفرد الحبشى السمو الروحى المأثور عنه الذى صقلته فيه نصرانية موّحدة . واستجاب الأحباش فكان الانتشار الاسلامى فى المنطقة انتشاراً انسيابياً ذاتياً ولم يكن انتشار دعوة نسقّها تنظيم ، أو تعهدها حاكم ، أو ساندتها دولة إسلامية قائمة . وكان لغياب هذه المؤسسات إيجابياته التى تمثلت فى أن انتشار الاسلام لم يتم قسراً أو إكراهاً إنما عن رضى وقناعة من الجماهير . وكان لهذا الأمر أيضاً سلبياته أيضاً . ولعل من أخطر تلك السلبيات أنه لم يكن هناك رابط يربط بين تلك المجتمعات الإسلامية يوجه سياساتها وجهة مشتركة فظلت متفرقة لا يربطها رابط ، يتصرف كل

رئيس منطقة وفق أهداف لا تأخذ فى اعتبارها مناصرة المناطق الاسلامية الأخرى ، وقد يمتد ذلك التصرف إلى الاضرار بمصالح المسلمين المجاورين والتحالف مع القوى الأخرى ضدهم . وكان من نتيجة ذلك أن تدخل ملوك الأمحرة الذين تحالفوا مع بعض الأسر التى ورثت المناصب الكهنوتية فى الكنيسة اليعقوبية فى سياسات تلك الممالك الإسلامية ، وسيطروا عليها ، وعمدوا إلى تنصير السادة ورعيتهم فى المناطق الاسلامية . ثم ما لبثت الصليبية الدولية ان شجّعت هذا الاتجاه فى الحطى والأسر الكنسية وأيدّته بالدعم المادى والمعنوى حتى ظنّ الحطى فى نفسه حامياً لحمى كنيسة الإسكندرية مدافعاً عن حقوق الأقباط فى مصر . وأخذ الحطى يحاول جاداً التدخل فى السياسة الداخلية لمصر بحجة الانتصار للأقباط . وأخذت الحبشة النصرانية تتطلع إلى سياساتها القديمة حين كانت ترسل الجيوش لنصرة النصرانية فى اليمن وتقيم الدول هنالك . فات ملوك الأمحرة أن معطيات عصرهم قد تبدلت عما كان عليه الحال سابقاً ، وأن المجال الأقليمى للحبشة الذى كان أقل من الحبشة النصرانية حظاً فى القوة والثقافة قد تبدل ارتقى عسكرياً وثقافياً فما عاد المجال الذى يمكن لهم أن يؤثروا فيه إلا بقدر غير مذكور . وعليه فإن محاولات ملوك الأمحرة اليائسة فى التنسيق مع الصليبية العالمية لم تصب أى نجاح فى مصر أو شبه جزيرة العرب أو غير تلك الأراضى من النطاق الإقليمى المسلم . أما على النطاق المحلى فقد تمخضت هذه السياسات وأنتجت إضطهاداً مشيناً ضد تجمعات مسلمى الحبشة وأمرائهم ، مارسه عليهم الملوك السليمانيون الذين كانت لهم أهدافهم المقررة فى العمل على تنصير انسان الطراز المسلم لكسر الطوق الاسلامى الذى أحاط بمداخل الحبشة الشرقية فالشمالية ثم الغربية . وكانت تلك السياسة الصليبية سياسة قاصرة لم تأخذ فى اعتبارها وجوب العمل على التعايش الثقافى وتوثيق الوحدة الوطنية . فحين ينكسر الطوق الإسلامى المحلى فى الحبشة لن تنفتح الحبشة إلا على دائرة أخرى إقليمية هى بدورها أيضاً مسلمة . وتمتد تلك السياسة القاصرة للتطلع للتعامل مع العالمية المعادية للإسلام فى المنطقة ولكنها لم تحقق الأهداف أيضاً . وقد برهنت كل حوادث التاريخ على أن رفض التعاون مع النطاق الأقليمى تطلعاً للتعاون مع النطاق العالمى لا يورث المنطقة المعيّنة إلا التعارض الأقليمى ، ولا يؤدى إلا إلى تضارب السياسات المحلية تضارباً يودى بالمنطقة الى الحروب الاقليمية . ولن تفيد من تلك الحروب إلا القوى العالمية التى تعمل على تثبيت أرجحيتها وتحقيق أهدافها . جنح الملوك الأمحريون وقادتهم من البطارقة

إلى الخروج عن روح التعايش السلمى محلياً واقليمياً وعلى المبادىء والمثل التى كانت تظلل الأرض الحبشية قبل قيام دولتهم السليمانية .

عمد المسؤولون فى الدولة السليمانية الحبشية إلى الحرب ضد المسلمين الوطنيين وذلك تحقيقاً لمصالح قبلية بعينها وأخرى مادية نفعية تعود بالثراء على بعض أسر القساوسة . ولم تكن سياسة القتل والقهر والتعسف التى مارسها ملوك الأمحرة ضد المجتمعات الإسلامية المحلية سياسة ناجعة . فالثابت أن تلك المجتمعات لم تقم نتيجة لحرب حتى تزول بالحرب ، إنما هى مجتمعات محلية أصيلة قامت على ثقافة إسلامية لا يزيدها الحرب إلا رغبة فى الجهاد وتلبية للانتصار للحق . لم تكن تلك المجتمعات مستعمرات أو مناطق استيطانية معزولة يمكن أن تستجيب للتهديد والحرب وتزول ويرجع أفرادها من حيث أتوا ، إنما كانت مجتمعات مسلمة عربية حبشية هجين انصهرت عرقاً وثقافة وتاريخاً وواقعاً . لم يسع العرب الذين حلوا تلك الأرض قبل الإسلام وبعد ظهوره إلى عزل أهل النطاق الأفريقى أو إقامة مستوطنات تقتصر عليهم دون العنصر المحلى . لم تكن مثل هذه السياسة فى الفصل العنصرى واردة فى الفكر العربى الجاهلى أو الاسلامى ، وهى بعدُ سياسة لم يعرفها العنصر الأفريقى فى ماضيه ولا حاضره . ولهذا فقد أصبحت تلك المجتمعات مجتمعات أصيلة حبشية عربية هجين ، تنتهى إلى الاسلامية ، وقام التفاعل بين أفرادها وجماعاتها على التراضى والقبول . وانتهى الأمر إلى بناء مترابط من الانصهار العرقى والحضارى يقوى ويشتّد بتواتر تبادل مفردات العنصر والثقافة واللغة والتراث حتى انتهى أخيراً إلى كيان محلى أصيل ، موطّد الأركان ، ما كان يمكن لأولئك الملوك اقتلاعه أو تدميره .

حققت حروب الملوك السليمانيين ضد الدويلات الإسلامية فى الحبشة نجاحاً مؤقتاً وذلك لتفرق كلمة تلك الدويلات ، وعدم اجتماعها على هدف دينى أو سياسى ، وانعزالها عن نطاق الأقليمى الإسلامى ، وانشغال هذا النطاق عنها . لم يكن تلك الدويلات الإسلامية تمارس السياسة ، ولم يكن سلاطينها يعرفون شيئاً عن أصولها . فهى لم تزد عن كونها مجتمعات تجارية استثمارية أخذ كل مجتمع منها شكل الدولة ، ومارس رئيسها الذى وصل الى سدة الرئاسة ، لنسبه أو حسبه أو تراثه ، دور السلطان . ولم يمتد تفكير مثل هذا السلطان فى مثل هذه المجتمعات ولا تدبيره لأكثر من الربح والتجارة . اقتصرت مهمة الجند فى تلك الدويلات على

حماية المدن التجارية ، وفتح الطرق ، وخفارة القوافل التجارية فيها ، ولم يكن مثل هذا الجند جند سيادة إنما كان جند حراسة . لم يعرف أولئك السلاطين المسلمون التعاون المشترك سبيلاً للحفاظ على سيادتهم والخروج من دائرة التعسف التى أدخلهم فيها ملوك الأمحرة وقساوستهم . واتّضح – تحت نير الاضطهاد – أن تلك المستوطنات الإسلامية لم تكن إلا "قبائل تجارية" محلية متنافسة لا تربطها ببعضها البعض أخلاقيات التناصر إنما تفرق بينها فى الغالب أخلاقيات التحاسد . تتسابق السلاطين المسلمون فى المنطقة إلى بلاط ملوك الأمحرة يسترضونهم بالتحالف معهم وبالعمل على تحقيق غاياتهم ، بل ربما استعدوهم أحياناً على السلاطين الآخرين المجاورين لهم وذلك ابتغاء تحقيق هدف نفعى سريع . واستخدم ملوك الأمحرة سلاطين المسلمين بعضهم ضد بعض حتى انهارت قوتهم الواحد بعد الآخر ثم أتت قوة ملوك الأمحرة والقساوسة لتقضى على القوى الإسلامية تماماً وتصدت بعدئذ لتنصير المنطقة أو لقطعها عن إرثها الاسلامى على أحسن الفروض .

أصبحت طبقة الحكام فى ممالك الطراز الاسلامى طبقة معزولة فى بلادها ، فهى لم تكن تستطيع أن تصل إلى سدة الحكم إلا بموافقة الحطى ، ملك أمحرة ، ولا تلتزم إلا بما يريده ذلك الملك ، ولم يعد لهؤلاء السلاطين من عمل فى عيون ذويهم الا "خراج البلد يأكلونه." ولفّ الهوان أولئك السلاطين المسلمين حتى أصبحوا يقدمون بناتهم للملك والبطارقة لتنصيرهن حتى يتم زواجهن من الملك ورجال بلاطه . وكان هذا التدبير من خطط ملوك الأمحرة وأسلوباً لاختراق الأسر الحاكمة فى المناطق المسلمة لخلق تجانس ثقافى وصولاً إلى تثبيت مصالح الحطى وقساوسته فى تلك الأرجاء . ولم يبق للسلاطين الذين ضحوا ببناتهم إلا استشعاراً سلبياً لموروثاتهم الدينية حيث يعتبرون بناتهم فى عداد الأموات فيكفنوهن ، ويصلون عليهن صلاة الجنازة ، ثم يسلمونهن لمن ينصرهن تحقيقاً لمصالح أسرية لا تمت للدين بصلة . ولا يعرف التاريخ هواناً لحاكم أبلغ من اعترافه "بموت" ابنته موتاً أسهم فى إحداثه ثم لا يثأر لها سوى بصلاة رمزية لا يعرفها الدين ولا يقرها العرف . ولربما تدلنا مصائر بنات الحكام – وقد حفظت لنا المصادر أخبارهن – على مصائر بنات الرعايا وما يمكن أن يكن قد لاقينه من ذل وهوان من دولة استغل حكامها وقساوستها الدين لتحقيق مكاسب دنيوية .

بلغ الاضطهاد الأمحرى السليمانى للمسلمين الأحباش ذروة سنامه ، وعانت مناطق الحبشة

المسلمة معاناة جعلها تمج حكامها المسلمين إسماً لا فعلاً . ماتت في أولئك الحكام كل القيم الإسلامية التي تحضّ على الجهاد لرفع الظلم عن المظلومين ، وحماية الرعية ، والانتصار للحق حماية للتراث وحفاظاً على الإرث الحضاري . وزهد المحكومون في أولئك الحكام فانصرفوا عنهم ليجتمعوا عند راية أحمد بن ابراهيم الجران ، أحد مسلمي الصومال . وكان الرجل قد اشتهر بفروسيته وعدله وتقواه وغيرته على القيم الإسلامية والانتصار للحق حتى لقّبه العامة بإمام المسلمين .

سارت القبائل الصومالية تحت راية أحمد بن ابراهيم ، وتبينت القبائل الحبشية المسلمة صدق دعوة أحمد فتحالفت معه وخرجت عن طوق حكامها وحكامهم وانتظمت تحت رايته طوعاً واختياراً . ودخلت الحبشة في سلسلة من المعارك انتهت بانتزاع الملك من ملوك الأمحرة السليمانيين وقيام إمامة الحبشة . واستعادت مناطق الحبشة الإسلامية دينها . وأخذ الكثير من نصارى الأحباش يدخلون إلى الإسلام الذى تبين لهم أمر دعوته بعد أن وصل إليهم في مناطقهم مع الفقهاء الذين كانوا يسيرون في ركاب الإمام ، وفي المعاملة التي وجدوها من الجيوش الاسلامية المنتصرة . وهجر الكثير من الأحباش غير المسلمين معتقداتهم بعد أن تبين للقبائل الحبشية النصرانية والوثنية منها على حد سواء ، أن الإسلام ليس دين طبقة كهنوتية يتوارث أفرادها وظائفه ، ولا دين قبيلة دون غيرها يقصر على أفرادها الحق في الملك والحكم . وأدركوا أن الإسلام مجتمع مفتوح يكفي الفرد أن ينطق بالشهادتين ويعمل بموجبهما ليصبح عضواً كامل العضوية في المجتمع ، ترفعه قدراته إلى أعلى مراتب الدولة في مدارج الحكم ، ومراتب التعليم والإفتاء . وتبينت القبائل غير المسلمة التي دخلت في إمامة الحبشة أن الفرد غير المسلم لا يخرج عن دائرة المواطنة ما أدى الالتزامات التي عليه للمجتمع المسلم ، وما لم يخرج على الإمامة بعدوان وظلم وقتال .

عاش مجتمع الحبشة تحت الإمامة وهو يدرك أن لا اكراه في الدين ، ولا اضطهاد للمعارضين ، ولا عدوان إلا على الظالمين . وانهارت سلطة ملوك الأمحرة السليمانيين في فترة زمنية وجيزة ولم تقاوم ، فقد كانت حكومة طبقة مميزة ، نفعية ، معزولة عن المجتمع الحبشي بكافة ملله وأديانه . وانتظمت الحبشة كلها تقريباً ، أو جلها ، تحت إمام واحد ، وحكومة واحدة ، وإدارة لا تقوم على العصبة الأسرية . فأمن الانسان الحبشي على معتقداته وتراثه ومقدّراته من التعدى

والظلم والاضطهاد . ووجدت الثقافة الإسلامية مناخ الحرية فأخذ الدين الاسلامى ينتشر فى أوساط الأحباش بسرعة وتلقائية وعفوية ، وأخذت الحبشة بمختلف أديانها ومعتقداتها تتطلع إلى عصر حضارى جديد .

تعلم المسلون من الإمام وفقهائه ، وأدرك غير المسلمين ، بعدئذ ، أن وظيفة الحرب فى الإسلام رفع الظلم ، فهى لا تشن من أجل الحصول على المكاسب الدنيوية "وجمع البرازين" . وعرف المجتمع الحبشى أن لدم الانسان – على اختلاف قبائله كله – حرمة فلا يراق الا بحقه . وتعلم الناس عملياً أن طاعة الحاكم رهن بطاعته لله وأنه واحد منهم لا يجوز تعظيمه بالسجود بين يديه ، فالعظمة شأن الخالق وحده لايشاطره إياها ملك أو بطريق أو فقيه ، مهما ارتفع شأنه في سلم الوجاهة الاجتماعية .

وبرزت الحبشة بعد قيام الامامة مجتمعاً متكاملاً منتظماً فلا خمر ولا فسوق ، ولا رذيلة تمارس علناً كما كان الحال سابقاً ، وبرزت منذ تلك الفترة هرر مركزاً للتعليم الدينى تنشر الفقه الإسلامى وأصوله ، ليس فى الحبشة ولا الصومال فحسب ، إنما فى شرق افريقيا بعامة . وربط علماء هرر وغيرهامن المناطق الحبشية المسلمة مناطقهم بمكة المكرمة والمدينة المنورة وغيرها من مراكز العلم والثقافة فى العالم الإسلامى التى عمروها طلاب ومدرسين .

اخذ مجتمع الإمامة يتفوق على نفسه فى مجالات الصناعة قياماً بالضرورات الحربية ، كما ازدهرت الحركة التجارية حين أصبحت الدروب آمنة محروسة تعمرها وتتدفق فيها التجارات الآمنة من كل صوب . ولم تشهد الزراعة ازدهاراً مماثلاً فقد عانت من جراء الحرب التى صاحبت قيام الإمامة ، وويلات الحروب التى شنها البرتغاليون وفلول الجيوش الملكية على الإمامة بعدئذ ، فلم يتمكن المزارع من الاستقرار، ذلك رغم أن الإمامة عملت على إعادة توطين السكان المهجّرين بواسطة الملكية سابقاً.

أخذت إمامة الحبشة تتطلع بثقافة المجتمع الإسلامى إلى عهد جديد من التعايش بين الأعراق والثقافات محلياً ، والتأقلم مع محيطها الإقليمى الإسلامى . ولم تمهل الصليبية العالمية الإمامة لإتمام التغيير الذى لم تكن جذوره قد ثبتت بعد. بعثت الصليبية الدولية الملكية السليمانية بعثاً جديداً . وفى ظل التشتت الإقليمى الإسلامى فى مواجهة الغزو الصليبى على امتداد البلاد

الاسلامية وعدم الثقة المتأصل بين الحكام المسلمين الذى حظر عليهم التعاون المشترك لدرء الأخطار انتصرت الملكية مرة أخرى فى الحبشة. وعادت الأمارات الحبشية المسلمة إلى سابق عهدها تلغ فى دماء ابنائها بضعفها وتفككها ، وتلقى من الاضطهاد ما يجعل أهلها يفرون من أرض الى أخرى لا يقرّ لهم قرار.

لم تكتف الصليبية العالمية ، بريادة البرتغال ، باضطهاد مسلمى الأحباش إنما تعدت ذلك الى اضطهاد النصارى الأحباش الذين أنكرت عليهم ملتهم اليعقوبية وعمدت الى تعميدهم لإدخالهم فى النصرانية من جديد بعد ان ينبذوا الهرطقة اليعقوبية ويندرجوا فى الكاثوليكية الغربية ! وتكشف هذا الصراع الأرثوذكسى الكاثوليكى . والصراع النصرانى المسلم ، والصراع بين طوائف المجتمع المختلفة عن ضعف الملكية السليمانية التى استعادت عرشها غير كامل . وحقق الاستعمار العالمى بهذا الوضع بعض أهدافه التى يسعى إليها . وكان التأثير الثقافى الاستعمارى فى الحبشة أبلغ ما يكون فى مجال العقيدة حيث انفتحت الحبشة لمذاهب نصرانية لم تعرفها فى تاريخها ، كما دخلت العديد من الممارسات الضالة فى صلب العقيدة الإسلامية فى المنطقة ، وانتشرت البدع حتى كادت ان تودى بأصول هذا الدين فى كثير من مناطق الحبشة . ولن تنكشف تلك البدع ما لم يتضامن المسلمون فى الحبشة لإحياء سنة السلف الصالح فى التمسك بالكتاب والسنة وتدارسها لمحاربة الشعوذة والدجل . وحين تجتمع الطوائف الإسلامية المنغلقة على نفسها ، وتعمل على دفن خلافاتها الوهمية . وتتجاوز فقه القشور الى أصول الفقه الإسلامى ، وينتشر الوعى الإسلامى الصحيح ، سيقدم الأحباش المعاصرون ، كما قدم السابقون منهم ، للبشرية مثالاً للتعايش الدينى والمذهبى يقوم على التسامح ويرتكز على حرمة حقوق الانسان الذى كرّمه الله ونصّ على ذلك صراحة فى كتابه الكريم ، كما ستجد الحبشة الرسمية دورها فى مجالها الإقليمى الذى يحكمه التعاون المخلص لتحقيق الأهداف المشتركة . ولن يجد الإستعمار العالمى الجديد منفذاً فى أرض تجعل من الرباط الثقافى والتعايش العرقى والدينى والمصالح المشتركة وعلاقات القربى والجوار منطلقاً إلى تحقيق الغايات المشتركة من حرية وعدل وإخاء ورخاء للانسان الأفروآسيوى . وستكون تلك رسالته لإنسان العالم الذى سيعلمه مستقبلاً – كما – علّمه فى الماضى – الثبات على معانى الحق والخير والجمال .

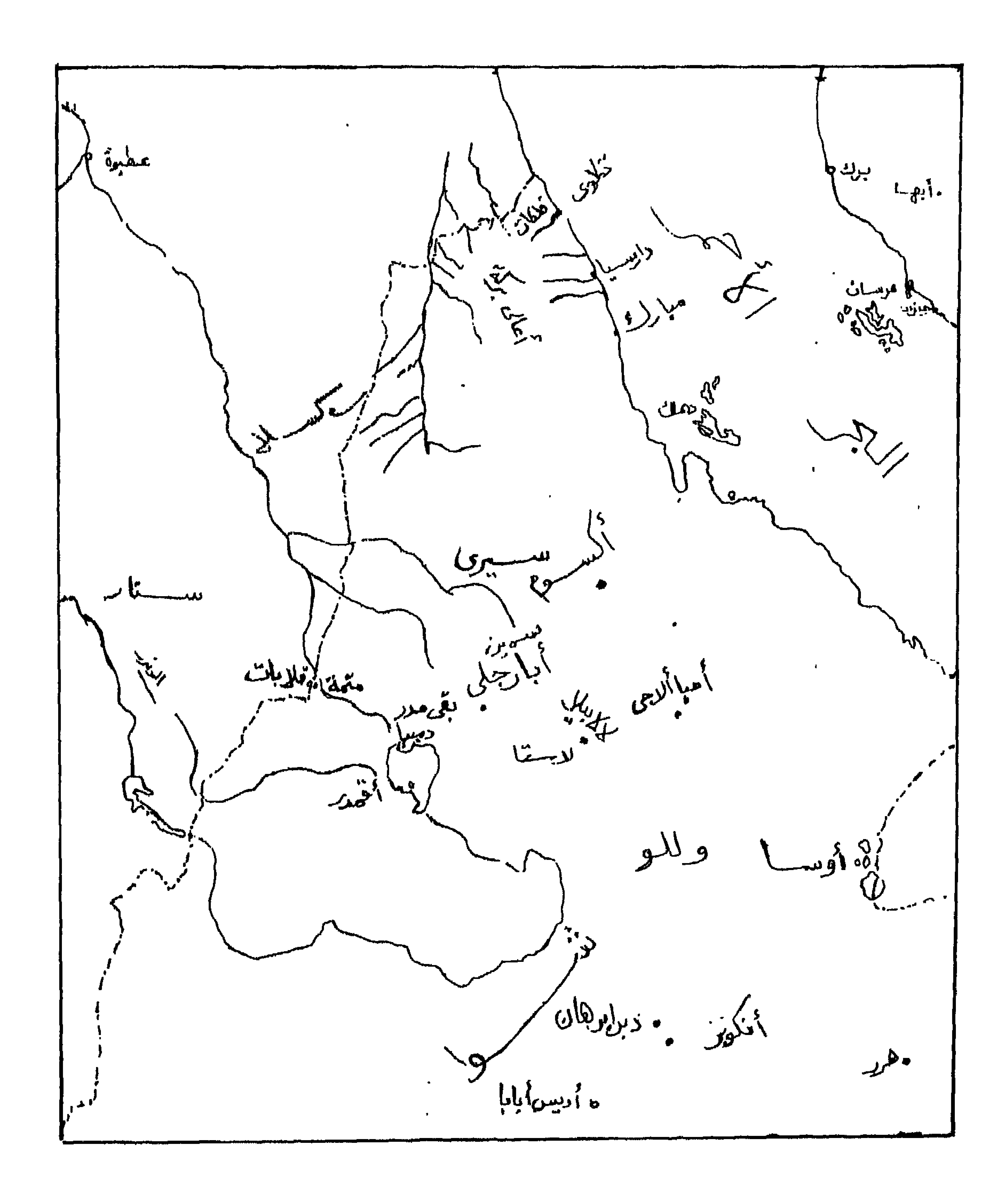
الملاحــق

- ملحق رقم ١ : المصورات
- ملحق رقم ٢ : أسماء المهاجرين الأوائل
- ملحق رقم ٣ : قوائم أنساب الأسر الحاكمة

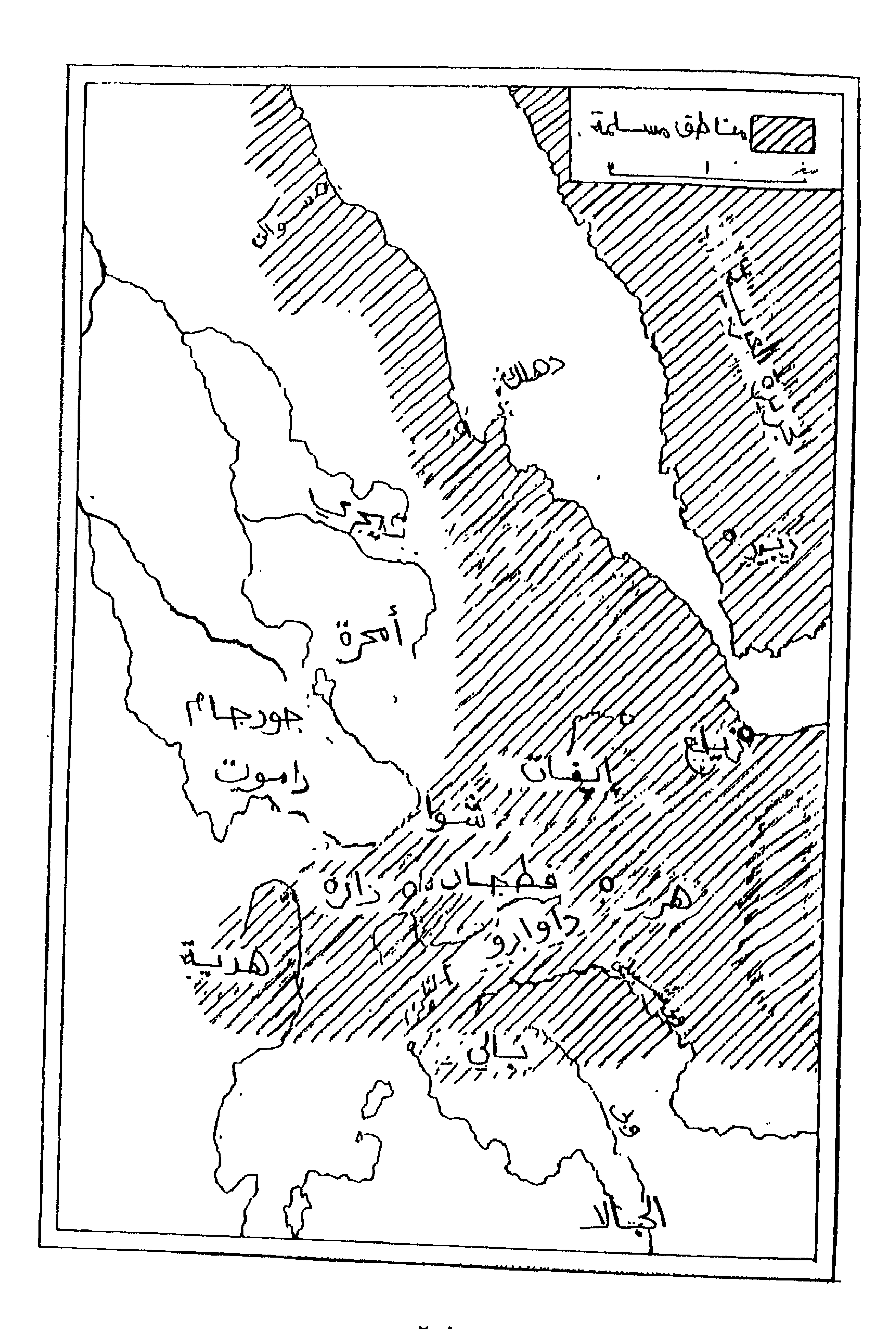
ملحق رقم (١)

أ - أهم المواقع في الحبشة

ب - الأرض المسلمة في اواسط القرن ١٤م.



عطبرة
خلاوى
برك
أبها
داسيا
مبارك
مرسان
دهلك
سيري
ستار
متمة
قلابات
أبارجلي
بقي مدر
دبيبا
أمبا ألاجي
لاليبالا
لاستا
أوسا
وللو
أنكوبر
دبرابرهان
هرر
أديس أبابا



مناطق مسلمة
دهلك
أمحرة
جورجام
راموت
إيفات
زيلع
شوا
فطجار
زارة
هرر
داوارو
هدية
بالي
الجبال

ملحق رقم (٢)

أ – أعضاء بعثة عثمان (رض) إلى الحبشة .

ب – مهاجرة الحبشة .

أعضاء بعثة عثمان بن عفان (رض) إلى النجاشى

عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت محمد (ص) والسيدة بركة الحبشية (أم أيمن)

أبو سلمه بن عبد الأسد وزوجته السيدة أم سلمه بنت أمية

أبو حذيفة بن عتبة وزوجته السيدة سهلة بنت سهيل

عامر بن أبى ربيعة وزوجته السيدة ليلى بنت أبى حثمة

أبو سبرة بن أبى رهم وزوجته السيدة كلثوم بنت سهيل

عبد الرحمن بن عوف

الزبير بن العوام

مصعب بن عمير

عثمان بن مظعون

سهيل بن بيضاء

سليط بن عمرو

حاطب بن عمرو

مهاجرة الحبشة

الأسود بن نوفل بن خويلد بن أسد ، وجعفر بن أبى طالب ومعه زوجته أسماء بنت عميس ، وولدت له هناك محمداً وعوناً وعبد الله . جهم بن قيس بن عبد ، وشرحبيل بن قاسم بن عبد مناف بن عبد الدار العبدرى ، ومعه إمرأته أم حرملة بنت عبد الأسود بن خديجة ، وإبنه عمرو ، وبنته خزيمة ، والحارث بن خالد بن صخر ، وأمرأته ريطة بنت الحارث التميمية ، وولدت له هناك موسى وزينب وعائشة وفاطمة . الحارث بن الحارث بن قيس بن عدى السهمى ، وأخوته أبو قيس ومعمر وسعيد والسائب وبشر ، وأخ لهم من أمهم أسمه سعيد بن عمرو ، وحاطب بن عمر بن عبد شمس بن عبد ود ، وحاطب وحطاب إبنا الحارث بن معمر الجمحى ، ومع حاطب أمرأته فاطمة بنت المجلل العامرى ، وولدت له هناك محمداً والحارث ، ومع حطاب أمرأته فُكَيهه بنت يسار ، وخالد بن سعد بن العاص ، وأخوه عمرو ومع خالد أمرأته أمينية بنت خلف بن أسعد بن عامر الخزاعية ، وولدت له هناك سعيداً وأم خالد ، ومع عمرو أمرأته فاطمة بنت صفوان بن أمية الكنالى ، وخنيس بن خذافة بن قيس بن عدى السهمى ، وأخواه عبد الله وقيس ، والسايب بن عثمان بن مظعون ، وعماه قدامة وعبد الله ، وسعد بن خولة حليف لبنى عامر بن لؤى ، وسعد بن عبد قيس بن لقيط بن عامر الفهرى ، وسفيان بن معمر بن حبيب الجمحى ، وأمرأته حسنة ، وإبناهما جابر وجنادة ، وإبنها شرحبيل بن عبد الله بن مطاع الكندى ، وسهيل بن بيضاء وهى أمه واسم أبيه وهب بن ربيعة الفهرى ، وسوييط بن سعد بن حرملة العبدى ، وشماش بن عثمان بن الرشيد المخزومى وإسمه عثمان أيضاً ، وطليب بن عمير بن وهب ، وعامر بن ربيعة ، وأمرأته ليلى العدوية ، وعامر بن أبى وقاص أخو سعيد ، وعبد الله بن جحش ، وأخوه عبيد الله ، وأمرأة عبيد الله أم حبيبة ، وعبيد الله بن سفيان بن عبد الأسد بن هلال المخزومى ، وأخوه هبار ، وعبد الله بن سهيل بن عمرو العامرى ، وعماه سليط والسكران ، وأمرأته سوداء بنت زمعة ، وعبد الله بن مخرمة بن عبد العزى ، وعبد الله بن مسعود ، والهمذلى ، وأخوه عتبة ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعتبة بن غزوان بن جابر المزنى ، وعثمان بن ربيعة بن أهبان بن وهب بن حذافة بن جمح ، وعثمان بن عفان ، وأمرأته رقية بنت النبى (ص) ، وعثمان بن عبد غنم بن زهير بن أبى شداد ، وعثمان بن مظعون ، وعدى بن فضلة بن عبد العزى العدوى ، وابنه النعمان ، وعروة بن عبد العزى بن حرتان العدوى ، وعمرو بن أمية بن الحارث بن أسد ، وعمرو بن أبى سرح بن أبى ربيعة ، وعمرو بن عثمان بن عمر التيمى عم طلحة ، وعمر بن ذياب بن حذيفة السهمى ، وعياش بن أبى ربيعة بن المغيرة المخزومى ، وعياض بن زهير بن أبى شداد ، فراس بن النضر بن الحارث بن كلدة ، وقيس بن عبد الله حليف بنى أمية بن عبد شمس ، وأمرأته بركة بنت يسار مولاة أبى سفيان

بن حرب ، ومالك بن ربيعة بن قيس العامرى ، وأمرأته عمرة بنت أسعد بن وفدان بن عبد شمس العامرية ، ومحمية بن جزء الزبيدى حليف بنى سهم ، ومصعب بن عمير ، والمقلب بن أزهد بن عوف ، وأمرأته رملة بنت أبى عوف بن صبيرة السهمية ، وولدت له هناك عبد المطلب ، والمقداد بن الأسود تبناه الأسود بن عبد يغوث فنسب إليه وهو المقداد بن عمرو بن ثعلبة ، ومعتب بن عوف بن عامر الخزاعى ، ومعمر بن عبد الله بن فضلة العدوى ، ومعيقب بن أبى فاطمة الدوسى حليف لبنى عبد العاص بن أمية ، وهشام بن أبى حذيفة بن المغيرة بن عبد الله بن عمز بن مخزوم ، وهشام بن العاص أخو عمرو ، ويزيد بن زمعة ، والأسود أبو حذيفة بن عتبة بن أبى ربيعة وأمرأته سهلة بنت سهيل ، وولدت له هناك محمد . وأبو سبرة بن أبى رُهم العامرى ، وأمرأته أم كلثوم بنت سهيل ، وإبن عمرو وأبو سلمة بن عبد الأسد ، وأمرأته أم سلمة بنت أبو أمية ، وأبو عبيده بن الجراح .

وقد اختلف فى عمار بن ياسر وعَّده بعض أهل السير منهم ، كما اختلف أيضاً فى هجرة زينب بنت جحش مع أخويها عبد الله وعبيد الله .

ملحق رقم ٣

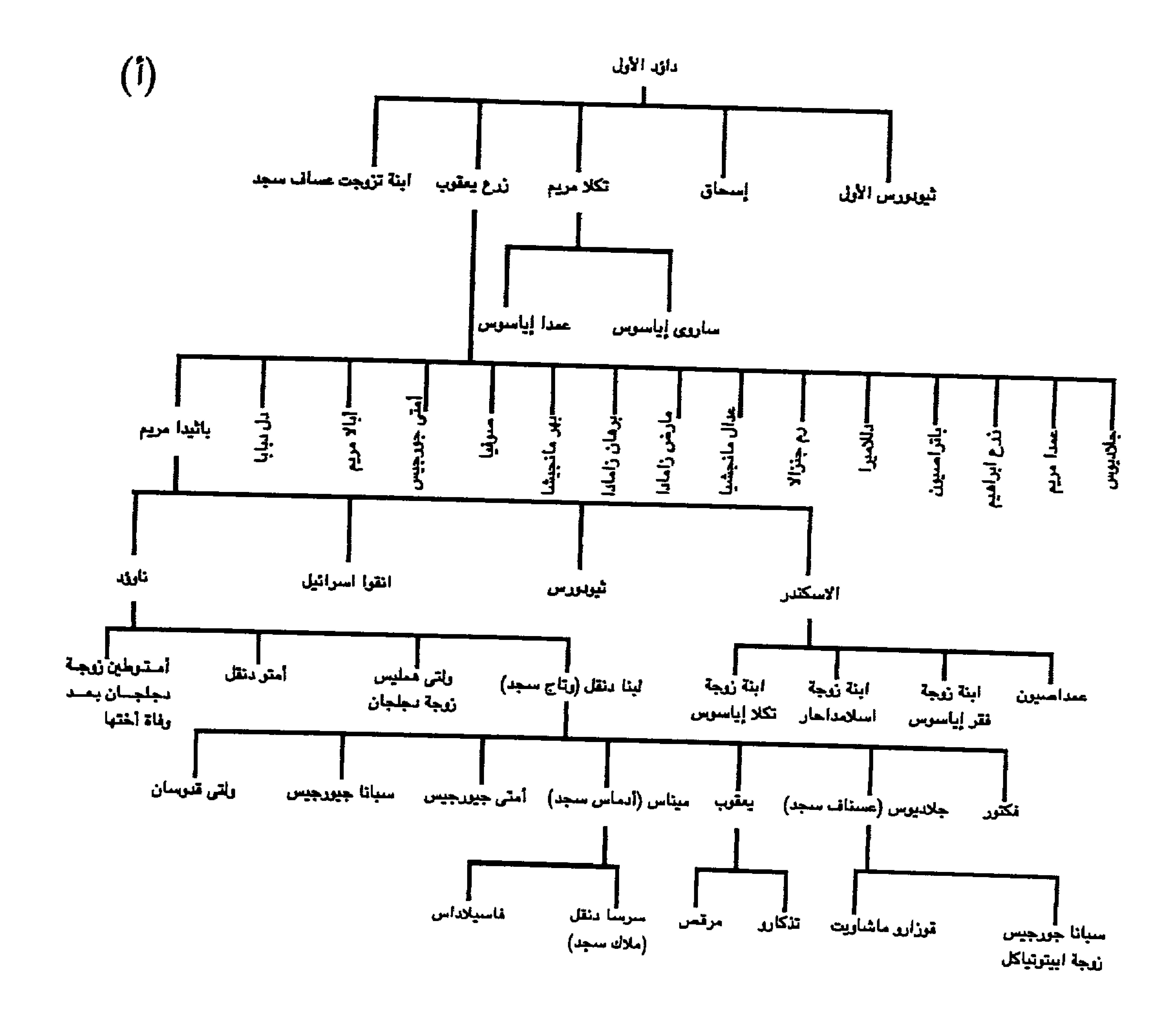
أ - أسرة داؤد الأول

ب - أسرة عمر ولسمع

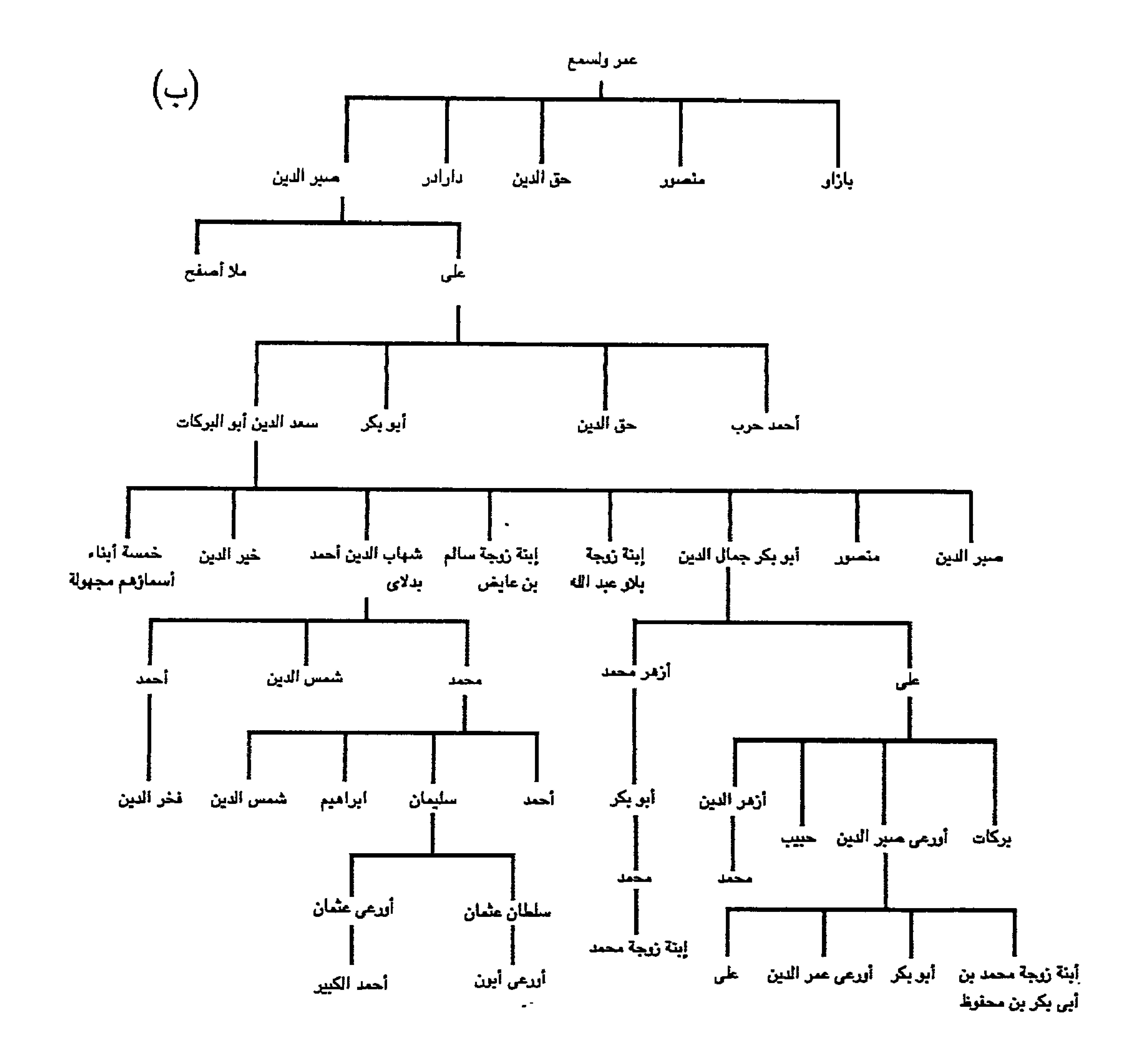
ج - أسرة الأمير محفوظ

د - أسرة الإمام أحمد بن ابراهيم

هـ - أسرة نور بن مجاهد

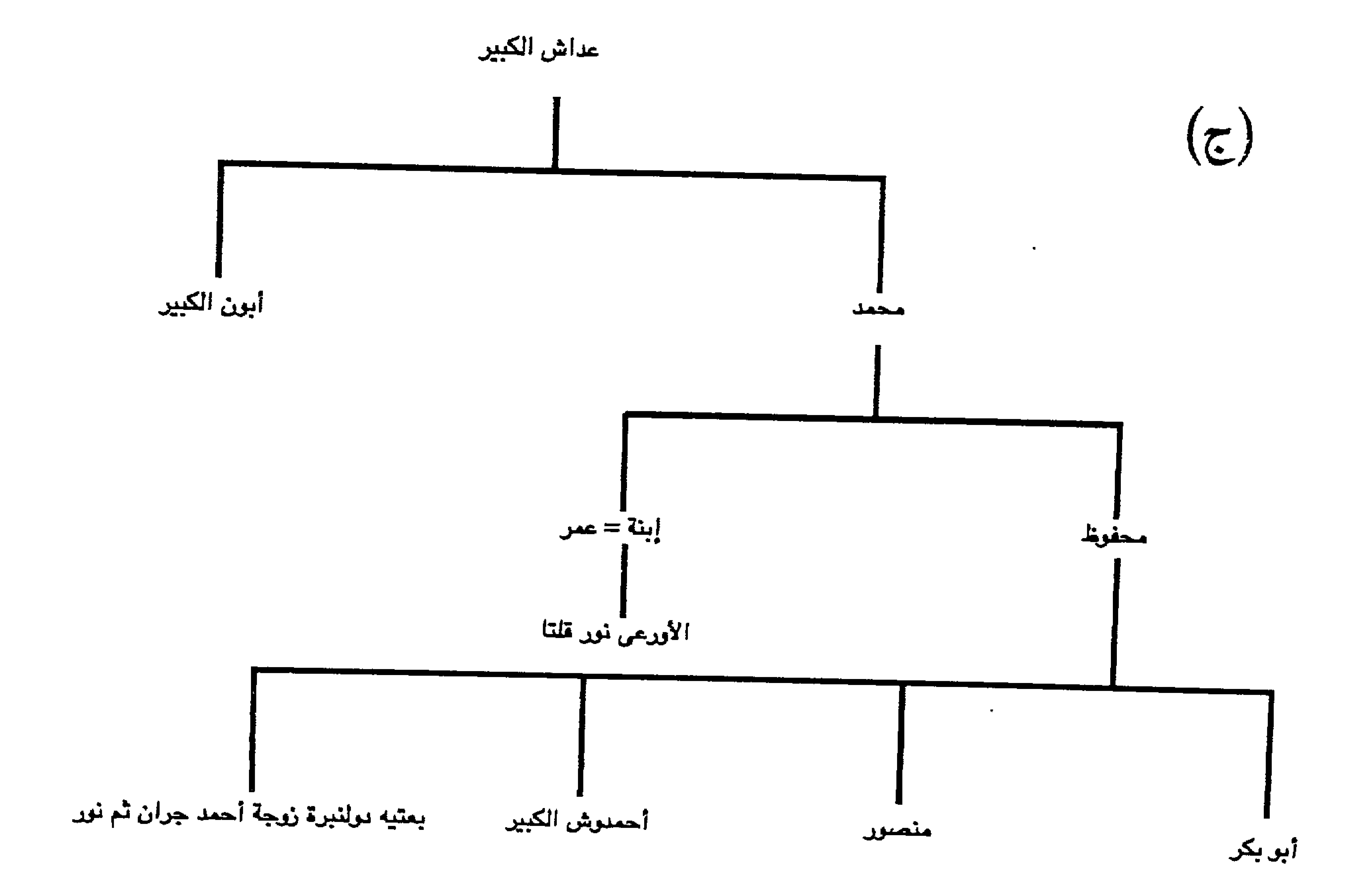

(أ)
داؤد الأول
ثيودروس الأول
إسحاق
تكلا مريم
زدع يعقوب
ابنة تزوجت عساف سجد
ساروى إياسوس
عمدا إياسوس
باثيدا مريم
دل دبابا
إبالا مريم
أمتى جورجيس
صرفيا
بهر مانجيشا
برهان زامادا
مارض زامادا
عدال مانجيشا
رم جنزالا
دللامبرا
باترامبون
ذرع ابراهيم
عمدا مريم
جلاديوس
ناوذ
انقوا اسرائيل
ثيودروس
الاسكندر
أمتوطين زوجة دجلجان بعد وفاة أختها
أمتو دنقل
ولتى هملبس زوجة دجلجان
لينا دنقل (وتاج سجد)
ابنة زوجة تكلا إياسوس
ابنة زوجة اسلامداهار
ابنة زوجة فقر إياسوس
عمداصيون
ولتى قنوسان
سبانا جيورجيس
أمتى جيورجيس
ميناس (أدماس سجد)
يعقوب
جلاديوس (عسناف سجد)
فكتور
فاسيلاداس
سرسا دنقل (ملاك سجد)
مرقص
تذكارو
قوزارو ماشاويت
سبانا جورجيس زوجة ابيترتياكل

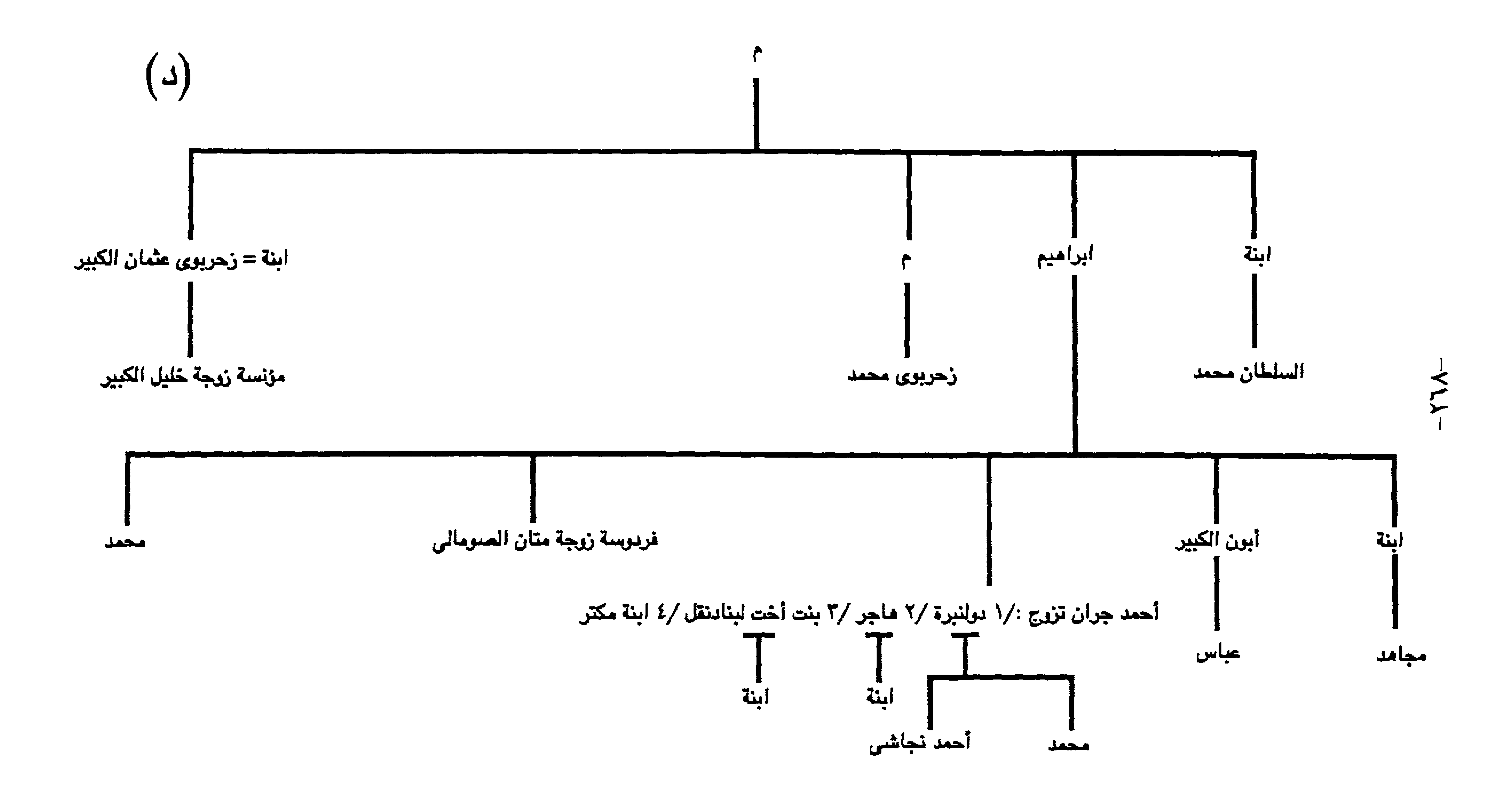
(ب)



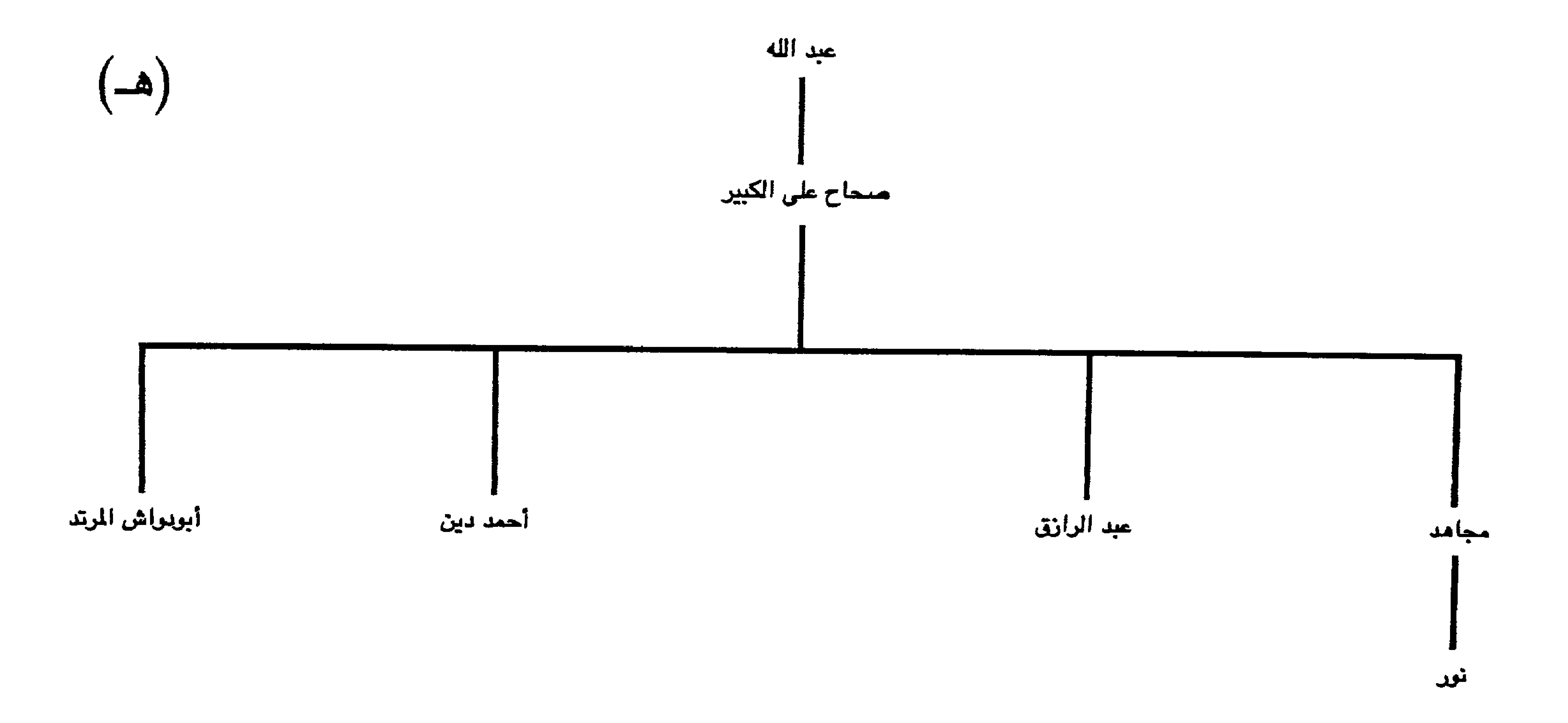
عمر ولسمع
بازاو
منصور
حق الدين
دارادر
صبر الدين
على
ملا أصفح
أحمد حرب
حق الدين
أبو بكر
سعد الدين أبو البركات
صبر الدين
منصور
أبو بكر جمال الدين
إبنة زوجة بلاو عبد الله
إبنة زوجة سالم بن عايض
شهاب الدين أحمد بدلاى
خير الدين
خمسة أبناء أسماؤهم مجهولة
على
أزهر محمد
محمد
شمس الدين
أحمد
بركات
أورعى صبر الدين
حبيب
أزهر الدين
أبو بكر
أحمد
سليمان
ابراهيم
شمس الدين
فخر الدين
محمد
محمد
سلطان عثمان
أورعى عثمان
إبنة زوجة محمد
إبنة زوجة محمد بن أبى بكر بن محفوظ
أبو بكر
أورعى عمر الدين
على
أورعى أبون
أحمد الكبير

(ج)


عداش الكبير
أبون الكبير
محمد
إبنة = عمر
محفوظ
الأورعى نور قلتا
بعتيه دولنبرة زوجة أحمد جران ثم نور
أحمدوش الكبير
منصور
أبو بكر


(د)
م
ابنة
ابراهيم
م
ابنة = زحريوى عثمان الكبير
السلطان محمد
زحريوى محمد
مؤنسة زوجة خليل الكبير
ابنة
أبون الكبير
فريوسة زوجة متان الصومالى
محمد
مجاهد
عباس
أحمد جران تزوج :١/ دولنبرة /٢ هاجر /٣ بنت أخت لبنادنقل /٤ ابنة مكتر
ابنة
ابنة
محمد
أحمد نجاشى

(هـ)


عبد الله
صحاح على الكبير
مجاهد
عبد الرازق
أحمد دين
أبوبواش المرتد
نور

محتويات الكتاب

كتب للمؤلف

١ - أصول الحضارات ، الخرطوم ، الدار السودانية للكتب ، ١٩٧١ .

٢ - أمراء وغزاة ، قصة الحدود والسيادة الإقليمية فى الخليج ، دراسة وثائقية ، لندن ، دار الساقى ، ١٩٨٩ .

٣ - بريطانيا وأمارات الساحل العمانى ، دراسة فى العلاقات التعهدية ، مركز دراسات الخليج ، جامعة البصرة ، ١٩٧٨ .

٤ - تاريخ الحضارات السودانية القديمة ، الخرطوم .

٥ - التوسع الاقليمى لايران فى أمارات الساحل العمانى ، مركز دراسات الخليج ، جامعة البصرة ، ١٩٧٨ .

٦ - حبال ودمى ، بداية العلاقات العربية الأمريكية ، الخرطوم ، دار الأصالة ، ١٩٩٢ .

٧ - حكومة الهند البريطانية والادارة فى الخليج العربى ، دراسة وثائقية ، الرياض ، دار المريخ ١٤٠١هـ .

٨ - السلام البريطانى فى الخليج العربى ، الرياض ، دار المريخ ، ١٤٠٢هـ .

٩ - سياسة الأمن لحكومة الهند فى الخليج العربى ١٨٦٨ - ١٩١٤ ، دراسة وثائقية ، الرياض ، دارة الملك عبد العزيز ، ١٤٠٢هـ .

١٠ - صراع الأمراء ، علاقة نجد بالقوى السياسية فى الخليج العربى ١٨١٠ - ١٨٧٠ ، دراسة وثائقية ، لندن ، دار الساقى ، ١٩٩٠ .

١١ - علاقة ساحل عمان ببريطانيا ، دراسة وثائقية ، الرياض ، دارة الملك عبد العزيز ، ١٤٠٢هـ .

١٢ - نجديون وراء الحدود ، لندن ، دار الساقى ، ١٩٩١ .

تحت الطبع :

علاقات الدولة السعودية القديمة بالحجاز وباليمن .

Printing,
Publishing
& Distribution

طباعة
ونشر
وتوزيع

الدار السودانية للكتب
Al Dar Al Soudania for Books

السودان - الخرطوم - ش البلدية - ص . ب ٢٤٧٣ ، ت: ٨٠٠٣١ / ٧٠٣٥٨ ، برقياً: توزيعدار

Sudan - Khartoum - Baladeya St., P.O. Box 2473, Tel. 80031 / 70358 Tele: TOUZIDAR